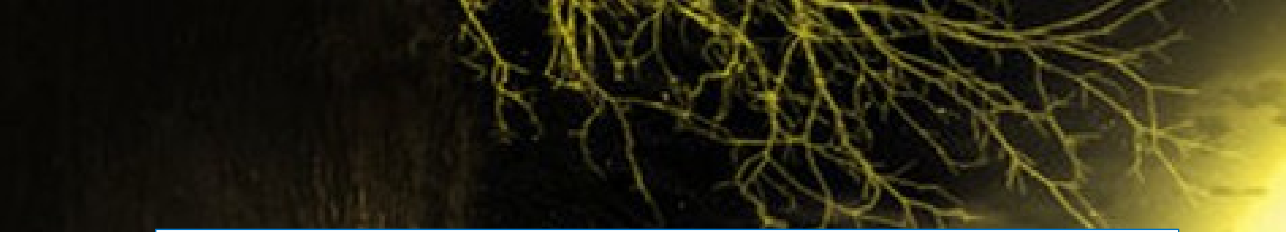

الإلحاد .. والدجل
(٧)
كيف تناظر ملحدا..؟
إحصاء لإشكالات الملاحدة .. وبيان لكيفية الإجابة عليها
د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يكون دليلا ومرجعا لكل داعية إلى الله، يريد أن يتصدى لظاهرة الإلحاد، قديمها وجديدها، ويخلف الأنبياء والأولياء عليهم الصلاة والسلام في القيام بدوره في حفظ الإيمان، وتبليغ رسالة الله، وتخليص البشر من كيد شياطين الإنسان والجن..

فالدعوة للإيمان، ومحاوره المجادلين فيه وفي قضاياه من أوكد الواجبات الشرعية على المسلمين جميعا، وخصوصا أهل العلم منهم، سواء كانوا من المهتمين بالعلوم الشرعية، أو بالعلوم الكونية، فكلاهما يحمل مسؤولية شرعية في مواجهة هذه الظاهرة، ما ظهر منها وما بطن.

ولهذا حاول هذا الكتاب أن يوفر الكثير من العناء لمن يريد أن يسلك هذا السبيل، ويمتهن هذه المهنة الشريفة ـ مهنة الدعوة للإيمان، ومواجهة شبهات الشيطان ـ وذلك بإحصائه للشبهات الكثيرة التي يستعملها الملاحدة، وتصنيفها، وبيان تقريراتهم المختلفة لها، ووجوه الاستدلال بها، ليعقب عليها بعد ذلك كله بصنوف من الرد العلمي، أو الإلزام الجدلي.

وقد اعتمد في ردوده على مراجع كثيرة متنوعة ومتفرقة، حاول أن يلم شتاتها في محل واحد ليتيسر التعامل معها، وتكتمل الصورة من خلالها، فالرد على الإلحاد لا تكفي فيه الردود الجزئية المقتضبة، وإنما يحتاج

الإلحاد .. والدجل

(7)

كيف تناظر ملحدا..؟

إحصاء لإشكالات الملاحدة.. وبيان لكيفية الإجابة عليها

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى

1439 . 2018

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل لمؤسسة العرفـان للثقافـة الإسـلامية على الجهود التي تقوم بهـا في مواجهـة الإلحـاد الجديـد، وظـواهر التطـرف والعنـف والحداثـة وغيرهـا، وهي بـذلك تقـوم بواجبهـا في المقاومـة الثقافية خير قيام، بالإضـافة إلى دورهـا في عـرض الإسـلام المحمـدي الأصيل، ذلك الإسلام الذي يستمد مفاهيمه وحقائقه وقيمه من مشـكاة العصمة، والمصادر التي لم تدنس، ولم تختلط بغيرها.

وأحب أن أنوه هنا بأن هذه المؤسسة المحترمـة هي الـتي وجهت اهتمـامي إلى الكتابـة حـول هـذه الظـاهرة الخطـيرة [ظـاهرة الإلحـاد الجديـد]، ودعتـني إلى البحث عن كـل الشـبهات الـتي تتعلـق بهـا، وتستعملها وسيلة للانتشار، مع الرد العلمي الوافي عليها.

وقـد حـاولت في هـذا الكتـاب أن أقـوم بمـا طلبت مـني، فكـان ـ بحمد الله ـ موسوعة تشمل الردود العلمية على كل الشبهات الإلحادية بطريقة علمية منهجية مبسطة، يمكن لأي داعية أن يتـدرب من خلالهـا على مواجهة هذه الظاهرة، بالإضـافة إلى كونـه وسـيلة لكـل مـتردد أو متشكك ليعيده إلى وعيه، ويبين له المغالطات الكثيرة التي وقع فيها.

وأحب أن أنوه أيضا بأن هذه المؤسسة المحترمة هي التي وجهت اهتمـامي قبـل سـنوات للكتابـة في الـرد على ظـاهرة التطـرف، ومن يمثلها من الحركـات الوهابيـة والجهاديـة المختلفـة، وبنـاء على دعوتهـا كتبت بعض كتبي المسماة [الدين والدجل] ، والتي حـاولت فيهـا طـرح المنهج السلفي ومناقشة أطروحاتـه بطريقـة علميـة منهجيـة مبسـطة، ليتمكن أي داعيـة مخلص من الـرد على الشـبهات الـتي تثيرهـا هـذه الاتجاهات.

ولا أملـك بعـد هـذا إلا أن أسـأل اللـه تعـالى لهـذه المؤسسـة المحترمـة والقـائمين عليهـا، دوام التوفيـق والنجـاح في خدمـة قضـايا الأمة، ومواجهة كل المؤامرات التي تحـاك لهـا، ونسـأل اللـه أن نكـون خدما أوفياء لها، ولمنهجها المحمدي الأصيل.

فهرس المحتويات

المقدمة

يحـاول هـذا الكتـاب أن يكـون دليلا ومرجعـا لكـل داعيـة إلى الله، يريد أن يتصدى لظـاهرة الإلحـاد، قـديمها وجديـدها، ويخلـف الأنبياء وورثتهم عليهم الصلاة والسلام في القيام بدوره في حفـظ الإيمـان، وتبليـغ رسـالة اللـه، وتخليص البشـر من كيـد شـياطين الإنسان والجن..

فالدعوة للإيمان، ومحاوره المجـادلين فيـه وفي قضـاياه من أوكد الواجبات الشـرعية على المسـلمين جميعـا، وخصوصـا أهـل العلم منهم، سواء كانوا من المهتمين بالعلوم الشرعية، أو بالعلوم الكونيـة؛ فكلاهمـا يحمـل مسـؤولية شـرعية في مواجهـة هـذه الظاهرة، ما ظهر منها وما بطن.

ولهذا حاول هذا الكتاب أن يوفر الكثـير من العنـاء لمن يريـد أن يسلك هذا السبيل، ويمتهن هذه المهنة الشريفة ـ مهنة الدعوة للإيمان، ومواجهة شـبهات الشـيطان ــ وذلـك بإحصـائه للشـبهات الكثـيرة الـتي يسـتعملها الملاحـدة، وتصـنيفها، وبيـان تقريـراتهم المختلفة لها، ووجوه الاسـتدلال بهـا، ليعقب عليهـا بعـد ذلـك كلـه بصنوف من الرد العلمي، أو الإلزام الجدلي.

وقد اعتمد في ردوده على مراجـع كثـيرة متنوعـة ومتفرقـة، حاول أن يلم شتاتها في محل واحد ليتيسر التعامل معها، وتكتمـل الصورة من خلالها، فالرد على الإلحاد لا تكفي فيه الردود الجزئيـة المقتضـبة، وإنمـا يحتـاج إلى ردود تفصـيلية مسـتوعبة وشـاملة.. فالملحـد مثـل المتطـرف ينتقـل من موضـوع إلى موضـوع، ومن قضية إلى قضـية، ليبحث عن أي ثغـرة يجـدها في خصـمه، لأنـه لا يريد الحقيقة، بقدر ما يريد الانتصار.

ولهذا فقـد حاولنـا في هـذا الكتـاب أن نبصـر المتـدرب عليـه بصنوف الرد، وبكيفية التعامل مع كل حالة قد تطـرأ، مسـتنين في ذلك بما فعله إبراهيم عليه السلام، مما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْـكَ إِذْ قَـالَ

إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]

فإبراهيم عليه السلام لم يشتغل هنا بالدفاع عن قوله ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾، بل أورد مباشرة دليلا آخر مفحما.. ولهذا نرى تنوع الأدلة في القرآن الكريم على التوحيد والمعاد والنبوات حتى يشرب منها كل شخص بحسب توجهه وقدرته العقلية.

فقد قال تعالى في إثبات التوحيد والرد على الوثنية الشركية:﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ الأرض هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:21ـ24)

وفي موضع آخر قال:﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (الإسراء:42)

وفي موضع آخر قال:﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون:91)

ولما لم يُجدِ الدليل العلمي العقلي على بطلان مُدَّعَاهم، أتاهم بأدلة حسية مادية من الواقع تثبت بطلان ألوهية الأصنام، فقال:﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾ (الفرقان:3)، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73)

وبناء على هذا المنهج القرآني في الحوار حاولنا أن نجمع أكبر قدر من الردود العلمية، ونبسطها، ليستفيد منها عوام القراء وخواصهم، فمثل هذه القضايا المصيرية لا يصح أن تحبس في

مدرجات الجامعات، أو في الدفاتر الأكاديمية المعقدة، بل عليها أن تصل إلى أكبر جمهور من الناس، حتى يستفيدوا منها لأنفسهم ـ أولا ــ بتحصينها من كل الشبهات التي تثار لزعزعة إيمانهم، ولتحويلهم ـ ثانيا ـ إلى دعاة إلى الله على بصيرة، يعرفون كيف يجادلون عن الحقيقة، وكيف يحتجون لها، وكيف يضمنون الانتصار فيها.

وبناء على هذا المنهج التبسيطي حاولنا أن نضع الأدلة على شكل عناوين واضحة وبسيطة، بحيث يمكن استعمالها جميعا، أو استعمال آحادها، بحسب الظرف المناسب.

وننبه إلى أننا لا نقصد بالمناظرة هنا المناظرة الشفاهية فقط، والتي تقام لها المجالس الخاصة، وإنما نقصد بها طرح مثل هذه الأدلة، ومواجهة المخالف لها، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عبر كل الوسائل، وخصوصا وسائل التواصل الاجتماعي التي تحول الكثير منها إلى وسيلة لزعزعة الإيمان، وزرع الفتن، والدعوة إلى التخلص من كل القيم.

ولذلك فإن الداعي إلى الله على بصيرة يمكنه أن ينقل ما شاء من الشبه، وينقل معها الردود عليها مبسطة مختصرة، أو معقدة مفصلة، ليستفيد منها من وصلته الشبهة، ولم يتمكن من الرد عليها، ولتكون جوابا استباقيا للملحد الذي طرحها، وحاول أن يزعزع بها إيمان المؤمنين، وبذلك ترتد عليه حجته، ويصيبه البهت الذي أصاب الملك بجواب إبراهيم عليه السلام.

ولعله يكون سببا لهدايته وتحويله من جند الشيطان إلى جند الإيمان، كما حصل لأنتوني فلو، ذلك الذي كان يُصنف ضمن أشرس دعاة الإلحاد، بل ألف أكثر من ثلاثين كتابًا تدور حوله، لكنه استطاع أن يتراجع عن كل ذلك، وفي مرحلة متقدمة من عمره، ويؤلف كتابه الذي رد به على جميع كتبه، والذي سماه [هنالك إله].. وقد تعرض بسببه لحملة تشهير ضخمة من المواقع الإلحادية في العالم، بل أزاحوا عنه كل تلك النياشين التي علقوها له بسبب وحيد، وهو اختياره الإيمان.

ولذلك فإن المناظر الـذي نتحـدث معـه في هـذا الكتـاب هـو ذلك المناظر الهادئ صاحب القلب الطيب، والذي لا يسـتعجل، ولا يصيبه الغـرور والكبريـاء، بـل هـو يتأسـى في حـواره أو مناظرتـه بالأنبياء وورثتهم عليهم السلام.. فالحق يبلغ إلى العقـول كالنسـيم العليل، لا كالريح العاصف.

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن نوح عليه السلام، وكيف حــاور ابنه في ذلك الوقت الحرج، بكل هدوء ولطف وأدب، فقـد خاطبـه بالبنوة مع كونه كان كافرا معاندا، قـال تعـالى: وَنَـادَى نُـوحٌ ابْنَـهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَـا وَلا تَكُنْ مَـعَ الْكَـافِرِينَ (هـود: 42)

وأخبرنا عنه قبل ذلك وكيف تعامل مع قومه بكل هدء، مع أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، فيقابلونـه بكل أنواع السخرية، فلا يستسـلم لسـخريتهم بـل يظـل يحـاورهم بهدوء محير، قال تعالى: وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا نُوحـاً إِلَى قَوْمِـهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّـهَ إِنِّيَ أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَـذَابَ يَـوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (هود: 25 ـ 27)

فقد خاطبهم عليـه السـلام بكـل أدب واحـترام وهـدوء، وبين لهم حبـه لهم، والـذي دعـاه إلى الحـرص عليهم والخـوف على أن يصبيهم عذاب الله، ولكنهم واجهوه بالاحتقار والتكذيب والسخرية.

لكنه عليه السلام لم ينه الحوار، ولم ينسـحب من سـاحاتهم، لأن ذلك هو مايريدونه أو ما تريـده شـياطينهم، بـل واصـل الحـوار معهم من النقاط التي أرادوا إنهاء العمليـة الحواريـة عنـدها، قـال تعالى على لسان نوح عليه السلام في حواره مع قومه: يَـا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَـانِي رَحْمَـةً مِّنْ عِنـدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَــالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَـارِدِ الَّذِينَ آمَنُـواْ إِنَّهُم مُّلاَقُـو رَبِّهِمْ وَلَــكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمـاً تَجْهَلُـونَ وَيَـا قَـوْمِ مَن يَنصُـرُنِي مِنَ اللّـهِ إِن طَـرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَـذَكَّرُونَ وَلاَ أَقُـولُ لَكُمْ عِنـدِي خَـزَآئِنُ اللّـهِ وَلاَ أَعْلَمُ

الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّـهُ خَيْـراً اللّـهُ أَعْلَمُ بِمَـا فِي أَنفُسِـهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (هود: 28 ـ 31)

فقد اعتبر نوح عليه السلام ما واجهه قومه به من الاسـتهزاء والسخرية شبهة تحتاج إلى إجابة، فراح يجب عليهـا بكـل مـا أوتي من حجج، وهـو مـع ذلـك لا يـزال يخـاطبهم بحميميـة، يقـول لهم: (ياقوم) ينسـبهم إليـه، وينسـب نفسـه إليهم، ويتلطـف في توجيـه أنظارهم، ولمس وجدانهم.

وبعد هذه الإجابات القوية الهادئـة، وبعـد يـأس قـوم نـوح من مناهضـة الحجـة بالحجـة؛ إذا هم يـتركون الجـدل إلى التحـدي، ويحولون الحوار الهادئ إلى بركان غضب فائر قَالُواْ يَـا نُـوحُ قَـدْ جَادَلْتَنَـا فَـأَكْثَرْتَ جِـدَالَنَا فَأْتَنِـا بِمَـا تَعِـدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (هود:32)

لكن نوحا عليه السلام لا يخرجـه هـذا التكـذيب والتحـدي عن سمت النبي الكريم، ولا يقعده عن بيان الحق لهم، وهي أنـه ليس سوى رسول، وليس عليه إلا البلاغ، أما العذاب فمن أمر الله، وهو الذي يدبر الأمر كله، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله، فيظل يكشف لهم عن الحق حتى اللحظـة الأخـيرة، لا يقعـده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه، قـال تعـالى: قَـالَ إِنَّمَـا يَأْتِيكُم بِهِ اللّـهُ إِن شَـاء وَمَـا أَنتُم بِمُعْجِـزِينَ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْـحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيـدُ أَن يُغْـوِيَكُمْ هُـوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ (هود:33 ـ 34)

بل إن نوحا عليـه السـلام لم يتوقـف عن الحـوار حـتى أوحي إليه بأن يتوقـف واسـتيأس من إجـابتهم، بـل بقي في آخـر لحظـة يدعو ابنه إلى الله، قال تعالى: وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَـا كَـانُواْ يَفْعَلُـونَ وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (هـود: 36 ـ 37)

ومثله إبراهيم عليه السلام الذي ذكر القـرآن الكـريم حـواره

مع قريبه في منتهى الرقة، مقدما لكل كلمة يقولها بـ ﴿ يَـا أَبَتِ ﴾ مراعاة لسنه وقرابته مع كونه لم يكن والده الحقيقي.. قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَـا لا يَسْـمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَـيْئاً يَـا أَبَتِ إِنِّي قَـدْ جَـاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَـا لَمْ يَأْتِـكَ فَـاتَّبِعْنِي أَهْـدِكَ صِـرَاطاً سَـوِيّاً يَـا أَبَتِ لا تَعْبُـدِ الشَّـيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَـافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَـذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ (مريم: 42 ـ 45)

أما رسول الله ﷺ، فإنه رغم كثرة الأذى الذي تعـرض لـه من أعدائـه المختلفين من اسـتهزاء وسـخرية واتهـام ورمي الأوسـاخ وتسـليط الصـبيان لرميـه بالحجـارة وغيرهـا لم يتخـل عن الحـوار الهادئ إلى آخر لحظة من لحظات دعوته، ولهذا كان من صفته ﷺ في الكتب السـابقة أنـه ﷺ (ليس بفـظ ولا غليـظ ولا صـخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح)[1]

وقد حكى القرآن الكـريم بعض مـا كـان يمارسـه الكفـار من أساليب الهمجية في الحوار معه، فقال تعالى:﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَـالَ الْكَـافِرُونَ هَـذَا سَـاحِرٌ كَـذَّابٌ أَجَعَـلَ الْآلِهَـةَ إِلَهًـا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ (صّ:7)

لكن الرسول ﷺ يجيبهم بكل هدوء يطلب منهم إبـداء الـدليل على ما هم عليه من شرك، قال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَـــاذَا خَلَقُـــوا مِنْ الأَرضِ أَمْ لَهُمْ شِـــرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُـونِي بِكِتَـابٍ مِنْ قَبْـلِ هَـذَا أَوْ أَثَـارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف:4)، وقال تعالى:﴿ سَـيَقُولُ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا لَـوْ شَاءَ اللَّهُ مَـا أَشْـرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَـا وَلا حَرَّمْنَـا مِنْ شَـيْءٍ كَـذَلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُـــوا بَأْسَـــنَا قُـــلْ هَـــلْ عِنْـــدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعـام: 148)

---

1) رواه أحمد (2/174) (6622)، والبخاري (3/87)

وبناء على هذا يدعونا القرآن الكريم إلى التحلي بالهدوء مع المخالف، وعدم معاملته بنفس الطريقة التي يعاملنا بها، معتبرا ذلك من الإحسان الذي هو أرقى درجات العبودية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:33 ـ 34)؛ فالآية الكريمة بينت أن النجاح في الأخير للهادئ المحسن الذي أمسك زمام أعصابه، وعرف كيف يتعامل مع خصمه ليكسبه إلى صفه.

ولهذا أمر تعالى بالحوار مع أهل الكتاب لا بالحسنى فقط، وإنما بالتي هي أحسن، قال تعالى:﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:46)

والسبب في كل ذلك هو تجنب الصخب وفوران الأعصاب الذي يحول دون تدبر الحق والإذعان له، لأن العقل المنشغل بالمخاصمة لا يستطيع أن يتدبر الحق ولا أن يذعن له، ولهذا قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ:46)، فاعتبر القرآن اتهام النبي بالجنون خاضعاً للجو الانفعالي العدائي لخصومه، لذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو والتفكير بانفراد وهدوء.

ونحب أن نبين أننا نقصد بالملاحدة هنا كلا النوعين من الملاحدة: أصحاب الإلحاد السلبي، الذين يكتفون بطرح تشكيكات مجردة تبين عدم اقتناعهم الشخصي، أو العاطفي بالإيمان.. أو أصحاب الإلحاد الإيجابي الذين لا يكتفون بالتردد وعدم الاقتناع، وإنما يضيفون إليه محاولة البرهة على نفي وجود الخالق..

ويعتمد هؤلاء خصوصا أنواعا كثيرة من الطروحات، يمكن اختصارها في نوعين:

1 ــ طروحــات فكريــة وفلســفية: وهي عبــارة عن مجموعة مغالطات عقلية تتعلق بعلاقـة الـدين بـالتنوير، أو علاقتـه بالتحرر النفسي والاجتماعي، أو بإبطال مبدأ السببية، ونقض مبـدأ الخلـق، ومشـكلة العـدل والشـر، واسـتحالة الـوحي، ونقـد الكتب المقدسة للأديان، واستحالة الحياة بعد الموت، أو إبطـال مفهومـه الـديني بإثبـات نظـائر مغـايرة لـه كالاستنسـاخ أو العـودة للحيـاة، وغيرها من مشتقات البارسايكولوجيا.

2 ــ طروحـات علمية: تحـاول أن تسـتند للعلم الحـديث بشـتى فروعـه، كعلـوم الفضـاء، والأحيـاء، والفيزيـاء، والكيميـاء وغيرها لإثبات عدم حاجة الكون إلى خالق.

وبنـاء على هـذا، وبنـاء على إحصـائنا للشـبه المختلفـة الـتي يوردونها في هذا المجال، فقد قسمنا الكتاب إلى عشـرة فصـول، كل فصل تنـاول قضـية من قضـايا الإلحـاد الكـبرى، وهـذا توضـيح مختصر لها، ولمحتوياتها:

أولا ــ الإلحــاد.. وبــراهين الألوهية: وتنــاولت فيــه ـ باختصار شديد ـ أهم ما يحتاج إليه المتصدي لمواجهة [الإلحاد] من فنــون الحجج والــبراهين الدالــة على اللــه، بمختلــف أصــنافها، والتـدرب على اسـتعمالها، من دون تحـيز لواحـد منهـا، بنـاء على القاعدة المعروفة [لله طرائـق بعـدد الخلائـق]، وقـد لخصـت فيـه بعض ما ورد في كتابنا [الهاربون من جحيم الإلحاد]، والذي تناولت فيه بتفصيل كبير المناهج الكبرى التي استعملها العلماء والفلاسفة والمتكلمون من المدارس المختلفة للدلالـة على وجـود اللـه، مـع ضرب الأمثلة عن البراهين المرتبطة بها، وتقريراتها المختلفة، مـع تبسيط كل ذلك وتفصيله.

ثانيا ـ الإلحاد.. والمغالطات العقلية: وتناولت فيه تلــك الطرق الملتوية المبنية على المغالطات بمختلـف أنواعهـا، والـتي يمارســها الملاحــدة كمــا مارســها السفســطائية من قبلهم.. ولا يختلفون عن سلفهم من السفسـطائية في شـيء، حـتى أن منهم من ينكر وجود الكـون، ومنهم من ينكـر المـدارك الحسـية، ومنهم من ينكر القوانين العقلية المعروفة بالبداهة كقانون العلية والــدور

والتسلسل وغيرها.

ثالثا ــ الإلحاد.. والمغالطات العلمية: وتناولت فيه بالأدلة الكثيرة ضحالة المنهج العلمي الذي يعتمدونه؛ فهو منهج مبني على المغالطات والمصادرة على المطلوب، واستعمال الحيل المختلفة لمواجهة الإيمان والدعاة إليه.

رابعا ــ الإلحاد.. وخلق الكون: وتناولت فيه تلك النظريات المفسرة لنشأة الكون وتصميمه البديع، والتي نجدها في المصادر الإلحادية كسند يعتمدون عليه ويغالطون به عوام الناس، مع أنه ليس لها أي حظ علمي عند المتخصصين، فهي لم تجرب، بل يستحيل تجريب أكثرها، وهي عبارة عن ميتافيزياء، وليست فيزياء، ولذلك لا يصح اعتبارها سندا علميا.

خامسا ـ الإلحاد.. وخلق الحياة: وتناولت فيه الإشكالات التي واجهها الملاحدة عند تفسير ظاهرة الحياة التي يرونها على الأرض، والتي لا تنسجم مع كل التفسيرات المادية، ذلك أن الحياة فوق المادة، وهي معقدة تعقيدا خطيرا لا يمكن وصفه.

سادسا ـ الإلحاد.. والتحرر النفسي: وتناولت فيه الدور النفسي في التوجه للإلحاد؛ فالملحد لا يلحد لكون أدلة الإيمان لم تقنعه، أو لكونه يحمل أدلة الإلحاد، وإنما لشعوره بأن للإيمان أثره الكبير على حياته وسلوكه وعلاقاته، ويرى أن وجود الله سيحد من وجوده، ولذلك يلجأ إلى إعدم الله حتى يظل موجودا، وبينت فيه أن الإيمان لا يتناقض مع التحرر النفسي، بل هو يدعمه، ويضيف للمعاني الإنسانية معاني كثيرة يحرم منها الملحد.

سابعا ـ الإلحاد.. والقيم الحضارية: وتناولت فيه تلك الدعوى الخطيرة في اعتبار الإيمان بالله عقبة دون تحقيق القيم الحضارية.. وقد بينت فيه أن الإيمان دافع كبير من دوافع الحضارة، وليس سببا في التخلف، وما يرتبط بالتخلف من دين هو من تحريفات رجال الدين، لا من دين الله الأصيل.

ثامنا ـ الإلحاد.. والقيم الإخلاقية: وتناولت فيه ـ بالأدلة الكثيرة ــ افتقار الإلحاد لأي منظومة أخلاقية، ذلك أنه يختصر

الإنسان في كيانه البيولوجي، ولذلك لا يستطيع أن تفسر أي قيمة من القيم الخلقيـة، ولا يسـتطيع كـذلك أن يـوفر لأتباعـه أي حـافز يدفعهم للسلوك الأخلاقي، وخاصة إن كان يحمل معـاني التضـحية والإيثار والبذل، في مقابل الإيمان بالله الذي يوفر كل ذلك.

تاسـعا ــ الإلحـاد.. ومعضـلة الشر: وتنـاولت فيـه هـذه المعضلة التي تعتبر من أكثر الشبهات الإلحادية تداولا منذ القـديم، وإلى عصرنا الحاضر، بل إنهم يعتبرونها البرهـان الأكـبر، على نفي وجود الله.. وقد تناولنا هذه المعضلة بتقريراتها المختلفـة، وذكرنـا صنوف الإجابة عنها.. سواء ما كان منها علميا تحقيقيا، أو مـا كـان منها إلزاميا جدليا، مع بيان الإجابات الـتي نـرى عـدم صـلاحيتها أو وفائها بالإجابة على هذه المعضلة الخطيرة.

عاشرا ــ الإلحـاد.. والإشـكالات الدينية: وتنـاولت فيـه الانتقادات المتعلقة بالتفسيرات الإلحادية لمصدر الدين، والعوامـل النفسية والاجتماعية والاقتصادية المؤثرة فيـه، وبينت مـدى القـوة التي تحملها التفسيرات الإيمانية.

وأنبه في الأخير إلى أنه لحساسية الموضوع، وأهميته، وعـدم شغل القـارئ بكـثرة التهميشـات والتفاصـيل المرتبطـة بهـا، فقـد ذكرت في مقدمة كل عنـوان المرجـع أو المراجـع الـتي اعتمـدت عليهـا، والـتي تشـمل ذلـك العنـوان جميعـا.. ومن يشـاء تفاصـيل التوثيقات، فإنه يمكنه الرجوع للمصدر الـذي بينت اسـتفادتي منـه في ذلك العنوان، إلا إذا اقتضى المقـام ذكـر التوثيقـات المفصـلة، فحينها أذكرها.

مـع العلم أن المـادة العلميـة المرتبطـة بـالكثير ممـا ذكرتـه موجودة في الكتب والمواقع المختلفة، لكن ميزة هذا الكتـاب هـو جمعهـا في محـل واحـد، وتصـنيفها بطريقـة خاصـة، وتهـذيبها وتبسيطها واختصـارها ليسـتفيد منهـا أكـثر النـاس، لا الأكـاديميون وحدهم.

أول مـا على المتصـدي لمواجهـة [الإلحـاد] تعلمـه والتـدرب عليه: إتقان فنون الحجج الدالة على وجود الله، بمختلف أصـنافها، وإتقان استعمالها، من دون تحيز لواحـد منهـا، ذلـك أن التحـيز قـد يجعلـه يخطئ في تعاملـه مـع الجمهـور الـذي يريـد أن يخاطبـه؛ فالمطلوب هو الإثبات، وليس الثبوت، ولذلك فإن الداعية يستعمل الوسائل التي يقتنع بها المخاطَب، لا التي اقتنع بها هو.

وذلـك كلـه بنـاء على القاعـدة المعروفـة [للـه طرائـق بعـدد الخلائــق]، فقــد لا يفهم بعض النــاس دليلا من الأدلــة كالــدليل الأنطولوجي لأنسلم وديكـارت، أو دليـل الصـديقين للفـارابي وابن سينا والملا صدرا.. لكن في نفس الوقت نرى من فهم تلك الأدلة، واستفاد منها، وتحول بموجبها من الإلحـاد إلى الإيمـان.. ولـذلك لا معنى لانتقادها أو رفضها بحجة عدم تناسبها مع الاتجاه الفكـري أو المدرسة الفكرية التي يتبناها الداعيـة المواجـه للإلحـاد.. ذلـك أن مقصده خطاب الآخر، لا نفسه.

وهكذا يكون موقـف الداعيـة الحقيقي من القضـايا المختلفـة منطلقا من مدى تدعيمها للإيمان، ومواجهـة الإلحـاد، بغض النظـر عن التفاصيل المرتبطة بها..

فمن المسائل المطروحة في هذا الباب ـ مثلا ـ مسـألة قـدم العالم، وهل هي في حال صحتها ـ كما يقول الكثير من الفلاسفة ـ تتناقض مع الإيمان، أو لا تتنـاقض معـه، وهـل قـدم العـالم شـرط لثبـوت الصـانع، أو ليس شـرطا.. فالداعيـة الحقيقي يعتـبر هـذه المسألة مسألة جزئية، ولهذا يبحث فيها على كلا الاحتمالين.. على احتمال الحدوث، وهو الذي دل عليه العلم.. أو على احتمـال عـدم الحدوث ـ كما يقول أكثر الفلاسفة ـ وفي هذه الحالـة أيضـا يمكن للداعية أن يثبت أنها لا تتناقض مع وجود الله بناء على مبدأ العليـة والإمكان.

وبمــا أننــا تناولنــا في كتابنــا [الهــاربون من جحيم الإلحــاد]

المناهج الكبرى التي استعملها العلماء والفلاسفة والمتكلمـون من المدارس المختلفة للدلالة على وجود الله، مع ضـرب الأمثلـة عن البراهين المرتبطة بها، وتقريراتها المختلفة، مع تبسـيط كـل ذلـك وتفصيله؛ فسنحاول هنـا في هـذا الفصـل تلخيص مـا ذكرنـاه على شكل عناصر مضبوطة محدودة، ومن شاء المزيد من التقريـرات، والتفاصيل، فيمكنه الرجوع للكتاب، ليستفيد منه بالإضافة إلى تلك التفاصـيل الطـرق المختلفـة في تقريـر الـبراهين واسـتعمالها، والإجابة على الإشكالات المرتبطة بها.

وقد قسمنا في ذلك الكتاب المناهج الكبرى التي تقوم عليهـا بـراهين وجـود اللـه إلى سـبعة أقسـام، وهي تختلـف بـاختلاف المخاطبين بتلك البراهين:

أولهـا الـبراهين القاطعـة: وقصـدنا بهـا أصـناف الأدلـة والـبراهين الـتي اسـتعملها الفلاسـفة والمتكلمـون، مثـل برهـان العليـة، وبرهـان لحـدوث، وبرهـان التطـبيق أو نفي التسلسـل، وغيرها.. وهي جميعا براهين تنطلق من الكون كواسـطة للوصـول إلى الله.

وثانيها المعاني الرقيقة: وقصدنا بها أصناف الأدلة الـتي اسـتعملها الفلاسـفة أو الصـوفية، وهي الانطلاق من الأعلى إلى الأدنى أو من المكـون إلى الكـون، ومن أمثلتهـا برهـان الفطـرة، وبرهان الصديقين، والبرهان الوجـودي أو الأنطولـوجي، والبرهـان الوجداني.

وثالثها العناية الرحيمة: وقصدنا بها أصـناف الأدلـة الـتي استعملها الفلاسفة والمتكلمون والعلماء، والتي تتعلق بـالنظر إلى عناية الله بعباده ورحمته بهم، عبر المظاهر المختلفة لتلك العناية، والتي دل العلم الحديث على تفاصيل الكثير منها.

ورابعها الصنعة العجيبة: وقصدنا بها أصناف الأدلـة الـتي يسـتعملها علم الكلام الجديـد، والعلمـاء المعاصـرون في الدلالـة على الله انطلاقا من براعة الصنعة وإتقانها، فالصنعة المتقنة تـدل على الصانع المبـدع، وقـد اسـتفدنا في هـذا المنهج خصوصـا ممـا

كتبه علماء الفيزياء والفلك والطب وغيرهم في هذا الجانب محاولين تبسيطه قدر المستطاع.

وخامسها النظام البديع: وقصدنا بها أصناف الأدلة التي يستعملها علم الكلام الجديد خصوصا لنفي العشوائية والصدفة.. فالنظام يحتاج إلى منظم، ويستدعيه بالضرورة العقلية.

وسادسها الآيات الباهرة: وقصدنا بها أصناف الأدلة التي تواجه الأطروحات الإلحادية التي تتصور أن الأدلة على الله أدلة نظرية وفلسفية فقط، ليس لها أي جانب حسي أو تجريبي.. فهي تعطي الكثير من المناهج التي يمكنها أن تحول الإيمان بالله إلى تجربة حسية، كسائر التجارب.

وسابعها الهداية المبينة: وقصدنا بها أصناف الأدلة التي استعملتها الكتب المقدسة في الدلالة على الله، لا عبر الاستدلال بنصوص تلك الكتب المقدسة نفسها، لأن ذلك قد يعبر دورا، وإنما باعتبارها ظاهرة من الظواهر الحسية، التي تحتاج إلى البحث فيها من هذا الجانب، وقد حاولنا أن نبين أن هذه الظاهرة أكبر ظاهرة تعريفية بالله، فالله لم يعلن عن نفسه من خلال الكون وظواهره فقط، وإنما أعلن عنه عبر رسله وكلماته المقدسة لعباده.. وقد اقتصرنا على بعض الأمثلة على ذلك، بناء على أننا خصصنا سلسلة [حقائق ورقائق] جميعا لإثبات النبوة بالمناهج المختلفة، وإثبات النبوة، ليس سوى إثبات للألوهية بالدرجة الأولى.

وسنحاول هنا أن نذكر باختصار وتلخيص شديد بعض النماذج عن البراهين المرتبطة بكل قسم، ومن شاء التفصيل، فعليه بالعودة للكتاب المذكور.

أولا ـ البراهين القاطعة:

ونريد بها أصناف الأدلة والبراهين التي استعملها الفلاسفة والمتكلمون، مثل برهان العلية، وبرهان لحدوث، وبرهان التطبيق أو نفي التسلسل، وغيرها.. وهي جميعا براهين تنطلق من الكون كواسطة للوصول إلى الله.

ويحتاج لمن يريد استعمال هذا النوع من البراهين أن يــدرس المنطق وعلم الكلام والفلسفة دراسة جيدة، لأن الكثير ممن ينكر الأدلة المطروحة فيها، أو يشاغب فيها، يكون مصدره الجهـل بهـا، أو قلة معرفته بها، أو كما عبر عن ذلك [فرنسيس بيكون] بقولــه: (القليـل من الفلسـفة يميـل بعقـل الإنسـان إلى الإلحـاد، ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول إلى الإيمان.. إذا أمعن (العقـل) النظـر وشهد سلسلة الأسباب كيـف تتصـل حلقاتهـا فأنـه لا يجـد بـدًا من التسليم بالله)[1]

وهذا شرح مختصر لبعضها، كما يورده المتكلمون والفلاسـفة في المدارس المختلفة.

1 ـ برهان العلية:

وهو من البراهين البديهية العقلية التي تتفـق عليهـا العقـول، وقـد أشـار إليـه قولـه تعـالى: ﴿أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأرض بَلْ لَا يُوقِنُـونَ (36)﴾ [الطـور: 35،ــ 36]، فـالقرآن الكـريم من خلال هـاتين الآيـتين الكريمـتين يـبين أن العـدم لا يمكن أن يصـنع شـيئاً، ولـذلك فـإن الحادث يحتاج إلى محدث، فلا رجحان من دون مرجح.

والــدليل على كــون هــذا البرهــان من الــبراهين القطعيــة الفطرية هو تلك العبارات الكثيرة التي نسمع بها من عوام الناس، والتي تستند إلى هذا الدليل، ومن أمثلتها أن عجوزا كـانت تمسـك مغزلا، سئلت عن سر إيمانها، فقالت: (من آلة النسيج هذه، فعنــد ما أمسك مقبضها وأدوّره بهذا الدوران ينسـج الحبـل، وحيث أرفـعُ يــدي وأتوقــف عن التــدوير تتوقّــف ويبقي الصــوف والقطن على حالـه، عنـدها لا نسـيج ينسـج، ولا ليـف يـبرم.. من هنـا أيقنت أن للأفلاك والنجــوم والكــواكب الســيّارة والشــمس والقمــر والأرض ونظام الخلق بأجمعه خالقاً مقتدراً، متى شاء عطّل الوجود ورمـاه في هــوّة العــدم. وإن شــاء أمــدّه بأســباب الحيــاة وأدار عجلــة

---

1) مُلحدون محدثون معاصرون، د. رمسيس عوض، ص 58.

استمراره[1]

ومثلها ذلك الأعرابي الذي سئل: بِمَ عرفتَ ربك؟ فقال: (البَعرةُ تدل على البعير، والأثَر يدل على المسير، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير؟!)

وروي أن طائفة من الملاحدة طلبوا من بعض العلماء أن يثبت لهم وجود الله، فقال لهم: (قبل أن أناظركم هلم بنا إلى الشاطئ، فقد علمت أن هناك سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق جاءت تشق عباب الماء حتى أرست في الميناء، ونزلت الحمولة وذهبت، وليس فيها قائد ولا حمالون ولا عساكر ولا حراس.. فهي فرصة لنا للغنيمة منها).. ضحك الملاحدة لقوله، وقالوا له: (كيف تريد أن تناظرنا وأنت لا عقل لك.. فهل يعقل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل وتنصرف؟! حتى صبياننا لا يصدقون هذا).. فقال: (كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟)

وما ورد في هذه التعبيرات جميعا هو نفسه ما عبر عنه الفلاسفة باسم [برهان العلية]، وبعضهم يسميه الدليل الكياني[2].

ومن التقريرات التي قرر بها هذا الدليل هذا التقرير الفلسفي: **ومقدمته الأولى** هي أننا نرى في العالم حادثات، وتقلبات، حتى إن وجودنا نحن من جملة تلك الحادثات.. وهذه مقدمةٌ، مبنية على الإحساس والمشاهدة، ومسلم بها عند أهل العلم القديم، والعلم الحديث.

أما **المقدمة الثانية،** فهي أنه لا بد لكل حادثٍ من علةٍ، وهذه المقدمة، وإن كانت لا تستند بكليتها إلى الإحساس، والتجربة، والمشاهدة؛ بناءً على أن العلية أمر معنويٌّ، لا يشاهَد،

1) معرفة الله، ج1، ص: 148.

2) استفدنا بعض التقريرات هنا من [موقف العلم والعقل من رب العالمين]، مصطفى صبري.

ولا أنّا لم نشاهِد كل حادثٍ، إلا أنها ليست دون المقدمة الأولى المبنية على الحسِّ في القوة؛ بل أقوى منها.. ذلك أن حصول العلم بالمحسوس، بواسطة الإحساس، يتوقف عند التحليل العلمي على تصديق هذه المقدمة الثانية، ولهذا، يقال بأن: (الشبهة في مبدإ العلية، تستلزم الشبهة في وجود المحسوسات)

ومن تلك التقريرات هذا التقرير المستند للطريقة المتبعة في علم الكلام، وهي: كل حادثٍ، يلزم أن يكون ممكناً؛ لا مستحيلاً، وإلا لما حدَثَ؛ ولا واجباً، وإلا لما سبقه العدم.. والممكن، ما لا يقتضى لذاته أن يكون موجوداً، ولا أن يكون معدوماً.. فالوجود والعدم، سيان بالنسبة إليه؛ فإذا وُجدَ، وُجدَ لعلةٍ ترجحه لهُ، لئلاَّ يلزم الرجحان من غير مرجحٍ، وهو محالٌ، ومستلزمٌ لعدم تساوي الوجود والعدم، فيما فُرض تساويهما فيه.

و عدمُ التساوي فيما فُرضَ فيه التساوي، يستلزم خلاف المفروض، المؤدي إلى التناقض.

فعلى هذه الطريقة، تكون المقدمة الثانية من مقدمات البرهان على وجود الله، القائلة بأن لكل حادث علةٌ، ثابتةً بالبرهان، وعلى الطريقة الأولى تكون بديهية.

فمقدمات هذا الدليل، أدناها درجةً في اليقينية، هي المقدمة الأولى، المبنية على الحس(1).. فإذا كانت مقدمات الدليل يقينية، كانت النتيجة المترتبة عليها أيضاً يقينية، إلا أن مرتبتها في اليقين، تكون على قدر أدنى المقدمات مرتبةً فيهِ، لأن نتيجة القياس المنطقي تتبع أخس المقدمتين اللتين يتألف منهما القياس.. حتى إن هذه الكائنات المحسوسة، التي نسميها [العالم]، إن لم تكن موجودةً، وكانت حواسنا تغالطنا، فعند ذلك ينهار الدليل الذي أقمناه لإثبات وجود الله، بانهيار مقدمة من مقدماته.

لكن بما أن جماهير الناس، بما فيهم الملاحدة أنفسهم ليسوا من الحسبانية، الذين لا يستيقنون وجود العالم، وينفون اليقين في كل شيء.. وليسوا من [أشباه الحسبانيين] القائلين بأن العالم

1) أي المقدمة القائلة بوجود أي حادث في الدنيا..

عبارة عن صورة نفسية، أنشأتها أذهاننا في نفسها، ومخيلاتُنا في الخارج، وهم الذين يتزعمهم الفيلسوف [كانت].. فإن الجميع يدرك وجود الله، كما يدرك وجود المحسوسات.. أي أن إدراك وجودها، ليس أقوى من إدراك وجودهِ بدليله العقلي المنطقي.

وقد عبر عن ذلك [له بينج]، وهو من أكبر الفلاسفة الغربيين الألمان، فقال: (إن اليقين البرهاني، عبارة عن اليقين البديهي، الذي ينطبق على رابطة بين الحقائق المتعددة، بدلاً من انطباقه على حقيقة منفردة)

2 ـ برهان الحدوث:

وهو البرهان الذي استعمله المتكلمون خصوصا، ليردوا به على من يستند للقول بقدم العالم[1] للرد على مبدأ العلية، واعتبار العالم قديما، ولا يحتاج إلى من يحدثه.. ولذلك احتاجوا للرد عليه بالبراهين الدالة على حدوث العالم.. لكن من الفلاسفة أو أكثرهم من راح يجمع بينهما: بين قدم العالم والعلية، وأنه لا تنافي بينهما، كما سنرى.

وبما أننا سنشرح أدلة حدوث الكون بتفصيل في الفصل المخصص لذلك، بحسب ما دلت عليه العلوم الحديثة، فسنكتفي هنا بالبراهين الكلامية والفلسفية، إما تلك التي تحاول البرهنة على حدوث العالم، أو تلك التي ترى أن قدمه لا يتعارض مع حاجته للصانع.

فمن الأدلة التي استدلوا بها على حدوث العالم أنه: إذا افترضنا أن العالم بدون بداية في الزمان، فإن هذا يعني أن كل حادثة فيه قد سبقتها حوادث أخرى لانهاية لها.. ولا يمكن أن تأتي حادثة من سلسلة لامتناهية من الحوادث.. فكي نثبت ظهور

---

1) القدم: أو الوصف بالقديم تعني عند الفلاسفة والمتكلمين ما ليس له أوّل البتّة. فكلّ موجود لم يسبقه عدم البتّة، أو كلّ موجود خلا بتاتا من حال لم يكن موجودا ثمّ كان، سمّوه قديما. وكلّ موجود كان له أوّل أو سُبِقَ بعدم، فمهما امتدّ في الماضي ولو كانت مدّته آلاف السّنين، فهو ليس بقديم، بل إنّه حادث.

حادثة يجب علينا افتراض بداية أولى للزمان.. وهـذا القـول نفسـه يسرى على المكان، فإذا افترضناه كلاً لامتناهياً، فلا معـنى لوجـود الأمكنـة الجزئيـة، لأن المكـان الجـزئي مـا هـو إلا تـركيب لبعض خصـائص المكـان الواحـد الكلي، أي اللامتنـاهي.. واللامتنـاهي لا يمكن أن يُخصَّـص أو يُجـزأ، ولـذلك لا يمكن انقسـام المكـان اللامتناهي، لأن المنقسم هو المتناهي وحده.. وبما أن هناك أمكنة جزئيـة، وبمـا أنـه من الممكن أن ينقسـم المكـان، فيجب القـول بتناهي المكان.

وقد رد عليهم المخالفون بردود كثيرة[1]، وذكروا فيها أنه لا تنافي بين الإيمان بالله، وبين قدم العالم؛ فالعالم ـ حتى لو قيل بقدمه ـ يظل عاجزا فقيرا محتاجا، ولذلك يحتاج إلى من يعتني به ويرعاه وينظمه ويعطيه من المدد ما يستمر به وجوده[2].

ولذلك كان أكثر القائلين بقدم العالم من الفلاسفة من المؤمنين الموحدين، من أمثال أرسطو والفارابي وابن سينا وابن

---

1) منها قولهم: لنفترض أن للعالم بداية.. وبما أن كل بداية تفترض زماناً خالياً سبقها، فمعنى هذا أننا نفترض زماناً سابقاً على وجود العالم كان خالياً منه.. لكن لا يمكن ظهور شئ من زمان خالٍ، لأن الزمان الخالي لا يمتلك شرطاً يميز وجود أو عدم وجود العالم.. أي ليس به مرجح للوجود على العدم.. وهكذا بالنسبة لمحدودية المكان، فإن القول بذلك يعني أن هذا العالم يقع في مكان خالٍ، وهذا مستحيل، إذ ينطوي على القول بأن للعالم صلة بمكان خالٍ، أي باللاشئ.. فلا يبقى إلا القول بأن العالم لامتناه من حيث الامتدادين الزماني والمكاني..

ومنها قولهم: لو فرضنا أن العالم الّذي هو صنع الله لم يكن قديما.. أي أنه كان في فترة من الفترات غير موجود.. فإن هذا لا يخلو من وجوه.. فإمّا أنّ الله كان عاجزا ثمّ صار قادرا، وحين صار قادرا قام بصنعه، وهذا محال.. وإمّا أن يكون قد افتقر لآلة من الآلات، ثمّ وجدت، وهذا أيضا محال، لأنّه من ضروريات كون الإله إلها قدرته المطلقة، وكون كل ما سواه محتاجا له، والآلات مفعولة له، فكيف تكون شرطا في الخلق؟.. وإمّا أنّ الله لم يكن مريدا لوجود الكون، ولذلك بقي معلّقا في العدم حتى أراده.. وهذا أيضا محال، لأنّه يجعل الذّات الإلهيّة محلاّ للحدوث والتغيّر.. ولأنّه ولو افترضنا جواز كونه محلاّ لتجدّد هذه الإرادة، فإنّ هذه الإرادة نفسها المتجدّدة الّتي كانت سببا لإيجاد العالم الحادث، هي نفسها محتاجة لإرادة أخرى متجدّدة لتوجدها لكونها هي نفسها حادثة.. فيتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية، وهذا محال.

2) اقتبسنا بعض المادة العلمية هنا من مقال بعنوان: شرح

رشد وغيرهم كثير.. وردوا على المتكلمين في ذلك والقائلين بأنه لا يستقيم الإيمان بالله مع القول بقدم العالم.. باعتبارهم أن ذلك ناشئ عن النظر المبدئي البسيط، لكن عند التأمل في القضية بعمق نجد أن الأمر لا علاقه له بذلك.. فالظل تابع لصاحبه، ولا يمكن أن يكون موجودا بدونه، ومع ذلك يظل موجودا معه في كل حين.. وهكذا نور الشمس يظل تابعا للشمس مرتبطا بها في كل الأزمنة، مع أنه لا وجود له من دونها.. وهكذا الخالق ـ كما يعبرون ـ فمن ضروريات كونه إله كونه خالقا.. ولذلك ينشأ الخلق عنه كما تنشأ عن الشمس أشعتها من غير ارتباط بزمن.

3 ـ برهان التطبيق:

وهو البرهان الذي يدل على استحالة التسلسل، والمراد منه أن (يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة فيه، وتستند تلك العلة المؤثرة إلى علة أخرى مؤثرة فيها، وهلم جرا إلى غير نهاية)، أي أن تستمر العلية والمعلولية إلى ما لا نهاية[1].

وهذا البرهان مهم جدا، ذلك أن الكثير من الملاحدة يستعملونه في دعواتهم الإلحادية، وذلك عندما يشكلون على المؤمنين بعد طرحهم لبرهان العلية بقولهم: [سلمنا بأن الخلق يحتاج إلى خالق، فمن خلق الله؟]

أو قولهم: (لا شك أنكم أيها المؤمنون بوجود إله، انطلقتم في بحثكم عن الله من السؤال عن علة وجود المادة الأولى للكون.. ثم أجبتم أنفسكم بأن علة وجود المادة الأولى للكون هي

اعتراضات الغزالي على دليل الفلاسفة الأوّل في إثباتهم لقدم العالم، لطفي خيرالله..

1) وننبه إلى الذين يشكلون على البرهان المرتبط بنفيه إلى أنه نُظم في الأصل لإبطال حوادث لا أول لها، كما ذكرنا في تعريفه، وليس لإبطال ما لا آخر له، و الفرق بينهما أنّ وجود حوادث لا آخر لها جائز عقلًا، لأن سبب وجود هذه السلسلة من الحوادث خارج عن ذاتها، و هذا ما لا يمكن أن تقوله في سلسلة الحوادث التي لا أول لها دون أن تقع في تناقض يرفضه العقل السليم.

الله، ونحن نسألكم بنفس ما سألتم به: وما علة وجود الله؟.. لاشك أنكم ستحتالون علينا بأن الله غير معلول الوجود.. وإن كان الأمر كذلك، فلماذا توقفون مبدأ السببية وتعطلونه عندما يتعلق الأمر بالله؟.. وهنا نجيبكم: ولماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود؟!)[1]

ومن الأمثلة على انتشار مثل هذا الإشكال بين الملاحدة، واستعمالهم له، ما عبر عنه [برتراند راسل] في محاضرته المشهورة [لماذا لست مسيحيا]، والتي عبر فيها عن سبب الحاده، فمما جاء فيها قوله: (لقد قبلت لوقت طويل بفرضية المسبب الأول، حتى جاء اليوم الذي تخليت عن هذه الفرضية، وذلك بعد قراءتي لسيرة حياة جون ستيوارت ميل، حيث قال فيها: (لقد علمني والدي إجابة السؤال عمّن خلقني. وبعدها مباشرة طرحت سؤالاً أبعد من هذا، من خلق الإله ؟).. إن هذه الجملة القصيرة، علمتني، إلى الآن، كيف أن مبدأ المسبب الأول هو مبدأ مغالط ومسفسط. فإذا كان لكل شيء مسبب، فيجب أن يكون لله مسبب أيضاً. وإذا كان كل شيء بلا مسبب، فسيكون العالم هو الله! لهذا وجدت أنه لا مصداقية في هذه الفرضية)

ومثله صرح [دوكنز] بقوله: (كل الحجة تدور حول السؤال التالي (من خلق الله) حيث لا يمكن استعمال نظرية الإله المُصمِم لتفسير الخلق المعقد هذا لأن أي إله قادر علي تصميم أي شيء يجب أن يكون علي مستوي أعلى من التعقيد ويتطلب بدورة إلي تفسير)

وبناء على هذا كانت أهمية إتقان استعمال هذا النوع من البراهين في مواجهة هذه الشبهة ونظيراتها من الشبه، ومن الردود التي صاغها المتكلمون في الرد على هذه الشبهة [برهان التطبيق] أو [برهان نفي التسلسل]

---

1) انظر: مقالا بعنوان [الملحد وسؤاله الخاطئ من خلق الله؟]، وانظر:الفيزياء ووجود الخالق د. جعفر شيخ إدريس.. صراع مع الملاحدة حتى العظم الشيخ عبدالرحمن الميداني.. كواشف زيوف الشيخ عبدالرحمن الميداني.

وتقريره هو[2]: أن عالمنا الذي نعيش فيـه غـني بمجموعـة من الظواهر الطبيعية.. وكلّ ظاهرة إمّا أن تكون علّـة أو معلولـة، فهي علّة للظاهرة التي تليها، ومعلولةً لظاهرة قبلها.. ولولا وجـود العلّة لم يحدث المعلول، وبانعدام العلّـة ينعـدم المعلـول.. وهكـذا يتحقّق وجوده بوجودها.

وفي هـذه الحالـة نحن في العلـل الـتي نشـأت بهـا الظـواهر الكونية بين أمرين.. إما أن نصل بها في التسلسل إلى علة نهائيـة هي العلّة الموجدة للكون.. وهي الله تعـالى، وهـو الغـني بالـذات، ويعتبر هو الخالق لهذه السلسلة.. وإمـا أن نسـتمر في التسلسـل إلى ما لا نهاية له من العلل.. وهذا مستحيل عقلا.

وسبب اعتباره مستحيلا هو أنه لا يمكننـا أن نتصـوّر مجموعـة من الكائنات الحيّة ـ والتي كانت فاقدة للحياة يوماً ما، ثم أصبحت فجأة قـادرة عليهـا ــ أنهـا أوجـدت نفسـها من العـدم من دون أن يكون هناك طرف خارجي صاحب قدرة مطلقة هو الذي أوجدها؟

ذلك أن كلّ كـائن في هـذا العـالم يشـهد بصـدق بأنّـه لم يكن صانع نفسه، بل يعترف بوجود علة موجدة له.. وجميعهم يشهدون بـأنّ وجـودهم وحقيقتهم لم تكن من ذات أنفسـهم.. إذن من أين أتى وجودهم وخلقهم، وكيف؟

ليس أمامنا إلاّ طريق واحد، وهو الاعـتراف بـأن كـلّ موجـود حادث وناتج عن موجود غني بالذّات، وعنده يتوقّـف التسلسـل، إذ يعتبر هو العلّة الرئيسية لجميع المعلولات، وهو الخالق القدير.

وبنـاء على ذلـك، فـإن من يـدّعي بـأنّ الكائنـات قـد أوجـدت نفسها من العدم دون اسـتعانة بكـائن خـارجي، يشـابه من يـدعي بأننا يمكن أن نحصل على عدد صحيح عند اجتمـاع مـا لا نهايـة لـه من الأصـفار، أو يمكننـا الحصـول على الوجـود أو الحيـاة عنـدما تتراكم ما لا نهاية من العدوم.

---

2) انظـر: مصـدر الوجـود بين العلم والفلسـفة، الشـيخ جعفـر السبحاني.

وبناء على ذلك كله، فإن وجود هـذه المخلوقـات قـد انحصـر تحقّقها بكـائن حي غـني على الإطلاق، إذ يعتـبر نهايـة للتسلسـل، ومنبعاً للكائنات جميعاً.. وأنه هو العلّة المطلقـة.. ومـا دام كـذلك، فهـو ليس بمعلـول.. فيسـتحيل على العلـة المطلقـة أن تكـون معلولة.. ذلك أن وجودها ينبـع من نفسـها، وهي غـير محتاجـة إلى سواها.

بالإضـافة إلى هـذا هنـاك ردود أخـرى ذكرناهـا في كتـاب [الهاربون من جحيم الإلحادي] نلخصها فيما لي:

الـرد الأول: لـو دخلت إلى مكتبـك ووجـدت كتابـا على الطاولة.. ووجدت في نفس الـوقت رجلا جالسـا على كرسـي، ثم خرجت ورجعت، فوجدت الكتـاب الـذي كـان على الطاولـة داخـل الدرج، ووجدت الرجل جالسا على البساط.. فلا شك أنك ستسـأل من نقل الكتاب إلى الدرج.. دون أن تسأل عمن نقـل الرجـل إلى البساط.

وسبب ذلك أن الكتاب ليس له إرادة، ويحتاج إلى من ينقلـه، ولا يتحـرك بذاتـه، فلـذلك كـان السـؤال منطقيًـا واقعيًـا.. بخلاف السـؤال عن الرجـل، ذلـك أن لديـه قـوة وطاقـة واختيـارا وارادة يستطيع بها أن ينتقل بنفسه من غير أن ينقله أحد.

الـرد الثـاني: أن في هـذا الإعـتراض مغالطـة كبـيرة لمن طرحه، ذلك لأنه يفترض أن الالـه مثلـه.. أي لـه مـادة مثـل مـادة الكون، مما يمكن سحب القياس عليها، وهذا غير صحيح.. فاللـه لا يشبه مخلوقا في شيء..

ولهذا لا يصـح أن نخضـعه لتصـوراتنا، لأنـه ليس شـبيها بشـئ نعرفه حتى نقيسه عليه.. فإذا كـان فـوق تصـوراتنا ومعارفنـا، بـل فـوق قـدرات عقولنـا مهمـا تضـخمت ملايين المـرات، فـإن هـذا السؤال يعد مستحيلا فى حقه، بل وغير منطقى أيضا.

ذلك أن جميع المخلوقات يصح فى حقهـا هـذا السـؤال، لأنهـا تتحرك وفق قوانين نكاد نعرفها جميعـا، ويمكن إخضـاعها للتجربـة والقياس والحسابات الرياضية، لكن اللـه ليس خاضـعا لكـل هـذا،

لأنه فـوق علمنـا وتصـوراتنا، ومـا يمكن أن نقترحـه على مانعرفـه لايمكن اقتراحه على مـاهو فـوق معارفنـا وتصـوراتنا.. بـل الشـئ الوحيد الذى نتأكد منه أنه ليس مشـابها لكـل مـانعرف ومـا نتوقـع معرفته، ولا يمكن أن تسرى عليه تخيلاتنا.

الرد الثالث: وفق أى قانون يمكن أن نسـأل هـذا السـؤال، وهل يمكن للعقل البشرى أن يجعل الله مادة لمعرفته فى ذاته؟.. إن معنى ذلك هو أن هذا العقل البشرى بلغ من القـدرة أن يكـون إلهـا.. ولكن الثـابت أن هـذا العقـل بكـل وسـائله، وبكـل معارفـة الحديثة لايزال عاجزا عن تفسير أشيئا كثيرة فى عـالم الماديـات، ورغم كل معارفه فلا يزال الكون مجهولا بالنسبة لـه، وهـو مـازال يطور ويصحح فى معلوماته كل يوم، ومع كل كشـف جديـد.. فـإذا كـان العقـل ومقاييسـه ومعارفـه لايمكنـه إدراك أغلبيـة الحقـائق المخلوقة، فكيف فى وثبة من الغرور يريد أن يخضع خالقه وخالق معارفه ومقاييسه لأدواتـه البدائيـة هـذه.. إن المنطـق لا يقبـل أن يكون الطفل الذى يحبو، ويسـتطلع الأشـياء من حولـه قـادرا على فهم ما يفهمه الشيخ المجرب العالم.

الـرد الرابع: أن المقـدمات العقليـة الكثـيرة تـدل على أن الأصل في الخالق الوجودُ؛ إذ لو كان الأصل فيـه العـدم لَمَـا أوجـد الكون؛ ففاقد الشيء لا يعطيه، وإذا كـان وجـود اللـه هـو الأصـل، فهذا يستلزم أنه لا يحتاج إلى موجِدٍ يوجده، ولا علة لوجــوده؛ إذ لا يُبحَث عن علةِ وجودِ ما الأصلُ فيه الوجود!

ولهذا، فإن قول القائل: إن خـالق الكـون بحاجـة إلى خـالق، رغم أنه خالق، قـريب من قـول القائـل: إن المِلح يحتـاج إلى ملح كي يكون مالحًا رغم أنه مالح.. وإن السكر يحتاج إلى سـكر حـتى يكون حلوًا رغم أنه سـكر.. وإن الأحمـر يحتـاج إلى اللـون الأحمـر كي يكون أحمرَ رغم أنه أحمر.

وهكذا، فإن قول القائل: (من خلق الله؟) يسـاوي قولـه: مـا الذي سبق الشيء الذي لا شيء قبله؟.. ويساوي قولـه: مـا بدايـة الشيء الذي لا بداية له؟.. ويساوي قوله: ما بدايـة وجـود الشـيء الذي لا بداية لوجوده؟.. وهـذه الأقـوال جميعـا في غايـة السـخف

والسقوط والاستحالة.

الرد الخامس: أولا.. أن الأصل في الخالق الوجود؛ إذ لو كان الأصل فيه العدم لما أوجد الكون؛ لأن فاقد الشيء الذي لا يملِكه ولا يملِك سببًا لإعطائه لا يعطيه، وإذا كان الأصل في الخالق الوجود، فلا يصح أن نسأل عن سبب وجوده.

ثانيا.. إن الله ـ كما تدل عليه الأدلة العقلية الكثيرة ـ أزليٌّ؛ فوجوده ذاتي لا ينفك عنه، فلا يصح أن نسأل عن سبب وجوده، ووجوده ليس له بداية.

ثالثا.. إن الله له الكمال المطلق؛ إذ هوواهبُ الكمال لمخلوقاته؛ فهو أحق بالاتصاف به من الموهوب، وكل كمالٍ ثبت للمخلوق الممكن، فإنه يكون ثابتًا للخالق من باب أَوْلى.. وإذا كان الكمال المطلق لله، والاحتياج يناقض الكمال المطلق، فالكامل المطلَق لا يحتاج إلى غيره، وعليه فالخالق لا يحتاج إلى غيره، وإذا لم يحتَجْ إلى غيره فهو غير معلول، وإذا كان غير معلول فلا يصح أن نسأل عن علته.

رابعا.. إن السؤال عن سبب وجود شيء يصح فيما كان الأصل فيه الحدوث، وأنه لم يكن موجودًا ثم أصبح موجودًا بعد عدم، والله قديم وليس حادثًا.

خامسا.. لو قلنا بأن كلَّ خالق له مَن خلَقه؛ أي: خالق الكون له مَن خلقه، ومَن خلَق خالقَ الكون له مَن خلَقه، ومَن خلَق خالقَ خالقِ الكون له مَن خلَقه، وهكذا إلى ما لا نهاية، فإن هذا يستلزم أنْ لا خالقَ للكون، وهذا باطل لوجود الكون؛ فوجود الكون يستلزم عدم تسلسل الفاعلين إلى ما لا نهاية؛ إذ لا بد أن تصل سلسلة الفاعلين إلى علة غير معلولة، ولا بد مِن سبب تنتهي إليه الأسباب، وليس هناك أسباب لا تنتهي إلى شيء، وإلا لم يكن هناك شيء؛ أي: إن التسلسل في الفاعلين ممنوع، بل لا بد أن نصل إلى نهاية، وهذه النهاية في الفاعلين أو المؤثرين هي إلى الله تعالى.. وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 42].. أي أن كل شيء ينتهي

إليه.

الرد السادس: وهو مثال مبسط عن انتفاء التسلسل في الواقع.. وهو أن هناك مراتب في القيادة في النظام العسكري، حتى أنه لا يطلق جندي رصاصة إلا بعد أمر القائد له بذلك.. فإذا افترضنا أن هذا النظام لا نهاية لتسلسله.. أي أن الجندي قبل أن يرمي الرصاصة يستأذن من المجند الذي فوقه مرتبة، وهو كذلك لا يعطي الإذن حتى يستأذن ممن فوقه، وهكذا إلى ما لا نهاية.. فهل يمكن في هذه الحالة أن يطلق الجندي النار؟

ومن الطبيعي أنه لا يمكن أن يطلق الرصاصة في هذه الحالة، لأنه لن يصل إلى الجندي الذي سيعطيه الإذن بإطلاق النار.

وبذلك فإنه يثبت أنه لابد من انتهاء السلسلة إلى شخص لا يوجد فوقه أحد ليعطيه الإذن بإطلاق النار، حينها ستنطلق الرصاصة.. وبدون هذا الشخص، ومهما كثُر عدد الأشخاص، لن تنطلق الرصاصة؛ لأنهم حينها كالأصفار إذا وضعتها بجانب بعضها البعض، فمهما كثرت وبلغت حدًّا لا نهاية له، فستظل لا تساوي شيئًا، إلا أن يوضع قبلها رقم: 1 فأكثر.. حينها يصبح لها وجود واعتبار.

ثانيا ـ المعاني الرقيقة

ونريد بها أصناف الأدلة التي استعملها الفلاسفة أو الصوفية، وهي الانطلاق من الأعلى إلى الأدنى أو من المكون إلى الكون، ومن أمثلتها برهان الفطرة، وبرهان الصديقين، والبرهان الوجودي أو الأنطولوجي، والبرهان الوجداني.

وقد أطلقنا عليه هذا الاصطلاح لكونها تنطلق من المكون لتصل إلى الكون.. ولذلك كانت معانيها رقيقة ودقيقة، فلا يستوعبها إلا أصحاب النفوس الطاهرة، والقلوب الخاشعة، والأرواح السامية، فلذلك لا معنى لجحودها أو إنكارها بسبب عدم القدرة على فهمها، ذلك أن هناك من له القدرة على ذلك.. ولله طرائق بعدد الخلائق.

ولـذلك لا يصـح لأي منـاظر في الإلحـاد أن ينكـر مثـل هـذه البراهين، فهي أدلة قوية قاطعة، يمكن الاستفادة منها مـع من لـه القـدرة على ذلـك، ذلـك أن البشـر مختلفـون في طبـاعهم، وفي طريقـة تفكـيرهم، فبعضـهم يفكـر تفكـيرا غليظـا كثيفـا محـدودا.. وبعضهم يفكر تفكيرا رقيقا عميقـا واسـعا.. وهم الثلـة القليلـة من أصحاب العقول الذين نسميهم عباقرة.

وهكـذا الأمـر مـع الحقـائق الإيمانيـة.. فهنـاك من يحتـاج إلى الأدلة الكثيفة التي تحاول أن تزيل الغشـاوة عن عينيـه، وقـد تفلح ولا تفلح.. وهناك من يكون مبصرا، لا غشاوة على عينيه، ولذلك لا يحتاج إلى أي أدلة، لأنه مبصر بالفطرة أو الاكتساب.

ومن الأمثلـــة المقربـــة لـــذلك قـــدرات بعض العقـــول في الحساب.. حيث أنه تلقى إليه المسائل العويصـة الصـعبة، فيحلهـا في طرفة عين، وكأنـه يراهـا بـأم عينيـه.. وهنـاك من يبـذل جهـدا كبيرا في حلها، ويستعمل كل ألـوان الأقلام، ومـع ذلـك قـد يخطئ في حلها.

ولذلك كان الداعية الحكيم هو الذي يستعمل لكل قوم لغتهم الخاصة بهم.. فهناك من لا ينجذب عقله للـبراهين القاطعـة، لكنـه ما إن يسمع المعاني الرقيقة حـتى يـذوب فيهـا.. وينتقـل مباشـرة من الإلحاد إلى الإيمان.. ومن الغفلة إلى اليقين.

وقـد ضـرب لنـا القـرآن الكـريم المثـال على ذلـك بسـحرة موسـى عليـه السـلام الـذي آمنـوا بـربهم وسـجدوا لـه وضـحوا بأنفسهم في سبيله لا للخطابات العقلية التي خاطبهم بهـا موسـى عليه السلام، وإنما لما رأوه من حججه الواضحة، وأدلتـه القاطعـة التي تحدثت بها العصا، فقد كـانت الآيـات البـاهرة هي دليلهم إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7].. ويقاس عليه: ولكل أمة رسول.. ولكل عقل حجة.

وهـذا شـرح مختصـر لبعضـها، ومن شـاء التفاصـيل، وكيفيـة الاستعمال، فيمكنه الرجوع لكتاب [الهاربون من جحيم الإلحاد]

1 ـ برهان الفطرة:

وهـو البرهـان المسـتند لـذلك الإيمـان الجبلي الموجـود في الفطـرة الإنسـانية الطـاهرة الـتي لم تتلطخ بـأوزار الماديـة، ولم تتدنس بدنس الكبرياء والغرور والعجب الذي أصاب أصحاب الفكر المادي، والذي أشار إليه قوله تعالى عند خطابه للإنسان في عالم الذر: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]

ونظم هذا الدليل هو أن الإنسان لو ترك وذاته، بدون معلم أو مربي، فإنّه يشعر في أعماق نفسه، وبمـا أودعـه اللـه في خلقتـه بأنّ لهذا الكون خالقا خلقه، ومكوناً كونه، ومبـدعاً أبدعـه، ومـدبراً دبـره هـذا الشـعور نـابع من فطرتـه وذاتـه وليس ممـا تعلمـه من والديه وأهلـه، يولـد معـه، وينمـو معـه، ويبقى معـه لا يتغـير بتغـير الظروف، ولا يمكن انتزاعـه من نفسـه، لأنّـه جـزء لا يتجـزأ منهـا، فكما أنّ غرائز الإنسان ذاتية له لا يمكن فصلها عنه ولا تحتـاج إلى تعليم معلم، وكما أنّ عواطف الإنسان وأحاسيسه جزء من خلقتـه وكيانه البشـرى، فـإنّ شـعوره الفطـري الـذاتي يدفعـه دائمـا إلى الإيمان بأنّ لهذا الكون خالقاً ومدبراً وربّاً.

و لو افترضنا إنساناً يولد في الصحراء بعيـداً عن تعليم الأهـل والمجتمع، ثُمّ يكبر هذا الإنسان حتى يبلـغ سـنّ الرشـد، فإنّـه كمـا يعـرف غرائـزه وأحاسيسـه، فسـيعرف أنّ لـه ربّـاً وخالقـاً، خلقـه وأوجده من العدم، وكما يعرف أنّه يحتاج إلى الطعام لسدّ جوعـه، وإلى الشراب لإرواء عطشه، فإنّه ليعرف كذلك من خلال فطرتـه بأنّه بحاجة إلى خـالق لخلقـه، وموجـد لـه يوجـده من العـدم، أنّـه يبحث بذاته ويتساءل من أين جاء؟ والى أين سيذهب؟ ولمـاذا هـو في هذه الدنيا؟ ولابدّ أن يكون له خالقاً خلقه وكوّنه وأبدعـه، فهـو يؤمن بوجود خالق يتوجه إليه في حاجاته وخصوصـاً عنـد الشـدائد بدون حاجة إلى من يعلمه ذلك.

وقد عبر عن هذا الدليل الفيلسوف الفرنسي ديكارت بقولـه: (لا يبقى ما يقال بعد ذلك إلا أن هذه الفكرة ولـدت ووجـدت معي منذ خلقت، كما ولدت الفكرة التي لدي عن نفسي، والحـق أنـه لا ينبغي أن نعجب من أن الله حين خلقـني غـرس فيّ هـذه الفكـرة

لكي تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته)

بل عبر عنه الفيلسوف الاسكتلندي الشكاك [ديفيد هيوم] الذي قال في [حواراته]: (ليس هنالك من هو أشد مني إحساسًا بالدين المنطبع في نفسي أو أشد تعلقًا بالموجود الإلهي كما ينكشف للعقل بين ابتداع الطبيعة وصناعتها اللذين من الصعب تفسيرهما).. وقال في موضع آخر من الكتاب: (لا توجد حقيقة أظهر وأوضح من وجود إله)

ومما يدل على دلالة الفطرة على وجود الخالق ما يلي[1]:

1 ـ وجود العبودية والتدين عبر تاريخ البشر: لاحظ العلماء أن جميع الأمم التي درس علماء تاريخ الأديان تاريخها اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدَّسها، ولا يوجد عَلَى الإطلاق في أي عصر من العصور، ولا في أي أمة من الأمم مجتمع بلا دين ولا بلا إله معبود، حقاً كَانَ أو باطلاً فهناك اتجاه فطري إِلَى أن يكون هناك دين، وإله معبود حتى قال بعضهم: (لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، لكن لم توجد جماعة بغير ديانة)

وقال [ويليام جيمس ديورَانت]: (صحيح أنّ بعض الشعوب البدائية ليس لها ديانة على الظاهر فبعض قبائل الأقزام في إفريقية لم يكن لهم عقائد أو شعائر دينية على الإطلاق، إلاّ أنّ هذه الحالات نادرة الوقوع ولا يزال الاعتقاد القديم بأنّ الدين ظاهرة تعم البشر جميعاً اعتقاداً سليماً وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية)[2]

وعبر في موضع آخر ـ وهو المؤرخ الكبير للحضارات البشرية ـ عن مدى تجذر الدين في الفطرة، وأن استثمار رجال الدين

1) انظر مقالا بعنوان : [دليل الفطرة] موجود في مواقع مختلفة من بينها بعض المقررات العلمية في مادة العقيدة الإسلامية، وكلها من دون مؤلف.

2) قصة الحضارة: 1 / 99..

لذلك يدل على مدى ترسخه فيها، فيقول: (إنّ الكاهن لم يخلق الدين خلقاً لكن استخدمه لأغراضه كما يستخدم السياسي دوافع الإنسان الفطرية وغرائزه، فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو الاعيب كهنوتية إنّما نشأت عن فطرة الإنسان)(1)

وقال العالم الاجتماعي [صموئيل كونيك] عند حديثه عن جذور الدين في الأسلاف من البشر: (إنّ أسلاف البشر المعاصر ـ كما تشهد آثارهم التى حصل عليها في الحفريات ـ كانوا أصحاب دين، ومتدينين، بدليل أنَّهم كانوا يدفنون موتاهم ضمن طقوس ومراسيم خاصة وكانوا يدفنون معهم أدوات عملهم، وبهذا الطريق كانوا يثبتون اعتقادهم بوجود عالم آخر، وراء هذا العالم)(2)

فالشعور الفطري بوجود خالق مدبر لهذا الكون شعور مشترك بين جميع الناس مغروس في النفوس، يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي والإنسان المتحضر، والجاهل والعالم والباحث والفيلسوف، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم.

يقول الفيلسوف الانجليزي [توماس كارليل] بقوله: (إنّ الذين يريدون إثبات وجود الله بالبرهان والدليل ما هم إلاّ كالذي يريد الاستدلال على وجود الشمس الساطعة الوهّاجة بالفانوس)

2 ـ الالتجاء إلى الله عند الشدائد فالشدائد تصفي جوهر الفطرة: من أوضح الأدلة على فطرية المعرفة بالله عز وجل والإيمان بوجوده ذلك الدافع القوي الذي يُلجئ الإنسان عند المصائب والمخاطر إلى نداء الله تعالى، والاستغاثة به كائناً من كان ذلك الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن ففي الشدة تبدو فطرة الناس جميعاً كما هي في أصلها الذي خلقها الله عليه، وعندما تمر المحنة وتأتي العافية والنعمة يعودون إلى مخالفة فطرتهم من جديد، ويندر أن لا يذكر إنسان أمثلة من حياته عاش فيها هذا

---

1) قصة الحضارة: 1 / 99..

2) كتاب جامعه شناسي : 192.

المعنى قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسان كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 67]

وكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بشدة، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشرعوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه ورجع إليه عندما أحيطت به شدة، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرٍّ نزل به، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22]

3 ـ التساؤلات الفطرية عن الوجود: هناك أسئلة تدور في ذهن الإنسان وتلح على الإنسان في داخله لا يستطيع دفعها عن أصل الوجود ونهايته وسببه، وعن الموت وأسراره، وعن الروح وأسرارها مما يدل على وجود فطرة كافية في النفوس تبرز هذه الأسئلة عن الإله والوجود.

4 ـ احتياج النفس إلى قوة مدبرة: لا ريب أن كل إنسان يشعر في قرارة نفسه بافتقار وحاجة إلى إله قادر مدبر، يرفع إليه حاجاته، ويسند إليه أموره، وهذا الشعور ناشئ عن النقص والعجز الذاتي في أنفسنا، والعاجز يفتقر أبداً إلى من يعينه، والناقص دائماً يحتاج إلى من يكمله.

فنحن نشعر بوجود الروح فينا فنحرص عليها دون أن نشعر بها بإحدى الحواس الظاهرة وفي أنفسنا نشعر بالعواطف والوجدانيات، كالحب والبغض والرغبة والكره، فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا هل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها وهي حق لا شك فيه كذلك حاجة النفس إلى قوة مدبرة.

وتثار حول هذا البرهان بعض الشبهات، وهذا هو تقريرها

وكيفية الرد عليها(1):

1 ـ لوكانت معرفة الله فطرية لما أنكرها أحد: والجواب على هذا هو أن الإقرار بالخالق وكماله يكون فطرياً ضرورياَ في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة.

وما يحصل من ضلال أوانحراف في هذه الفطرة أمر طارئ على هذه الفطرة السليمة فالإنسان قد تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف عن المعبود الحق، والبشر جميعا في كل العصور يبحثون عن إله يعبدونه، وهذا استجابة لنداء مرتكز وموجود في داخلهم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن من أثر عنه إنكار الخالق في البشر قليلون جداً على مرّ التاريخ مقارنة مع من يثبت وجوده، وهذه القلة على قسمين:

أحدهما: من ينكر وجود الله ظاهراً فقط، مع إيمانه بخلاف ذلك في قرارة قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]

والثاني: هو في الحقيقة معترف بوجود صانع مدبر خالق ظاهراً وباطناً، غير أنه يحيل ذلك إلى الطبيعة أوغيرها، مما يدل على وجود علوم أولية فطرية مشوبة بالمؤثرات الخارجية.

2 ـ تطلع العقلاء إلى الاستدلال على وجود الله: فلوكان أمرا فطريا لما كان ذلك، والجواب: أننا لا نسلم أن جميع العقلاء كذلك، بل جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى، وهم مفطورون على ذلك، ولهذا إذا ذكر لأحدهم اسمه تعالى، وجد نفسه ذاكرة له مقبلة عليه، كما إذا ذكر له ما هومعروف عنده من المخلوقات.

---

1) المرجع السابق.

والمتجاهل الذي يقول: إنه لا يعرفه، هوعند الناس أعظم تجاهلاً ممن يقول: إنه لا يعرف ما تواتر خبره من الأنبياء والملوك والمدائن والوقائع، وذلك عندهم أعظم سفسطة من غيره من أنواع السفسطة، ولهذا من تتبع مقالات الناس المخالفة للحس والعقل وجد المسفسطين فيها أعظم بكثير من المسفسطين المنكرين للصانع، فعلم أن معرفته في الفطرة أثبت وأقوى.

والاستدلال على وجود الله رغم دليل الفطرة من باب تعدد الأدلة،وتعدد الأدلة يزيد في التصديق، واليقين، والمعرفة، والإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة.

3 ـ لوكان التوجه إلى الله أمراً فطرياً لما عبد الناس في مختلف العصور آلهة شتى: والجواب على ذلك هو أن الإنسان إذا لم يهتد إلى الله تعالى فإنه يُعبِّد نفسه لأي معبود آخر ليشبع في ذلك نهمته إلى التدين، وذلك كمن استبد به الجوع فإنه إذا لم يجد الطعام الطيب الذي يناسبه فإنه يتناول كل ما يمكن أكله ولوكان خبيثا ليسد به جوعته.

4 ـ فساد هذا الدليل بسبب وجود الملاحدة: والجواب على ذلك هو أن من فسدت فطرته لا يمكن إصلاحها إلا بالحجج والبراهين العقلية، والتي قد لا تجدي معه أيضا، مثل المريض النفسي الذي تنتابه الأوهام التي لا يمكن دفعها عنه بالإقناع أوالتفاهم.

وسبب ذلك هو أن الفطرة قابلة للتغير والانحراف بفعل مؤثرات خارجية، وهذا الانحراف كان هوالسبب في وجود الوثنيات والشرك في الأمم السابقة، وهوأيضا سبب الشرك والضلال في زمننا الحاضر.

2 ـ برهان الصديقين:

وقد سمي بهذا الاسم لكونه لم يستخدم أي واسطة لإثبات

ذات الحق[1]، فالاستدلال فيه على ذات الله بالله، خلافـا للقاعـدة العامّة للاستدلال، والتي تنص على أنه لا بدّ أن يكون لكـلّ برهـان حدّ أوسط لإثبات مطلوبه، كما فعل المتكلّمون الـذين اتّخـذوا من حدوث العالم واسطة لإثبات وجود الله بوصفه [محـدث الأشـياء]، أو ظاهرة النّظام في العالم لإثبات المنظّم.. أو كما فعـل أرسـطو عن طريق الحركة، استنادا إلى أن كلّ حركة تتطلّب محرّكاً، وكـلّ المحرّكين يجب أن ينتهوا إلى محرّك غـير متحـرّك، ومن ثمّ أثبتـوا وجود الله بوصفه [المحرّك الأول]

وهكـذا نـرى في جميـع هـذه الاسـتدلالات أنـه اتُّخـذ عـالم المخلوقات واسطة، فانتقلوا من الشاهد إلى الغائب، ومن العيـان إلى الخفاء.

وتقرير هذا البرهان هو: إنّ حقيقة الوجـود موجـودة، أي إنّهـا عين الموجودية ويستحيل عليها العـدم، ثم إنّ حقيقـة الوجـود في ذاتها، أي في موجوديتها وواقعيتهـا، ليسـت مشـروطة بـأي شـرط وليست مقيّدة بأي قيد.

فالوجود بحكم كونه وجـوداً موجـود، وليس لوجـوده منـاط أو ملاك ما، وليس بفرض وجود شيء آخـر أيضـاً، أي إنّ الوجـود في ذاتـه ليس مشـروطاً بشـرط، ثمّ إنّ الكمـال والعظمـة والشـدّة والاسـتغناء والجلال والكبريـاء والفعليـة والإطلاق، هـذه الصـفات التي تقف مقابل النقص والصغر والإمكـان والمحدوديـة والحاجـة، تنبعث جميعها من الوجود، أي ليس هناك حقيقـة غـير الوجـود، إذاً فالوجود في ذاته يسـاوي اللامشـروطية بشـيء آخـر، أي يسـاوي الوجوب الذاتي الأزلي، ويساوي أيضـاً الكمـال والعظمـة والشـدّة والفعلية.

ونستنتج من هذا أنّ حقيقة الوجود في ذاتها ومع قطع النظـر

---

1) انظر: أصـول الفلسـفة والمنهج الـواقعيّ، ج2، ص 648، وقـد عرضـــت للتفاصـــيل الكثـــيرة المرتبطـــة بـــه وبتقريراتـــه في كتاب[الهـاربون من جحيم الإلحـاد]، واقتصـرت هنـا باختصـار على تقرير الملا صدرا له.

عن أيّ تعيّن يلحقها من الخارج تساوي الذات الأزلية، إذاً فأصالة الوجود تقود عقلنا بشكل مباشر إلى ذات الحقّ لا إلى شيء آخر.. وما سوى الحقّ لا يتعدّى أفعاله وآثاره وظهوراته وتجلّياته، ومن ثمّ لا بدّ من العثور عليه بدليل آخر.

وهذه الواقعيّة التي ندفع بها السّفسطة ونجد كلّ ذي شعور مضطرًّا إلى إثباتها، وهي لا تقبل البطلان والرّفع لذاتها، حتّى إنّ فرض بطلانها ورفعها مستلزم لثبوتها ووضعها، فلو فرضنا بطلان كلّ واقعيّة في وقتٍ أو مطلقًا كانت حينئذٍ كلّ واقعيّة باطلة واقعًا، أي الواقعيّة ثابتةـ وكذا السّوفسطي لو رأى الأشياء موهومة أو شكّ في واقعيّتها، فعنده الأشياء موهومة واقعًا والواقعيّة مشكوكة واقعًا، أي هي ثابتة من حيث هي مرفوعة.

وإذا كانت أصل الواقعيّة لا تقبل العدم والبطلان لذاتها فهي واجبة بالذّات، فهناك واقعيّة واجبة بالذّات والأشياء التي لها واقعيّة مفتقرة إليها في واقعيّتها، قائمة بالوجود بها.

بعد هذه المقدمة، فإننا إذا نظرنا إلى العالم نظرة حسّية وعلمية نجد أنّ العالم يقبل العدم، أي إنّنا نجد الواقع الحسّي محدوداً مشروطاً، فنتعامل مع وجودات توجد في موقع وتفقد في موقع آخر، أو توجد في حين وتفقد أحياناً أخرى، وهي توأم النقص والجزئية والإمكان والمحدودية والمشروطية والتبعية.

ومن ثمّ نضّطر إلى القول بأن (العالم ليس هو عين الواقع الذي لا يقبل النفي، بل يتوفّر على الواقع بواسطة، وبدونها يضحي بلا واقع)، أي إنّنا نحكم بأنّ العالم ليس هو عين حقيقة الوجود، بل العالم ظل الوجود، إذاً فالعالم أثر، وهو ظهور وتجلٍ وشأن واسم.

وبناء على هاتين المقدمتين، فإن العقل الفلسفي المرتكز على المعرفة الوجودية، انطلاقاً من أنّ الوجود وجود، يقودنا قبل كلّ شيء إلى الله، وهو أوّل موجود نتعرّف إليه.

أمّا القراءات التّجريبيّة والحسّيّة فتقودنا إلى الوجودات المحدودة والمقيدة والمشروطة والممكنة التي هي آثاره وأفعاله

وتجلّياته وشؤونه، وعلى هذا المنـوال نكتشـف الـواجب ونكتشـف الممكن أيضاً.

على أنّ الثابت في أبحاث الإلهيات أنّ طريق كشـف الممكن لا ينحصـر في مـا تقـدّم، بـل يمكن اكتشـاف الممكن بواسـطة الواجب، كما أنّ اكتشاف الواجب لا ينحصر بالطريق المتقدّم، بـل يمكن اكتشاف الواجب عن طريق الممكن.

بناء على هذا التقرير فـإن برهـان الصـدّيقين، بحسـب تقريـر [صدر المتألهين] لا يحتاج إلى أكثر من تعقّل الوجود بما هو وجود، والالتفـات إلى أصـل الواقعيـة، وهـو يقـوم على مجموعـة من الأسس، وهي:

1. **أصالة الوجود**: أي إنّ ما له التحقّق هو حقيقـة الوجـود، والماهيات موجودة بالعرض والمجاز.

2. **وحـدة الوجـود**: أي إنّ حقيقـة الوجـود لا تقبـل الكـثرة المتباينة والاختلاف الذي تقبله هو تشكيكي ورتبي، فإمّـا أن يكـون مرتبطاً بالشدّة والضعف والكمـال ونقص الوجـود، وإمّـا أن يكـون مرتبطاً بالامتداد والاتّصال الذي هو نوع من تشابك الوجود والعدم. وعلى كـلّ حـال فـالكثرة المتصـوّرة في الوجـود كـثرة في تـوأم الوحدة، وهي عين الوحدة من زاوية من الزوايا (الوحـدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة).

3. **إنّ حقيقـة الوجـود لا تقبـل العـدم**: فـالموجود من حيث هـو موجـود لا يعـدم، والمعـدوم من حيث كونـه معـدوماً لا يوجد، وحقيقة عدم الموجـودات عبـارة عن محدوديـة الموجـودات الخاصّة، لا أنّ الوجود يقبل العدم، وبعبارة أخرى العدم نسبي.

4. **حقيقـة الوجـود بمـا هو**، تسـاوي الكمـال والإطلاق والغـنى والشـدّة والفعليـة والعظمـة والجلال والإطلاق والنوريـة، بصرف النظر عن أيّ حيثية وجهة تنضـمّ إليـه، أي حقيقـة الوجـود. أمّا النقص والتقيّد والفقر والضعف والإمكان والصـغر والمحدوديـة والتعيّن فكلّها من العدم. إذاً، تنشأ كـلّ تلـك السـمات من العـدم، وحقيقة الوجود تقف مقابل العدم، وما هو من شؤون العدم خارج

عن حقيقة الوجود، أي إنّه منفي عن حقيقة الوجود ومسلوب منها.

5. طروّ العدم وشؤونه والنقص والضعف والمحدودية وغيرها ينشأ من المعلولية، أي إذا كان الوجود معلولاً وفي مرتبة متأخّرة من علّته، فهو في الطبع ذو مرتبة من النقص والضعف والمحدودية، لأنّ المعلول عين الربط والتعلّق والإضافة بالعلّة، ولا يمكن أن يكون في مرتبة العلّة، والمعلول كونه مفاضاً من العلّة فهو عين التأخّر عن العلّة، وعين النقص والضعف والمحدودية.

ومن الشبهات التي تعرض لهذا البرهان القول بأنه من الممكن أن ينشأ وهم بشأن استنتاجنا بأنّ ما هو موجود ينحصر في ذات الواجب وشؤونه وظهوراته وتجلّياته، فيقال إنّ هذا يستلزم نفي العلّية والمعلولية أساساً، بل نفي الممكن والإمكان، لأنّ الفرض هو عدم وجود شيء في البين سوى ذات الحقّ وشؤونه وأسمائه.

لكن هذا الوهم باطل، إذ ينشأ هذا الوهم من عدم إدراك المفهوم الصحيح للعلّية والمعلولية، فيحسب أنّ العلّية لون من الولادة تفرض للعلّة، فتفرز من ذاتها شيئاً إلى الخارج، وتكون حاجة المعلول إلى العلّة نظير حاجة الولد إلى الأم.

لكنّ دراسات صدر المتألهين خصوصا أثبتت أنّ المعلول عين الحاجة وعين الارتباط والتعلّق والارتهان بالعلّة، فالعلّة مقوّمة لوجود المعلول، ومن ثمّ تكون المعلولية مساوية للظهور والشأنية. إذاً، لا منافاة بين هاتين النظريتين.

3 ـ البرهان الوجودي:

ويطلق عليه كذلك [البرهان الأنطولوجي]، وله تقريرات مختلفة تبدأ من الراهب أنسلم، وتنتهي بالفيلسوف الكبير [رينيه ديكارت]، والذي يعتبر بحق [مؤسس الفلسفة الحديثة]

وحتى تتوضح قيمة هذا البرهان، نذكر أنه كان في أوروبا في

ذلك الزمان تياران كلاهما يحاول أن يواجه الإلحاد بأسلوبه الخاص:

أما **التيار الأول**، فتمثل في التوجه الأكويني المنتسب لـ [توماس الأكويني] الذي بنى براهينه على أساس اثنينية العقل والله متأثرا بأفكار أرسطو، وبطروحات الفيلسوف ابن رشد وأتباعه.

أما **التيار الثاني**، فهو التوجه الأغوسطيني الإيماني الذي بنى براهينه على أساس اثنينية النفس والله، وقد تأثر أيضا بالأفكار الصوفية الإسلامية، والتي تدعو إلى البدء في الرحلة من الله للوصول إلى أكوانه.. بل ربما يكون تأثر بالطرح القرآني نفسه، والذي يعتبر الله حقيقة بديهية لا تحتاج إلى أي براهين تدل عليها، فالله تعالى يخبر عن منهج دعوة الرسل لأقوامهم، فيقول: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأرض﴾ [إبراهيم: 10]

بل إن القرآن الكريم يذكر أن وجود الله حقيقة نفسية موجودة حتى في نفوس الملاحدة أنفسهم، وأن سبب عدم اعترافهم بها هو كبرهم وجحودهم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].. ولذلك كان كفرهم هو كفر نفسي، قبل أن يكون كفرا عقليا.. أي أنهم كفروا بحقائق آمنت بها أنفسهم، ودلت عليها فطرهم، لكنهم لكبرهم جحدوها.

وقد كان من أبرز أعلام هذه المدرسة، وربما يكون ديكارت من المتأثرين به والمتتلمذين على يديه الفيلسوف والمتأله [أنسيلم] (1)، والذي تحول في ذلك العصر إلى أفضل ممثل للتوجه الأغوسطيني المؤسس على الإيمان والعرفان.. وميزته أنه حاول أن يكون حلقة وصل بين الأغوسطينية والتوماوية، أو بين الإشراق الداخلي والتأمل العقلي.

---

(1) انظر مقالا بعنوان: البرهان الأنطولوجي عند أنسيلم، عبد العالي العبدوني.

فقد قدم في كتابه [بروسلجيون]، نفسه على أنه الساعي لـ (إيجاد حجة دامغة لا بد أن تكفي ــ وحدها ــ في البرهنة على أن الله موجود حقا، وأنه الخير الأسمى، وأنه غني عن العالمين، وأن جميع الخلق يحتاجون إليه في وجودهم وفي سعادتهم، وفي البرهنة على كل ما نعتقده في الجوهر الإلهي)[1]

ومن التقريرات التي قرر بها هذا البرهان: إنكم مهما تصورتم من كائن ممكن الوجود على أنه أكبر شيء، فسوف تجدون بأنه ليس ذلك الكائن الأكبر، لأنه ليس بوجود حقيقي.. ولهذا السبب يجب على الكائن ذي الكمال المطلق أن يحتوي في وجوده، إلى جانب الكمالات الأخرى، الوجود الواقعي الكامل.. فالوجود الحقيقي هو المكون الماهوي لهذا الكائن اللامتناهي، بخلاف باقي الموجودات الممكنة والتي لا تمتلك هكذا ماهية.

ومنها: إذا كان الله إلها، فإن الله موجود فالوجود الإلهي كفيل للقول بوجود الله.

ومنها: البرهان على وجود الله لا يبدأ من الوجود، بل من فكرة الله نفسها.. ولما كان الله هو ما لا يتصور أعظم منه.. أي الموجود الكامل، وكأن الوجود أحد هذه الكمالات، فالله موجود.. فالموجود الكامل لا يوجد فقط في الذهن، بل أيضا في الواقع وإلا كان مجرد تصور، ولا فرق في ذلك بين المؤمن وغير المؤمن، فهو دليل طبيعي مفطور عليه الإنسان.

ومنها[2]: إن الموجود الذي لا يمكن تصور شيء أعظم منه لا يمكن أن يوجد في العقل وحده، وبالفعل، حتى إذا كان موجودا في العقل وحده، فمن الممكن أن نتصور موجودا مثله له وجود في الواقع أيضا، وهو بالتالي أعظم منه، وعليه، إذا كان موجودا في العقل وحده، فإن الموجود الذي لا يمكن تصور شيء أعظم

---

1) نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط: أوغسطين – أنسيلم – توما الأكويني، حسن حنفي ، ص 137.

2) إميل برهييه في تاريخ الفلسفة (3/51)

منه سيكون من طبيعة تستلزم أن يكون بالإمكان تصور شيء أعظم منه.

وحتى أبسط هذه التقريرات، فقد وضعت حوارا في كتابي [الهاربون من جحيم الإلحاد] على لسان أنسلم وبعض محاوريه، جاء فيه:

قال المحاور: أرى أنك تتكلم كلاما غريبا، لا دلالة له، فهلا وضحته لي، ولهؤلاء الذين يحيطون بك.

قال أنسلم: أجبني.. هل يمكن أن تتصوَّر أي شيء في الذّهن مهما كان عظيما؟

قال المحاور: نعم.. يمكنني ذلك.

قال أنسلم: فهل يمكن أن تتصوَّر ما هو أعظم من ذلك الشَّيء الّذي ورد في خيالك؟

قال المحاور: نعم، يمكن تصوّر شيء أعظم من ذلك.

قال أنسلم: فلنسمِّ هذا الأعظم الذي لا أعظم منه [الله].. أترى أن هذا خاص بك، أم يشمل جميع الناس؟

قال المحاور: بل جميع الناس يستوون في هذا.. حتى الأحمق يمكنه أن يتصوَّر هذا الشَّيء الأعظم في ذهنه؟

قال أنسلم: فهل هذا الشيء الّذي يتصوره الجميع.. المؤمن وغير المؤمن.. موجود في الذهن فقط أم موجود في الذهن، وفي الواقع؟

قال المحاور: ربّما يكون موجودا في الذهن فقط.

قال أنسلم: ألا ترى أننا حين نذكر أنَّ هذا الأعظم موجود في الذّهن فقط نكون قد حقرناه، ولم نعطه أي قيمة، بل إن أي موجود مهما كان حقيرا يصبح أعظم منه.. وبالتّالي فإنَّ هذا الأعظم لا يبقى عظيمًا.

قال المحاور: هذا صحيح...

قال أنسلم: فإذن ليكون هذا الأعظم عظيمًا ينبغي أن يكون موجودًا في الذّهن وفي الواقع.

قال المحاور: نعم، بكلّ تأكيد.

قال أنسلم: إذن، مادمنا نستطيع تصوُّر هذا الموجود الأعظم، والّذي هو الله، فإنَّ هذا يعني أن الله موجود في الذّهن وفي الواقع.

ومن الاعتراضات التي اعترض بها على هذا البرهان ما ذكره راهب مارموتيو، والذي كتب كتابا حاوره فيه على لسان شخص غير مؤمن بوجود خالق للكون قال له فيه: يلزم من برهانك هذا أن مجرد التصور لشيء ما يستلزم وجوده الخارجي.. وبناء على قولك هذا توجد [الجزيرة المثلى].. ولو أن الجزيرة المثلى لم توجد، فإن ذلك سوف يتناقض مع كونها مثلى.. وعليه فإنها وغيرها مما نعتبرها مثاليًا، يجب وجوده.. وهذا أمر غير منطقي؛ لأن الجزيرة المثلى لا توجد بالفعل.. وإذا كانت البراهين الموازية للبرهان الأصلي غير منطقية فالأخير يكون غير منطقي كذلك.

وقد كتب له أنسلم ردًا يقول له فيه: (فرق كبير بين الوجود الواجب، والوجود الممكن.. أما الجزيرة التي ذكرتها ورحت تشنع بها علي فهي ممكنة، ووجودها ممكن؛ لأنه يفتقر إلى وجود البحر والأرض، والجزر نفسها لا يلزم وجودها، فهو إذن وجود غير واجب.. فكيف تبطل ما ذكرت بما ذكرت.. وكيف تبطل بالممكن الواجب)

أما ديكارت، والذي كان له دور كبير في عصره وغيره من العصور، حيث راح يلغي ثنائية العقل والإيمان، باطراح الإيمان، وإعادة حقوق العقل إليه، وتخليصه من الحسبانية، وقضائه على الشك، بسلاحٍ مأخوذٍ من الشك نفسه، كما عبر عن ذلك بقوله: (إن قضية [أدرك فأنا إذن موجودٌ] حقيقةٌ بديهية، وهذه الحقيقة لا تسقط في أي زمان بساحة الذاكرة، ولا تزال غير فاقدة لبداهتها حتى تصل إلى الله؛ فإذا وصلت إليه تُيقِّن أن العقل أنشئ لفهم الحقيقة، ويتضمن هذا اليقينَ المقدماتُ المستخدمة في إثبات

وجود الله أيضاً)[1]

وهو يقصد بذلك أنه يشك في كل ما ليس بمبرهن عليه، ولا يُقبَل، ما عدا الظاهر بذاته، أو بغيره، أو تدل الأدلة والبراهين عليه..

وقد مارس بذلك ما مارسه جميع المؤمنين الذي قد ينطلقون من الشك، ليحققوا الإيمان، فالخروج من الإيمان الوراثي يستدعي طرح تساؤلات تشكيكية ليصل صاحبها بعدها إلى بحر الحقيقة الذي لا ساحل له.. ولذلك يحتاج إلى أن يبحر في زورق صحيح من البراهين العقلية، ليتمكن من الاستمرار في الطريق.

لقد فعل ذلك الكثير من الفلاسفة والمفكرين، ومنهم [طوماس في سوم أولوزيك] الذي بدأ أبحاثه الإلهية بطرح هذا السؤال: (هل الله موجود؟)، ثم راح يجيب عليه بقوله: (و ليكن جوابنا بالنفي).. ثم راح يورد الاعتراضات العقلية على ذلك النفي إلى أن أثبت الوجود.

والميزة التي جعلت من ديكارت أستاذا للإيمان كما أنه أستاذ في الفلسفة هو اعتباره لموجودية الإدراك الأساس الذي ينطلق منه اكتشاف الحقائق، كما عبر عن ذلك بقوله: (مهما كان ترتيب المعاني، الذي يراد تقريره في الفلسفة، فالشيء الذي يبقى حقيقة دائماً، هو الشعور؛ فقد أشك في وجود الأجسام، وقد أشك في وجود الله، وفي الحقائق الرياضية؛ لكن لا أشك أصلاً في وجود شعوري، لأن شكي في وجود شعوري، شعورٌ أيضاً؛ والحال أن شعوري، أي شكي معناه أني موجودٌ، فإن من لا يوجد، لا يشكّ أيضاً؛ وبناءً عليه، فأنا مدرك، شاعرٌ، موجودٌ، من حيثُ أني مدركٌ، إن لم أكن موجوداً بأي حيثية)

وبناء على هذا لم يستعمل ديكارت الأدلة الطبيعية.. لا الدليل الكياني.. ولا دليل العلة الغائية.. الذي استعمله سائر الفلاسفة.. لأنه رأى أن وجودَ الكائنات المادية يحتاج أولا إلى إثبات وجودها

1) المطالب والمذاهب، (ص: 68).

إلى وجود الله؛ والذي لا يحتاج في إثبـات وجـوده إلى وجـود اللـه، إنما هو وجود نفسه، فلا دور.. فوجود نفسه، المستفاد من إدراكه، هو الحقيقة الأولى الثابتة، ثم يـترتب عليـه وجـود اللـه، ثم يـترتب عليه ثبوت وجود العالم.

ففلسفة ديكارت بهذا تمتاز بكونه أثبت وجود الله، قبل إثبات وجـود العـالم المـادي، واسـتدل عليـه من وجـود نفسـه الناطقـة، ووجود شعوره، وتمتاز أيضـاً بكونـه بـنى حقيـة وجـود العـالم على صدوقية الله.

لعل كل ذلك.. وكل تلـك المعـاني السـامية الـتي أشـار إليهـا ديكـارت متضـمنة في قولـه تعـالى: ﴿فَـوَرَبِّ السَّـمَاءِ وَالأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23]، فقد أخبر الله تعـالى في هذه الآية الكريمة عن أحقية ربوبية الله للكون بدليل شـعوري نفسي وهو النطق.. فكمـا أن الإنسـان يشـعر بنطقـه، ولا يجادلـه أحد في وجوده، فإن ذلـك الشـعور لابـد أن يكـون أداتـه ووسـيلته للوصول إلى الحق.

بنــاء على هــذا، راح ديكــارت مثلــه مثــل أنســلم والقــديس أوغسـطين وغيرهمـا من الفلاسـفة والبـاحثين عن اللـه يخـاطبون زمر المشككين واللاأدريين والملاحدة بقولـه: إذا قلت اللـه، فـإني أفهم منه جوهراً أزلياً غير متنـاهٍ، ولا قابـلٍ للتغـير، عليمـاً، قـديراً، أوجدني وسـائر الأشـياء على تقـدير ثبوتهـا.. فمن أين يـأتيني هـذا المفهـوم؟.. ومن حيث أنـه معـنى من المعـاني، يلـزم أن يوضـح منشـأه؟.. وهب أني لكـوني جـوهراً، أتصـور في نفسـي جـوهراً غيري، ولكني جوهرٌ متناهٍ؛ فكيف أتصـور جـوهراً غـير متنـاهٍ؟.. ألا يكفي هذا للدلالة على وجود الله؟

وكان يقول ـ مخاطبا علماء الرياضـيات والهندسـة [1] ــ: من الحقائق ما هو ضروريٌّ أزلي، وتلك الحقائق لا تخرج من أن تكون حقاً، ولو لم يوجد شيءٌ من الأشياء، التي تعمل فيها، مثلاً إن زوايا

---

1) هذا الاستدلال في إثبات وجود الله للفيلسوف بوسسـوئه، وهـو يشبه ما يطرحه ديكارت..

المثلث مساوية لقـائمتين، فلا تحتـاج هـذه الحقيقـة في أن تكـون حقاًّ، إلى تحقـق أي مثلث في الواقـع، ولا تحتـاج أيضـاً إلى وجـود الذهن الإنساني ليعلمها، فهي حقٌّ، ولو لم يوجد إنسان في الـدنيا، وإذا لم يكن لها أي توقف على العـالم، ولا على الـروح الإنسـانية، لزم أن تكون مربوطة بوجود آخر.

وكان يقول مخاطبا لهم: إن وجود الله يقيني، أكثر من يقينية الدعاوى الهندسية، والقوانين الرياضية، لأن تلـك الـدعاوى، وتلـك القوانين التي لا تحتاج في كونها حقـاًّ، ثابتـةٌ إلى وجـود مـا تنطبـق عليـه من الكائنـات في العـالم، ولا في أذهـان من يتصـورونها من علماء البشر الرياضيين.

وكانوا يقـول مخاطبـا الـذين لم يستسـيغوا رفض التسلسـل، ولم تقنعهم البراهين المرتبطة بذلك: أنتم لستم في حاجة للبرهنة على بطلان التسلسل، فبقاء الكون على ما عليه دليل على اللــه.. ذلك أن حفظ الجوهر، وإبقـاءه، عينُ خلقـه.. فمن خلقـني سـابقاً، هـو الـذي يبقيـني حـالاً؛ مـع أني لا يمكنـني إن لم أسـنده إلى من يملك جميع الكمالات، وأجد مفهومه في ذهـني، أن أسـنده لا إليّ، ولا إلى والديّ، ولا إلى أيّ علة أخرى.

وكـان يـرد على الـذين يناقشـونه في هـذا الـدليل بقولـه: إن العلة الموجدة لأي شيء، يلزم أن تبقى ما دام معلولها باقياً، حتى لو زالت علته، انعدم معها المعلول، فيكون زوال العلة علـةٌ لعـدم الحادث؛ ومن هنا يقال: (علة العدمِ، عدم العلة)

ومن أحسن تقريراته للـدليل الوجـودي مـا عـبر عنـه بقولـه: (إني لأتصور هذه المشابهة المتضمنة لفكرة الله بعين الملكة التي أتصور بها نفسي، أي أني حيث أجعل نفسـي موضـوع تفكـيري، لا أتبين فقط أني شيء ناقص، غير تـام، ومعتمـد على غـيري، ودائم النزوع والاشتياق إلى شـيء أحن وأعظم مـني، بـل أعـرف أيضـاً وفي الوقت نفسه أن الذي اعتمد عليـه يملـك في ذاتـه كـل هـذه الأشياء العظيمة التي أشتاق إليهـا، والـتي أجـد في نفسـي أفكـارً عنها، وأنه يملكها لاعلى نحو معين أو بالقوة فحسب، بل يتمتع بهـا في الواقع وبالفعل وإلى غير نهاية، ومن ثم أعرف أنه هو الله)

وعـبر عنـه في محـل آخـر، فقـال: مـا دمتم لا تنظـرون إلى أنفسكم.. فانظروا إلي أنا جيدا.. انظـروا إلى ديكـارت.. وسـترون أنه موجود غير تام الكمال.. بل ناقص.. وهـو ليس الكـائن الوحيـد في الوجود، إذ لابد لوجوده من علة.. والعلة لابد أن تكون مكافئـة على الأقل للمعلـول إن لم تكن أكـثر منـه فضـلاً وكيفـاً.. وبمـا أن ديكارت الذي يقـف أمـامكم ليس علـة لوجـود نفسـه، إذ لـو كـان كذلك لاستطاع أن يحصل من نفسه لنفسه على كل مـايعرف أنـه ينقصه من الكمالات، لأن الكمـال ليس إلا محمـولاً من محمـولات الوجود، والذي يستطيع أن يهب الوجود يستطيع أن يهب الكمـال.. والتأمل في هذا يدلكم على وجـود علـة وجـوده، وهي ذات تتـوفر على كـل مـا لا يمكن تصـوره من الكمـالات وهـذه هي ذات اللـه تعالى (1).

وعــبر عنــه في محــل آخــر مخاطبــا بــه بعض المهندســين والرياضيين، فقـال: كمـا أن فكرتنـا عن المثلث تسـتتبع أن تكـون زواياه الداخلية مساوية لقائمتين (180 درجة)، كذلك فـإن فكرتنـا عن الله باعتباره كائناً كـاملاً متناهيـاً تسـتلزم وجـوده بالضـرورة.. ففكرة الوجود متضمنة في تعريف المثلث.. وعليـه فـإذا كـان من التناقض أن نعتبر الزوايا الداخلية للمثلث لاتسـاوي قـائمتين، فمن التناقض كذلك أن نعتبر الله غير موجود، لأن الوجـود متضـمن في ماهية اللـه على نحـو مـا تكـون مسـاواة الزوايـا الداخليـة للمثلث لقائمتين متضمنة في تعريف المثلث.

ويذكرنا هذا البرهـان الأخـير ببرهـان ذكـره [ابن حـزم]، وهـو مهم خصوصا لمن لهم ميول رياضية، وهذا ملخصـه (2): إن خاصـة العدد هو أن يوجد عدد آخر مساو له، وعدد آخر ليس مسـاوياً لـه، هذا لا يخلو منه عدد أصلاً.. المسـاواة هي أن تكـون أبعاضـه كلهـا

---

1) الفلســــفة الحديثــــة من ديكـــــارت إلى هيـــــوم، ص 97. وانظر:دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، د/ يحي هويـدي، ص 46.. بتصرف.

2) انظر: الفصل لابن حزم 1/83-84.

مساوية له إذا جزئت.. فالفرد والفرد مساويان للاثنين، والزوج والفرد ليسا مساويين للزوج الذي هو الاثنان، والخمسة مساوية للاثنين والثلاثة، غير مساوية للثلاثة.. وهكذا كل عدد في العالم.

فكل ما كان له أبعاض فهو مركب كثيراً بلا شك، فهو إذن بالضرورة ليس واحداً، فالواحد ضرورة هو الذي لا أبعاض له.

وبناء على هذا، فإن الحس وضرورة العقل يشهدان بوجود الواحد، إذ لو لم يكن الواحد موجوداً لم يقدر على عدد أصلاً، إذ الواحد مبدأ العدد والمعدود الذي لا يوصل الى عدد ولا معدود إلا بعد وجوده، ولو لم يوجد الواحد لما وجد في العالم عدد ولا معدود أصلاً.

وبما أن العالم كله أعداد ومعدودات موجودة.. فإن الواحد لابد أن يكون موجودا بالضرورة، ذلك أنه لو نظرنا في العالم كله نظراً طبيعياً ضرورياً لم نجد فيه واحداً على الحقيقة البتة بوجه من الوجوه، لأن كل جرم من العالم منقسم.. محتمل للتجزئة.. متكثر بالانقسام أبداً بلا نهاية.. وكل حركة فهي أيضاً منقسمة بانقسام المتحرك بها الذي هو المدة.. وكذلك كل معقول، من جنس أو نوع أو فصل.. وكذلك كل عرض محمول في جرم فإنه منقسم بانقسام حامله.. وهذا أمر يعلم بضرورة العقل والمشاهدة.

وبما أن أمر العالم هكذا، وليس في العالم واحد البتة.. وبما أن البرهان قائم على ضرورة وجود الواحد، فإذن لابد من وجوده.. وبما أنه ليس في العالم، فهو إذا شيء غير العالم.

ثالثا ـ العناية الرحيمة

ونقصد بها أصناف الأدلة التي استعملها الفلاسفة والمتكلمون والعلماء، والتي تتعلق بالنظر إلى عناية الله بعباده ورحمته بهم، عبر المظاهر المختلفة لتلك العناية، والتي دل العلم الحديث على تفاصيل الكثير منها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الاستدلال عند

ذكره لنعم الله على عباده، فالله تعالى يخاطب عباده بكل حنان ورحمة، ويقول لهم: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ [النبأ: 6 ـ 16]

وهذا النوع من البراهين يحوي الكثير من البراهين الفرعية التي لا عداد لها، لأن نعم الله لا عد لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: 18]، وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]

ولهذا يبتلي الله عباده بسلب النعم، لا عقوبة لهم، وإنما تأديبا وتربية ليكتشفوا حقيقة المنعم، لأنه لا سعادة لهم إلا في جواره وصحبته، والعيش في ظلال رعايته وعنايته، وقد ذكر الله تعالى ذلك التأديب الإلهي الذي حصل لقوم فرعون عندما أعرضوا عن موسى عليه السلام، والذي نص عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134)﴾ [الأعراف: 132 ـ 134]

وقد ذكرت في كتاب [الهاربون من جحيم الإلحاد] الكثير من البراهين المرتبطة بهذا النوع، أكتفي هنا بتلخيص أحدها، وهو ما أطلقت عليه [برهان التسخير]، والذي ذكرت فيه اهتمام ابن رشد به، ودعوته إليه، واعتباره أفضل من الأدلة التي يستعملها المتكلمون والفلاسفة.

وقد قال معبرا عن ذلك: (الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها إذا استقرىء الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين: أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان

وخلق جميع الموجودات من أجلها ولنسم هذه (دليل العناية).. والطريقة الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذه (دليل الاختراع)

ثم ذكر وجه الاستدلال على البرهان الأول [برهان العناية].. فذكر أنه ينبني على أصلين بقدر فهمهما والرسوخ في معرفتهما، بقدر ما يتوضح البرهان، وتزال الإشكالات المرتبطة به.

أما الأصل الأول، فهو (أن جميع الموجودات التي ها هنا موافقة لوجود الإنسان)، وأما الأصل الثاني، فهو (أن هذه الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك، مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق.. أي صدفة)

ثم فصل بعض الحقائق المرتبطة بالأصل الأول، فقال: (فأما كونها موافقة لوجود الإنسان، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والمكان الذي هو فيه أيضا وهو الأرض، وكذلك تظهر أيضا موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة، الأرض والماء والنار والهواء، وكذلك أيضا تظهر العناية في أعضاء البدن وأعضاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده.. وبالجملة فمعرفة ذلك أعني منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس، ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع المجودات)

وهكذا ذكر [دلالة الاختراع] على الله، ولها علاقة أيضا بـ [دلالة العناية]؛ فذكر أنها أيضا تنبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فِطر الناس، أما أحدهما، فهو (أن هذه الموجودات مخترعة.. فإنا نرى أجساما جمادية، ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعا أن ها هنا موجدا للحياة ومنعما بها، وهو الله تبارك وتعالى.. وأما السموات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما ها هنا ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة)

وأما الأصل الثاني، فهو (أن كل مُخـترَع فلـه مُختَـرِع، فيصـح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلا مخترِعا له)

وبنـاء على هـذا، فقـد دعـا ابن رشـد إلى البحث في الآفـاق والأنفس للتعرف على الله.. فقد نصب اللـه دلائـل التعـرف عليـه في مخلوقاتـه، قـال تعـالى: ﴿ سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]

يقول في ذلك: (ولذلك كان واجبـا على من أراد معرفـة اللـه حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعـرف حقيقة الاختراع، وإلى هـذا الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُـرُوا فِي مَلَكُـوتِ السَّـمَاوَاتِ وَالأرض وَمَـا خَلَـقَ اللَّهُ مِنْ شَـيْءٍ﴾ [الأعراف: 185].. وكذلك أيضا من تتبع معـنى الحكمـة في وجـود موجـود، أعـني معرفـة السـبب الـذي من أجلـه خلـق، والغايـة المقصودة به كان وقوفه عى دليل العناية أتم)

ثم ذكر أن هذا النوع من الأدلة هو الذي دلت عليـه النصـوص المقدسـة، ففي القـرآن الكـريم الكثـير من (الآيـات المنبهـة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه في الكتـاب العزيـز وهي منحصـرة في هـذين الجنسـين من الأدلـة، فـذلك بيّن لمن تأمـل الآيـات الـواردة في الكتـاب العزيـز في هـذا المعـنى.. وذلـك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذه المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيـه على دلالـة العنايـة، وإمـا آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيـات تجمـع الأمـرين من الدلالة جميعا)

رابعا ـ الصنعة العجيبة

ونقصد بها أصناف الأدلة الـتي يسـتعملها علم الكلام الجديـد، والعلمـاء المعاصـرون في الدلالـة على اللـه انطلاقـا من براعـة الصنعة وإتقانها، فالصنعة المتقنة تدل على الصانع المبدع.

ونستفيد هذا النوع من الأدلة من خلال ما كتبه علماء الفيزياء

والفلك والطب وغيرهم في هذا الجانب، وهو ما يستدعي من الداعية الذي يريد أن يناظر الملاحدة أن يكون على اطلاع بالكثير من أمثال هذه المعارف العلمية التي تصب في بحر الإيمان.

وقد ذكرت في كتاب [الهاربون من جحيم الإلحاد] و[الكون بين التوحيد والإلحاد] و[الحياة تصميم لا صدفة] الكثير من البراهين المرتبطة بهذا النوع، وسنرى بعض ما يرتبط بها في الفصول المخصصة لهذا في هذا الكتاب.

وأحب أن أشير هنا فقط إلى برهان من تلك البراهين تحدث عنه الكثير ممن اهتم بهذا النوع من الأدلة، وهو [برهان التصميم]، وهو برهان خصص له هارون يحيى كتابه المعروف [التصميم في الطبيعة]، وقد أشار في مقدمته إلى المباني التي يتأسس عليها هذا البرهان.

فقد ذكر[1] أنه عند النظر في الكائنات المختلفة نجد أنها ذات تصميم بديع فريد ممتلئ بالغرابة.. وبما أن كل تصميم لا بد له من مصمم.. فالنتيجة الطبيعية لتينك المقدمتين الضروريتين هي أنه لا بد لهذه الخلائق من خالق خلقها وقت ما يشاء، وحفظ بقاءها بقوة وحكمة مطلقة.

ونحن في الواقع نتعامل بهذا المنطق مع كل المنتجات، فعندما نرى العلامة الموجودة في منتصف حبة الأسبرين، يخطر على بالنا مباشرة أنها صممت خصيصا لمساعدة أولئك الذين يتناولون نصف جرعة.. وأن تلك العلامة ليست عبثا، وإنما هناك قوة خارجية وضعتها، وصممتها بذلك الشكل.

وهكذا، فإن كل منتج موجود حولنا، حتى ولو لم يكن ببساطة حبة الأسبرين، له تصميم مميز، بدءاً من المركبات التي نخرج بها إلى العمل وانتهاء بجهاز التحكم عن بعد.

ولهذا فإنه لا يصعب على أحدنا أن يفكر في أن السيارة نوع

---

1) انظر: التصميم في الطبيعة: هارون يحيى، ترجمة:أورخان محمد علي.

من أنــواع التصــاميم، ذلــك لأن الهــدف من تصــنيعها هــو نقــل الأشـخاص والشـحنات، وحسـب هـذا الهـدف يتم تصـميم الأجـزاء المختلفة مثل المحرك والإطارات وجسم السـيارة، وتجميعهـا في المصنع.

وعندما ننتقل من هذه التصميمات البشـرية إلى التصـميمات الموجودة في الطبيعة نجد العجب العجاب.. فهـل يمكن أن تكـون تلك التصميمات التي هي أدق بكثير من تصميماتنا جـاءت وحـدها، ومن غير وجود مصمم صممها؟

هل يمكن أن تكون اليدان اللتـان تعملان بشـكل لا يمكن لأي رجـل آلي أن يعمـل بـه، والعينـان اللتـان تنفـذان عمليـة الرؤيـة بطريقـة لا يمكن لأفضـل آلـة تصـوير في العـالم أن تنفـذها.. هـل يمكن أن يكون كل ذلك جاء صدفة، ومن غير تصميم مقصود؟

وعنـدما يصـل أحـدنا إلى هـذه النتيجـة الهامـة، يجـد أن كـل المخلوقات الموجودة على سـطح الأرض، بمـا فيهـا نحن، هي في الحقيقة تصميم فريد، وكل تصميم لا بد له من مصمم، إذن: لا بــد لهذه الخلائق من خالق خلقها وقت ما يشاء، وحفـظ بقاءهـا بقـوة وحكمة مطلقة.

خامسا ـ النظام البديع

ونقصد بها أصناف الأدلـة الـتي يسـتعملها علم الكلام الجديـد خصوصـا لنفي العشـوائية والصـدفة.. فالنظـام يحتـاج إلى منظم، ويستدعيه بالضرورة العقلية، وقد ذكرت في كتـاب [الهـاربون من جحيم الإلحاد] الكثير من البراهين المرتبطة بهذا النوع.

وأحب أن أنقــل هنــا نصــا قــد يوضــح كيفيــة اســتخدام هــذا البرهان، وهو ما يرتبط بالثبات في قـوانين الكـون، وهـو جـزء من النظام الذي يحكمه.

فقد ذكرت فيه على لسان المؤمن الهارب من جحيم الإلحـاد قوله: لا أزال أذكر تلك الأيام جيدا، حينها كنت أجمع بين تخصصين علمــيين: تخصــص في العلــوم القانونيــة، وتخصــص في العلــوم

المادية.. وقد كان من فضل الله علي الجمع بين ذينك التخصصين.. فقد كان الأول هو من دعاني لتصحيح أخطائي عن الثاني.. وكان الثاني هو ملهمي في تعديل بعض أفكاري في التخصص الأول.

لقد كان مما شد انتباهي في الكون، كما شد انتباهي في المجتمعات القوانين التي تحكمها، فقد كنت أرى أن ثبات القوانين وحزمها ودقتها هي وحدها الكفيلة بتنظيم المجتمعات ورقيها، وأن تخلفها هو سبب كل المآسي التي تحصل لها.. وقد دفعني إلى ذلك ما كنت أراه في المجتمعات المتخلفة من عدم التزام بالقوانين، وتلاعب بها، واحتيال عليها.

وقد شاء الله أن يكون ذلك التفكير هو المقدمة التي أركب بها سفينة الإيمان، لأجلس فيها معكم هذا المجلس..

والبداية كانت مع القوانين الفيزيائية والكيميائية التي بهرتني بثباتها الذي لولاه لم يكن الكون بالصورة التي هو عليها.. بل لولاه لم تكن هناك علوم ولا معارف أصلا، فهي جميعا وليدة للثبات الذي بنيت عليه قوانين الكون ونواميسه.

من الأمثلة على ذلك[1] قوانين [الانصهار والجمود] في المعادن.. فالمواد الصلبة تتحول إلى حالة سائلة بالانصهار.. ولولا هذه الخاصة لم نتمكن من استخراج المعادن من مظانها لاختلاطها بالتربة.. وكيف يمكن أن نعيد تشكيلها لولا انصهارها وتجمدها.. فبالانصهار والتجمد نأخذ المعادن من أعماق الأرض، وبهما نشكل المعادن كما نريد.. وقد جعلني هذا أتساءل عن المقنن الذي وضع لها هذه القوانين، والتي كانت سببا في الاستفادة منها، ولولا ذلك لم يستفد منها أحد.

ومن الأمثلة على ذلك قوانين [التبخر والتكثيف]، فلولا هذان القانونان لم تنزل الأمطار، ولم تتشكل ذلك أن البحر الملح الأجاج، هو الذي يتبخر ماؤه بفعل أشعة الشمس ليتشكل منه

---

1) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: محمد راتب النابلسي.

المـاء، فمن الـذي قنن قـانون ذلـك التبخـر؟.. ومن قنن قـانون التكـثيف حيث يتحـول المـاء إلى بخـار، والبخـار إلى مـاء دون أن تعلق المواد الراسبة في السائل في البخار؟

مع العلم أنه لولا هذين القانونين.. قـانون التبخـر والتكـثيف.. لما كانت أمطار، ولما كانت مياه عذبة نشربها، ونرتوي بها.

وهكذا رحت أنظـر في ظـاهرة الـذوبان.. فلـولا ذوبـان أملاح المعـادن في المـاء لمـا أمكن للنبـات أن يأخـذ كـل المعـادن من التربة.. فكل أملاح المعادن تذوب في المـاء، ثم يصـعد المـاء مـع أملاح المعادن المذابة، لتأخذ الأوراق حاجتها.. ولولا هذه الظـاهرة والقوانين المرتبطة بها لما ذابت الأطعمة على شكل سائل، ولمـا تنقل هذا السائل إلى الدم، ليتحول إلى الخلايا.

وذكـرت فيـه بعض الـردود على من يعتـبر الطبيعـة مقننـا للقوانين، ومنها هذا الرد الذي تضمنه هذا الحوار:

قـال ذلـك، ثم راح يسـألني عن تخصصـي الأول في القـانون إلى الدرجة التي ظننت أنه قد خرج من الموضوع، لكني اكتشفت أنه راح يستثمر تخصصي فيه ليقنعني بما ذكره لي.

قال لي: بحكم خبرتك في القانون وفي تواريخ القوانين.. هل رأيت قانونا يحكم أي مجتمع من المجتمعات دون أن تكـون هنـاك جهة ما قامت بتشريعه.. وجهة أخرى قامت بتنفيذه.. وجهة أخـرى راحت تراقب الصرامة في ذلك التنفيذ؟

قلت: أجـل.. فلا يوجـد قـانون من دون مقنن.. ولا نظـام من دون منظم.

قال: فكيف نحكم على هذه القوانين المنظمة للكون، والـتي لولاها لم يكن بالصورة التي هو عليها، بأنها صدرت من غـير مقنن ولا منظم ولا مقدر؟

قلت: أساتذتنا يذكرون أنها الطبيعة.

ابتسـم، وقـال: مـا دام للطبيعـة كـل هـذه السـلطة، فلم لم

تذهب إلى تلك الشعوب المتخلفة، لتفرض عليها من القـوانين مـا يخرجها من تخلفها وفوضاها وعبثيتها.

قلت: في إمكان تلك الشعوب أن تنظم نفسها بنفسها.

قال: لكنها لم تفعل.. فكيف سكتت الطبيعة عنها؟

قلت: أنت تتحـدث عن الطبيعـة، وكأنهـا كـائن مسـتقل لـه قدراته الخاصة.

قال: وما هي إذن؟

قلت: هي القوانين نفسها.

قال: فهل يمكن للقوانين وحدها أن تفعل شـيئا.. وهـل يمكن للقوانين أن تصدر من غير عاقل ولا واع ولا مدرك؟

سادسا ـ الآيات الباهرة

ونقصد بها أصناف الأدلـة الـتي تواجـه الأطروحـات الإلحاديـة التي تتصور أن الأدلة على الله أدلة نظريـة وفلسـفية فقـط، ليس لها أي جـانب حسـي أو تجريـبي.. فهي تعطي الكثـير من المنـاهج الـتي يمكنهـا أن تحـول الإيمـان باللـه إلى تجربـة حسـية، كسـائر التجارب.

وهو ما أشار إليه أبو العتاهية بقوله:

وفي كل شيء له تدل على أنه

فأدلـة الوحدانيـة هي نفسـها هي أدلـة الوجـود، ولهـذا نـرى القرآن الكريم يشير كثـيرا إلى هـذا النـوع من الـبراهين، كمـا في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأرض وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرض لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقـرة: 164]، وغيرهـا من الآيـات الكثـيرة الـتي تدعو إلى النظر في الآيـات المبثوثـة في الكـون.. فكـل آيـة منهـا

دليل قائم بذاته على الله.

وقـد بين بعض المعاصـرين[1] أهميـة هـذا النـوع من الأدلـة فقال: (هذه الحجة القرآنية ـ التي أسـميناها دليـل الآيـات ــ يمكن وضــعها هي الأخــرى في صــيغة من الصــيغ المنطقيــة العقليــة المعروفــة، وذلــك أن الحجج المنطقيــة ليســت محصــورة في الاستنباط، أو ما كان يسميه علماؤنا بقيـاس الشـمول، بـل هنالـك حجج أخرى منطقية عقلية صحيحة يسـتعملها النـاس في علـومهم بل في حياتهم اليومية، وإن لم يصوغها الصياغات المنطقية) [2]

ثم وضـع صـياغة منطقيـة لهـذا النـوع من الـبراهين، فقـال: (والحجـة القرآنيـة هـذه يمكن وضـعها في هـذا الشـكل المنطقي، كـأن نقـول مخـاطبين الملحـد: أنت تعلم من نفسـك أنـك حـادث وجدت بعد أن لم تكن.. فإما أن تكون قد وجدت من العــدم أو أن شــيئاً أوجــدك.. من المســتحيل أن توجــد من العــدم.. إذن فقــد أوجـدك شـيء.. هـذا الموجـد إمـا أن يكـون نفسـك أو أن يكـون غيرك.. من المستحيل أن تكـون أنت الـذي أوجـدت نفسـك.. إذن لابد أن يكون شـيء غـيرك هـو الـذي أوجـدك.. هـذا الغـير إمـا أن يكـون مثلـك في حاجتـه إلى من يوجـده أو لا يكـون..لا يمكن أن يكون مثلك؛ إذ ما قيل عنك سيقال عنه أيضاً.. لابـد إذن أن يكـون خالقاً بنفسه غير مفتقر إلى من يوجده؛ وهذا هو الله تعالى)

وقد ذكرت في كتاب [الهاربون من جحيم الإلحاد] الكثـير من الـبراهين المرتبطـة بهـذا النـوع، أكتفي هنـا بـذكر هـذين النصـين اللــذين يتحــدث فيهمــا بعض الفــارين من جحيم الإلحــاد عن بعض أغلوطات الملاحدة المرتبطة بهذا الجانب، وكيفية الرد عليها.

النص الأول: قال: لا أزال أذكر تلك الأيام جيدا، حينهـا كنت أصـيح في كـل حين في وجـوه المؤمـنين: إن كـان لإلهكم وجـود

---

1) أقصد محمد أبو القاسم حاج حمد (1941-2004م)

2) انظر: الفيزياء ووجود الخالق: مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، أبو القاسم حاج حمد.

فليرنا نفسه، أو ليعلن عنها، أو ليظهر آية من الآيات حتى لو كانت بسيطة.. فلا يمكن أن نؤمن بشيء من غير أن يظهر نفسه.

وكنت أضيف إلى هذه الكلمات الكثير من التصرفات التهريجية التي أتحدى بهم المؤمنين، فأضع ورقة صغيرة على الطاولة، وأقول لهم: أنتم تزعمون أن إلهكم قادر على كل شيء.. ما دام كذلك، فليظهر نفسه برفع هذه الورقة، ولو مترا واحدا.. بل حتى سنتمتر.. أو ملمتر.

ثم أمكث مدة أنتظر.. وبعدها أقول لهم: هل رأيتم عجز إلهكم؟.. إنه لا يستطيع رفع ورقة مع أننا أعطيناه وقتا كافيا لفعل ذلك.

ثم أطلب من صبي من الصبيان أن يحمل الورقة، ويرفعها، ثم أقول: ها أنتم رأيتم بأم أعينكم أن هذا الصبي الصغير أقوى من إله المؤمنين.

وكان المؤمنون عندما يسمعون هذا يتألمون، ولا يجدون ما يقولون، وإن كانوا في قرارة قلوبهم يتمنون لو أن الله حقق المعجزة، ورفع الورقة.. أما غيرهم، فكانوا يضحكون ويصفرون ويرقصون ويتصورون أنني قد وضعت حجرا في أفواه المؤمنين بتلك اللعب التي ألعبها.

لكني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعا بما أقول، فالله ليس ملزما أن يستجيب لأمثالي من الساخرين، ولو أنه فعل ذلك لأصبح الكل يطالبه بما يشاء، ولتغير نظام المجتمع، بل نظام الكون لأن هناك من لا يقنع برفع الورقة، فيطالبه بأن يغيب الشمس، أو يحول الليل نهارا والنهار ليلا.. أو يقتل فلانا.. أو يحيي ميتا.. وهكذا يصبح الكل يتدلل على الله، ويطالبه بالمعجزات ليمن عليه بعد ذلك بالإيمان.. وكأن الله مفتقر لخلقه حتى يؤمنوا به.

وعندما أعود إلى بيتي، ويعود إلي الكثير من عقلي أدرك أنني لم أكن أمارس احتجاجات عقلية، بل كنت أمارس مغالطات تهريجية لا علاقة لها بالمنطق، ولا بالعقل.

بـل إنـني كنت أشـعر أنـني لم أكن أغالـط إلا نفسـي، فـأين الإلحـاد، وأين المنطق؟.. وهـل يمكن أن يكـون الملحـد منطقيـا أو عقلانيا؟.. وكيف يكون كذلك، وهو لا يؤمن إلا بالمـادة، والمـادي لا يمكنه أن يؤمن بقوانين المنطـق، لأنـه يعتقـد بـأن كـل شـيء في الوجود مادة فقط.. وقوانين المنطـق ليسـت ماديـة.. ولهـذا فـإن قوانين المنطق لا يمكن أن تتواجد في العالم الإلحـادي.. وبـالرغم من ذلك، فإن المُلحد يناقض نفسه حين يستخدمها..

إنه في ذلك يشبه الشخص الذي يـذكر أنـه لا يـؤمن بـالهواء، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يعيش من دون هـواء.. هكـذا هـو الملحد بالضبط، هو ينكر السيارة التي يركبها، ويجحد العقل الـذي يستعمله، ويغفل عن الحقيقة التي يستند إليها وجوده.

النص الثــاني: أذكــر أني التقيت بعــد نهايــة بعض تلــك التهريجات قسا مسيحيا، فقلت له ساخرا: هل تؤمن بـأن المسـيح مشى على الماء؟

فقال لي: أجل.. وأنت هل تؤمن بأن الماء وجـد هكـذا وحـده من لا شيء؟

قلت: أجل.. أنا أؤمن بذلك.

قال: فلماذا تنكر علي معجزة أنت تؤمن بما هو أخطر منهـا.. فـإن قلت لي: أثبت لي بـأن المسـيح مشـى على المـاء.. فـإني سأقول لك أنا أيضا: أخرج لي لترا أو قطرة من الماء من لاشي..

ثم قال لي: أنا أؤمن بإله خـالق يسـتطيع أن يُعطـل أو يعّلـق قوانين الطبيعة التي خلقها، ويمارس ما شاء فيها من المعجــزات، لأنه لا شيء يعجزه.. وقد دلني الدليل العقلي على ذلك.. ذلك أنـه أثبت لي قدرته بكل هذه الآيات المعجزات التي أراها.. وبذلك فأنا لا أقفز على عقلي، ولا أؤمن بالخرافة.. لأني مـا دمت مؤمنـا بـأن الله خالق كل شيء في الكـون، فليس من الغرابـة أن أؤمن بأنـه ليس مقيدا بقوانين الكون الذي خلقـه هـو، ووضـعها هـو.. وبـذلك فإن الله ما دام خلق الماء، فإنه بالتأكيد يستطيع أن يجعل في أي شخص شاء القدرة على أن يمشي عليه.

سابعا ـ الهداية المبينة

ونقصد بها أصناف الأدلة التي تدل على تواصل الله تعالى مع خلقه عبر الوسائط المختلفة، فالله تعالى لم يعلن عن نفسه من خلال الكون وظواهره فقط، وإنما أعلن عنه عبر رسله وكلماته المقدسة لعباده، كما يعلنه كل حين عبر هدايتهم والاستجابة لدعواتهم.

وقد خصصنا سلسلة [حقائق ورقائق] جميعا لإثبات هذه النوع من الأدلة، باعتباره أكبر أنواع الأدلة، وأكثرها دلالة وصراحة وقطعية، فإثبات النبوة وما يتعلق بها، ليس سوى إثبات للألوهية بالدرجة الأولى.

بالإضافة إلى ذلك ذكرت في كتاب [الهاربون من جحيم الإلحاد] الكثير من البراهين المرتبطة بهذا النوع، أشير إلى بعضها هنا:

1 ـ برهان التواصل:

وأقصد به التواصل الدائم لله تعالى مع خلقه، والمتحقق كل حين، وهو من أعظم أنواع الأدلة التي لا يستفيد منها إلا المتواضعون الصادقون الذين تطهروا من الكبرياء، وراحوا يطلبون بصدق من الله أن يعرفهم عن نفسه، ويدلهم عليه.

وقد قلت على لسان الهارب من جحيم الإلحاد في تقرير هذا الدليل: وقد كان مظهر الهداية، وتواصل الله مع كائناته، هو دليلي الأول إلى الله.. فقد كنت أقول في نفسي: إن كان الله موجودا، فيستحل ألا يتواصل مع خلقه، بأي طريقة من طرق التواصل.. ولابد أن تكون له لغته الخاصة في تواصله بهم.. لأنه يستحيل أن يكون الإله من جنس مخلوقاته، ولذلك فإن تواصله معهم يستحيل أن يكون من جنس تواصل مخلوقاته بعضها ببعض.

وقد عرفت بعد ذلك، بعد أن من الله علي بالهداية التامة أن القرآن الكريم ذكر هذا الدليل على لسان موسى عليه السلام حين سأله فرعون، فقال: ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى ﴾ [طه: 49]،

فقال له موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]

فالله لم يكتف بخلق خلقه، ولا العناية بهم.. بل يتواصل معهم كل حين لهدايتهم ودلالتهم على مصالحهم في كل جزئية منها أو كلية.

ودل على هذا النوع من البراهين كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 68، 69]، فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى أن ما نراه من عجائب النحل ليس بسبب الغريزة كما يصور قومنا، وإنما هي هداية إلهية خاصة، لا نعرف سرها ولا كنهها ولا كيفيتها.. ولكنا نرى بكل دقة آثارها التي تدل عليها.

وقد كان أول ما دعاني إلى هذا النوع من التفكير أني كنت أشاهد في يوم من الأيام شريطا وثائقيا عن ثعبان الماء[1]، وكيف يقطع آلاف الأميال في المحيط، قاصدا الأعماق السحيقة جنوب برمودا حيث يلتقي ثعابين الماء من كل أنحاء العالم، وهناك تبيض وتموت، أما صغارها التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء، سوى أنها في مياه قفرة، فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها.. ومن ثم إلى كل نهر أو بركة صغيرة.. وقد ملأني هذا بالعجب، فكيف اهتدت تلك الصغار إلى محالها بدقة عالية، لو لم تكن هناك هداية خاصة، هي التي أرتها الطريق، وهي التي أوصلتها إليها.

وهكذا رأيت الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاما في ولاية نيوانكلاند. يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة، ويظهر بالملايين في 24 مايو من السنة السابعة عشرة تماما.. بحيث يضبط مواعيده للظهور

---

1) انظر: الله جل جلاله: سعيد حوى.

في اليـوم تقريبـا بهدايـة يعجـز عنهـا الإنسـان لـولا أنـه يسـتعمل التقويم.

وهكـــذا رأيت في الإنســـان من دلائـــل الهدايـــة مـــا ملأني بالعجب.. فقد رأيت كيف تنمو الغدد التي تصنع اللبن أثناء الحمل، يدفعها إلى هذا النمو مـواد يفرزهـا المبيضـان، وفي نهايـة الحمـل وبـدء الوضـع، تتلقى هـذه الغـدد النخاميـة الموجـودة في قاعـدة الجمجمة أمرا بالبدء في صنع اللبن، ومـا يكـاد الطفـل يولـد حـتى يبحث عن ثـدي أمـه بهدايـة لا حـد لهـا، وعمليـة الرضـاعة عمليـة شاقة، إذ أنها تقتضي انقباضات متوالية في عضلات وجـه الرضـيع ولسانه وعنقه، وحركات متواصـلة في فكـه الأسـفل، وتنفسـا من أنفه، ويقوم الطفل بهذا كلـه بهدايـة تامـة من أول رضـعة لسـاعة فطامه.. وقد ذكر لي بعض المختصين في هذا أن الرجل نفســه لا يستطيع أن يقوم بعمليـة الرضـاع كمـا يقـوم بهـا الطفـل الـذي لا يتجاوز عمره ساعات.

هذه بعض النمـاذج الـتي كـان التفكـير فيهـا أول رحلـتي إلى الله.. وهي ظاهرة أشمل ممـا ذكـرت بكثـير.. فهي تنتظم شـؤون الكون كله من الإلكترونـات في الـذرة، إلى الـذرة، إلى العناصـر، إلى الأرض، إلى الشـموس، إلى المجـرات بكـل حوادثهـا إلى كـل خلية من خلايا الحيوان، إلى كل جهاز من أجهزته، إلى كـل حيـوان من وحيد الخلية، إلى النحلة، إلى الإنسان.. وهكذا.

وقـد جعلـني هـذا أتسـاءل بيـني وبين نفسـي: هـل يمكن أن تكـون هنـاك هدايـة بلا هـاد؟.. وهـل يمكن أن تسـير الطـائرات والسيارات من غير أن يكون هناك قائد يقودها، أو دليل يدلها على الطريق؟

وقد جعلني هذا التفكير أنتقل إلى نوع آخـر من البحث، لعلـه أكثر صلة بالدلالـة على اللـه.. وهـو في إمكانيـة تواصـل اللـه مـع عباده.. وهل أن الله وضع القوانين لعباده هكذا، ثم تركهم، أم أنـه يقوم بنفسه بدلالتهم عليها كل حين، وأنه إذا ما احتاجوا إليـه كـان غوثهم وعونهم ومددهم.

طبعا لم أكن في ذلك الحين مؤمنا بإله، كما أني لم أكن كذلك من المكابرين الذين يجحدون الله ويستعملون كل الوسائل لجحوده.. بل كنت لا أدريا.. ولهذا كنت بحوثي وتأملاتي في هذا المجال هي للتأكد من الفرضيات التي وضعتها.. والتي رأيت أن الله بكرمه دلها عليها جميعا ابتداء من ظاهرة الهداية التي ذكرتها إلى ظاهرة التواصل المباشر مع عباده وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لأمنياتهم.

وقد رحت للتأكد من مدى تواصل الله مع عباده أذهب إلى المحال التي يكون فيها المؤمنون الصادقون المتواضعون وأسألهم عن تجاربهم الخاصة في هذا المجال، فكان كل واحد منهم يذكر لي تجربته الخاصة في إجابة الله لدعواته، أو إغاثة الله له في كرب من الكروب أو محنة من المحن..

ويذكرون لي كيف أنهم بمجرد التواصل مع الله بصدق وعبودية وتواضع كيف يعود الرخاء بعد الضراء، وكيف تزول الكروب، وكيف يقضى على الشدائد.

وقد ذكر لي بعضهم أن الله تعالى ذكر هذا، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 40، 41]

وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12]

وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 63، 64]

2 ـ برهان النبوة:

وهو من أهم البراهين وأدقها وأكثرها وضوحا ودلالة، ذلك أن

الله تعالى أعلن عن نفسه من خلال أنبيائه عليهم السلام، وعرفنـا بحقائق الوجود، وعرفنا فوق ذلك بالمصير الـذي ينتظرنـا، وينتظـر الحياة جميعا.

ولذلك كان الاهتمام بالنبوة والبحث فيها حلا لكـل المعضـلات التي توقف العقل البشري في فهمها أو التعرف عليها..

وقد ذكرت بعض تقريرات هذا البرهـان في كتـاب [الهـاربون من جحيم الإلحاد]، أكتفي منه هنا بهذا المقطع الـذي يتحـدث فيـه المـؤمن الهـارب من جحيم الإلحـاد بقولـه: اسـمعوا حـديثي عن برهـان من بـراهين الهدايـة المبينـة، أطلقت عليـه اسـم [برهـان النبـوة].. وهـو برهـان يـدل على اللـه من كـل الوجـوه، وبكـل المقدمات، وبجميع اللغـات.. فاللـه برحمتـه لم يتواصـل مـع آحـاد خلقه برعاية حاجاتهم وإجابة دعواتهم فحسب.. ولم يحفـظ عليهم حياتهم بالقيم التي وفرها لهم فقط.. وإنما أضاف إلى ذلك إرسال وسائط الهدايـة لهم ليكونـوا نمـاذج تيسـر عليهم تحقيـق الكمـال، وليبلغوهم الحقائق التي لا يمكن أن يصلوا إليها بعقولهم المجردة.

وقد كان أول ما دفعـني إلى هـذا البرهـان هـو شـعوري بـأن الذي خلق هذا الكون ـ إن كان موجودا فعلا ـ فإنـه لابـد أن يتصـل بخلقـه بـأي طريقـة من الطـرق ليعـرفهم بنفسـه أولا، ويعـرفهم بحقيقتهم وغاية وجودهم ثانيـا، وليعلمهم كـذلك القيم الـتي عليهم أن يسلكوها لينسجم وجودهم مع الكون جميعا.

وقد التقيت حينهـا رجلا جمـع بين الفلسـفة والعلم راح يقـول لي ـ بعد أن عرضت له ما خطر على بالي ـ: إن ما تقوله صـحيح.. ومنطقي.. فيستحيل على من صمم هذا الكون بهذا الإبداع، وأبـرز فيه لخلقه كل أنواع العنايـة والرعايـة، أن يغفـل عن هـذه النقطـة التي اهتدى إليها عقلك.. ذلك يستحيل.

ذلـك أن الإنسـان لايسـتطيع أن يصـل الى حقـائق الوجـود الكبرى بجهوده الشخصية.. ولا يستطيع أن يصـل إلى فهم أسـرار بدء الحيـاة ونهايتهـا.. ولا حقـائق الشـر والخـير.. ولا كيفيـة تنظيم

أجهزة الحياة[1].

ولهذا ترى قومنا، بل من قبلهم من الفلاسفة تاهوا بعقـولهم، ولم يتمكنوا أن يصلوا بها إلى شيء.. لقد ذكر صـديقنا [ألكسـيس كريل] هذا، فقال: (إن مبادىء الثورة الفرنسية، وأفكـار مـاركس، ولينين، لاتنطبـق إلا على الإنسـان العقلي المثـالى.. ومن الـواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقـات الإنسـانية لم تكشـف بعد..أما الاجتمـاع والاقتصـاد ومـا أشـبههما، فهي علـوم افتراضـية محضة، بدون أدلة يمكن اثباتها بها)

ومثلـه قـال الأسـتاذ [ج. و. ن. سـوليفان]: (إن الكـون الـذي كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضا وابهامـا من التـاريخ الفكـري بأكمله، ولاشك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعـة، فنحن نواجـه اليـوم الابهام والمتناقضات في كل ناحية)

إن هذا الجهل المطبق للإنسان بمثل هذه الحقائق الضـرورية يسـتدعي البحث عن مصـدر آخـر نتعـرف من خلالـه على هـذه الحقائق.

ثم التفت إلي، وقـال: إن هـذه الحالـة وحـدها تكفي لنتـبين حاجتنا الشديدة الى التواصل مع مبـدع هـذا العـالم، ذلـك أن سـر الحياة يدل على أنه لابد أن تأتي المعرفة من الخارج تمامـا مثلمـا يأتينا الضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان.

قلت: فلم لا يكون هذا التواصل عبر كـل شـخص على حـدة، ولا يحتاج إلى خواص الناس، ليتم التواصل عبر واسطتهم؟

نظر إلى الشمس، وقال: إن طرحك هذا يشبه من يطلب أن يكون لكل إنسان شمسه الخاصة به.. والتي ينير بهـا الكـون مـتى شاء.. ويجعله مظلما متى شاء.

قلت: ما تعني؟

---

1) الاسلام يتحدى: وحيد الدين خان.

قال: كما أن الشمس واسطة النور والدفء.. وأشـياء كثـيرة مما تنعم به أجساد الناس وحياتهم.. فـإن وسـائط الهدايـة الإلهيـة هم شموس الأرواح وهداتها.

قلت: هلا وضحت لي أكثر.

قال[1]: الحدس الشخصي لا يُسـتفاد منـه إلا لتثـبيت الإيمـان واليقين بعد اقتنـاع العقـل وانكشـاف الحقـائق، لكنـه لا يصـلح أن يكون مصدرا يتفق عليه الناس لأنه خاص بكل منهم على حدة، ولا يمكن طبعا أن يُعتمد مصدرا للتشـريع والقـوانين، فلا يمكن لبقيـة النـاس أن يتحققـوا من زعم أحـد بأنـه تلقى قانونـاً إلهيـاً بحدسـه الخاص.

قلت: فلماذا لا تكون حلقة الوصل هذه من كائنات أخرى غير البشر؟

قال: لقد ذكرني سؤالك هـذا بآيـة وردت في القـرآن.. كتـاب المسلمين المقدس.. ففيه هذه الآية التي تجيبك بكل لفظـة فيهـا: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأرض مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَـا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾ [الإسراء: 95]

قلت: لم أفهم المراد منها، فهلا وضحته لي.

قال: هي تريد أن تقول لنـا بـأن اللـه يبعث للنـاس رسـلا من جنسهم لكي يتمكنوا من رؤيته ومخالطته والتواصـل معـه والتعلم من سـلوكه وأفعالـه وأقوالـه، وليضـعوه أيضـا موضـع الاختبـار والتمحيص.. ولـو أن اللـه منح النـاس القـدرة على رؤيـة الملاك المُرسَـل في حـال إرسـاله بـدلا من رسـول بشـري، فربمـا كـان الجاحدون سيطرحون اعتراضا آخر من قبيل: وما الذي يضمن لنـا أن هذا الملاك مرسل من الله أيضا وليس مجرد كـائن فضـائي أو شيطان متجسد ؟

قلت: إن هذا يقتضي بحثا مستحيلا في هذا الزخم الكبـير من

---

1) انظـر: مقـالا بعنـوان [نبـوة محمـد]، أحمـد دعـدوش وربى الحسني..

الأديان.. فمن أدرانا من هو الصادق من المدعي.

قـال: وهنـا تكمن مسـؤولية الإنسـان في البحث عن الـوحي الصحيح، والتحقق من صدق نسبته إلى الله وسـلامته من التبـديل والتحريف، وذلك بالتحقق أولا من صدق الأشـخاص الـذين زعمـوا أنهم أنبياء مرسـلون من اللـه، بدراسـة سـيرتهم ومعجـزاتهم ومـا نُقل عنهم من أقوال وأفعال، ثم بالتحقق من صـدق الـوحي الـذي جاؤوا به، وذلـك بعرضـه على العقـل ودلائـل الحس.. وغيرهـا من أنواع التمحيص والتدقيق.

لا يعتمـد الملاحـدة في كتبهم ومنـاظراتهم التفكـير المنطقي السـليم، المبـني على المقـدمات الحقيقيـة، والموصـل للنتـائج الصـحيحة، وإنمـا يعتمـدون طرقـا ملتويـة كثـيرة مبنيـة على المغالطات بمختلف أنواعها، فهم سفسطائية بامتياز.. لا يختلفـون عن سلفهم من السفسطائية في شـيء، حـتى أن منهم من ينكـر وجود الكون، ومنهم من ينكـر المـدارك الحسـية، ومنهم من ينكـر القـوانين العقليـة المعروفـة بالبداهـة كقـانون العليـة والـدور والتسلسل وغيرها.

ولـذلك كـان على الداعيـة المواجـه للإلحـاد أن يتعـرف على أنواع تلـك المغالطـات، والتلبيسـات الـتي يمارسـونها من خلالهـا، حتى لا تنطلي عليه أولا، وليكشف تلاعبهم وحيلهم وخدعهم ثانيا.

والسر في كل تلك المغالطات هو اعتمـادهم على مـا يطلـق عليه [التفكير الرغبوي]،] أو [التفكـير بـالتمني]، وهـو تفكـير غـير متناسـب تمامـا مـع العقـل السـليم.. ذلـك أنـه يبحث في حقـائق الأشياء كما هي عليه، لا كما يحب أن تكون.. وهو غير متناسب مع العلم أيضا، لأن العلم يقتضـي موافقـة الواقـع موافقـة تامـة، ومـا عداه يعتبر جهلا أو خيالا أو ظنا كاذبا، ولا علاقة له بالعلم[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هـذا النـوع من التفكـير، فقـال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُـوءًا يُجْـزَ بِـهِ ﴾ [النساء: 123]، فالآية الكريمة اعتبرت كـل مـيزان وضـعه البشـر من غير العمل مجرد أمان وأوهام وتوقعات لا علاقة لها بالواقع.

وضرب القرآن الكريم لـذلك مثـالا بـدعوى بـني إسـرائيل أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، فرد اللـه عليهم بقولـه: ﴿وَقَـالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًـا مَعْـدُودَةً قُـلْ أَتَّخَـذْتُمْ عِنْـدَ اللَّهِ عَهْـدًا فَلَنْ

1) انظر في تعريف العلم أبجد العلوم، أبـو الطيب محمـد صـديق خان القِنَّوجي، دار ابن حـزم، الطبعـة الأولى 1423 هــ- 2002 م (ص: 31)

يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: 80]

وبناء على ذلك كان التفكير الرغبوي أغلوطة من الأغلوطات التي يخادع بها الإنسان نفسه، ليصور الواقع بالصورة التي يريد، لا بالصورة التي هو عليها، ولهذا أطلق عليه الكاتب البريطاني كريستوفر بوكر مصطلح [دائرة الخيال]، والتي تبدأ عادة ــ كما وصفها ـ (بانخراط الفرد في حلم يعيش فيه ويعتقد في صحته، ثم لا يلبث أن يفيق بعد أن يدرك أن الواقع يعمل ضد أمنياته، فيدخل في قنوط، وهنا يسعى إلى بذل جهد بغية أن يطوع الواقع لحلمه، دون جدوى، فيدخل كابوساً مخيفاً، وتتبخر أمنياته)[1]

وما ذكره كريستوفر ينطبق تماما على مواقف الملاحدة الجدد من الحقائق العلمية الثابتة، والتي تبرهن على ضرورة وجود الله، وقد عبر عالم الفيزياء والفلك ورأس علماء وكالة (ناسا) (روبرت جسترو) في كتابه [الله والفلكيون] عن هذا النوع من التفكير عند حديثه عن الأدلة العلمية المثبتة لنشأة الكون، فقال: (اللاهوتيون عامة مبتهجون ببرهان نشأة الكون، في حين أنّ الفلكيين غاضبون بصورة غريبة. لقد آل الأمر إلى أنّ العلماء يتصرّفون على الطريقة التي نتصرّف بها نحن لما تكون اعتقاداتنا مخالفة لما دلّ عليه الدليل)[2]

وقال: (تنتهي القصّة بالنسبة للعالِم الذي عاش بإيمانه بقوّة العقل، كمنامٍ سيء. لقد تسلّق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمّة، وبينما هو يرفع نفسه إلى الصخرة الأخيرة، يُفاجأ بتهنئة من جَمْع من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون)[3]

1) انظر: مقالا بعنوان آفة التفكير بالتمني، د.عمار علي حسن، موقع 24 ،السبت 31 أكتوبر 2015 / 22:59 على الرابط التالي: http://24.ae/article/197112/.

2 () Robert Jastrow, God and the Astronomers, p.16 .

3 () Robert Jastrow, God and the Astronomers (Toronto: George J. McLeod, 1992,), p.116.

ومثله عالم الفلك والرياضيات (أرثـر إدنجتن) الـذي عـبر عن امتعاضه الشديد من الأدلة على حـدوث الكـون، فقـال: (إنّ أصـل الكون هو فسلفيًا أمر بغيض)(1)

ومثلهمـا كـان موقـف مكتشـف إشـعاع الخلفيـة الكونيـة الميكروي المثبت لنشأة الكـون (روبـرت ويلسـن) الـذي كـان من أنصار قد العالم أو الحالة الثابتة، لكنه بسبب اكتشـافه ذلـك قـال: (لقد أحببت فلسفيًا نظرية الحال الثابتة، وعليّ بوضوح أن أتراجـع عن ذلك)(2)

أما الصحفي الأمريكي (جورج ول) فقد قـال معـبرا بسـخرية عن موقف الملاحدة من الأدلة على نشأة الكون من العدم: (يبـدو أن الملاحدة سيعترضون على وكالة (ناسا) باعتبارهـا تقـدمّ دعمًـا علميًا للمتـديّنين من خلال مـا يثبتـه (مرصـد هابـل الفضـائي) من حقائق)(3)

وهكذا نرى الملاحدة يتبنـون نظريـة التطـور مـع عـدم ثبوتهـا علميا لكونها وسيلتهم الوحيدة للهرب من الإيمان، وقد عبر [سـير آرثر كيث] عن ذلك بقوله: (إن نظرية النشوء والارتقـاء غـير ثابتـة علميـاً ولا سـبيل إلى إثباتهـا بالبرهـان، ونحن لا نـؤمن بهـا إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه)

ومثلـه قـال [سـير جيمس جيـنز] في كتابـه الشـهير [عـالم الأسرار]: (إن في عقولنا الجديـدة تعصـباً يـرجح التفسـير المـادي

---

1) نقلا عن: فمن خلق الله؟: نقد الشبهة الإلحادية [إذا كان لكل شيء خالق، فمن خلق الله؟] في ضوء التحقيق الفلسـفي والنقـد الكوسـمولوجي، د. سـامي عـامري، مركـز تكـوين للدراسـات والأبحاث، 2016، ص95.

2 () Quoted by Heeren, Show Me God, 157.

3) George Will, "The Gospel from Science," in Newsweek, November 8, 1998..

للحقائق)

وذكر [ويتكر شامبرز] في كتابه [الشهادة] حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته، حيث ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره، فأخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأُذُن بمحض اتفاق، بل لا بد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة... ثم ذكر أنه طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر أن يؤمن ـ منطقياً ـ بالذات التي أرادت فدبرت، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة.

وقد علق الأستاذ الدكتور [تامس ديور باركس] على هذه الحادثة بقوله: (إنني أعرف عدداً كبيراً من أساتذتي في الجامعة ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر، وهم يقومون بعمليات كيميائية وطبيعية في المعامل)(1)

بناء على هذا نحاول في هذا الفصل التعرف على أهم الأغلوطات التي يستعملها الملاحدة في الجانب الفكري والفلسفي (2)، وسنقتصر هنا على أربع مغالطات كبرى يستعملونها كثيرا، بل يعتمدون عليها اعتمادا كليا، وهم يكيلون فيها بالمكاييل المزدوجة، حيث يستعملونها متى شاءوا، ويتركونها متى شاءوا من دون اعتماد أي ضوابط تقيد ذلك، وتبين مصداقيته، وهي بهذا الترتيب:

(1) الله يتجلى في عصر العلم.

(2) من المراجع التي رجعنا إليها في هذا الفصل:

1. الأسس اللا عقلية للإلحاد.. مشكلة مبدأ العالم نموذجاً، عمر بسيوني.

2. ما كتب حول الصدفة وغيرها مثل كتاب: كتب هارون يحي في نقد نظرية التطور، وكتب عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في نقد الإلحاد، بالإضافة للكثير من كتب العقيدة الحديثة، ففيها جميعا مباحث تتعلق بالرد على القول بالصدفة..

الأول: نفي العلية، واعتقاد عدم إمكانيتها تفسير مـا يحصـل من ظواهر، وذلك لكونهـا من الأسـس الكـبرى الـتي تقـوم عليهـا براهين الإيمان.

الثاني: الإيمان بالعلية، مع إسناد الخلـق للطبيعـة وقوانينهـا المختلفة.

الثالث: الإيمان بالعلية، مع إسناد الخلق للصدفة والعشوائية ووضع الاحتمالات المرتبطة بذلك.

الرابع: الإيمان بالعلية، وإسناد الخلق للأسباب الـتي يكشـف عنها العلم في كل حين.

أولا ـ إنكار مبدأ العلة والسببية:

يعتبر مبدأ السببية [1] من المبادئ الكـبرى الـتي اتفقت عليـه جميع العقول، بل اعتبر من (إحدى بدائـه الفكـر الأساسـية)، ذلـك أنه (لا يحدث شيء بلا علة، أو على الأقل بلا سبب محدد)[2]

بـل إن الفطـرة تقتضـيه، فالطفـل الصـغير إن تعـرض لتـأثير مؤثر ما؛ تراه يطلب ذلك المؤثر ويبحث عنه، فيلتفت ليبحث عمن ضربه خلسة، لكونه مما ارتكـز في فطرتـه، وفي مبـادئ عملياتـه العقلية الأولى أن لكل فعل فاعلا، ولكل مصنوع صانعا.. بل إنه إن لم يجد ذلك المـؤثر يرتبـك، بـل لعلـه يخـاف ويهلـع، وسـبب ذلـك الخـوف ليس الجن أو الشـياطين.. فالطفـل لا يـدرك وجـود تلـك القوى غير المنظورة أصلا في تلـك المرحلـة المبكـرة من حياتـه، ولكن سبب ذلك هو الاضطراب النفسي الذي يصيبه نتيجـة اختلال المبادئ التي يفهم بها الوجود.

ولهذا كان البحث في العلل قـديما قـدم الفكـر نفسـه، فمنـذ

---

1) استفدنا المادة العلمية هنا من مقال مهم بعنـوان: الأسـس اللا عقلية للإلحاد.. مشكلة مبدأ العالم نموذجاً، لعمرو بسيوني.

2) المعجم الفلسفي لجميل صليبا، 1/649.

العصور الفلسفية لليونان اهتم أرسطو بدرس العلل، وقسمها إلى علل أربع: المادية، والصورية (الهيولى)، والفاعلية، والغائية[1].. وقد أثبت بالأدلة العقلية أن الله هو العلة الأولى، وليس معلولا لشيء آخر.

لكن الملاحدة راحوا يتعنتون في قبول هذا المبدأ، ويتلاعبون به مع كونهم يستعملونه، حتى لا يعطوا الفرصة للمؤمنين في استعماله لإثبات وجود الله.

ولعل أهم من تولى كبر ذلك، وعنه نقله سائر الملاحدة [ديفيد هيوم[2]] الذي تميز عن غيره من الفلاسفة بسلوكه خطأً فلسفيا جديداً خطيرا.. فلا هو تبع المثالية المشغولة بالتأمل العقلي.. ولا هو ناصر المذهب التجريبي.. بل ذهب إلى أن مصدر المعرفة للإنسان لا يكون بالعقل، كما أنه لا يكون بالحواس.. وإنما يكون بالعادة والتكرار..

ولذلك أنكر وجود ما يسمى بالعقل البشري، وقال: إن العقل ليس سوى ذاكرة نحفظ بها تجاربنا وتجارب الآخرين.. وبهذا أبطل العلية، وفتح الباب على مصراعيه لهدم المنهج الإستقرائي، ومنه لهدم المنهج التجريبي.. وبذلك أحدث من الفضائح الفلسفية ما هو وبال على البشرية جميعا.

وقد عبر بعضهم عن فعلته تلك، فقال: (هيوم أول فيلسوف أوروبي نقل فكرة العلة من معانيها الأرسطية إلى معنى التتابع المجرد بين السبب والمسبب، أي التتابع الذي لا يعني شيئا أكثر من أن السبب سابق لمسببه فيما دلت عليه العادة (التجربة).

---

1) تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، 148.

2) ديفيد هيوم (1711،ـ 1776)، فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي ولد وتوفي بأدنبره، أهم كتبه: بحث في الطبيعة الإنسانية، ثلاثة أجزاء، وفحص عن الفهم الإنساني، وفحص عن مبادئ الأخلاق، والتاريخ الطبيعي للديني، وغير ذلك راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم 172 ـ 173.

وقد كـان يمكن عقلا أن يجيء الـترتيب على صـورة أخـرى، لكنـه جاء هكذا)[1]

وقد استفاد من مقولته تلك عمانويـل كانط [2]، الـذي أعطى الملاحـدة المـبرر العقلي لنفي وجـود اللـه، باعتبـار أنـه لا يمكن التدليل عليه بالدليل العقلي.. بل راح ـ تحت تـأثير تلـك المقولـة ـ يزعم أنه يستحيل إثبات وجود الله بالعقل، كما أنه يستحيل إثبـات عدمـه.. ثم تـرك القضـية بعـد ذلـك للضـمير، ولمصـادرات العقـل العملي.

مع أنه كان قبل احتكاكه به وبأفكاره لا يقول بـذلك، بـل كـان يقرر العليـة في كتبـه، لكنـه بعـد اطلاعـه على مقالتـه تحـول إلى كانط المـؤمن الوحيـد الـذي يحبـه الملاحـدة، ويسـتدلون بمقالاتـه لضرب الدين.. لقد قال في ذلـك: (إن هيـوم أيقظـني من سـباتي الاعتقادي، وكان ذلك برأيه في مبدأ العلية بنوع خاص، إذ كـان قـد قـال: إن مبـدأ العليـة ليس قضـية تحليليـة، أي: إن المعلـول ليس متضمنًا في العلة أو مرتبطًـا بهـا ارتباطًـا ضـروريًّا، وإن الضـرورة التي تبين له ما هي إلا وليدة عادة تتكون بتكرار التجربة)[3]

وقال في محل آخر: (عندما لا نقتصر، في استعمالنا للمبـادئ الفاهمية، على تطبيق عقلنا على موضـوعات التجربـة، بـل نغـامر بمد العقل إلى ما وراء حدود هذه التجربة ؛ ستتولد قضايا مماحكة لا أمل بمصادقة التجربة، ولا خوف عليها من مناقضتها، وكل واحد منها سـوف لن تخلـو من التنـاقض وحسـب، بـل سـتجد أيضـا في

1) مناهج البحث عند مفكري الإسلام لعلي سامي النشار، 164.

2) عمانويل كانط (1724 ـ 1804)، حاول التوسط بين التجريبيـة والعقلانية المثالية، ووجه نقدا عقليا للدين، أهم كتبـه: نقـد العقـل الخالص النظـري (المشـهور بنقـد العقـل المحض)، ونقـد العقـل العملي، ونقـد الحكم، وميتافيزيقـا الأخلاق، ورسـالة في السـلام الدئم راجع يوسف كرم 208 ـ 216.

3) تاريخ الفلسفة الحديثة، ليوسف كرم 210.

طبيعة العقل الشروط التي تجعلها ضرورية، لكن للأسف، سيستند لزعم النقيض هو الآخر إلى حجج تتمتع بنفس المصداقية ونفس الضرورة)[1]

وقد جعلته هذه المغالطات يعطي الحجج والذرائع للأدريين، الذين لا يختلفون كثيرا عن الملاحدة، وقد قال معبرا عن ذلك: (ويمكن أن نتصور بسهولة أن ساحة القتال هذه قد خيضت مرارا حتى الآن، وأن عددا كبيرا من الانتصارات قد أحرز من جهة وأخرى، أما بالنسبة إلى الانتصار الأخير الذي سيحسم المسألة ؛ فقد اتخذت الاحتياطات لكي يبقى دائما فارس الحق وحده سيد الميدان بمنع خصمه من حمل السلاح من جديد، وليس علينا كحكم حيادي في المعركة أن نهتم بمعرفة هل يتصارع المتحاربون من أجل قضية محقة، أم من أجل قضية باطلة، ويجب علينا أولا أن ندعهم يحسمون المسألة. فقد يعترفون بعد أن يتعب الواحد منهم أكثر مما يؤذي الآخر ببطلان تنازعهم ويفترقون كأصحاب)[2]

وهكذا استفاد [برتراند راسل[3]] من طروحات هيوم على الرغم من تناقضها الشديد مع العقل والمنهج العلمي، لكنه قبلها، ودافع عنها لكونها من السبل التي يمكنه أن يستعملها في مواجهة الطروحات الإيمانية؛ فقد قال ـ عند نقده للاستناد إلى الخبرات الحسية في التفسير ـ: (أنقتصر على خبراتنا الحسية وما تأتي

---

1) نقض العقل المحض لكانط، ترجمة موسى وهبة، 225..

2) نقد العقل المحض 226، ويسميه صراحة فى موضع لاحق بالمنهج الريبى.

3) برتراند راسل (1872 – 1970)، إنجليزي، أستاذ للفلسفة بجامعة كمبردج، وأحد أعلام المنطق الرياضي المعاصرين، أهم كتبه: تاريخ الفلسفة الغربية، وتحليل المادة، وموجز الفلسفة، والمدخل إلى الفلسفة الرياضية، وغير ذلك. راجع يوسف كرم 431..

به ؟، فـإذا لم يكن بين هـذه الخـبرات خـبرة مباشـرة بمـا يسـمى (قوة) فلا داعي لافتراضـها عنـد تفسـير الطبيعـة وظواهرهـا، إنهـا أحداث تتلاحق وتترابط مجموعات بمجموعات، فإذا اطـرد حـدوث مجموعة منها كـان ذلـك واحـدا من قـوانين الطبيعـة، فـالأمر كلـه حوادث وارتباطها بالتجاور، ولا شيء غـير ذلـك في علمنـا ؛ إلا مـا نتبرع به ظنـا ووهمـا.. فـإذا اعـترض علينـا معـترض بـأن (القـوة) الرابطة بين السبب ونتيجته هي مما يرد في خبراتنا ؛ أجبنـاه بأنـه يخلط بين ما (يخبره) وبين ما (يستدله).. إنه قد يرى الـريح تقتلـع الشجرة، فيظن أنه قد رأى بعينه (القوة) التي فعلت بها الريح مـا فعلت، لكنه أحس الريح، وأحس الشجرة تقتلـع، ثم (اسـتدل) من عنده (قوة) ؛ لأنه يميـل بفطرتـه أن يسـأل (لمـاذا)، على حين أن النظرة العلمية تسأل (كيف)، ولا تزيد على ذلك ؛ إننا لا نلاحـظ إلا أحـدثا في تتابعهـا المطـرد، من اطـراد التتـابع تتـألف القـوانين الطبيعية، أمـا (لمـاذا) كـانت هـذه القـوانين على نحـو مـا كـانت ؛ فشيء لا يأتي بين ما يأتينا عن طريق الخبرة الحسية.. ولو حاولنـا تعليل القوانين بقولنا (لماذا) لاحتاج التعليل إلى تعليـل، وهـذا إلى ثـالث، وهلم جـرا، ونكـون عندئـذ كالهنـدي الـذي سـأل (لمـاذا) لا تسقط الأرض في الفضاء ؟.. وأجاب نفسه بقوله: لأنها تستند إلى فيل، ثم سأل مرة أخرى: ولماذا لا يسـقط الفيـل في الفضـاء ؟.. وأجاب نفسه بقوله: لأنه بـدوره يسـتند إلى سـلحفاة، لكنـه سـأل نفسه: ولماذا لا تسقط السلحفاة في الفضاء ؟.. فأخذتـه الربكـة، وقال: إنه ملَّ البحث الميتافيزيقي، ولا يريد المضي فيه)[1]

وهذا المنهج في التفكير الـذي يعتمـده الملاحـدة، دليـل على مدى غلبة التفكير الرغبوي عليهم، ذلك أن مبدأ العليـة من مبـادئ الذهن الأولى، بل هي من القضـايا الـتي يتوقـف عليهـا عقـل كـل إنسان، ويحكم بها، قبل الحكم بسائر القضـايا، ويجعـل لهـا قيمـة، وأهميــة تجعلانهـا فــوق كــل مناقشــة.. فتلـك القضـايا للتفكـر، كالعضلات للمشي، على تشبيه الفيلسوف [له بينج]

---

1) الفلسفة بنظرة علمية، لبرتراند راسل، تلخيص وتقديم د زكي نجيب محمود، 95 – 102، بتصرف.

ذلك أن كل إنسان يستخدمها ـ حتى ديفيد هيوم نفسه ـ ربما البعض لا يعرفها في حالته الابتدائية، أي يستخدمها من حيث لا يشعر، وهي آخِرُ تأمين على ما يعرف الإنسان، وما يريد أن يعرفه من الحقائق؛ ولولاها، لما تقررت أي حقيقة في الأذهان.

لقد قال أرسطو معبرا عن ذلك: (للمبادئ الأولى خصلتان؛ الأولى: عدم احتياجها إلى الإثبات بالدليل.. والثانية: كونها معلومة بيقين، أعلى من جميع النتائج، التي يمكن أن تُستنتج منها؛ لأن الاستنتاج مجرى اليقين، والمبادئ معادنه).. وقال: (لو احتاج كل معرفة إلى البرهنة، لاستحال العلم).. أي، للزم التسلسل في البراهين.

فجميع العلوم مدينة لمبدإ العلية؛ لأن العلم معرفة الشيء بسببه؛ وبعبارة أخرى بدليله؛ فلولا مبدأ العلية في الإنسان، لما انبعثت نفسه إلى تحري الأسباب، والعلل، وارتفعت العلوم[1].

وقد قال الغزالي معبرا عن هذا المعنى: (من بدائة االعقول أن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب يحدثه، والعالم حادث فإذا لا يستغني في حدوثه عن سبب)[2].

ويوضح الفخر الرازي هذه الحقيقة بقوله: (إن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم، وبان حكيم، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة، فلما شهدت الفطرة الأصيلة بافتقار النقش إلى النقاش والبناء إلى الباني، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى)[3]

---

1) انظر: موقف العلم والعقل من رب العالمين، مصطفى صبري.

2) احياء علوم الدين : للغزالي، ج1، ص106 .

3) التفسير الكبير : للرازي ، ج19، ص73 .

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى:أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأرض بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) [الطور: 35ـ 36]؛ فالآيتان الكريمتان تضعان الإنسان أمام ثلاثة احتمالات تتمثل في:

أ. أنهم خلقوا من غير خالق وهذا ممتنع عقلاً.

ب. أنهم خلقوا أنفسهم وغيرهم.. وهذا أشد امتناعاً في العقل، لأن المخلوق لا يخلق نفسه ولا غيره.

ج. أن لهم خالقاً خلقهم، وهذا ما يسلم به العقل، وهو الحق.

وبناء على هذا، فإن نقد السببية وعدم الاعتراف بها نقد لكل علوم الدنيا وأصول القواعد وكليات البديهيات، ومن العجيب أن المُلحد يُعمِل السببية في مخبره، ويُسِّلم بوجودها، ويُسلِّم بيقينية مُعطياتها، ويُسلم بنتائج تجاربه المرتبطة بها.. بل يُعمل السببية في كل كبيرة وصغيرة من حياته الشخصية وفي بحثه وحاله ومآله، ثم يوقف السببية في أصل كل هذه الأمور، ويفترض العدم مصدراً وحيداً للوجود، ويُصِر على ذلك، وهذا هو الكبرياء بعينه.

ومما قد يستدل به الملاحدة الجدد على نفي السببية ما يطلق عليه [حُجة التذبذب الكمومي]، أو [مبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج]

وقد رد على هذا المبدأ الملاحدة أنفسهم، فقد قال [ستيفن هاوكنج] في كتابه [التصميم العظيم]: (في حال مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج يجب أن نعلم أنه يستحيل أن يوجد مكان يخلو من الطاقة ونقل الطاقة، ولابد أن يحتوي على أقل قدر من الطاقة في هذا الفراغ، ويحدث أن تظهر وتختفي لحظياً جسيمات، لكن هذا الظهور والإختفاء محكوم بعالم الكوانتم المادي ـ له قوانين وأُسس وأُطر ضابطه ـ أي أننا لسنا في العدم بل في عالم مادي.. ولو صح أن هذه الجسيمات تحتوي على طاقة لانهائية لكان المفترض بمجرد ظهور الكون وظهور هذه الجسيمات لانهائية العدد والطاقة فإنها تؤدي إلى انكماش الكون على نفسه

فورا وانتهائه وهذا بداهة ما لم يحدث)[1]

ثانيا ـ إسناد الخلق للطبيعة وقوانيها:

وهــو من أهم الأطروحــات الإلحاديــة وأكثرهــا انتشــارا، حيث يعتبر الملاحدة أن علة وجود العالم هي قوانين الكــون نفســها.. أو هي الطبيعة.. ويرون أن ما في الكون من الأنظمة وقوانين يجعلــه مستغنيا عن خالق يــدبر أمــوره.. فقــوانينَ الكــون هي الــتي تحكُمُ الكون.

وقــد ظهــر هــذه المغالطــة قــديما عنــد بعض الفلاســفة الطبائعيين، والذين ذكروا أن عناصر العالم الأربعة (المــاء والهــواء والتراب والنــار) هي أصــل الوجــود، وأنهــا قديمــة، وأن كــل شــيء يتكون من اتحادها أو افتراقها[2].

وبقيت هذه المغالطة مستعملة إلى العصر الحديث، وفي كل فترة تلبس لباسا جديدا، أو تظهر بصورة جديدة:

فمن صورها تلك الصورة التي ظهرت بها في القــرن الثــامن عشــر فيمــا يعــرف بمدرســة الفلســفة الطبيعيــة، الــتي انتهت إلى المادية الضرورية المحضة متمثلة في المدرسة الماركسية، والتي تقوم على فكرة أن المادة قديمــة، ولهــا قوانينهــا، وتلــك القــوانين هي التي أوجدت كل الموجودات، وقوانين المادة تلــك هي البــديل على الاخــتراع الإلهي، فالمــادة هي اللــه، وقوانينهــا هي الإرادة الإلهية.

وقد قال ماركس معبرا عن ذلك: (إن العزة الإلهيــة والهــدف الإلهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التــاريخ، والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئا)[3]

---

1) التصميم العظيم ص 169- 171.

2) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم 45 – 46.

3) بؤس الفلسفة، كارل ماركس، ترجمة، أندريه يازجي، دار اليقظة ومكتبة الحياة، سوريا،

وقـال كيلي وكوفـالزون: (إن العلم إذ يكشـف عن الصـلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة؛ يطْرُد في تصوره الإله من الطبيعـة، ويدحض خطأ المثالية، ويؤيد صحة النظرة الماديـة للعـالم، والعلم يتفـق مـع الماديـة في بحثـه عن الحقيقـة في الحيـاة ذاتهـا، وفي الطبيعة، وهذا ما يدل على أن العلم الحقيقي هو ذو طـابع مـادي. إن العلم مادي بطبيعته وبجوهره، والمثالية غريبة عنه وعـدوة لـه) (1)

وهكذا ذهب دولباك (1723ـ1789) إلى أن (المـادة متحركـة بـذاتها، وأن كـل شـيء يفسـر بالمـادة والحركـة، وأنهمـا أزليتـان أبديتان، خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصـهما. فليس العـالم متروكًـا للصـدفة، ولا مـدبرًا بإلـه، وكـل الأدلـة على وجـود اللـه منقوضة، ولا غائية في الطبيعة. ليست العين مصنوعة للرؤيـة، ولا القـدم للمشـي، ولكن المشـي والرؤيـة نتيجتـان لاجتمـاع أجـزاء المادة. ولا نفس في الإنسان، ولكن الفكر وظيفة الدماغ، والفرق بين العقول نتيجة الفرق بين الأدمغة)(2)

وهكذا (وجدت الطبيعة ليس فقط قبل الناس، وإنمـا عمومـا قبل الكائنات الحيـة، وبالتـالي مسـتقلة عن الإدراك، وهي أوليـة.. أما الإدراك فلم يستطع التواجد قبل الطبيعة، فهو ثانوي)(3)

بـل إننـا نجـد من راح يطـرح دين الطبيعـة بـديلا للأديـان السماوية، مثلما فعل [بول هينري ثيري] المعروف بــ [بـارون دي هولباخ](4) في بداية عصر النهضة الأوروبية في كتابه [فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة]، وهو الكتاب الذي دعـا فيـه إلى عبـادة

..127

1) الماديـة التاريخيـة، ف. كيلي، م كوفـالزون، ترجمـة: أحمـد داود، نشـر دار الجمـاهير، دمشق، 500..

2) تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، 192، 193..

3) أسـس الماديـة الديالكتيكيـة والماديـة التاريخيـة، لسـيريكين ويـاخوت، ترجمـة محمـد الجندي، دار التقدم، موسكو، 39..

الطبيعة بدل الله.

وقد عبر مؤرخ الحضارة الكبير [ويليام جيمس ديـورَانت] عن رؤيته وعمله في ذلك، فقال: (بعـد أن انتهى دي هولبـاخ من بيـان برنامجه على هذه النحو تقدم في ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والاعتبارات والأفكار الخارقة للطبيعة. ويحبذ الطبيعة بكل ما فيهـا من جمال وقسوة وتقييد وإمكانات، وليختزل كل الحقيقة والواقـع إلى مادة وحركة، ويبني على هذا الأساس المادي منهجـاً للفضـيلة والأخلاق يأمـل أن يكـون في مقـدوره أن يحـول المتوحشـين إلى مواطـنين، ويشـكل الخلـق الفـردي والنظـام الاجتمـاعي ويضـفي سعادة معقولـة على حيـاة مقـرر لهـا المـوت المحتـوم. إنـه يبـدأ ويختتم بالطبيعة، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسـيدها، إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذي ينتج من اجتماع المادة في مجموعاتها المختلفة. وهذا هو الاسم المحبب لدى دي هولبـاخ للكون، فهو يعرف المادة في حرص وحذر بأنها بصـفة عامـة، كـل ما يؤثر على حواسنا بأي شكل كان)(1)

ثم اقتبس من كتابه قوله: (كـل شـيء في الكـون في حركـة دائبة.. وجوهر المادة هـو أن تعمـل، وإذا تأملناهـا في يقظـة تامـة لاكتشفنا أنه ليس ثمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلـق، وكـل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو للحظة واحدة على نفس الحالـة، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار.. إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمـام لمسـات الهـواء.. إن هذا الكل لا يقدم لمجـال تأملنـا وتفكيرنـا إلا مجـرد تعـاقب ضـخم

---

4) بـــارون دي هولبـــاخ: [1723-1789] كـــاتب وفيلســـوف وموسوعي فرنسي ألمـاني، عـرف عن كونـه واحـدا من رواد في عصر التنوير الفرنسي، وقد عرف بتواجده في الصالونات الأدبيـة، وعرف بإلحاده، وقد كانت له عـدة كتابـات ضـد الـدين، وقـد كـان كارل ماركس واحد من المتـأثرين بأفكـاره..انظـر في ترجمتـه د. رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب ص 136.

1) قصة الحضارة (38/ 142)

متصل غير متقطع لأسباب ونتائج.. وكلما ازدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها. وقد يكون من العسير أن ندرك كيف أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة، ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفي خارج عن الكون المادي)

وهكذا أعطى [بارون دي هولباخ] للطبيعة كل صفات حتى أنه في سنة 1704م عندما أصدر [صاموبل كلارك] كتابه [مبحث عن وجود الله وصفاته]، ونسب لله الصفات الواجبة له مثل الخلود والقدم واللامحدودية واللانهائية، رد عليه بقوله: (إن جميع الصفات التي نسبتها يا كلارك لله غير قابلة للفهم، بل هي تنطبق على المادة والطبيعة بصورة أوضح)

ولم يتوقف تأليهه للطبعية عند ذلك الحد، بل راح يناجيها كما يناجي المؤمنون الله، فقد قال في فقرة ختامية من كتابه [منهج الطبيعة] يناجيها، وكأنها الله نفسه: (أيتها الطبيعة، يا سيدة كل الكائنات.. إن بناتك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة.. الفضيلة والعقل والحقيقية.. يبقين إلى الأبد معبوداتنا الوحيدات.. إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشري وينصب عليك ثناؤه، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله)

وهذا ما كان سائدا في الغرب في عصر النهضة، فقد تصوروا أنه يمكن أن يسند لقوانين الطبيعة كل شيء، باعتبار أن في إمكانها أن تعوض الله، وأن تفسر كل حقائق الوجود، أو كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله: (لقد أثبت (نيوتن) أنه لا وجود لإله يحكم النجوم، وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي أسطورة لا هوتية.. وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و(باستور) في ميدان البيولوجيا.. وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصلنا في هذا القرن بمكان الإله، الذي كان مفروضا أنه هو مدير شئون الحياة الإنسانية والتاريخ)[1]

---

1) نقلاعن الاسلام يتحدى مدخل علمي الى الايمان، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الاسلام خان، مكتبة الرسالة، ص18.

وعبر عنه الرياضي والفلكي المعروف [بيير سيمون لابلاس] حين سأله نابليون عن مكان الله في نظامه الميكانيكي الخاص بالأجرام السماوية، فقال له بكل ثقة: (يا سيدي لست بحاجة إلى هذا الافتراض)[1]

وبقي كل الملاحدة على هذه الرؤية إلى أن جاء الإلحاد الجديد، وراح يدعمها بصنوف الحيل والخدع، ومن أمثلة ذلك قول هاوكنج: (تماما مثلما فسر دارون ووالاس كيف أن التصاميم المعجزة المظهر في الكائنات الحية من الممكن أن تظهر بدون تدخل قوة عظمى، فمبدأ الأكوان المتعددة من الممكن أن يفسر دقة القوانين الفيزيائية بدون الحاجة لوجود خالق سخر لنا الكون.. فبسبب قانون الجاذبية فالكون يستطيع ويمكنه أن ينشيء نفسه من اللاشيء.. فالخلق الذاتي هو سبب أن هناك شيء بدلا من لا شيء، ويفسر لنا لماذا الكون موجود، وكذلك نحن) [2]

وكل هذه الطروحات لا تعدو أن تكون مغالطات عقلية، ذلك أن من يقول بذلك لا يختلف كثيرا عمن يزعم أن القوانين التي تعمَل بها السيارة يمكن أن تُسيِّر السيارةَ دون الحاجة لمن يقُودها.. أو مثل من يعتقد أن القوانين التي تعمل بها الطائرة يمكن أن تجعَلها تطير دون الحاجة لمن يقودها.. أو مثل من يعتقد أن القوانينَ الحسابية يمكن أن تُجريَ عملية حسابية دون الحاجة إلى محاسبٍ مالي[3].

---

1) نقلا عن العلم في منظوره الجديد لروبرت م .أغروس و جورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خالايلي، طبع سلسلة عالم المعرفة، ورقمه في السلسلة (134)، ص54.

2) المرجع سابق.

3) اقتبسنا بعض المعلومات الواردة هنا من مقال بعنوان: مغالطات أكذوبة الملاحدة: أن الكونَ يسير بقوانينَ؛ فلا يحتاج إلى خالق ليدبِّرَ أمره..

ولا يخفى أن كل ذلك مغالطات لا دليل عليها، بل كل شيء ينفيها.. إذ قوانينُ الكون ليست عندها المقدرة على تدبير وتسييرِ الكون، سواء أكانت مجتمعة أم متفرقة.. فقوانين السيارة ليست عندها المقدرة على قيادة السيارة، سواء أكانت مجتمعة أم متفرقة.. وقوانين الطائرة ليست عندها المقدرة على طيران الطائرة، سواء أكانت مجتمعة أم متفرقة!

وهكذا، فإن قوانين الكون هي وصفٌ لطريقة سَيْر الكون، وليست هي مَن يُسيِّر الكون، كما أن قوانين الطائرة هي وصفٌ لطريقة طيران الطائرة، وليست هي مَن يقود الطائرة.

بل إن قوانينَ الكون تدل بَداهةً على وجود مُقنِّن لها، سنَّ هذه القوانين، وأودَعها في الكون، والعلمُ بذلك كالعلم بوجود كاتبٍ للكتابة، وبانٍ للبناء، ومؤثِّر للأثر، وفاعل للفعل، ومحدِث للحدَث، وهذه القضايا المعيَّنة الجزئية لا يشكُّ فيها أحدٌ مِن العقلاء، ولا يُفتَقَر في العلم بها إلى دليلٍ؛ فهي واضحةٌ ظاهرة.

قد يقال: إذا كانت قوانينُ الكون تدلُّ بَداهةً على وجود مُقنِّن لها سنَّ هذه القوانينَ وأودَعها في الكون؛ فلم لا يعتبر الكون نفسه هو الذي سن هذه القوانينَ.. أي سن القوانين لنفسه؟

والجواب عن هذا هو أنه لو كان الكونُ هو الذي سنَّ هذه القوانين لنفسه، لاستطاع أن يُغيِّرَها كما يشاء، لكن الواقع أنه لا يستطيع تغييرَها، ولا الخروج عنها، وإنما هي مفروضةٌ عليه فرضًا؛ فدلَّ ذلك على أن هذه القوانينَ ليست مِن الكون نفسِه.

قد يقال: فلم لا نقول بأن الذي سنَّ هذه القوانينَ هي القوانينُ نفسُها؟

والجواب عن هذا هو أن هذا تصويرٌ للقوانين على أنها فاعلٌ محرك، وهذا تصوُّر غير صحيح، والواقع يرفضه؛ لأن القوانينَ مجردُ وصفِ سلوك الظواهر الطبيعية التي تحدُثُ في الكون وتتكرَّر تحت نفس الظروف، وليست هي الفاعلَ المحركَ للكون.

قد يقال: فلم لا نقول بأن الذي سنَّ قوانينَ الكون هي

الصدفةُ؟

والجواب عن هذا هو أن الصُّدفةَ تصف كيفية الحدث، ووصفُ كيفية حدوث الفعـل لا ينفي وجـودَ فاعـلٍ لـه.. ومعـنى أن الفعـلَ حـدَث صـدفة أنَّ الفعـل حـدَث دون قصـدٍ وتـرتيب مسـبق مِن الفاعل، وليس أن الفعلَ ليس له فاعلٌ.

بالإضافة إلى ذلك، فإن العلامـة الممـيزة للصـدفة: هي عـدمُ الثبات، وعدم الاطِّراد، بينما قوانينُ الكون ثابتةٌ مطَّردة.. والصُّدفة لا تنتج قوانينَ مطردة ثابتـة.. ولـو سـلَّمنا جـدلًا وتـنزُّلًا أنهـا أنتجت قوانينَ مطردة، فسَرْعان ما تزول هذه القوانينُ.

ولذلك كله فإن ما ذكـروه أصـعب هضـما للعقـل من إسـناده إلى خالق عظيم، كمـا عـبر عن هـذا المعـنى العـالم المختص في علم الأحياء والنبات [رسل تشارلز آرنست] بقولـه: (الواقـع الـذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود الـتي بـذلت للحصـول على المادة الحية من غير الحية، قد باءت بخذلان وفشل ذريعين.. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يسـتطيع أن يقيم الـدليل المباشـر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع بعض الـذرات والجزيئـات عن طـرق المصـادفة، يمكن أن يـؤدي إلى ظهـور الحيـاة وصـيانتها وتوجيههـا بالصـورة الـتي شـاهدناها في الخلايـا الحيـة. وللشـخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهـذا شـأنه وحده. ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بـأمر أشـد إعجـاز وصـعوبة على العقـل من الاعتقـاد بوجـود اللـه الـذي خلـق هـذه الأشـياء ودبرها)[1]

وذلك لكون (المادة لا يمكن أن تكـون مطلقـا مبـدأ حيـاة ولا مصدر، لأن ما كان خاليا من شيء قـوة وفعلا لا يمكنـه مطلقـا أن يكون مصدرا له، ومادة الخالية من الحياة بـالقوة والفعـل، فـإذا لا يمكن أن تكـون مصـدرا للحيـاة. أمـا خلوهـا من الحيـاة فعلا فبالمشاهدة، لأن كلا يرى أن المـادة عريـة منهـا، وإلا لاقتضـى أن

1) الله يتجلى في عصر العلم، 79، مقالة (الخلايا الحية تـؤدي رسـالتها)، لرسـل تشـارلز آرنست.

تحرك نفسها فعلا بأن تنمو أو تحس أو تعقل، وذلك ظاهر البطلان ظهور الشمس في رابعة النهار. وأما خلوها منها بالقوة ؛ فلأنها لو قدرت أن تبرز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها الآن ؛ لأن طبـائع الأشياء ثابتة لا تتغير، فكما كانت من قبــل فهي الآن، ولا يمكن أن توجد في وقت وتضمحل في آخر، وذلك مقـرر في مبـادئ العلـوم الطبيعية الثابتة، فما شـوهد قـط ولا يشـاهد أدنى أثـر للحيـاة في المادة ؛ فإذا ثبت الافتقار إلى موجد هو مسبب الأسباب)[1]

ثالثا ـ إسناد الخلق للصدفة والعشوائية:

وهي من المغالطـات الـتي يسـتعملها أكـثر الملاحـدة، فهم يـذكرون ــ بصـيغ مختلفـة ــ أن كـل مـا نـراه من أنـواع الجمـال والنظام، والإبداع والإتقان ليس نتاج خلـق إلهي محكم، وإنمـا هـو ثمرة لصدفة[2] عشوائية تنقلت طورا فطـورا إلى أن تحـولت إلى العالم الذي نراه بأحيائه وجماداته[3].

أي أن الحياة ـ كما يرون ـ نشأت صدفة عبر سلسـلة طويلـة من التطـور الكيميـائي مـا قبـل الحيـوي اسـتمر لملايين السـنين،

---

1) دلائل التوحيد للقاسمي، 101..

2) يقصـد بالصـدفة عـدة معـانٍ، منهـا: حـدوث الشـيء دون علـة؛ كغليـان المـاء دون أي سـبب، وهـذا مسـتحيل؛ فمن المسـتحيل حـدوث شـيء دون علـة وسـبب.. ومنهـا: حـدوث الشـيء بعلـة مجهولة، مثل صديق كـان يمشـي في شـارع لزيـارة أحـد أقاربـه، فوجد صديقًا له كان ذاهبًا لشراء طعـام من السـوق صـدفة، وهنـا ترافق وتزامن.. ومنها: حدوث الكـون وانتظامـه عـبر سلسـلة من العلل غير العاقلة وغير المدركة، ومنها: التقاء عرضـي لسلسـلتين من الأسـباب، ومنهـا: تـوفر مجموعـة من العوامـل بطريقـة غـير واعية لتُشكل ظاهرة..

3) استفدنا الكثير من المادة العلميـة المرتبطـة بهـذا المطلب من كتاب [الملحد واستدلاله الخاطئ بالصدفة] د. ربيع أحمد.

ابتـداءً من الكيميائيـات البسـيطة، مـرورًا بالجزيئـات المتعـددة، والجزيئات المتعددة الناسخة ذاتيًّا داخلة بدورات تحفيزيـة، وصـولًا إلى كائنات [ما قبل بكتيرية]، وأخيرًا وصولًا إلى بكتريا بسيطة.

ومثل ذلك الكون الذي نـراه بهـذا الانتظـام لم يتكـون ــ كمـا يذكرون ـ إلا صدفة نتيجة سلسلة من العلـل الماديـة غـير العاقلـة وغير المدركـة.. ونتيجـة لتـوافر الظـروف والعلـل الماديـة لنشـأة الكون نشأ الكـون دون حاجـة لقـوة عاقلـة مريـدة أرادت إنشـاءه على هذا الشكل.

وهم يسـتعملون في ذلـك أسـاليب مختلفـة، بحسـب العصـر العلمي الـذي يكونـون فيـه، حيث نجـدهم يقللـون الاحتمـالات في العصور السابقة التي لم يتم اكتشاف الكثير من الحقـائق العلميـة فيها، ويزيدونها في العصور التالية.

ومن أمثلة ذلك أن [توماس هنري هاكسلي[1]]، والـذي كـان يــدعى (كلب داروين) نتيجــة إخلاصــه الشــديد لــدارون ونظريــة التطور، ذكر أنه: لو تركنا ستة قرود تضرب على آلـة كاتبـة تحـوي 26 حرفا، و4 رموز، ومسافات، وزمنا طـويلا، فإنهـا يمكنهـا أن أن تكتب الاعمال الكاملة لويليام شكسبير..

أما في العصور المتأخرة، وبعد الاكتشافات العلميـة الكثـيرة، فإنه لم تعد تكفي القرود الستة، فذلك راحوا يجرون تعديلات على تلك النظريات، فاستبدلوها بنظريـة جديـدة، وهي [نظريـة القـردة اللا متناهيـة]، أو على وضـع أكـبر عـدد من الاحتمـالات والفـرص ليتحقق من خلالها الكون بالصورة التي نراه عليها..

ولذلك نراهم يضـعون ترليونـات الاحتمـالات الـتي تفـوق كـل الممكنات في سبيل إلغاء قـوة خارجيـة أنشـأت الكـون وصـممته، حتى أن دوكينز أثناء رده على المعجزات باعتباره تدل على وجــود

1) توماس هنري هاكسلي: (1825ـ 1895) عالم أحياء بريطاني.. كان قد لقب بـ (كلب داروين) لدفاعـه القـوي عن نظريـة تشـارلز داروين النشــوء والتطــور.. التقى تشــارلز داروين في حــوالي 1856.. وهو صاحب نظرية القرد .

قــوة خارجيــة راح يقــول في كتابــه صــانع الســاعات الأعمى: (المعجزة عبـارة عن شـيء ممكن الحـدوث، لكن حدوثـه مفـاجئ جدًا. فإذا لـوّح تمثـال رخـامي لمـريم العـذراء بيـده تجاهنـا فعلينـا اعتبار ذلك معجزة، لأنّ كلَّ خبراتنا ومعارفنا تؤكّد لنا عجز الرخــام عن هذه الحركة.. لكن العلم لن يحكم على هذه الحادثة باعتبارهـا مستحيلة تمامًا، ولكنها فقط غير محتملة الحدوث للغاية)(1)

ويعبر في موضع آخر عن هذه الفكـرة بصـيغة أكـثر وضـوحا، فيقول: (فرضيتي بأنّ الأحداث التي يشيع ذكرها كمعجزات ليست أمــورًا خارقــة للطبيعــة، لكنّهــا جــزءٌ من سلســلة من الأحــداث الطبيعية الأكثر أو الأقل احتمالية.. المعجـزة، بكلمـات أخـرى، في حال حدثت، فإنّ ذلك ضربة حظ مبهرة، لا تنقسم الأحداث برتابــة إلى أحداث طبيعية ومعجزات.. فبمجرّد إعطاء وقتٍ أو فرصٍ غـير محدودة، فإنّ أيَّ شيءٍ ممكن)(2)

وبناء على هذا، فقد طرح في كتابه [وهم الإله] إمكانية تــوفر ملايير ملايير الكواكب التي تصلح للحياة في مكـان مـا من الكـون الواسع، حتى يكون كوكبنا هـذا، وبالصـورة الـتي هـو عليهـا مجـرد احتمـال من الاحتمـالات، أو كمـا عـبر عن ذلـك بقولـه: (سـأقولها ثانية، إذا كانت احتمالات تولّد حياة على كوكبٍ ما عفويًا واحد إلى مليار، يبقى الحدث غير المتوقّع مع ذلك مفاجـأة ممكنـة الحـدوث على مليار كوكب)(3)

ونتيجة لهذه الطريقة في التفكير راح يفسر كل شيء، فهو لا يحتاج إلا إلى الزمن، وقد قال شارحا كيـف تعمـل الصـدفة عملهـا في تمثــال الرخــام الــذي ســبق ذكــره: (فيمــا يتعلّــق بالتمثــال

---

1) صــانع الســاعات الأعمى، لمــاذا تُظهِــر أدلــة التطــوّر كونــاً بلا مصمم، ريتشارد دوكينز،: (نيويورك: نورتون، 1996)، 159.

2) المرجع السابق، ص 139.

3) وهم الإله، ريتشارد دوكينز، ص 373-374.

الرخامي، تتدافع الجزيئات في الرخام الصلب فيما بينها باتجاهات غير محدّدة باستمرار، يلغي التدافع بين الجزيئات المختلفة بعضه، لذلك تبقى كامل يد التمثال ثابتة. ولكن إذا حدث واتجهت كل الجزيئات ــ بصدفة مطلقة ــ باتجاه واحد في اللحظة نفسها فستتحرّك اليد. من الممكن أن يلوّح تمثال رخامي لنا في هذه الحالة. من الممكن أن تحدث، لكن الاحتمالات المعاكسة لمثل هذه صدفة، كبيرةٌ بشكلٍ غير ممكنٍ تخيّله. ولكن ليست عصية على الحساب كثيرًا. قام زميلٌ فيزيائي بحساب ذلك لي، ووجد أنّ عدد الاحتمالات كبيرٌ جدًا بحيث أنّ عمر الكون حتى يومنا هذا صغير جدًا لا يكفي لكتابة كل الأصفار! من الممكن لبقرةٍ أن تقفز إلى القمر نظريًا مع أنّ احتمالية ذلك قليلة. إنّ خلاصة هذا الجزء من النقاش أن نتمكّن بالحساب من الوصول إلى مناطق من ضآلة الاحتمال بشكل أكبر بكثير مما نستطيع أن نتخيله معقولًا)(1)

وكل هذه أطروحات ممتلئة بالمغالطات، ولم يدل عليها أي دليل علمي ولا رياضي، ولا عقلي.. حتى أن البعض أجرى تجربة على مجموعة من القردة، وبعد تدريبها على الضرب على لوحة المفاتيح، وتركها مدة طويلة، لم تتمكن من كتابة كلمة واحدة كاملة (2).

مع العلم أنه حتى لو تمكنت هذه القردة من كتابة جملة، بل من كتابة قصيدة، بل من كتابة ديوان كامل، فإن ذلك لا يغير من القضية شيئا.. ذلك أن كل ذلك لا يساوي شيئا أمام دقة خلية واحدة وإحكامها وعجائب صنعتها.

بالإضافة إلى ذلك يقال لهؤلاء المولعين بإضافة احتمالات

1) صانع الساعات الأعمى، 159-160..

2) أراد المركز البريطاني للبحوث اختبار هذه النظرية حاسوبياً .. فوضع ستة قردة افتراضية بدأت تضرب على الآله الكاتبة لمدة شهر كامل لم يجدوا فيها كلمة مكونة من حرف واحد .. في الإنجليزية، مع العلم أن الحرف في الإنجليزية يعتبر كلمة اذا كان مسبوقاً ومتبوعاً بفراغ..

عدد القردة، وما عليها كتابته، ليثبتوا الصدفة[1]: هل يمكن لهذه القردة أن تنطق كلماتها، أو تجعل كلمات القصيدة ناطقة؟.. وهل هناك قرد يعيش ملايين السنين؟.. وهل هناك آلة كاتبة تظل تطبع لملايين السنين؟.. وهل هناك أوراق تكفي للكتابة عليها لملايين السنين؟.. ومن الذي صنع له الحبر ووفره له في نفس المكان الذي هو فيه؟.. ومن الذي وفر له الأوراق في نفس المكان الذي هو فيه؟

ولو سلمنا أن الصدفة يمكن أن تنتج أشياء غير متوقعة، فليس معنى ذلك أنها يمكن أن تنتج حدثًا مستحيلاً، ونشأة نظام مستمر قابل للتفسير بلا منظم عاقل: حدَثٌ مستحيل لا يمكن وقوعه مهما طال الزمان، وتحول مادة غير حية بنفسها لمادة حية: حدث مستحيل لا يمكن وقوعه مهما طال الزمان، وتحول مادة غير واعية بنفسها إلى كائن واعي: حدث مستحيل لا يمكن وقوعه مهما طال الزمان، وتحول مادة لا تسمع بنفسها إلى كائن يسمع: حدث مستحيل لا يمكن وقوعه مهما طال الزمان، وتحول مادة لا تضحك إلى كائن يضحك: حدث مستحيل لا يمكن وقوعه مهما طال الزمان.

ولذلك فإن الرد على هذه المغالطة من أيسر الأمور، ذلك أنها لا تعتمد إلا على نفس المبادئ التي يعتمد عليها هؤلاء في طروحاتهم، ويغالطون فيها، وسنذكر هنا باختصار خمسة وجوه، يمكن الاستفادة منها في الرد على هذه المغالطة[2]:

1 ـ الصدفة تفسر كيفية الحدث لا تحديد الفاعل:

ذلك أنه يمكننا قبول الصدفة باعتبارها تصف كيفية الحدث.. لكن لا يمكن قبولها أبدا لنفي وجود فاعل للحدث.. وهو ما يقوم به الملاحدة، حيث يجعلون الصدفة وسيلة لنفي الفاعل، لا لوصف الكيفية.

---

1) انظر: الملحد واستدلاله الخاطئ بالصدفة، د. ربيع أحمد.

2) انظر: الملحد واستدلاله الخاطئ بالصدفة، د. ربيع أحمد.

والأمثلة الواقعية المقربة لهذا كثيرة جدا، ونعيشها كـل يـوم، ومنها ـ مثلا ـ أنه عندما اكتشف أهالي إحدى قرى المنوفية بمصـر عن طريـق الصـدفة مـدخل مقـبرة فرعونيـة أثنـاء إجـراء حفـائر لتشـييد مسـجد، وقـاموا بـإبلاغ مسـؤولي المجلس الأعلى للآثـار، الذين أوفدوا لجنة فنية وأثرية متخصصة، وتـبين لهم ــ بعـد البحث والتنقيب ــ أنـه من الاكتشـافات الأثريـة المهمـة، وأنـه يعـود إلى العصر الفرعوني المتأخر للدولة الفرعونية القديمة.

فهنـا عبرنـا عن الاكتشـاف بكونـه صـدفة.. لكنـا لم نعـبر عن المكتشَـف بـأن حصـوله كـان صـدفة، وإنمـا رحنـا نبحث بجـد عن حقيقته وتاريخه والتفاصيل المرتبطة به، ولو اعتبرنـاه صـدفة لمـا فعلنا ذلك.

وهكـذا عنـدما نسـمع أن أحـد القـوانين الفيزيائيـة اكتشـف صدفة.. مثل اكتشاف أرشميدس لقانون الطفو، واكتشـاف نيـوتن للجاذبية.. لا نفهم من ذلك أن القـانون ليس لـه مكتشِـف.. وإنمـا طريقة الاكتشاف فقط كانت عن طريق الصدفة.

وهكذا عندما نسمع أن شيئًا من الأشياء اخترع صـدفة.. مثـل اختراع هانز ليبرش للنظارة الطبيـة، واخـتراع جـون واكـر لأعـواد الثقاب، واختراع ليبارون سبنسـر للميكروويـف.. لا نفهم من ذلـك أن هذا الشيء ليس له مخترِع.

وهكذا عندما نسمع أن جريمة من الجرائم اكتشفت صدفة لا نفهم من ذلك أن هذه الجريمة ليس لها مرتكب.

وبناء على هذا، فإن اعتبار الكون نشأ صـدفة نتيجـة سلسـلة من التفاعلات الطويلة، دون تنظيم أو تخطيط سابق.. مقولة غـير صحيحة، بل هو مغالطة صريحة.

بل إن الملاحدة في معاملاتهم العادية يقرون بهذا، ويعتبرونه، ولا يطبقونه إلا في هذا الأمر وحده، لينفوا وجود الله..

ومن الأمثلة على ذلك أن [كارل ساغان]، في روايته [اتصال] التي حولتها [هوليود] إلى فلم سينمائي، يحكي قصـة عالِمـة فلـك

تدعى [إيلي] كانت تدرس مـع زملائهـا في مركـز أبحـاث [سـيتي] إشـارات واردة من أعمـاق الفضـاء، وتـبين من خلال البحث أنهـا تتمتع بصفتي التفرد والتعقيد، وذلك ما جعل أعضـاء فريـق البحث يؤكد أنها يستحيل أن تكـون قـد نشـأت بالصـدفة، ولـذا يصـيحون: (إنها ليست تشويشا كونيا.. إنها تحمل نظاما).. ثم تكشف أحـداث الفيلم عن ورود تلك الرسائل بالفعل من عوالم أخرى.

فالرواية، والفيلم الذي مثلها يؤكـد أن رسـالة معقـدة واحـدة كـانت كافيـة لإثبـات وجـود مرسـل ذكي، لكن هـذا الرجـل نفسـه وملايين الملحدين لم يستخدموا نفس هـذا المنطـق عنـدما يـرون تعقيد الحمض النووي..بل يعتبرونه نشأ عن صدفة عشوائية.

2 ـ تكرار الحدث يقلل من احتمالية الصدفة:

وهذا من الحقائق المتفـق عليهـا عنـد جميـع العقلاء؛ فعنـدما يتكـرر حـدث معين بنفس النمـط يسـتبعد العقـل الصـدفة من الحسـبان، ويـذهب للبحث عن السـبب الكـامن وراء الحـدث؛ فالصدفة لا تكون أكثريـة أو دائمية في الحـدوث، بـل عشـوائية، لا قصد فيها ولا تـرتيب، ولا يمكن التنبـؤ بهـا قبـل حـدوثها، وهـذا مـا يقضي على تلك المغالطة من أساسها، لأنها تنبـني ــ كمـا ذكرنـا ـ على اعتماد الزمن الطويل، والزمن ليس في مصلحة الصدفة.

ومن الأمثلة المقربـة لهـذا المعـنى أنـه لـو وجـدنا حادثـة من الحـوادث تتكـرر من حين لآخـر في نفس المكـان وبنفس النمـط، فإننـا لا شـك نسـتبعد الصـدفة، ونبحث عن السـبب الكـامن وراء ذلك، وهذا السبب ربما يكون خللاً ما في هـذا المكـان، أو شخصًـا معينًا يتسبب في ذلك.

فلو رسب طلاب مدرسة معينة في امتحـان معين دون بـاقي المدارس، فلا شك أننا سنستبعد الصدفة، ونبحث عن سبب ذلـك، فقد يكـون خللاً في المنظومـة التعليميـة، أو إهمـال أُسَـرِ الطلاب لأبنائهم أو غير ذلك.

ولو أن شخصا يسكن في شقة وحيدًا، ويذهب لعملـه صـباحًا ويأتي ليلاً، وعندما عاد في يوم من الأيام لشقته وجد نافذة حجـرة

النوم مفتوحة، رغم أنه يغلق جميع نوافذ الشقة قبل خروجه منها، فإنه في المـرة الأولى، قـد يعتـبر ذلـك غفلـة منـه، وأنهـا حصـلت صدفة، لكن إن تكرر هذا الأمـر، فإنـه سيسـتبعد الصـدفة، ويبحث عن سبب ذلك، وأول ما يتبادر إلى ذهنه هو أن شخصًا يتسلل إلى شقته.

وبناء على هذا، فإن قـول الملاحـدة بـأن مـادة الكـون كـانت موجودة ثم انفجرت وتباعـدت أجزاؤهـا وتنـاثرت، وفي اللحظـات الأولى من الانفجــار الهائــل ارتفعت درجــة الحــرارة إلى عــدة تريليونات، كـونت فيهـا أجـزاء الـذرات، ومن هـذه الأجـزاء كـونت الذرات، وهي ذرات الهيدروجين والهليوم، ومن هذه الذرات تـألّف الغبار الكـوني الـذي نشـأت منـه المجـرات فيمـا بعـد، ثم تكـونت النجوم والكواكب، وما زالت تتكون حتى وصل الكون إلى ما نـراه عليه اليوم، وكل هذا صدفة دون تدخُّل قوى عاقلة مريدة مغالطـة كبيرة لا تخالف العقل فقط، بل تخالف العلم أيضا.

فحسب قانون نيوتن الأول [الجسم السـاكن يبقى سـاكنًا مـا لم تؤثر عليه قوة خارجية فتحركه، والجسم المتحرك بسرعة ثابتة في خـط مسـتقيم يبقى على هـذه الحالـة مـا لم تـؤثر عليـه قـوة خارجية فتغير الحالة الحركية له] يستدعي البحث عن قوة خارجية أدت إلى ذلك؛ لأن كل حدث لا بد له من محدِث.. وهم يذكرون أن مادة الكون الأولى كانت ساكنة ثم انفجرت، فلا بد إذن من وجــود من فعل بها ذلك.

بالإضافة إلى هذا، فإنه من المعلوم أن أي انفجـار يتبعه تنـاثر لأشـلاء عديـدة وجسـيمات صـغيرة، فكيـف يتبـع الانفجـار تجمُّع للجزئيـات والجسـيمات، وتكـوين أرض وجبـال وكـواكب ونجـوم ومجرات وغير ذلـك دون وجـود قـوة خارجيـة حكيمـة عالمـة أدت لذلك؟

ومن المعلـوم أيضـا أن أي انفجـار يتبعه دمـار، فكيـف يتبـع الانفجــار الكــوني العظيم عمــار وتكــوين أرض وجبــال وبحــار ومحيطات وأنهار وكواكب وأقمار ونجوم ومجرات دون وجود قــوة عالمة حكيمة؟

ومن المعلوم فوق ذلك كله أن أي انفجار يتبعه هدم، فكيف يتبع الانفجار الكوني بناء أرض وجبال وكواكب وأقمار ونجوم ومجرات دون وجود قوة عالمة حكيمة؟

وعلى التسليم الجدلي بما قالوا؛ فكيف يبقى الكون، ويستمر دون وجود قوة خارجية تحافظ على بقائه واستمراره؟

وإذا كان الكون قد تطور من المادة الأولى له، فمن الذي طور هذه المادة؛ إذ أي تطور لا بد له من مطور؟.. فإن قيل: المادة هي التي طورت نفسها عبر ملايين السنين، فالجواب: هذا الكلام يستلزم أن الأدنى يتطور بنفسه إلى الأعلى، والتطور الذاتي إلى الأكمل دون تدبير حكيم عليم قدير خالق، أمرٌ مستحيل عقلًا؛ إذ الناقص لا ينتج الكامل[1]، ويلزم من هذا الكلام قبول تحول الناقص إلى الكامل بنفسه، وهذا نظير وجود الشيء من العدم الكلي المحض[2].

وإذا كان وجود هذا الكون عن طريقة الصدفة، أليس من الممكن، والحال هكذا، أن توجد صدفة أخرى تقضي على هذا الكون كله؟ وتتعطل كل هذه المصالح من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك، مما في هذا الكون المترابط المنتظم بصورة تضمن استمرار الحياة سليمة عن الخراب والتداخل؛ إذ الشمس تجري لمستقر لها، والنجوم زينة للسماء، والقمر ضياء، والرياح لواقح، والسحب تحمل المطر، والليل في وقته، والنهار في وقته، كلها تجري لصالح الإنسان، ولبقاء الحياة هذه الدهور التي لا يعرف لها وقتًا إلا الله تعالى، بل والإنسان نفسه أعظم آية، كيف أوجدته الصدفة من العدم؟ وكيف وجد الإنسان الحي من مادة ليس لها

1) كواشف زيوف للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ص 331.

2) كواشف زيوف للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ص 446.

حياة؟!(1).

وعلى التسليم الجدلي أن تكوين كوكب من الكواكب كان صدفة، فكيف تفسر الصدفة تكوين الكواكب الأخرى؟ ولو كان تكوين أحد الأقمار صدفة، فكيف تفسر الصدفة تكوين الأقمار الأخرى؟ ولو كان تكوين أحد النجوم صدفة، فكيف تفسر الصدفة تكوين النجوم الأخرى؟ فإذا سلمنا جدلاً أن الصدفة أحدثت كوكبًا، فلا يمكنها أن تكرر إحداث كوكب آخر كل مرة.

وإذا سلمنا جدلاً أن الصدفة أحدثت قمرًا، فلا يمكنها أن تكرر إحداث قمر آخر كل مرة، وإذا سلمنا جدلاً أن الصدفة أحدثت نجمًا، فلا يمكنها أن تكرر إحداث نجم آخر كل مرة، وإذا سلمنا جدلاً أن الصدفة أحدثت مجرة، فلا يمكنها أن تكرر إحداث مجرة أخرى كل مرة؛ أي: نحن أمام كمٍّ هائل من الأحداث المتكررة، التي يحيل العقل حدوثها دون وجود قوة عالمة حكيمة أدت لذلك، نحن أمام سلسلة من الصدف المنظمة، وليس صدفة واحدة.

وما دام الكون لم يكن إلا مادة راكدة ركودًا رهيبًا، ولم يكن هناك شيء غير المادة الراكدة، فمن أين أتت هذه الصدفة التي حركت الكون كله، مع أن هذا الحادث الذي وقع لم تكن له أية أسباب موجودة، لا داخل المادة ولا خارجها؟

3 ـ احتمال وقوع الحدث لا يستلزم وقوعه:

وهذا من المعلومات البديهية التي يحاول الملاحدة تجاوزها باعتبارهم أن الصدفة شيء حتمي الوقوع، لا ممكن الوقوع(2).. فاحتمال وقوع الحدث لا يستلزم وقوعه، واحتمالية وقوعه تكون في كل مرة، فلو أن عندنا قطعة معدنية بها وجه صورة ووجه كتابة عندما نلقيها على الأرض، فاحتمال وقوع وجه الصورة في كل مرة واحد من اثنين 1/2، ولكن مع ذلك يمكن أن نلقي

1) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات للدكتور غالب عواجي 2/1174 - 1175.

2) انظر: الملحد واستدلاله الخاطئ بالصدفة، د. ربيع أحمد.

القطعة المعدنية عشر مرات ولا نحصل على وجه الصورة، ويمكن أيضًا أن نلقيها عشرين مرة ولا نحصل على وجه الصورة.

ولو أن عندنا حجر نرد به ستة وجوه، فاحتمال الحصول على وجه [1] في كل مرة سيكون واحدًا من ستة 1/6، ويمكن أن تلقي حجر النرد عشر مرات ولا تحصل على وجه [1]، ويمكن أيضًا تلقيه عشرين مرة أو ثلاثين مرة ولا تحصل على وجه [1].

وليس معنى أن الحدث يمكن حساب احتمالية وقوعه بالصدفة أنه ممكن الوقوع بمعزل عن الأسباب الموجِدة له، فالاحتمالية الرياضية لا تعني أن الحدث قابل لأن يخرج إلى حيز الواقع دون أن تتوافر له المقدمات التي تنسجم مع القوانين الموجودة للظاهرة (1).

فإن قال طالب لا يذاكر ـ مثلا ـ: من المحتمل أن أنجح بنسبة 50 بالمائة، قيل له: النجاح له أسبابه، وليس معنى احتمالية نجاحك في الامتحان إمكان أن تنجح دون مذاكرة؛ فمن جد وجد، ومن زرع حصد.

ومن خلال هذا يظهر مدى تهافت قول الملاحدة: (إذا كان هناك احتمال ـ ولو ضئيلاً ـ في أن تنشأ الحياة من المادة صدفة بلا خالق عبر ملايين السنين، فمن الممكن أن تنشأ الحياة من المادة صدفة عبر ملايين السنين، وفي ظل وجود الكثير من الوقت المستحيل يصبح ممكنًا، والممكن يصبح من المحتمل، والمحتمل قد يصبح مؤكدًا، وما على المرء إلا الانتظار، والوقت نفسه ينفذ المعجزات)

بالإضافة إلى هذا، فإن قولهم هذا يستلزم أن المادة التي لا حياة فيها يمكن أن تعطي الحياة لغيرها، وهذا باطل؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه إذا كان لا يملِكه ولا يملك أسبابه، والمادة تفتقد الحياة، فكيف تهب الحياة لغيرها؟.. والحياة شيء غير مادي، فكيف تكون ناتجة من شيء مادي؟.. والحياة لا تأتي إلا من حي، والكائنات الحية لا يمكن أن تأتي إلا من كائنات حية مثلها.. وكلام

1) خرافة الإلحاد للدكتور عمر شريف ص 337.

هؤلاء الملاحدة يستلزم قبول تحـول النـاقص إلى الكامـل بنفسـه، وهذا نظير وجود الشيء من العدم الكلي المحض[1].

والبون الشاسع بين المادة والكائنـات الحيـة لا يمكن تغافلـه؛ إذ المادة لا حياة فيها، ولا نمو ولا حركـة ولا تكـاثر، والكـائن الحي كالإنسان والحيوان يتمتع بالحياة والنمو، والحركة والتكاثر.

أما ادعاؤهم بأن الوقت كفيل بـأن يحـول المسـتحيل ممكنًـا، فمغالطة كبرى؛ لأن الوقت عامـل هـدم لا عامـل بنـاء؛ فالكائنـات من إنسان وحيوان ونبات وأسـماك وطيـور وحشـرات كلهـا تهـرَمُ وتموت بمرور الـوقت، والجمـادات من بيـوت وقصـور وغـير ذلـك تفسُدُ وتبلى بمرور الوقت، وإذا تركت طعامًا أو لحمًا تجده يفسـد بعــد مــدة معينــة، حــتى النجــوم بمــرور الــوقت تجــدها تفقــد وقودها من غاز الهيدروجين الذي يزودها بالطاقة، أضِـفْ إلى ذلـك أن الشيء الممكن قد يصير مستحيلاً بمرور الوقت.

وهؤلاء الملاحدة الـذين يـرون أن المـادة قـد أدت إلى ظهـور عناصر متجاوزة لها ـ كالحيـاة مثلاً ــ هم في نهايـة الأمـر ينسـبون للمادة مقدرات غير مادية، ومن ثم فإنهم يكونـون قـد خرجـوا من مقاصـد الفلسـفة الماديـة، خصوصًـا وأن فرضـياتهم لا تخـرج عن كونها تكهنات عنيدة طفوليـة تضـمن لهم الاسـتمرار في مـاديتهم، وتضمن لهم في الوقت ذاته تفسير مـا حـولهم من تـركيب ووعي وغائية[2].

4 ـ تعارض الصدفة وقوانين الاحتمالات:

ذلك أن المصادفة والاحتمال تقـوم الآن على أسـس رياضـية سليمة بغيـة الوصـول إلى حكم صـحيح مطلـق، وهي تضـع أمامنـا الحكم الأقـرب إلى الصـواب مـع تقـدير احتمـال الخطـأ في هـذا

---

1) كواشف زيوف للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ص 446.

2) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان للدكتور عبدالوهاب المسيري ص 27.

الحكم..

وقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدمًا كبيرًا، حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول: إنها تحدث بالمصادفة، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد)

وقد صِرنا ـ بفضل تقدم هذه الدراسات ـ قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان.

وبناء على هذا، فإننا إذا أردنا أن نحسب دور المصادفة في نشأة الحياة ـ كما يزعم الملاحدة ـ فإن علينا أن نتعرف على كل العناصر الضرورية المشكلة للحياة، ثم نقوم بحساب الاحتمالات الممكنة لذلك.

مع العلم (1) أن هناك فرقا بين خلق الشيء، وترتيبه أو تركيبه، حيث إن فكرة المصادفة لا يمكننا أن ندخلها البحث الأول، لأن الموجود لا تحكمه قانون المصادفة بحال من الأحوال، وأما تركيب الأشياء فقد يبقى موضع بحث، كما أن حركة الشيء لا يمكن أن يرد الى المصادفة، وهكذا نجد أن قانون المصادفة يبقى مشوهاً مبتوراً منذ الأساس، فإلقاء حجر النرد ذي الوجوه السداسية قد تلعب الصدفة دورها، فيتكرر رقم واحد خمس مرات أو ست مرات أو أكثر، ولكن احتمال هذا نادر جداً كما أن احتمال سحب أوراق مرقمة من 1 ـ 10 وموضوعة في كيس واحد بصورة مرتبة متدرجة (بحيث ان الرقم 1 يأتي في الأول ثم تتبعه الأرقام التالية بالترتيب) احتمال ضعيف ونادر ولكن أين لقانون المصادفة أن يلعب دوره في الوجود أصلاً أو في حركة المادة من الأساس؟!

---

1) انظر: الطب محراب للإيمان، خالص جلبي، ص9، فما بعدها، وقد ذكر أنه اقتبس الأمثلة الواردة هنا من كتاب مصير البشرية لكاتبه ليكونت دي نوي.

بالإضافة إلى هذا، فإن العلم يقف دون تفسير ظاهرة الحياة، فقانون المصادفة عاجز عند هذه العتبة؛ فترتيب المواد بكيفية ما قد يوضع في مدار البحث، ولكن انبثاق الحياة من الموات يبقي معجزة مستحيلة التفسير على ضوء المنهج الذي يفكر به الملاحدة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الامكانيات المتكافئة المتزاحمة، فعندما نضع عشرة أرقام مرقمة من واحد الى عشرة في كيس واحد. فان احتمال أن يكون الرقم واحد هو الأول احتمال واحد من عشرة لأن كل رقم من الأرقام العشرة قد يكون هو المسحوب، فالمصادفة ليس لها وجدان ولا ذاكرة كما يقول الرياضي الكبير جوزيف برترند.

والأمر الأخطر من ذلك كله هو أن تطبيق هذا القانون إنما يتم على المادة غير الحية، فدراسة الاحتمال على ضغط غاز في وعاء أو خليط من غازات قد يصح، ولكن على الخلية وباقي الحياة فانه يقف، لأن الترابط في الخلية مع ظاهرة الحياة معجزة ومحيرة الى حد يجعل هنا القانون غير ساري المفعول في هذا المجال..

بناء على ذلك كله، فلو كان معنا كيس فيه عشرة أرقام من 1 ـ 10 وأردنا أن نسحب ورقة واحدة فان احتمال أن يكون الرقم واحد هو الأول هو احتمال واحد من عشرة، لانه كما ذكرنا كل رقم قد يكون له الحظ في أن يكون هو المسحوب.. ولكن المثل يتعقد بشدة أكثر عندما نريد أن نسحب رقمين متتابعينن ذلك أن احتمال أن يكون الرقم واحد ثم يتبعه الرقم اثنان هو احتمال واحد ضد مائة، لأننا لو فكرنا كيف سيتم الأمر فان احتمال رقم واحد ثم تنبعه الارقام الباقية بشكل غير محدد مثل واحد يتلوه سبعة أو واحد يتلوه ثلاثة حتى يكتمل نصاب عشرة مرات ثم بقية الأرقام بالطريقة نفسها فيكون المجموع مائة مرة، وهي احتمال أن نسحب رقمين متتاليين ويكون الرقم الأول واحداً والثاني اثنين.. ثم يتعقد المثل أكثر عندما نريد أن نسحب ثلاثة أرقام

متتالية بحيث تخرج الارقام واحد، اثنان، ثلاثة متتابعة فيكون احتمال ذلك هو واحداً ضد ألف.

وهكذا نتدرج في التعقيد والصعوبة حتى نصل الى حد عجيب وهو اذا أردنا أن نسحب الارقام العشرة مرتبة بعضها تلو بعض بحيث تخرج الارقام من واحد الى عشرة متتابعة فإن احتمال هذا هو واحد ضد عشرة مليارات، أي اننا إذا أردنا أن نسحب الاوراق عشرة مليارات مرة فان احتمال أن تخرج الارقام مرتبة بعضها تلو بعض بشكل متدرج من (1 ـ 10) هو مرة واحدة، قد تكون المرة الاولى هي التي ستكون المطلوبة ولكننا لا ننتظر معجزة لان الطبيعة شريفة غير مخادعة ولان احتمال عشرة مليارات هو الذي يرد الى الذهن قبل المرة الواحدة؟

لكن هذا المثال بسيط جداً مقارنة بأمثلة أخرى أكثر تعقيدا، فلو فرضنا أن لدينا انبوباً زجاجياً وفيه ألف كرة بيضاء وألف كرة سوداء والكرات البيضاء تعلو الكرات السوداء، وهذا الانبوب يتصل من إحدى نهايته بكرة زجاجية مجوفة تتسع إلى أكثر من ألفي كرة من حجم الكرات الموجودة في الأنبوب الزجاجي، فلو القينا نظرة على الانبوب الزجاجي لوجدنا اللون الأبيض واضحاً كما ان اللون الأسود واضح، ولكن لو فرضنا اننا املنا الانبوب الزجاجي (وهو لا يتسع في قطرة إلا لكرة واحدة فقط بحيث تصبح الكرات بعضها فوق بعض) بحيث أن الكرات اختلطت في النهاية المجوفة التي تتسع للجميع فان اللون يصبح رمادياً، وإذا أردنا ارجاع الكرات الى الانبوب الزجاجي فان اللون لا يعود كما كان أي الأبيض متميز عن الأسود بل يصبح اللون رمادياً وذلك لامتزاج الكرات السوداء مع البيضاء امتزاجاً تاماً..

والآن فإن أمكانية أن تعود الكرات إلى ما كانت عليه أي الألف كرة البيضاء منفصلة عن الكرات السوداء تحتاج إلى احتمال لا يمكن تصوره وهو احتمال 489 ×ـ 10 أس 600 أي رقم 489 مسبوق بـ 600 صفر إلى اليمين وهذا يحتاج الى ملء أسطر عديدة من الاصفار وهو رقم لا يمكن قراءته بحال.. وهذا المثل هو فقط في ناحية اللون مع تماثل باقي الشروط فكيف

الحـال لـو حـدث تغـير في شـروط أخـرى، وأين سـيكون قـانون المصادفة عند ذلك وهـذا كمـا ذكرنـا في عـالم المـادة فقـط وفي ترتيب الاشياء..

وهذا المثال لا يساوي شـيئا أمـام أمثلـة أخـرى أكـثر تعقيـدا، ومن ذلك ما قام به عالم رياضـي سويسـري هـو [تشـارلز يـوجين جاي] على ذرة واحدة من العضويات والـتي يمكن أن تشـترك في تركيب خلية واحدة من خلايا الكائنـات الـتي تعمـر هـذا الوجـود .. ومع أن الوزن الذري لابسط الأحيات هو 34,500 وهـو آح الـبيض ومع ذلـك قـام بتبسـيط أول فـاعتبر الـذرات 2000 (الفي ذرة). وقام بتبسيط آخر فـاعتبر أن الـذرات هي نوعـان فقـط بينمـا هي في الحالة العادية أربع جواهر على الاقل وهي الفحم والهيـدرجين والاكسجين والآزوت بالاضافة إلى الكبريت والنحـاس والفوسـفور وغيرها من العناصر.

وقام بتبسيط ثالث وهو اعتبار الوزن الـذري عشـرة وسـطياً مع ان الفحم 12 والاكسجين 16 ... فكانت نتيجة الحسابات الـتي وصل اليها هي أقرب للخيـال منهـا إلى الحقيقـة حيث أن احتمـال حـدوث هـذه الـذرة تحتـاج لثلاثـة أشـياء: أولاً : الاحتمـال النظـري لحدوث هذه الذرة وثانياً : المـادة وحجمهـا الـتي بامكانهـا أن تعين رقم الاحتمال وثالثاً : الزمن الـذي تحتـاج اليـه نظريـة الاحتمـالات حتى يمكن تشكيل هذه الذرة الواحدة فقط.

وبناء على هذا كان احتمـال المصـادفة تقريبـاً 2 ×ـ 10 أس 321 أي مسبوق بـ 321 صفر إلى يمين الرقم.

وأما حجم المـادة الـذي نحتـاج إليـه حـتى تتحقـق مثـل هـذه المصادفة فهو بحجم كرة ضخمة يحتاج الضوء لكي يقطـع قطرهـا الى 10 أس 164 سنة أي رقم واحد أمامـه 164 صـفراً، ونتيجـة قراءة هذا الرقم يكون بالسنين الضوئية وهـو مـا يعـادل المسـافة التي لو سار الضوء سنة زمنية كاملة يستطع أن يقطعهـا وهي مـا تصل إلى رقم ستة ملايين مليون ميل أي 6 ×ـ 1 أس 120 ميلا، حيث إن الضوء يقطع في الثانية الواحـدة 300 الـف كيلـو مـتر أو 186 الف ميل أو كما ذكرنا في السنة الواحدة 11 مليـون ميـل و

160 الف ميل أو كما ذكرنا في السنة الواحدة 6 مليون مليون ميل على وجه التقريب حيث وصلنا الى هذا الرقم بضربه عدة مرات حتى نصل إلى رقم السنه ، فهذه الكرة المادية التي نحتاج اليها لحدوث احتمال تكون ذرة بسيطة مكونة من الفين من الذرات وذات نوعين فقط من الجواهر وذات وزن ذري وسطياً يبلغ العشرة (كما ذكرنا ثلاث تبسيطات لهذه الذرة الوحيدة) هي ذات قطر يبلغ بالسنين الضوئية 10 أس 164 سنة.. وهذا الرقم يبلغ في علم الفلك أكبر من الكون الذي تخيله انشتاين بسكستيليون سكستيليون سكستيلون مرة.

بقي علينا الشيء الثالث وهو الزمن بالاضافة الى الاحتمال والكون المادي، فلو فرضنا أن عامل الخض الحروري هو الذي يعمل وبقدر يبلغ 500 مليون تريليون هزة في الثانية الواحدة أي 5 ×ـ 10 14 / ثا ، والتي هي من رتبة ذبذبة الضوء، فان الزمن الذي نحتاج اليه مع كل هذا هو 10 أس 243 بليون سنة.

ويجب أن لا ننسى مع ذلك كله أن الأرض على آراء الجيولوجيين لم توجد إلا منذ بليوني سنة كما أن الحياة لم توجد إلا منذ بليون سنة.. وهكذا فاننا نجد انفسنا أن الامكانية الزمانية والحجم المادي لا يسعفنا في تحقيق تكوين ذرة واحدة (مع وجود الذرات بالأصل أي ليس الخلق)، وهكذا نصل إلى أن نجعل فكرة المصادفة هي الاستحالة لذرة واحدة.

لكن الكون ليس ذرة واحدة فقط مصممة على نسق عجيب وتكوين غريب ، فتكوين الذرة مدهش محير وتركيب الفلك مدهش محير ، وتركيب الخلية مدهش محير ، وتركيب الانسجة مدهش محير ، وتركيب الاعضاء مدهش محير ، كما أن تركيب الكائن الحي مدهش محير ، وأما النفس فهي ذلك العالم الغامض المجهول الذي تستشف البشرية بعض مكنونانه الآن ..

ونختم هذا الدليل بما قاله رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك [كريسي موريسن] ـ ردا على الملحد [هيكل] في قوله: (إيتوني بالهواء وبالماء، وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان): (إن هيكل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة

الحياة نفسها، فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق (الجينات) أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة، ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا لا يعدو واحداً على عدة بلايين، ولو افترضنا أن (هيكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها مصادفة، بل سوف يقررها وبعدها نتيجة لعبقريته)(1)

وقال البروفيسور [إيدوين كونكلين]: (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار يقع في مطبعة على سبيل المصادفة)

وقال عالم الطبيعة الأمريكي [جورج إيرل ديفيس]: (لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله) ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد! إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن تبنى مثل هذه الخزعبلات)

وقال عالم الأعضاء الأمريكي [مارلين ب. كريدر]: (إن الإمكان الرياضي في توافر العلل اللازمة للخلق عن طريق المصادفة في نِسَبِها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء)

5 ـ الصدفة لا تتناسب مع الدقة والنظام:

وهذا ما يدل عليه الواقع، فالصدفة يمكن أن تفسر حدثا طارئا بسيطا، أما أن تفسر واقعا معقدا ممتلئا بكل ألوان النظام، فهذا مستحيل.

فيمكننا قبول أن يلتقي عالمان، ويتناقشا في مسألة علمية محددة، وفي محل معين صدفة، لكننا لا يمكن أن نقبل اجتماع

---

1) الله يتجلى في عصر العلم.

مئات العلماء في وقت واحد، لإقامة مؤتمر علمي صدفة.

فالأول أمر بسيط، أما الثاني فمعقد جدا، ويحتاج تحضيرات كثيرة، ولذلك يستحيل حصوله صدفة.. ولهذا لم نسمع أبدا أن هناك مؤتمرا حصل صدفة من دون أن يكون هناك تحضير مسبق.

ومثل ذلك، بل أعقد منه بترليونات المرات هذا الكون، فذراته قد صممت وهيئت، بحيث إنها إذا اجتمعت بطريقة معينة يتكون منها شيء معين في الكون، مثلاً تتجمع الذرات بطريقة معينة تكون ماءً، وبطريقة أخرى تكون أكسجينا، وبطريقة أخرى تكون نيتروجينا، وبطريقة أخرى تكون ذهبًا، وهكذا، فلا بد من وجود مصمم لها ومهيئ لها قبل وجودها وقبل نشأة الكون.

بالإضافة إلى ذلك، فإن فروع العلم كافة تثبت أن هنالك نظامًا معجزًا يسود هذا الكون، أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، والتي يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها، وقد بلغت كشوفنا من الدقة قدرًا يمكننا من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرهما من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين.

فمن الذي سن هذه القوانين وأودعها كل ذرة من ذرات الوجود، بل في كل ما هو دون الذرة عند نشأتها الأولى؟.. ومن الذي خلق كل ذلك النظام والتوافق والانسجام؟.. من الذي صمم فأبدع وقدَّر فأحسن التقدير؟.. هل خلق كل ذلك من غير خالق أم هم الخالقون؟ إن النظام والقانون وذلك الإبداع الذي نلمسه في الكون حيثما اتجهت أبصارنا يدل على أنه من صنع إله قدير عليم خبير[1].

والملاحدة الذي يذكرون أن (نشأة الحياة ليست دليلاً على وجود خالق؛ لأنها نشأت صدفة عبر سلسلة طويلة من التطور الكيميائي ما قبل الحيوي استمر لملايين السنين ابتداءً من الكيميائيات البسيطة، مرورًا بالجزيئات المتعددة، والجزيئات

1) من مقدمة مترجم كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، الدكتور الدمرداش عبدالمجيد ص 7.

المتعددة الناسخة ذاتيًّا داخلة بدورات تحفيزية، وصولًا إلى كائنات ما قبل بكتيرية، وصولًا إلى بكتريا بسيطة) ليس سوى مغالطة كبيرة، لا يقبلها أي عقل سليم، بل هو دليل على جهلهم بمفهوم الصدفة؛ إذ على التسليم الجدلي ـ تنزلاً معهم ـ أن الحياة نشأت صدفة نتيجة سلسلة من التفاعلات فهذا لا ينفي وجود خالق للحياة؛ لأن الصدفة ليست فاعلة، ولكنها صفة للفعل الصادر من الفاعل، والفعل لا يوجد بدون فاعل.

وعلى التسليم الجدلي أن الملاحدة قدموا الآلية الصحيحة لنشأة الحياة، فهم تكلموا عن كيفية نشأة الحياة، وليس لماذا نشأت الحياة، ومن الذي أنشأها؟ ومن الذي جعلها تنشأ بهذه الطريقة؟ إذ العلم يبحث عن الفعل، ولا يبحث عن الفاعل، ويبحث عن الحدث، ولا يبحث عن الحادث.

ولو كانت الحياة قد نشأت نتيجة سلسلة من التفاعلات، فلا بد من وجود موجِد للمواد التي تتفاعل، ولا بد من وجود من أعطى هذه المواد القابلية للتفاعل، وهذه السلسلة من التفاعلات لها شروط معينة للحدوث، فتحتاج إلى من يهيئ لها الشروط المعينة لحدوثها، وهذه السلسلة من التفاعلات تحتاج إلى من يحافظ عليها كي تعطي نتائجها.

ولو كانت الحياة قد تطورت من مادة غير حية، فمن الذي طور هذه المادة؟ إذ أي تطور لا بد له من مطوِّر، وإن قيل: المادة هي التي طورت نفسها عبر ملايين السنين، فالجواب: هذا الكلام يستلزم أن الأدنى يتطور بنفسه إلى الأعلى، والتطور الذاتي إلى الأكمل دون تدبير حكيم عليم قدير خالق، أمرٌ مستحيل عقلًا؛ إذ الناقص لا ينتج الكامل في خطةٍ ثابتة، وهو بمثابة إنتاج العدم للوجود[1]، ويلزم من هذا الكلام قبول تحول الناقص إلى الكامل بنفسه، وهذا نظير وجود الشيء من العدم الكلي المحض[2].

1) كواشف زيوف للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ص 331.

2) كواشف زيوف للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ص 446.

بالإضـافة إلى هـذا.. ألم يكن من الممكن أن تـرتطم النجـوم ببعضها البعض وتتحطم؟ وبعد حدوث الحركة في المادة، أمـا كـان من الممكن أن تبقى حركة مجردة دون أن تصبح حركـة ارتقائيـة، تجـري في سلسـلة مدهشـة من العمـل التطـوري لإيجـاد الكـون الخالي؟

ما هو ذلك المنطق الذي جعل النجوم والسيارات تتحرك بهذا النظام العجيب في الكون اللامتناهي؟ وما هو ذلك المنطـق الـذي أوجد النظام الشمسي في ركن بعيد من أركـان الكـون؟ ومـا هـو ذلك المنطق الذي أمكن بواسطته إجراء تغـيرات مدهشـة أتـاحت الفرصة لنشأة الحياة الإنسانية على كرة الأرض؟

وهذه التغيرات التي قـد حـدثت بالفعـل على كرتنـا لا نعـرف حتى الآن ما إذا كـانت موجـودة على ظهـر سـيار أو نجم آخـر من ملايين المجـرات المنتشـرة في أركـان الكـون، فمـا هـو المنطـق الذي تسبب في إيجاد مخلوق حي من مادة بدون حياة؟ هل لأحـد أن يقـدم لنـا تفسـيرًا معقـولًا لتوضـيح: كيـف وجـدت الحيـاة على سطح الأرض؟ ولماذا؟ وتحت أي قـانون تسـتأنف الحيـاة وجودهـا المدهش بهذا التسلسل؟!

ثم ما هو ذلك المنطق الذي أوجد في حيز مكاني صـغير كـل تلك الأشياء اللازمة لحياتنا ومدنيتنا؟ ثم ما هو ذلك المنطـق الـذي يعمـل على إبقـاء هـذه الأحـوال دائمًـا في صـالحنا كمـا هي؟ أي صـدفة واتفـاق يتيحـان حـدوث هـذه الإمكانـات بهـذا التسلسـل والـترتيب الجميـل، ثم اسـتمرارها لملايين السـنين بحيث لا يطـرأ عليها أدنى تغير يخالف مصالح الإنسان[1]؟

رابعا ـ إسناد الخلق للتطور العلمي:

وهذه من المغالطات الكبرى التي يدلسـون بهـا على العـوام والبسـطاء، حيث يتصـورون أن اكتشـاف سـبب أي ظـاهرة من الظواهر مغن عن الله.. وكـأن الظـاهرة تتحـرك بنفسـها من غـير حاجة محدث لها.

1) الدين في مواجهة العلم لوحيد الدين خان ص 46 - 47.

وقد عبر عن هذه المغالطة [ريتشارد داوكنز] بقوله متسائلا: (لماذا يعتبر الله تفسيراً لشيء ما؟)، ثم أجاب على تساؤله بقوله: (هو ليس تفسيرا، بل هو بالأحرى عجز فى التفسير واللامبالاة، وهو عبارة عن [لا أعرف] متنكرة بالروحانيات والطقوس.. وعندما يعطى الناس لله هذا الدور فى شىء ما، فهذا يعنى عادة بأنهم لا يملكون أي دراية بهذا الشيء، ولذلك فإنهم يعطون التفسير لأسطورة سماوية لا يمكن أن نعرفها أو نصل اليها يوماً ما، وولو سألت من أين أتت تلك الشخصية، فالاحتمالات هى أن تحصل على إجابة ضبابية، نصف فلسفية عن وجوده الأزلي، أو وجوده خارج الطبيعة، والتى بالطبع لا تفسر شيئاً على الإطلاق)[1]

وعبر عن ذلك بصياغة أخرى أكثر وضوحا، فقال: (الفراغات بالأساس في عقل الخلوقيين، تملأ بواسطة الإله)[2]، أي أن المؤمن يلجأ إلى الله بسبب عجزه عن التفسير العلمي لما يراه من ظواهر، وبذلك يكون الإيمان حائلا بينه وبين البحث عن حقائقها وتفسيرها تفسيرا علميا.

أما عالم الفيزياء البريطاني الشهير [ستيفن هاوكنج] الذي لم يكن يدع مناسبة إلا ويشهر فيها إلحاده، ولو لم يكن لذلك علاقة بالموضوع المطروح، ومن أمثلة ذلك ما نشرته الصحف العالمية عنه أنه، ولكي يثير انتباه الحاضرين في مهرجان [ستارموس فيستيفال] الذي استضافته جزر الكناري بمشاركة ثلة من العلماء ورواد الفضاء، للتباحث في أمور الفضاء، وكان هاوكنج من ضمن المشاركين، وفجأة سمع الصوت المعدني الصادر من كرسيه المتحرك يصدح في أرجاء القاعة، ليفاجئ الجميع ويؤكد مرة أخرى أنه (ليس هناك حاجة إلى وجود خالق لنشأة الكون)

ثم أضاف (الدين مثله مثل العلم، إذ كلاهما يفسران أصل الكون، ولكن أعتقد أن العلم هو أكثر إقناعا، ويقدم باستمرار

1) وهم الإله، ص136.

2) المرجع السابق، ص64 4.

إجابات لأسئلة يعجز الدين الإجابة عليها.. ولا أحد يستطيع أن يثبت وجود الخالق، ولكن يمكن التفكير في كيفية نشـوء الكـون بشـكل عفــوي، ونحن نعلم أنــه لا يمكن تقــديم أي تفســير عقلي إلا عن طريق العلم، وفي النهاية سنعرف كل مـا يعرفـه الخـالق إذا كـان موجودا فعلا)(1)

وهـذا كلـه من المغالطـات الـتي جعلتهم يوهمـون العامـة أن نسبة الخلق لله، تعني عدم الحاجة للبحث في الأسباب، وهذا غـير صـحيح؛ فالاعتقـاد بوجـود اللـه، وكونـه مسـبب الأسـباب لا يعـني الاستغناء عن الأسباب الطبيعية، أو التمرّد على شـيء من حقـائق العلم الصحيح، وإنّما هو اعتقاد بأن الله هو المسبب لهذه الأسباب الطبيعيـة، ويحتّم على تسلسـل العلـل والأسـباب أن يتصـاعد إلى قوّة فوق الطبيعة وفوق الكون.. وحـتى لـو سـلمنا جـدلا أن العلم وصــل إلى معرفــة كــل الأســباب الطبيعيــة، فهــذا لا ينفي وجــود الخالق، بل هذه الأسباب الطبيعية دالة على موجد لها، فكل سبب له مسبب، وهو الله عز وجل.

ومثل ذلك ما لو اخترع الإنســان حاســوبا ضـخما اسـتطاع أن يصنع آلات بديعة.. تقوم هي الأخرى بصـناعة آلات أخـرى.. وهكـذا فإن هذا التسلسل لن ينفي دور الإنســان.. بــل يبقى الإنســان هــو المبدع الأول لتلك الآلات جميعا.

ولهـذا فلـو أن شخصـا سـئل عن المنتج الأخـير، ومن صـنعه، وقال: الإنسان هو الذي صنعه لكان صادقا، لأن الإنسان هــو الــذي صنع من صنع تلك المصنوعات.

وقــد رد على هــذه المغالطــة الكثــير من علمــاء الطبيعــة أنفسهم، فقد قال بعضهم: (ان الطبيعة حقيقة من حقـائق الكـون وليست تفسيرا له، لأن ما كشفتم ليس بيانا لاسباب وجود الـدين،

---

1) انظر: مقالا بعنوان: عالم فيزيائي بريطـاني شـهير يجـدد نفيـه وجود خالق للكون، حميد كعواس، موقـع هسـبريس، الخميس 02 أكتوبر 2014 على الرابط التالي:

https://www.hespress.com/sciences-nature/242317.html

فالدين يبين لنا الاسباب والدوافع الحقيقية التي تدور وراء الكـون، وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون. إن العلم الحديث تفصـيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقـع، فكـل مضـمون العلم هو اجابة عن السؤال: (ما هذا؟)، وليس لديـه اجابـة عن السـؤال: (ولكن لماذا؟)[1]

ولتوضيح هذا ضرب مثالا بسيطا بالكتكوت الذي يعيش أيامـه الاولى، داخل قشـرة البيضـة القويـة، ويخـرج منهـا بعـدما تنكسـر مضغة لحم؛ فقد كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه، ولكنـا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت، يستعمله في تكسير البيضـة، لينطلـق خارجا منها، ثم يزول هذا القـرن بعـد بضـعة أيـام من خروجـه من البيضة.

وهذه المشاهدة، كما يزعم الملاحدة، أبطلت الفكرة القديمة القائلة: بان الإلـه يخـرج الكتكـوت من البيضـة، مـع أن المشـاهدة الجديدة لا تـدلنا إلا على حلقـات جديـدة للحـادث، ولا تكشـف عن سببه الحقيقي، فقد تغير الوضع الآن، فأصبح السؤال لا عن تكسر البيضة، بل عن (القرن)

ذلك أن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننـا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن؛ فالعلة التي كانت على معرفة كاملة بـأن الكتكـوت سـوف يحتـاج إلى هـذا القـرن ليخـرج من البيضـة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الاخير (وهو مشاهدتنا بالمنظـار) إلا أنه (مشاهدة للواقع على نطاق أوسع)، ولكنه ليس تفسيرا له.

وقـد قـال البروفسـور [سيسـيل بـايس هامـان]، وهـو أسـتاذ أمـريكي في البيولوجيـا، معـبرا عن هـذا المعـنى: (كـانت العمليـة المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسـب من قبـل إلى الإله، فاصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا، هل أبطل هذا وجود الاله؟ فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصـبح تفاعلا مفيدا؟... إن الغذاء بعـد دخولـه في الجسـم الإنسـاني يمـر

---

1) نقلا عن الإسلام يتحدى، ص31.

بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض. فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بان الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!)(1)

وهكذا؛ فإن الإنسان القديم كان يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيرا لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الاخيرة.

ويقول العالم الامريكي [سيسيل] معبرا عن هذا المعنى بلغة ساخرة: (إن الطبيعة لا تفسر شيئا من الكون، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير.. فلو أنك سألت طبيبا: ما السبب وراء احمرار الدم؟ .. فسيجيب: لأن في الدم خلاياحمراء، حجم كل خلية منها 700/1 من البوصة!.. حسنا، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟ .. فسيجيب: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين) وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالاوكسجين في القلب.. هذا جميل، ولكن من أين تأتي هذه الخليا التي تحمل الاهيموجلوبين؟ .. فسيجيب: إنها تصنع في كبدك.. عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الاشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها، بعضها ببعض ارتباطا كليا، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟ .. فسيجيب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة.. ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا. ياسيدي الطبيب؟ .. فسيجيب: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.. ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما إلى نتيجة

---

(1) The Evidence of God in an Expounding Universe، p 221..

معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها، حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدنيا، بجميع ما لديه من الامكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟ .. فسيجيب: لا تسالني عن هذا، فإن علمي لا يتكلم الا عن: (ما يحدث)، وليس له ان يجيب: (لماذا يحدث؟)[1]

ثم يعقب على هذه المحاورة بقوله: (يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والاسباب وراء هذا الكون.. ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لسؤال آخر، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين، لأن جميع هذه الكشوف (حلقا ثمينة من السلسلة)، ولكن ما يحل محل الدين لا بد أن يشرح الكون شرحا كليا وكاملا. فما الكون على حاله هذه إلا كمثل ما كينة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها الا أنها تدور.. ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة، يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلها.. هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكنة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها؟.. هل يفهم منطقيا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتيا؟.. لو لم يكن هذا الاستدلال منطقيا فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائيا، ويتحرك ذاتيا؟)

وقد عبر عن هذا المعنى أيضا البروفيسور [هريز] عند نقده فكرة داروين عن النشوء والارتقاء، فقال: (إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصلح)، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح)

وبناء على هذا كله[2] فإن هذه المكتشفات التي وضع الإنسان المعاصر يده عليها لم تزد على أنها وضعت الإنسان أمام

1) نقلا عن الإسلام يتحدى: 34.

2) انظر: الدين والعلم، د. محمد حسن هيتو.

مجهول جديد لم يجد له حلا ولا تفسيرا، ألا هو: من الذي أوجد هذا القانون الذي ينظم هذه الظواهر الكونية ؟ ومن الذي أوجـد العلـة التي بواسطتها يكون ذلك المعلول ؟

وهذا السـؤال الجديـد الـذي يحـار أمامـه الإنسـان المعاصـر، مهمـا بلـغ من العلم، وأدرك من المعـارف، لا بـد لـه في نهايـة المطاف من أن يعـزو هـذا إلى قـوة وراء هـذا القـانون، هي الـتي أوجدته وأحكمته، ألا وهي قدرة الله وحكمته.

نعم.. لقد اكتشف نيوتن قانون الجاذبية، وعرفنا أنه هو الـذي يحكم النجوم في هذا الفضاء،وهو الذي يتحكم بحركتها، ولكن هـذا لا يدعونا إلى الالحاد، وإنكار الـدين والألوهيـة، بـل إنـه وضـعنا أمـا السؤال الجديد، من الذي أوجد هذا القانون العظيم المحكم الـذي يذهل لدقته وإتقانه كل عقل بشري؟

إنه السؤال الذي لا يدفعنا إلى الالحاد، بل يزيدنا إيمانـا بدقـة الصانع العظيم، موجد هذا القانون، ألا وهو الله..

فجميع المكتشـفات الـتي عرفناهـا، والقـوانين العلميـة الـتي وضعنا أيدينا عليهـا، لم تقـل لنـا أنـه لا الـه.. ولم تـدلنا على عـدم وجوده، ولم تزد على أن وضعت أيدينا على بعض المجاهيـل الـتي كنا لا نعرفها، وما أكثرها في هـذا الكـون، بـل أرشـدتنا إلى البحث عن بقية المجاهيل الـتي توصـلنا إليهـا من خلال كشـفنا عن هـذا ا لمجهـول، والـتي لم نكن لنتمكن من الوقـوف عليهـا وبحثهـا لـولا كشفنا لهذا المجهول الأول الذي عرفنـا بـه السـبب والعلـة لبعض مظاهر الكون، كما أنها زادتنا إيمانا بوجود الله وصـدق الـدين،ولـو كانت هذه المكتشفات،وهذه القوانين تـدل على عـدم وجـود اللـه وبطلان الدين، لما كان بها مجال للاستدلال على وجود الله وصدق الدين، إلا أننا نجد جميع المؤمنين يدعمون إيمانهم بوجـود الخـالق بهذه المكتشفات الحديثة.

ولذلك؛ فإن مثل المنكر لوجود الله وقدرتـه باكتشـافه لبعض القوانين العلمية إلا كمثل إنسان كـان يسـمع عن مركبـة الفضـاء، ويعجب لدقـــة صـــنعها وعظمـــة صـــانعها، ويتعجب من حركتهـــا،

وطيرانهـا، وهبوطهـا، ويكيـل صـفات المـدح والثنـاء والإعجـاب لصـــانعها، ثم أتيح لـــه أن يـــرى مركبـــة الفضـــاء، ويـــرى الآلات والمحركات التي كانت سـببا في حركتهـا، فلمـا رأى محركهـا ومـا فيها من الآلات قال: (لقد اكتشفت سر الحركة في هذه المركبــة، إنها تسير بواسطة هذا المحـرك، وتلتقـط الصـور وتبثهـا بواسـطة هذه الآلات، إذن فلا داعي للقول بأن ثمة صـانعا صـنعها، ولا داعي للإعجاب بقدرته)

ويقـول: (لقـد كنـا نعزوهـا للصـانع ونعجب من دقـة صـنعه، عندما كنا لا نعرف سر حركتها، وأنها مرتبطة بـذلك المحـرك، أمـا وقد عرفنـا سـر الحركـة والمحـرك، فلا داعي لأن تنسـب الحركـة لذلك الصانع).. هل يمكن أن يقبل أي عاقل هذا القول؟

بل إن الموقف الصحيح هـو أن اطلاعنـا على المحـرك الـذي تتحـرك بـه المركبـة، والآلات الـتي بـداخلها، لا يـدعونا إلى جحـود صانعها، وإنما يدعونا لزيادة الإعجاب بـه، لمـا في هـذه الآلات من الدقة البالغة، والإتقان، والإحكام.

وهكـذا؛ فإننـا كنـا نعجب من قـدرة اللـه في حركـة النجـوم، ووقوفهـا في الفضـاء، حينمـا كنـا لا نعـرف قـانون الجاذبيـة، فكنـا ننسب وقوفها في الفضاء وحركتها إلى قدرة الله، وحينما اكتشفنا قانون الجاذبية، وعرفنا أن هذه الأجرام خاضعة لهذا القانون، وأنـه في غاية الدقة والإتقان والإحكام لم يـدفعنا هـذا إلى جحـود اللـه، وإنما زادنا إيمانا به وبقدرته التي أوجدت مثـل هـذا القـانون الـذي يحكم النجوم في هذا الفضاء.

إننـا عنـدما عرفنـا قـانون الحركـة في أصـغر ذرة من ذرات الوجـود وفي أكـبر مجـرة من مجـرات السـماء، وأنهـا كلهـا تـدور وتتحرك طبقا لنظام محكم بديع، تتفق فيه جميع أجزاء هذا الكون من عناصر الذرة إلى أجرام المجرة، إننا عندما عرفنا هذه الحركة واكتشـفناها لم تزدنـا إلا إيمانـا باللـه، وبـالقوانين المحكمـة الـتي خلقها وأحكمها، ليدل بها الإنسان على وجوده وقدرته.

إن هذه القوانين لم تقل لنا إنه لا إله، وإنما دلتنا على أن الله

يجري أحكامه في هذا الكون بناء على هذه القوانين.

لقد عبر نيوتن ذاته، وهو مكتشف قانون الجاذبية، عن هذا المعنى، فقال: (لا تشكوا في الخالق، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود، لأن ضرورة عمياء، متجانسة في كل مكان وفي كل زمان، لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات، ولا هذا الوجود كله، بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها، مع تغيرات الأزمنة والأمكنة، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أوليّ له حكمة وإرادة) [1]

وقال: (من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها)

وقال: (ليس هذا كل ما في المسألة، فان الله ضروري أيضا، سواء لإدارة هذه الأجرام على بعضها، وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة الجاذبية، أو لتحديد وجهة هذه الدورات، لتتفق مع دورات الكواكب، كما يرى ذلك في الشمس والقمر وتوابعها)

وقال: (وغير هذا، ففي تكون الأجرام السماوية، كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تقسم إلى قسمين، القسم المضيء منها انحاز إلى جهة لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها، كالشمس والنجوم، والقسم المعتم تجمع في جهة أخرى، لتكوين الأجرام المعتمة، كالكواكب وتوابعها، وكل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له)

ومثله قال العلامة الانجليزي [هرشل]، وهو من كبار علماء الفلك: (كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين الدامغة على وجود خالق أزلي، لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون، والرياضيون، والفلكيون، والطبيعيون، قد تعاونوا وتضامنوا على

1) هذا النص وما يليه من النصوص منقول من كتاب: الدين والعلم، د. محمد حسن هيتو، وصراع مع الملاحدة حتى العظم، لحبنكة الميداني، وغيرهما.

تشييد صرح العلم،وهو صرح عظمة الله وحده)

وقال [هربرت سبنسر]: (نرى من بين كل هذه الأسرار التي تزداد غموضا، كلما زاد بحثنا فيها، حقيقة واضحة لا بد منها، وهي أنه يوجد فوق الإنسان قوة أزلية أبدية ينشأ عنها كل شيء)

وقال الفزيولوجي الفرنسي [لينيه] في كتابه [الله في الطبيعة]: (إن الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء قد تجلى لي ببدائع صنائعه، حتى صرت مندهشا مبهوتا، فأي قدرة، وأي حكمة، وأي إبداع أودعه مصنوعات يده، سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها، إن المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذي سخرها لنا، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجددها يقر بجلاله وعظمته)

وقال [مونتيل] في دائرة معارفه: (إن أهمية العلوم الطبيعية لا تنحصر فقط في إشباع نهمة عقولنا، ولكن أهميتها الكبرى هي في رفع عقولنا إلى خالق الكون، وتحليتنا بإحساسات الإعجاب وإلا جلال لذاته المقدسة)

وقال العالم الطبيعي الفيزيائي [ميريت ستانلي]: (إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته)

وقال العالم الكيماوي الرياضي [جون كليفلاند]: (إن النتيجة المنطقية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما، عليما، قادرا على كل شيء، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره، ولابد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود، تتجلى آياته في

كل مكان، وعلى ذلك فانه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه، إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل: إننا إذا فكرنا تفكيرا عميقا، فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله)

وقال الأخصائي في علم الحيوان والحشرات [أدوارد كيسيل]:(لقد من الخالق على جيلنا، وبارك جهودنا العلمية بكشف كثير من الأمور حول الطبيعة، وصار من الواجب على كل إنسان، سواء أكان من المشتغلين بالعلوم، أم من غير المشتغلين بها، أن يستفيد من هذه الكشوف العلمية، في تدعيم إيمانه بالله)

هذه بعض الاقتباسات من أقوال علماء الطبيعة أنفسهم، وفي جميع مجالات العقل والعلم، تشهد بأن هذه المعارف والعلوم والمكتشفات كانت من أكبر الأدلة الناطقة على وجود الله وعظيم قدرته.. ولذلك فإن الإلحاد لم يكن أبدا وليد المكتشفات العلمية الحديثة، بل الأمر على خلاف ذلك تماما، فالعلم لم ولن يؤدي أبدا إلا إلى الإيمان.

بعد أن يتعرف الداعية إلى الله، والذي يريد أن يواجـه الفكـر الإلحادي على المغالطات العقلية التي يمارسها الملاحـدة للتمويـه على الحقيقة والحجب عنها، يحتـاج أن يعـرف أيضـا مـدى ضحالة المنهج العلمي الذي يعتمدونـه؛ فهـو منهج مبـني على المغالطـات والمصادرة على المطلوب، واسـتعمال الحيـل المختلفـة لمواجهـة الإيمان والدعاة إليه.

وتبرز أهمية تعرف كل من يريـد مواجهـة الإلحـاد أو منـاظرة دعاته على تلك المغالطات فيما يلي:

1 ـ الخروج من حالة الانبهـار الـتي يسـتعملها الملاحـدة عنـد حـديثهم عن العلم والمنهج العلميـة، وذلـك كلـه نـوع من الحـرب النفســية الــتي يســتعملونها في مواجهــة العلمــاء والمفكــرين والبــاحثين من ذوي التوجهــات الفلســفية أو الدينيــة، والــذين يتصـورون أن هنـاك علومـا دقيقـة وصـعبة وتحتـاج إلى تخصـص ليستطيعوا من خلالها الرد على الملاحدة، وكل ذلـك غـير صـحيح، بل الأمر فيها أشبه بالمغالطات السفسطية منه بالحقائق العلمية.

2 ـ عدم التسليم الجدلي بمـا يـذكره الملاحـدة، ذلـك أن من قوانين التسليم الجـدلي وجـود الإمكانيـة أو تحققهـا، والكثـير ممـا يذكره الملاحدة، ويصفونه بالعلمية، لا حظ له من كليهما، بالإضافة إلى أن التســليم الجــدلي نــوع من الاعــتراف بمــا يذكرونــه من مغالطات، لذلك كان موقف المطالب بالبينة على إثبـات الحقـائق العلمية أكثر إحراجا للملحد من المسلم له جدلا.

3 ـ تنبيه المسارعين إلى ربط كـل مـا يـذكره علمـاء الغـرب من نظريات وفرضـيات بـالقرآن الكـريم، أو بالروايـات الشـريفة، على مـدى خطـورة ذلـك؛ فقـد رأيت من راح يـبرهن على كـون نظرية الأكوان المتعددة سبق قرآني، بسبب ذكر الله تعالى لتعـدد العـوالم، مـع كونهمـا معنـيين مختلفين تمامـا، أحـدهما يـدل على التوحيد الخالص، والقدرة المطلقة، والغائية الحكيمة، والثاني يبرر

الإلحاد والقول بالصدفة، ويتصور أن هـذه الأكـوان الكثـيرة مجـرد عدد ضخم وعشوائي ليظهـر من خلالهـا هـذا الكـون كاحتمـال من الاحتمالات.

4 ـ استبدال الدفاع عند مناظرة الملاحدة بـالهجوم، ذلـك أن كل الخرافات التي رددها أهل الجاهليات المختلفـة أو المنحرفـون عن الأديان صار لها وجود في الحقول العلمية، وبذلك أصبحت تلك النظريات عرضة للتهكم والسـخرية كمـا قـال بعضـهم معـبرا عن حقيقة نظرية التطور: (ليست الأدلة ما تجعل الداروينية (حقيقـة)، وإنَّما الفلسـفة الماديـة. روى ريتشـارد ليـونتن، عـالم الوراثـة في جامعة هارفرد، في عام 1997 كيف قد دافـع وكـارل سـاجان في إحدى المرات عن الداروينية في مناظرةٍ، ثم فسَّر قائلًا: نقف في صف العلم رغم سخافة بعض تناقضاته البارزة... لأنَّ لدينا التزامًـا ذا أولوية، التزامًا تجاه المادية)[1]

وقال آخر متهكما من طروحات هاوكنج العلمية: (إن فلســفة هاوكنج هي تحديدا ما أعارضه فهي كما وصلتني مثال واضــح على التعالم، فطرح أن العلم هو مصدر المعلومات الوحيـد، وأننـا لـدينا فهم كامل لكل شيء هو هراء بل وهراء خطـير أيضـا، فهـو يشـعر العلماء بالكبر والغرور بشكل مبالغ فيه) [2]

بناء على هذا نحاول في هذا الفصل التعـرف على أهم وأكـبر مغالطات الملاحدة، والتي يمكن التعرف عليها من خلال مـواقعهم ومناظراتهم مع المؤمنين.

فالحقائق العلمية تقـوم على دعـائم وأسـس منطقيـة يقبلهـا

---

1) نقلا عن كتاب احتضار منظومة الدجال الدارويني، هارون يحي، دط، دت، من موقعه الالكتروني، ص 48.

2) انظر: مقالا علميا مهما بعنوان: عـالم الفيزيـاء الملحـد سـتيفن هوكينج وأفكاره الإلحادية الخيالية في نظر العلماء والمتخصصين ـ النظرية M والأكـوان المتعـددة والجاذبيـة الخالقـة ــ إعـداد فريـق الباحثون المسلمون.

العقـل، وتنسـجم معـه، ويمكن إثباتهـا بـالطرق المختلفـة؛ أمـا الطروحات العلمية التي لا تتوفر على هذه الأسس، ولا تنطلق من هذه المناهج، فإنها لا تعدو أن تكون دعاوى لم تثبت، وفرضيات لم تتحقق.

وقـد وضـعت لأجـل تميـيز الحقـائق العلميـة عن الـدعاوى والفرضـيات الكثـير من القـوانين العلميـة الـتي اتفقت عليهـا البشرية، وعلى أساسها تحكم لأي دعوى بكونها فرضية أو نظريـة أو حقيقة، ولذلك كان على كل من ينـاقش الأطروحـات الإلحاديـة المتلبسة بلبـاس العلم أن يتقن تطـبيق أمثـال تلـك القـوانين على تلك الأطروحات، كما يتقن فن المنطـق وعلم الجـدل وغيرهـا من العلوم الأساسية للحوار مع الملاحدة.

ومن تلك القوانين العلمية مثلا ما يطلق عليه [شفرة أوكـام] (1)، وهي شفرة أو قانون يطبـق على مـدى واسـع، وتتحـاكم إليـه العلوم المختلفة، وهو متفق عليه علميا، بل هـو أحـد أهم المبـادئ المنطقيّـة الـتي تشـمل تطبيقاتهـا طيفـا واسـعا من المجـالات المتباينـة من علم المنطـق، ونظريـة المعرفـة، والاقتصـاد، وحـتى الفلك والفيزياء وربما الرّياضيات.. وبفضل هذا المبـدأ فصـل وإلى غير رجعة بين الفيزياء والميتافيزياء.. وبين الكيمياء والخيمياء(2).

وهذا المبدأ منسوب إلى الفيلسوف الإنكليزي [ويليام أوكـام] حيث استنتج في أبحاثه المتعلقة بهذا المبدأ أن (التعدديـة لا ينبغي أن تفـرض دون ضـرورة، أي أن الأولويـة للأبسـط وللأقـل تكلفـة، والأقل تشعبا بطبيعة الحال)، وقد عبر عن ذلك بقوله: (من العبث

1) انظر مقالا بعنوان: شفرة أوكام هي أحد أهم المبادئ المنطقيّة وأوسعها استخداما.

2) الخيمياء: هي علم ينظر في المادة التي يتم بهـا تكـوين الـذّهب والفضة بالصّـناعة، ويشـرح العمـل الـذي يوصِـل إلى ذلـك، وتلجـأ الخيمياء إلى الرّؤية الوجدانية في تعليل الظّـواهر، وكثـيراً مـا لجـأ الخيميائيّون إلى تفسير الظّـواهر الطّبيعيـة غـير المعروفـة لـديهم على أنّها ظواهر خارقة، وترتبط بالسّحر.

القيام بعدد أكبر من الخطوات لإنجاز شيء ما، بينما يمكننا إنجازه بعدد خطوات أقل)

وقد استخدمه كبار العلماء كغاليلو غاليلي في دفاعه عن نموذجه الفلكي للسماوات.. وكان لنيوتن نصيبه في استخدامه أيضا، في تفضيل الفرضية الأبسط على الفرضيات المنافسة، وعرفت طريقة نيوتن هذه بسيف نيوتن الليزري الملتهب، حيث يصف نيوتن ذلك بقوله: (علينا أن نقبل فقط بالأسباب التي تلزم وتكفي لتفسير جميع جوانب الظاهرة المدروسة)

بل إن الملاحدة الجدد يستخدمونه بكثرة ــ ويسيئون استخدامه ـ ومن أمثلة ذلك قول [ريتشارد دوكنز] في كتابه [وهم الإله]، حيث كتب يقول: (تاريخيا، سعى الدين إلى تفسير وجودنا، وطبيعة الكون، محاولا مساعدتنا في إدراك ذواتنا؛ إلا أن العلم خلف الدين في زمننا الحاضر)

وطبقه عالم الكونيات [سين كارول] بقوله: (استطاع التقدم العلمي على مدار الخمسة قرون الأخيرة أن يجرد الله من أدواره التي يلعبها في هذا العالم؛ ولذلك كان استدعاء الله لتفسير الظواهر الطبيعية أمرا مقبولا قبل ألفي عام، ولكن يمكن فعل ما هو أفضل من ذلك في الحاضر)

لكن كل هذه المقولات مجرد دعاوى، لأن للطروحات الإلحادية من التعقيد والخيال وعدم إمكانية التطبيق ما يختلف كثيرا عن بساطة الإيمان بالله، وانسجامه مع الفطرة والعقل.. ففرضية [الله] تدل عليها كل الدلائل.. فهي أسهل الفرضيات، وأجملها، وأبسطها، وكل الدلائل فوق ذلك تدل عليها.. ولذلك فإنها إذا ما وضعت مع غيرها كان الانتصار لها لا محالة.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك، والتي تلقى رواجا كبيرا لدى الملاحدة الجدد ما طرحه هاوكنج مما سماه [التصميم العظيم].. حيث أن الذي دعاه إلى هذا الطرح هو حل معضلة الإعداد المسبق لكوننا بعناية، ولذلك راح يفرض هذا الحل الممتلئ بالغرابة، وهو أن هناك تريليونات تريليونات تريليونات الأكوان

الأخرى.. أي 10 أس500 كون ـ كما يذكر ستيفن هاوكنج في كتابه الأخير [التصميم العظيم] ـ مع أننا لم نشهد أي كون آخر غير كوننا فضلا عن تريليونات تريليونات تريليونات الأكوان الأخرى، ومع أن هذا ـ حتى لو صح ـ فإنه لا يحل مشكلة التصميم المسبق بعناية لكوننا، بل ربما يطرح تساؤلات فلسفية أعمق مع تقدم علوم الفيزياء..

وعند تطبيق شيفرة أوكام على هذه النظرية نراها تسقط بسرعة ذلك أنها فرضية في غاية الغرابة والدهشة والبعد عن التجريب والاختبار واليأس التام في الرصد.. بالإضافة إلى كونها لم تنطلق من التجرد العلمي، وإنما انطلقت من الأيديولوجية العلمية والتفكير الرغبوي.

ومن الأمثلة على تلك القوانين التي يمكن اعتبارها أدوات لمحاجة الملاحدة التقرير الذي نشره مجلس البحوث الوطني بالولايات المتحدة الأمريكية، والذي قصد منه المحافظة على سلامة واستقامة تدريس العلوم.

ومن تلك المبادئ التي نص عليها التقرير: أن تكون النتائج العلمية متسقة مع الأدلة التجريبية والرصدية حول الطبيعة.. وأن تكون لها القدرة على التنبؤ بدقة بخصوص الأنظمة التي يتم دراستها.. وأن تكون بعيدة عن التفسيرات المبنية على الأساطير، والآراء الشخصية، والقيم الدينية والإلهامات الذاتية، والمعتقدات الخرافية.. فكل هذه الأمور قد تكون مفيدة شخصيا أو اجتماعيا، ولكنها ليست تفسيرات علمية.

وهكذا عند تطبيق هذه الأسس على الكثير من النظريات العلمية التي يستند إليها الملاحدة نجد سقوطها وتهافتها، وبنفس القوانين التي يطبقونها على كل العلوم.

انطلاقا من هذا سنحاول هنا ذكر بعض النماذج عن مدى تخلف النظريات العلمية التي يستند إليها الملاحدة الجدد عن المنهج العلمي وفق التقرير الأمريكي الذي سبق ذكره، وذلك في المجالين الكبيرين: علوم المادة، وعلوم الحياة.. والتي حاولوا من

خلالهما تفسير نشأة الكون ومصدر مادته وتصميمه، وتفسير نشأة الحياة وأسباب تنوعها بعيدا عن الحاجة إلى اللـه، وذلـك من خلال تطبيق ما ورد في التقرير الأمريكي للعلوم.

أولا ـ البيانات الرصدية:

قوة النظرية العلمية تنطلق من إمكانية رصدها للتحقق منها، فإن لم يتمكن أصحاب النظرية من إثباتها على أرض الواقع، فإنهـا تبقى مجرد دعوى لا دليل عليها، وأحيانا تصـبح أقـرب إلى الخيـال منهـا إلى الحقيقـة، مثـل نظريـة الأوتـار الفائقـة، الـتي ذكـر بعض الباحثين استحالة رصـدها، فقـال: (نظريـة الأوتـار تحتـاج لمصـادم هيدروني بحجم مجرة لاختبارها، وهذا غير ممكن)[1]

وقال عن [النظرية إم] التي جاء بها هاوكنج: (لو قلنا ــ طبقـا للنظرية ـ إن الكون خلق نفسـه فمن أوجـد [النظريـة إم]؟.. ومن أوجد القوانين الفيزيائية الخاصـة بهـا؟.. ورغم ذلـك فلا توجـد لهـا معادلـــة فيزيائيـــة حـــتى الآن.. أطلب منهم أن يكتبـــوا معادلـــة فيزيائية.. لن يفعلوا لأنهم ببساطة لايمتلكونها)[2]

وقال العـالم [روجـرز بـنروز]، وهـو الفيزيـائي الشـهير الـذي أثبت مع هاوكنج حدوث الإنفجار الكبير مُعلقا على كتاب [التصميم العظيم]: (على عكس ميكانيكا الكم فإن [النظرية إم] لاتملـك أي إثبات مادي إطلاقا) [3]

وقـال الفيزيـائي وعـالم الفضـاء [مارسـيلو جليسـر]: (ادعـاء الوصول لنظرية نهائيـة يتنـافى مـع أساسـيات وأبجـديات الفيزيـاء والعلم التجريبي وتجميع البيانات، فنحن ليس لدينا الأدوات لقياس

1) انظر: عالم الفيزياء الملحد ستيفن هـوكينج وأفكـاره الإلحاديـة الخيالية في نظر العلماء والمتخصصين، مرجع سابق..

2) المرجع السابق.

3) المرجع السابق.

الطبيعة ككل، فلا يمكننا أبدا أن نكون متأكدين من وصولنا لنظرية نهائية، وستظل هناك دائما فرصة للمفاجآت كما تعلمنا من تاريخ الفيزياء مرات ومرات.. وأراها إدعاء باطلا أن نتخيل أن البشر يمكن أن يصلوا لشيء كهذا.. وأعتقد أن على هاوكنج أن يدع الله وشأنه) (1)

وقال الفيزيائي [بيتر ويت] من جامعة كولومبيا: (لست من أنصار إدخال الحديث عن الله في الفيزياء، لكن إذا كان هاوكنج مصرا على دخول معركة الدين والعلم فما يحيرني هو استخدامه لسلاح مشكوك في صلاحيته أو فاعليته مثل [النظرية إم]) (2)

وقال فيلسوف الفيزياء [كريج كالندر] من جامعة كاليفورنيا ساخرا: (منذ ثلاثين عاما صرح هاوكنج بأننا على أعتاب نظرية كل شيء، وبحلول عام 2000 وحتى الآن في عام 2010.. لاشيء.. لكن لايهم فهاوكنج رغم ذلك قرر أن يفسر سبب الوجود بالرغم من عدم وجود النظرية.. إن ما يتحدث عنه هو مجرد حدس غير قابل للإختار أبدا) (3)

وقال العالم [جون بترورث] العامل بمصادم الهادرون بسويسرا: ([النظرية إم] خارج نطاق العلم) (4)

وقال [د. هاميش جونستون] محرر موقع عالم الفيزياء، وهو يعبر عن خوفه من تأثر الدعم الحكومي للبحث العلمي في بريطانيا تبعا لتصريحات هاوكنج: (توجد فقط مشكلة صغيرة وهي ضحالة الدليل التجريبي للنظرية.بمعنى آخر فهناك عالم كبير يخرج بتصريح للعامة يتحدث فيه عن وجود الخالق إعتمادا على

---

1) المرجع السابق.

2) المرجع السابق.

3) المرجع السابق.

4) المرجع السابق.

إيمانه بنظرية غير مثبتـه.. إن الفيزيـاء بحاجـة لـدعم العامـة حـتى لاتتـأثر بتخفيض النفقـات وهـذا سـيكون صـعبا جـدا إذا ظنـوا أن معظم الفيزيـائيين يقضـون وقتهم في الجـدال عن مـا تقولـه نظريات غير مثبته عن وجود الخالق) (1)

لكن الملاحدة الجدد، يحتالون أحيانا كثيرة عند طلب الـدليل، حيث أنهم يصـادرون على المطلـوب، ومن الأمثلـة على ذلـك التلاعب بمفاهيم التطور، حيث أن نظرية التطور تحمل مفهومين: الأول، وهـو التطـور الكبـير، وهـو المعـروف عنـد الإطلاق، ويعـني التغيّر في الصفات المورفولوجية والجينية مما يتسبب في الانتقال من نوع إلى نوع آخر.

والثـاني هـو التطـور الصـغير، ويشـير إلى مقـدار التغـير في تكرار المورث في العشيرة، ويتم التغـير فيـه على مسـتوى النـوع الواحد نفسه، كتطوير كـائن حي لمقاومتـه نحـو جسـم غـريب، أو تغيير لون لجلد، أو تغيير في حجم عضو معين من الجسم، أو نحـو ذلك.

وهذا النوع الثاني لا إشـكال فيـه، ذلـك أن هجـرة الأوروبـيين مثلا إلى أستراليا واختلاطهم بالشعب الأسترالي الأصلي، أدت إلى اختلاط العـرقين، وقـد أثـر ذلـك على أولادهم، بحيث أصـبحت أشـكالهم تمـزج بين الأصـلين.. وهم يعـبرون عن هـذا بـالتطور البيولوجي للأستراليين.. ومن أمثلته أيضا ظهور فيروس الأنفلونزا كل مرة بصورة جديدة، بحيث لا تؤثر فيه اللقاحات السابقة.

والمغالطة التي يمارسها الملاحدة في هـذا الجـانب هي أنهم إذا طولبوا بدليل على التطور الكبير يذكرون أدلة التطور الصـغير، وقد عبر عن هذا الخلط [مايكل بيهي] بقولـه: (الدارونيـة الحديثـة فسرت التطور الدقيق بشكل رائع، لكن عند الحـديث عن التطـور الكبير فعلى التطوريون أن يصمتوا) (2)

---

1) المرجع السابق.

2) انظـر: المصـادر الموثقـة لهـذا النص في كتـاب: الـرد على

وذكر [نيكولاس كومنينلس]، الأستاذ بجامعة ميزوري ـ كنساس، في كتابه [Darwin's Demise]، أنه من الأخطاء الشائعة في الاستدلال العلمي استخدام التكيُّفات الملحوظة في التطور الصغير لافتراض صحة التطور الكبير، والانتقال من نوع إلى نوع آخر (1).

ثانيا ـ التنبؤات الدقيقة:

من أهم أدلة مصداقية النظرية العلمية صدق تنبؤاتها في حال عدم إمكانية إثباتها عمليا، والأمثلة على ذلك في تاريخ العلوم كثيرة، ومن أشهرها وأقربها ما ذكرته وسائل الإعلام من أن العلماء رصدوا للمرة الأولى موجات جاذبية، وهي تموجات في المكان والزمان، تنبأ بها ألبرت أينشتاين، بالتزامن مع رصد ضوء ناجم عن الحدث الكوني نفسه، ولأجل ذلك فاز ثلاثة علماء أميركيين اكتشفوا تلك الموجات بجائزة نوبل في الفيزياء، وأثبت هؤلاء الباحثين أن النتائج التي اكتشفوها تساهم في تأكيد نظرية أينشتاين (2).

لكن الأمر مختلف تماما مع كل الدعاوى والطروحات العلمية التي طرحها الملاحدة، وحاولوا من خلالها إثبات الاستغناء على الخالق، بل إن الاكتشافات العلمية أثبتت عكس مقصودهم.

والأمثلة على ذلك في علوم المادة كثيرة جدا، وهي تشمل كل النظريات والنماذج التي حاولت أن تتخلص من وجود بداية

الملحدين العرب: د. هيثم طلعت علي سرور، دط، دت، ص250.

1) المرجع السابق.

2) انظر مقالا بعنوان: نبوءة أينشتاين تتأكد.. رصد متزامن لموجات الجاذبية بين أميركا وأوروبا تنبأ بها قبل أكثر من 100 عام، هاف بوست عربي، رويترز، تم النشر: 10:44 17/10/2017. على الرابط:

http://www.huffpostarabi.com/2017/10/17/story_n_18291660.html

للكون، مثل نظرية الحالة الثابتة والكون المتذبذب وغيرها.

أما في علوم الحيـاة، وهي تلـك النبـوءات المرتبطـة بنظريـة التطور، فكلها تخلفت، بل كلهـا أثبت الـزمن عكسـها تمامـا، فقـد كان داروين ـ بعد طرحه لنظريته ـ يطمع في أن تثبت الاكتشافات اللاحقة في السجل الاحفوري نظريتة، وبناء على ذلـك فـإن التنبـؤ الدقيق لنظرية التطـور هـو اكتشـاف كميـات كبـيرة من الأشـكال الانتقالية.

لكن صار المستقبل الذي كان يحلم به داروين بحد ذاتـه عبئـا على الداروينية وكما يقـول هـنري جي المحـرر العلمي في مجلـة الطبيعة:ـ (إنّ عمليـة أخـذ مجموعـة من الحفريـات والقـول بأنهـا تعكس وجود سلسلة قرابة هي في الواقع ليسـت فرضـية علميـة يمكن إخضاعها للاختبار، وكـل مـا في الامـر انهـا مجـرد حكايـة أو حدوته من احاجي منتصف الليل المسلية التي قد تكون مُوَجِّهَةً أو مُرْشِدَةً للإنسان في كثير من الأحيـان إلا أنهـا ومـع ذلـك لا تسـتند لأيّ أساس علمي)(1)

كما اعترفت مجلة [National Geographic] مؤخرا بقولها: (مضـيء ولكن متقطع، يبدو السجل الأحفوري كفيلم للتطور فقد منـه 999 من اصل 1000 صورة)

وهكذا يعترف التطوريون أن 99.9 بالمائة من الدليل مفقود، ومع ذلك يحـاولون دائمـا خـداعنا بنمـاذج مزيفـة لحلقـات انتقاليـة ليبرروا بها نظريتهم.

ولم يكن الأمر قاصرا على عدم اكتشاف الحلقـات المفقـود، بل إن الاكتشافات الأحفورية كـل حين تثبت عكس كـل التوقعـات التي تبنتها الداروينية، ومن الأمثلة على ذلك تلك الحفرية البشـرية التي عثر عليها في أسبانيا في سـنة 1995، على يـد ثلاثـة علمـاء أسبان من جامعة مدريـد متخصصـين في الأنثروبولوجيـا القديمـة، وقد كشفت الحفرية عن وجه صبي في الحادية عشرة من عمـره

1) نقلا عن الدّاروينية في الزّمن القـديم، هـارون يحي، دط، دت، من موقعه الالكتروني، ص34.

كان يبدو مثل الإنسان العصري تماما، على الرغم من مرور 800.000 سنة على وفاته.

وقد هزت هذه الحفرية قناعات المكتشفين لها، فقد قال [أرساجا فريراس]، وهو أحد المكتشفين: (لقد توقعنا أن نجد شيئا كبيرا، شيئا ضخما، شيئا منتفخا... كما تعلم، شيئا بدائيا. لقد توقعنا أن يكون غلام عمره 800.000 سنة مشابها لطفل توركانا. ولكن ما عثرنا عليه كان وجها عصريا تماما... بالنسبة لي كان الأمر مثيرا للغاية... إن العثور على شيءٍ كهذا غيرِ متوقع على الإطلاق لهُوَ من الأشياء التي تهز كيانك. فعدم العثور على حفريات أمر غير متوقع، تماما مثل العثور عليها، ولكن لا بأس. إلا أن أروع ما في الأمر هو أن تجد شيئا في الماضي كنت تعتقد أنه ينتمي إلى الحاضر. إن الأمر أشبه بالعثور على شيء مثل جهاز تسجيل في كهف جران دولينا. سيكون ذلك مدهشا للغاية، لأننا لا نتوقع العثور على أشرطة كاسيت وأجهزة تسجيل في العصر البلستوسيني الأدنى. وينطبق ذات الشيء على اكتشاف وجه عصري عمره 800.000 سنة. لقد اندهشنا جدا عندما رأينا هذا الوجه)[1]

ثالثا ـ المنطقية العلمية:

وحتى نبسط مدى تخلف الملاحدة عن تطبيق هذا المعيار في مواقفهم العلمية نذكر هذا المثال الواضح الدقيق [2]، وهو أنهم أو أي شخص غيرهم إذا رأى إنسانا آليا يسير على قدمين، وهو يحمل بكفيه طردا ملصقا عليه عنوان دقيق.. ثم يذهب إلى ذلك العنوان بالضبط، ويسلم له الطرد؛ فإنهم بداهة، ومع النظرة الأولى، ومن غير بحث ولا تدقيق، يعتبرونه إنجازا علميا كبيرا، ومحترما، بل يسبحون بحمد من صنعه وصممه وأبدعه، ويعتبرون من جادل في ذلك، وتصور أنه مجرد آلات تجمعت بطريقة

---

1) المرجع السابق، ص65.

2) انظر: مقالا بعنوان: التطور ومعايير النظرية العلمية على هذا الرابط:

http://allabouttheism.blogspot.com/2014/08/is-evolution-scientific_78.html

عشوائية عبر الـزمن الطويـل مجـرد خرافـة، وأنـه قـول لا يسـتند للعقلانية، ولا المنطقية.

في نفس الـوقت نـراهم يعتـبرون ــ بداهـة وللنظـرة الأولى، ومن غـير بحث ولا تـدقيق ــ التجمـع الحيـوي الـذي يتشـكل منـه الإنسـان مجـرد تشـكل عشـوائي انطلـق من الصـدفة والطفـرة، وليس من مبدع حكيم مصمم.

مع العلم أن في الأرض وحدها ملايير ملايير ملايير من أمثـال ذلك الإنسان الآلي الذي رأوه، بـل مـا هـو أعجب منـه، وبأعـداد لا تحصى، ومع ذلك ينسبونها جميعا للصدفة والعشـوائية، وهـذا يـبين مدى ازدواجية المعايير عندهم.

فهنـاك بـروتين يسـمى [kinesin]، وهـو يعتـبر نموذجـا مصـغرا لرجل البريد، وهو يوجد بشكل كبير في كل خلية حية ليـؤدي دوره المتمثـل في نقـل حـزم الـبروتين مسـتخدما طرقـا سـريعة ذاتيـة التجميع تسمي [micro tubule]، وهو يتحرك على قدمين بشكل يشبة حركه الإنسان تماما، وبطريقـة مـا تعـرف الخلايـا أيـا من الاجـزاء الخلويـة يجب تصـنيعها، ويتم ذلـك في مصـانع صـغيرة توجـد في الخلايا تسمي [Ribosome]، ثم يتم بعد ذلك تغليفها في عضيه خلويــه تسمي [Golgi apparatus]، وبطريقة ما ترسل هـذه الأجهـزة إشـارات للبروتين الناقل [Kinesin] لكي يحمل تلك الشحنه الـتي تم تغليفهـا، وينقلها إلى مكانها المناسب.

وهذا يشبه تماما ذلك الإنسان الآلي الذي تحدثنا عنه.. بل إنه أكثر تعقيدا منه، وهـو من الصـغر بحيث لا نسـتطيع أن نقـارن بين مدى الإبداع بينهما.. فلذلك كان من العقلانية والمنطقيـة أن نضـع أحكامـا واحـدة للجميـع، فلا نمـيز بين مـا نصـنعه وبين مـا نجـده جاهزا.. فكما احتاج ما نصنعه إلى عقـل مبـدع، فكـذلك يحتـاج مـا وجدناه جاهزا إلى صانع أكثر إبداعا وعلما وخبرة.

وقد أشار [جوناثان ويلز(1)] عالم الأحياء الأمريكي إلى هــذه

1) جوناثون ويلـز عضـو في مركـز العلم والثقافـة التـابع لمعهـد ديسكفري يحمل شهادتي دكتـوراه واحـدة في البيولوجيـا الخلويـة

الازدواجية في المكاييل لدى الملاحـدة، وذلـك عنـد ذكـره لرحلتـه البحرية التي راقب فيها مناقير البط، فقال: (من النـادر للغايـة أن يتم إطلاع المجتمـع كلـه بمـا يقـوم بـه العلمـاء المتخصصـون من تفسيرات علمية تتعلق بالإبهام والغموض العميقين بخصوص أصل الإنسان، وبديلا عن ذلـك نتلقى مجـرد خـبر عن آخـر نظريـة لهـذا الشخص أو ذاك، ولا ينقلـون لنـا الحقيقـة الـتي لم يسـتطيعوا هم أيضا فهمها بخصوص هذا الموضوع، فيتم الترويج للنظريـة وتزيبهـا بشكل دقيق وبالاستعانة ببعض الرسوم والصور المتخيلـة لإنسـان الكهف أو لجد الإنسان بوضع كثير من الماكياج عليها، والواضح أن أحدا من قبل لم ينسج خيالا واسعا إلى هذا الحد بخصـوص جزئيـة بسيطة إلى هذا القدر في أى فرع من فروع العلم المختلفة)(1)

ففي هذا التصـريح ينص [جوناثـان ويلـز]، وهـو عـالم الأحيـاء المتخصـص، بكـل صـراحة، على أن الداروينيـة الـتي يتمسـك بهـا الملاحدة في تفسير نشأة الحياة وتنوعها، لا تعدوا أن تكون خيـــالا علميا، لا حظ له من العقلانية، ولا المنطقية.

وقبلـــه صـــرح العـــالم [ريتشـــاد ليكي] وهـــو أحـــد علمـــاء [الباليوأنثروبولوجيـا]، وهـو العلم الـذي يبحث في أصـول الإنسـان القـديم، فقـال: (لـو أنكم جئتم برجـل علم ذكي مـاهر من فـرع مختلف من فروع العلم، وأطلعتموه على مـا لـدينا من دلائـل غـير كافية فإنه سيقول لكم وبكل تأكيد: انسـوا هـذا الموضـوع، فليس لديكم دعامة أو سند كـاف للاسـتمرار فيـه.. فالـدلائل لدينـا غـير

والجزئية من جامعة كاليفورنيا وأخرى في الدراسـات الدينيـة من جامعة يال، وهو مؤلف كتاب (أيقونات التطور: لم يكون معظم ما ندرســه عن التطــور خاطئـاً)، وهــو واحــد من أهم الشخصــيات المحوريـــة لإصـــلاح تعليم التطـــور عـــبر تصـــحيح أخطـــاء الكتب المدرسية وعبر التأكيد على أن الدليل المؤيد والمعارض للدراونية يجب أن يدرس، وهو معروف بشكل واسع كمحاضر ومنـاقش في موضوع التصميم الذكي.

1) أيقونات التطور: لم يكون معظم ما ندرسه عن التطور خاطئاً، ص225.

كافية إطلاقا)[1]

وقال: (لقد أصبحت الفكرة التي تقول بأن تاريخ تطور الكائنات الحياة عبارة عن مسألة أو قضية استكشافية مجرد خرافة.. فلو كان بهذا الشكل ووجدنا حفريات كثيرة لكائنات شبيهة بالإنسان لكان من الضروري أن تتحول حكاية التطور إلى شكل أكثر وضوحا غير أن الحقيقة هي أنه عندما كان يحدث شيء كان يحدث شيء آخر على النقيض تماما من الأول)[2]

وهكذا صرح [هنري جي] المحرر العلمي في مجلة الطبيعة بقوله: (إن عملية أخذ مجموعة من الحفريات والقول بأنها تعكس وجود سلسلة قرابة هي في الواقع ليست فرضية علمية يمكن إخضاعها للاختبار، وكل ما في الأمر أنها مجرد حكاية أو حدوته من أحاجي منتصف الليل المسلية التي قد تكون موجهة أو مرشدة للإنسان في كثير من الأحيان إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأي أساس علمي) [3]

وهكذا صرح [ميلفورد ولبوف] و[آلان ثورن]، فقد ذكرا أن (الإنسان منتصب القامة ليس إلا تصنيفا خياليا لا وجود له، وأن الحفريات التي أدمجت في هذا التصنيف هي عبارة عن الإنسان العاقل من أعراق مختلفة) [4]

بل إن الكثير من العلماء الآن ينادون قائلين: (نحن في حاجة ماسة وعاجلة إلى عدم الدفع بالعلم إلى دائرة الخرافة.. فما الذي يستفيده العلم من معرفة درجات القرابة بين الحيوانات

---

1) نقلا عن مقال بعنوان: فكرة وحش السباجيتي الطائر .. وسذاجة ريتشارد داوكنز ..!!.

2) المرجع السابق.

3) المرجع السابق.

4) المرجع السابق.

المختلفة.. إن العلماء كفوا عن أن يكونوا علماء أنساب!!) (1)

وعبر [جريج كيربي] عن الإفلاس الذي وقـع فيـه التطوريـون قـائلا: (لـو أنكم قضـيتم حيـاتكم كلهـا في جمـع العظـام والقطـع الصغيرة من الجمجمة والذقن، فإنكم ستشعرون برغبة ملحـة في أن تبالغوا في أهمية هذا القطع الصغيرة التي قمتم بجمعها) (2)

فكل الدلائل العلمية الآن تقف ضد نظريـة التطـور.. وبفضـل هذه الدلائل والقرائن تعرضت نظرية التطور للسـقوط في الكثـير من المناطق التي كانت تتبناها؛ ففي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة اعتبارا من النصف الثانى من التسعينات، اتخذت عدد من الولايات القـرار بضـرورة تـدريس القـرائن الـتي تشـير إلى عـدم صـلوحية تدريس نظرية التطور في مدارسها.. وجميع أعضـاء هـذه الحركـة من رجال العلم الذين لهم رصيد مهني في أكبر جامعات الولايـات المتحدة الأمريكية.

حـتى إن البروفيسـور كيـنيون، وقـد كـان واحـدا من أشـهر المـدافعين عن نظريـة التطـور بأطروحتـه الـتي قـدمها في السبعينات فيما يتعلق بأصل الحياة والتطور الكيميائي، تحـول هـو أيضـا إلى واحـد من ممثلي الحركـة المضـادة لنظريـة التطـور، وتحـدث عن أن أصـل الحيـاة لا يمكن أن يفسـر بـالتطور وإنمـا بالخلق.

ومع ذلك كله، نجد الملاحدة إلى الآن يعتبرون نظرية التطـور حقيقـة علميـة، ويفسـرون بهـا نشـأة الحيـاة وتنوعهـا، في نفس الوقت الذي يعتبرون التفسير الديني لذلك، واحتياج الحياة لمصدر خارجي خرافة وأسطورة، مـع أن كـل الأدلـة العلميـة تـدل عليـه، وهذا بسبب انعدام المنطقية العلمية، والكيل بالمكاييل المزدوجة.

رابعا ـ الانفتاح على النقد:

1) المرجع السابق.

2) المرجع السابق.

وهو المعيار الرابـع من المعـايير العلميـة، فالحقيقـة العلميـة منفتحة على النقد، وتتقبل الآخر، وتناقشه مناقشـة علميـة هادئـة، ولا تفرض عليه أي سلطة أو وصاية.

وهذا ما يخالفه الواقـع الإلحـادي تمامـا؛ حيث نجـد الملاحـدة يتهمـون كـل مصـدر يخـالف رؤاهم بـادئ الـرأي، ومن دون أي مناقشـة علميـة، بـل من دون اطلاع عليـه أصـلا، ولا يكتفـون بالسـخرية بـه، وإنمـا يشـنعون عليـه، ويسـتعملون كـل الوسـائل لتشويهه.

ومن الأمثلة التي تدل على ذلك الانغلاق الفكري الذي يعانيـه الملاحـدة، مـوقفهم من كتـاب [التطـور: نظريـة في أزمـة] الـذي أصدره [مايكل دنتون] عام 1985، والذي أثار الكثـير من الجـدل، بل من العنف والمواجهـة من طـرف التطـوريين، لسـبب بسـيط، وهو أنه أقر فيه بالحقيقة، وصرح فيه بما جبن غيره أن يصرح بـه؛ فقد ذكر فيـه أن نظريـة التطـور بالاصـطفاء الطـبيعي نظريـة في أزمة علمية حقيقية.

ولهذا وُصف من قبل العديد من البيولوجيين بأنه نقض لأركان نظرية التطور وهدمها بأسس علمية.. وبسبب هذا تعـرض الكتـاب ومؤلفه إلى حملة كبيرة من التشـويهات، لا لكونـه غـير علمي، ولا غـير منسـجم مـع المنطـق.. ولكن لكونـه نـاقض الخـط العـام المرسوم مسبقا، والقائل بقبـول نظريـة التطـور حـتى وإن كـانت تناقض في كثير من نقاطها الحقائق العلمية الواضحة.

وهذا الأسلوب هو نفسه الذي حصـل في الاتحـاد السـوفييتي إبـان عهـد سـتالين.. ففي تلـك الفـترة، اعتـبرت الشـيوعية، الأيديولوجية الرسمية للاتحاد السوفييتي فلسفة (المادية الجدليـة) هي الأساس لكل العلوم.. ولـذلك أمـر سـتالين بـأن تتمشـى كـل البحوث العلمية مع المادية الجدلية.

ومع ذلك، تم رفع هذا الالتزام عند انهيار الاتحـاد السـوفييتي، وعادت الكتب إلى كونها نصوصـا علميـة فنيـة عاديـة تحتـوي على نفس المعلومـات.. بـل إن التخلي عن سـخافات مثـل الماديـة

الجدلية لم يتسبب في تخلف العلم، بل أزال عن كاهله الضغوط والالتزامات المفروضة عليه(1).

وهكذا نرى في الوقت الحاضر أنه لا يوجد سبب يدعو إلى ربط العلم بنظرية التطور، فالعلم يقوم على الملاحظة والتجريب، بينما تعبر نظرية التطور، من ناحية أخرى، عن فرضية متصلة بماض لا يمكن إخضاعه للملاحظة.

فما يقع فيه دعاة نظرية التطور من انغلاق وتشدد لا يختف عن ذلك العصر الذي كان هناك فيه إجماع علي سطحية الأرض.. وقد اتهم حينها بالزندقه والتكفير كل من خالفهم، واتبع الدليل.. وهذا هو واقعنا الحالي مع أصحاب نظرية التطور، والمؤسسات العالمية الكبرى التي تدعمها.

ولهذا نراهم يتركون الاحتجاج العلمي المبني على الأسس المنطقية التجريبية، ويلجؤون إلى أساليب لا علاقة لها بالعلم من أمثال ادعائهم أن النظرية مقبولة بشكل واسع في المجتمع العلمي.

وكأن صحة أي نظرية تعتمد على الأغلبية المفترضة لأتباعها، لا على ما يدل عليها من أدلة.. ولهذا يمارسون نوعا من الضغط النفسي والدعاية الخالية من اللغة العلمية.

لقد أقر الدكتور [أدرا دينكل]، وهو برفيسور في الفلسفة، ومساند لنظرية التطور، بالطبيعة الخاطئة لهذا الأسلوب، فقال: (هل الحقيقة التي يؤمن بها العديد من الأناس البارزين أو المنظمات أو الهيئات يثبت صحة نظرية التطور؟.. هل يمكن اثبات النظرية بقرار المحكمة؟.. هل الحقيقة التي يؤمن بها الشخصيات أصحاب السلطة يجعلها صحيحة؟)(2)

---

1) انظر: هدم نظرية التطور في عشرين سؤالا، هارون يحيى، ص17.

2) انظر: أردا دِنكِل، ملحق العلوم والتكنولوجيا الصادر عن الكومهوريِت اليومية التركية، 27 شباط/ فبراير 1999..

ثم راح يجيب على هذه التساؤلات بقوله: (أريد أن أسترجع حقيقة تاريخية.. ألم يقف جاليلو ضد الشخصيات الهامة والمحامين، وخصوصًا العلماء في ذاك الوقت، وتكلم عن الحقيقة لوحده، وبدون أي دعم من أي شخص؟.. ألم تكشف محاكم الإستقصاء حالات أخرى مشابهة؟)

ثم ختم كلمته بقوله: (إن كسب دعم الدوائر البارزة والمؤثرة في صنع القرار لا يصنع الحقيقة، وليس له علاقة بالحقيقة العلمية)

إضافة إلى ما ذكره الدكتور [أدرا دينكل]، فإننا إذا تأملنا الواقع العلمي جيدا، وبنظرة حيادية، نجد نظرية التطور غير مقبولة من المجتمع العلمي كله، كما يشيع أنصار نظرية التطور.. بل إنه خلال العشرين سنة ماضية، نرى أعدادا محترمة من العلماء ترفض الداروينية بشكل متصاعد؛ فقد ترك معظمهم عقيدتهم الدوغماتية في الداروينية بعد رؤية تصميم لا عيب فيه في الكون وفي الكائنات الحية.

والأهم من ذلك كله أن الذين تخلوا عن النظرية هم أعضاء من جامعات مشهورة، ومن جميع أنحاء العالم، خاصة في الولايات المتحدة، فهم خبراء وأكاديميون في مناصب علمية مثل البيولوجيا والبيوكيماء والميكروبيولوجي وعلم التشريح وعلم الدراسات القديمة وغيرها من الحقول العلمية.. فلذلك، فإنه الخطأ الكبير القول بأن الأغلبية من المجتمع العلمي تؤمن بالداروينية.

وحتى لو فرضنا أن هناك إجماعا على قبول هذه النظرية، فهل الاحتكام إلى الإجماع من الناحية العلمية احتكام صحيح؟.. وهل الإجماع العلمي معصوم من الخطأ؟

لقد عبر عن هذا المعنى [مايكل كريتشتون] حين ذكر أن الإجماع يمكن استخدامه في مجالات الدين أو السياسة، ولكن لا مكان له في العلم، ذلك أنه يعتمد فقط على الأدلة المكتشفة من التجارب العلمية، ولا يعتمد على أعداد العلماء..

لقد عبر عن ذلك بقوله: (دعنا نكن واضحين: الأسلوب العلمي ليس له أي علاقة بالإجماع، الإجماع هو عمل السياسة.. العلم في الوجه المقابل، يحتاج إلى محققين يصادف أنهم على صواب، وهذا يعني أن لديه معلومات قابلة للإثبات بالمراجع في العالم الواقعي.. أما الإجماع العلمي فليس له علاقة، فالذي له علاقة هي النتائج القابلة للإنتاج.. أعظم العلماء في التاريخ كانوا عظماء بالفعل لأنهم كسروا الإجماع.. لا يوجد شيء اسمه إجماع علمي.. إذا كان هناك إجماع فهو ليس علما.. وإذا كان هناك علم فهو ليس إجماعا.. نقطة على السطر) [1]

وعبر عن ذلك في موقف آخر بقوله: (الإجماع يستخدم عندما لا يكون العلم صلبًا بما فيه الكفاية.. لا أحد يقول إن إجماع العلماء يتفق على أنّ بعد الشمس عنا هو 93 مليون ميل.. لم يحدث أبدًا أن تكلم أحد بهذه الطريقة)

وقال: (أريد أن أتوقف هنا لمهلة وأتكلم عن فكرة الإجماع، والفكرة التي انتشرت بكثرة وهي الإجماع العلمي.. أنا اعتبر الإجماع العلمي تطورا خبيثا يجب إيقافه بدون رحمة.. فتاريخيًا، ادعاء الإجماع كان مأوى الأوغاد.. إنها طريقة لتجنب المناظرة بإدعاء أن القضية صارت محلولة.. كلما سمعت عن إجماع العلماء في الموافقة على شيء ما أو آخر، فابحث عن محفظتك، لأنه يتم شراؤك..أو تفقد مخك، لأنه يتم غسيله)

وقبله بقرون عبر جاليلو عن موقفه من قضية الإجماع العلمي، فقال: (في الأسئلة العلمية، سلطة الآلاف لا تستحق التفكير المتواضع لشخص واحد)، هذا هو القانون الصحيح الذي يحتكم إليه في العلم، لا تفكير القطيع الذي يتصور أنه كلما كبر العدد كانت الحقيقة.

وما ذكره جاليليو هو نفسه ما أشار إليه الفيزيائي [جيوفاني أميليون] حين تحدث عن المساءلات التي تعرضت لها نظرية النسبية لآينشتاين، وهي أعز نظرية على قلوب الفيزيائيين على حد وصفه.. وذلك حين اكتشفت جسيمات النيوترينو والتي كان

1() http://www.evolutionnews.org/2008/11/is_there_a_consensus_in_scienc013351.html.

يظن أنها تجري بسرعة تفـوق سـرعة الضـوء.. ولكن رغم أنـه تم إثبات خطأ ذلك، حيث أنه تبين أن التنيوترينو لا يجري بسرعة أكبر من سرعة الضوء، إلا أنه مجرد تعريض النظرية النسبية للمساءلة رغم أهميتها ومدى تمسك الفيزيائيين جميعا بهـا يحـد أمـرا صـحيا وإيجابيا بحد ذاته..

لقد عبر عن ذلك بقوله: (فمن يدري؟ لعل الاكتشاف العظيم القادم يكون على بعد خطـوة صـغيرة منـا ونحن لا نـدري.. فربمـا تبين خطأ النظرية النسبية وظهور نظرية [1]

ثم راح يتندر على الحال مع نظرية التطور، ويـذكر أنـه (على عكس ما يحصـل عنـد الفيزيـائيين من اسـتعداد تـام لتعـريض أهم نظرياتهم للمساءلة، فإن التطـوريين لا يبـدون أي اسـتعداد لفعـل الشيء نفسه مع نظـريتهم. بـل على العكس، فإنـك سـتجد دومـا مقالات وكتابات تصر وتلح بعناد ومكـابرة على أن نظريـة التطـور هي حقيقة تامة ولا تشوبها شائبة!)

خامسا ـ المعلومات الدقيقة:

وهو المعيار الخامس من المعايير العلميـة؛ ذلـك أنـه لا يمكن أن نثق في أي نظرية تتلاعب بالمعلومات، أو تزورهـا، أو تفسـرها على خلافـا مـا تـدل عليـه النتـائج العلميـة المنطقيـة.. ويكفي لأي نظريـة تفعـل هـذا أو بعضـه أن تتهم في مصـداقيتها وموضـوعيتها وصـفتها العلميـة.. بـل يمكن أن تطـرح أصـلا مثلمـا يطـرح ذلـك الكاتب الذي اكتشفت لصوصيته العلمية، أو راح يزور الحقـائق، أو راح ينسبها لنفسه.

ومن الأمثلـة على ذلـك، والـتي اسـتعملها الملاحـدة لفـترة طويلة، بل لا زال بعضهم يستعملها، ما يسمونه [إنسان بلتداون].. أو ما يطلق عليهـا الآن بــ [خدعـة بلتـداون][2]، ففي عـام 1912، ادعى فريـق بحـثي بقيـادة عـالم حفريـات بريطـاني هـاوٍ يُـدعى

---

[1] http://www.nature.com/news/no-theory-is-too-special-to-question-1.10182

[2] انظر: مقالا بعنوان: خدعة إنسان بلتداون، هارون يحي.

[تشارلز داوسون] اكتشاف حفرية.. وقد كان الأمر حينها عجيبا ومثيرا.. ذلك أن عظام فك تلك الحفرية التي تم عرضها تشبه عظام فك القرد، بينما الجمجمة كانت تمتلك صفات جمجمة الإنسان.

وقد اهتمت الهيئات الكثيرة بذلك الاكتشاف الخادع، وتم إطلاق اسم [إنسان بلتداون] على تلك الحفرية، والتي عُرضت في أهم متاحف العالم لأكثر من 40 عامًا متتالية على أنها دليل قاطع على صحة نظرية التطور.

وكان صداها هائلًا على المستوى الأكاديمي، حتى أن ما يقرب من 500 أطروحة للدكتوراه تمت كتابتها عن هذا الأمر لمدة 40 عامًا، بل كانت توصف بكونها رمزًا لانتصار نظرية التطور المزعومة، وُضعت للعرض والمشاهدة في المتحف البريطاني، والذي يعتبر واحدًا من أشهر المؤسسات في العالم.

وقد تم فحصها ودراستها في تلك الفترة الطويلة من قبل أشهر العلماء من جميع أنحاء العالم، بل حتى من قبل أعداد لا تُحصى من الزائرين.

وفي الأخير، وبعد كل ذلك الانتصار الكاذب الذي لبس لباس العلم اكتشف أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد خدعة.

ففي عام 1949، استطاع [كينيث أوكلي] من قسم الحفريات في المتحف البريطاني أن يطور طريقة جديدة لتحديد أعمار الحفريات.. وبدأ باستخدام هذه التقنية التي أُطلق عليها اختبار الفلوريد على الحفريات الموجودة داخل المتحف.

وما إن راح يطبقها على جمجمة [إنسان بلتداون] حتى ذهل للمفاجأة، فقد اكتشف أن عظام الفك خالية من مادة الفلوريد، بينما احتوت الجمجمة على نسبة صغيرة منه.. وهذا يعني أن عظام الفك لا يتجاوز عمرها بضع سنوات، والجمجمة لا يتجاوز عمرها بضع المئات من السنين على أقصى تقدير.

ومع تكثيف التحقيقات، اكتشف أن تلك الحفرية التي تم

تصـويرها على أنهـا أفضـل دليـل تم التوصـل إليـه لإثبـات نظريـة التطور كانت في الحقيقة محض كـذب.. فعظـام الفـك تنتمي إلى إنسان الغاب المتوفى حديثًا.. والجمجمة تنتمي إلى إنسان متـوفٍّ منذ فترة قاربت 500 عام..

ومن خلال الفحص عن قـرب عـرف أن الأسـنان تم إرفاقهـا بعظام الفك في وقتٍ لاحق، وتم اسـتخدام أداة صـلبة لكشـطها.. ثم تم غمرها في سائل ثنائي كرومات البوتاسيوم، وذلك لإعطائهـا مظهرًا قديمًا.

وقد أثبتت التحاليل المفصلة التي أجراها [جوزيف ويـنر] بمـا لا يدع مجالًا للشك أن هذه الحفرية كانت مجرد خدعة.

وكان البروفيسور [لو جروس كلارك] أستاذ التشـريح بجامعة أوكسـفورد واحـدًا من هـؤلاء العلمـاء الـذين كشـفوا هـذا الغش والاحتيال.. وفي نهاية التحقيقات التي قام بها، قال: (بالفعل فإنــه يبدو جليًا افتعال هذه الخدوش، ويبدو أنه من الجيد طرح الســؤال الأهم، وهـو: كيف أن هـذه الخـدوش لم يتم ملاحظتها من قبـل؟.. إنهم لم يبحثــوا عن هــذا الأمر من قبل.. لم يقم أي شــخص في السابق ممن فحصوا عظام فك بلتداون بوضع فكرة وجــود تزييف محتمل نُصب عينيه، إنه تلفيق متعمد)

أما [كلارك هاول] أستاذ الأنثروبولوجيا، فقد قـال معلقـا على هذه الخدعـة الخطـيرة: (اكتُشـفت بلتـداون عـام 1953 ولم تكن سوى عظام فك لقرد تم إدخالها على جمجمة إنسان، فهي خدعـة قد تم وضعها عن عمد، فهم لم يقروا بشـكل واضـح عمـا إذا كـان هذا الفك ينتمي لقرد أو إذا كانت الجمجمـة تنتمي لإنسـان، وبـدلًا من ذلك فقد أعلنوا أن كل جزء من الجزئين السـابقين هـو شـيء في المنتصف ما بين القرد والإنسان.. وقد أرجعوا تاريخه لحــوالي 500 ألـف عـام مضـت، وأطلقـوا عليـه اسـم [الإنسـان الفجـرى الدوسوني أو إنسـان داون]، وكُتب مـا يقـرب من 500 كتـاب عن هذا الأمر خدع هذا الاكتشاف علماء الحفريات لمدة 45 عامًا)

هذا مجرد مثال.. والأمثلة كثيرة جـدا.. بـل إننـا في كـل يـوم

نسمع كذبة جديدة وخدعة جديدة، ويصدقها الكثير، لا لكونها علمية، ولكن لكونها تصب في ذلك التفكير الرغبوي المزاجي الذي جعل الملاحدة ينتصرون لهذه النظرية بالصدق أو بالكذب.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا خدعة أخرى اسمها [إنسان نبراسكا].. وتبدأ قصة هذه الخدعة عام 1922، وهو الوقت الذي كانت الجهود المكثفة تبذل فيه بهدف الوصول لبرهان على نظرية التطور.

حينها كان الجميع مهووسون بالوصل إلى ذلك الإثبات.. أو بالوصول إلى الحلقة المفقودة التي تصل الإنسان بالقرد أو بغيره من الحيوانات..

حينها أعلن [هنري فيرفيلد أوزبورن] رئيس قسم الحفريات بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي عن اكتشافه حفرية لضرس يعود تاريخه إلى الحقبة البليوسينية بالقرب من وادي الأفاعي غرب نبراسكا.

وقد حدث توافق بشكل تام بناءً على ضرس واحد فقط بأنه ينتمي إلى ما يسمى بالرجل القرد.. ثم دارت العديد من النقاشات العلمية العميقة حول هذا الدليل المزعوم، والذي لم يكن في الحقيقة أكثر من مجرد خيال.

وقد أُطلق على هذه الحفرية ـ والتي سببت جدلًا واسعًا ـ اسم [إنسان نبراسكا].. بل سرعان ما تم إعطاء اسم علمي عليها، وهو [هسبيروبايثيكوس هارولدكوكي].. وسرعان ما لقي مكتشفها الكثير من الدعم والاهتمام.

ومما يدل على فداحة التفكير الرغبوي لدى الملاحدة، وتسلطه عليهم، أنهم راحوا يجرون العديد من الرسومات لإعادة بناء جمجمة وجسد إنسان نبراسكا اعتمادًا على ضرس واحد فقط.. بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث نُشرت العديد من الرسومات الإيضاحية لإنسان نبراسكا مع أولاده وزوجته في بيئتهم الطبيعية التخيلية.

بل بدأ التطوريون مرة أخرى بحشد جميع الوسائل المتاحة لهم من أجل هذا السيناريو الوهمي..

ومع أن بعض العقلاء في ذلك الحين أقر بأن الأدلة المتعلقة بخصوص [إنسان نبراسكا] غير ملائمة تمامًا، وأن الدليل المتاح لا يبرهن على أي شيء، وأن على هؤلاء الانتظار مزيدًا من الوقت.. إلا أن التطوريين، ولحرصهم على نظريتهم، وخوفهم من فقدان هذا الدليل الكاذب راحوا يشنون حملة مضادة تضمنت الدعاية التطورية المعتادة ضد من يخالفهم، باعتبارهم غير علماء ولا متخصصين ولا متطورين عقليا.

لكن بعد كل ذلك بفترة من الخداع والوهم اكتشف أن هذا الضرس لا ينتمي لا للبشر ولا للقردة، وإنما لفصيلة منقرضة من الخنازير البرية.

سادسا ـ عدم التحيز:

وهو المعيار السادس من المعايير العلمية؛ ذلك لا يمكن أن نثق في نظرية تتحيز لوجهة نظرها تحيزا مطلقا، يجعلها تلغي غيرها من غير أي أدلة علمية.. ولكن تفعل ذلك فقط بسبب تفكيرها الرغبوي.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فالملاحدة يعتبرون العلماء المخالفين لهم، وهم كثير جدا ـ كما رأينا سابقا ـ علماء مزيفين نتيجة انحيازهم لأفكارهم الدينية.

وقد اعترف العالم التطوري [ريتشارد ليونتين] بهذا التحيز، فقال: (ليست الأساليب والمناهج العلمية هي التي تدفعنا لقبول التفسيرات الماديه للعالم المشاهد، ولكن على العكس التزامنا المسبق بالتفسيرات المادية هو الذي يفرض علينا أن نخلق نظاما للتحقيقات، ومجموعة من المفاهيم ينتج عنها تفسيرات مادية،مهما كانت محيرة للمبتدئين، علاوة على ذلك، المادية مطلقة لأننا لا يمكننا السماح بتقبل فكره الله)(1)

(1) Richard Lewontin, Harvard Geneticist, "Billions & Billions of Demons", The New York.

ومثله اعترف [الدوس هكسلي] بأن العدمية.. أي عدم وجـود اله.. هو محور رؤيتة الكونية، فقال: (كان لدي حافز يدفعني لإنكار وجود أي معـنى للكـون، لـذلك افترضـت أنـه ليس للكـون معـنى، وكان الأمر سهلا أن أجد أدلة مقنعة لـذلك الافـتراض، الفيلسـوف الذي يـؤمن بأنـه لا معـنى في للحيـاة ليس فقـط مهتمـا بمشـكلة ميتافيزيقيه بحتة، ولكن أيضا مهتم بإثبات أنه لا يوجد سـبب مقنـع يمنعه عن القيام بمـا يشـتهي، ويمنـع أصـدقائه من الاسـتيلاء على السلطة السياسية والحكم بما يخـدم مصـالحهم، بالنسـبة لي لقـد كانت الفلسفه العدمية أداه تحرر جنسي وسياسي)(1)

هـذا التصـريح من الـدوس هكسـلي يـدلنا على أن الفلسـفه الهيومانية الإنسانية التي لا تحكمها أي حدود أخلاقية ليس لديها أي مشـكلة في الاسـتيلاء على السـلطة السياسـية من أجـل الـترويج لآرائها الإلحادية.

ولــذلك لا نعجب إذا رأينــا مثــل هــذا التصــريح منشــورا في المنشورات الهيومانيه، والذي يقول صاحبه فيـه: (لـدي اقتنـاع أن معركه مستقبل البشرية يجب أن تشن في فصول المدارس على أيـدي المعلمين، والـذين يعتـبرون مبشـرين بإيمـان جديـد، سـوف تصبح الحجرة الدراسية ساحة للصراع بين الجديد والقـديم: الجثـة المتعفنة للمسيحية، والإيمان الجديد بالهيومانية)

وعندما ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أن التطوريين ذوو توجه أيديولوجي لا يختلـف عن الـدين نفسـه، ذلـك أن الـدين ليس سـوى مجموعـة المعتقـدات حـول سـبب وطبيعـة وهـدف الكـــون.. أو هـــو مجموعـــة خاصـــة من المعتقـــدات الأساســـية والممارسـات يتفـق عليهـا مجموعـة من النـاس بشـكل عـام.. والهيومانيــه بهــذا المعــنى دين يــروج لــه في المــدارس.. ومن الأسلحة التي يستخدمونها لذلك نظرية التطور.

لقد صرح بعضهم بهذا، فقال: (إن الايمان بالدارونيه الحديثـة يجعل من الناس ملحـدين، فمن الممكن للشـخص أن يكـون لديـه

(1) Huxley, A., Ends and Means, pp. 270 ff.

معتقد ديني يتلائم مع الداروينية فقط اذا كان هذا المعتقـد الـديني هو الالحاد)[1]

1) انظر: التطور ومعايير النظرية العلمية.

يعتبر الكون بظواهره العجيبة، وتصميمه البديع من أبرز الأدلة على الله، ذلك أنه يستحيل أن تكون هذه الدقة، وتلك البراعة، وذلك التنظيم العجيب المبني على موازين دقيقة، ناشئا عن صدفة عشوائية، أو طبيعة عمياء صماء، بل لابد له من جهة خارجة عنه، تملك من القوة والعلم والقدرة والحكمة وكل صفات الكمال ما يؤهلها لمثل هذا الإبداع العظيم.

ولهذا، فقد استعمل الملاحدة كل الحيل، ليصرفوا النظر عن هذا الإبداع العظيم، ويجعلوه وليدا لعلل كثيرة، حتى لو كانت غريبة متناقضة، فيكفي أن تكون وسيلة للصد عن الله، حتى تكون محل قبول لديهم.

وبناء على هذا، فإن على الداعية إلى الله على بصيرة، والذي يريد أن يواجه الإلحاد، وحيله وخدعه، أن يتعرف على منتجات العلوم الحديثة التي يستند إليها الملاحدة في تبرير إلحادهم، وهي تشمل خصوصا علمي الفلك والفيزياء بنوعيها الكلاسيكي والحديث..

ومن خلال ذلك سيكتشف المغالطات التي يمارسها الملاحدة عند استدلالهم بها؛ ذلك أنها من الناحية المنطقية عديمة الدلالة على الإلحاد، وإنما يتلاعب الملاحدة بالألفاظ ليجعلوها سندا لهم.

بالإضافة إلى ذلك يكتشف الأغلوطات الكثيرة المرتبطة بها، ذلك أن الكثير من النظريات التي نجدها على المواقع كسند يعتمد عليه الملاحدة ليس لها أي حظ علمي عند المتخصصين، فهي لم تجرب، بل يستحيل تجريب أكثرها، وهي عبارة عن ميتافيزياء، وليست فيزياء، ولذلك لا يصح اعتبارها سندا علميا.

وهذا ما أشار إليه الكثير من الباحثين المختصين من أمثال البروفسور [جون بولكنجهورن] الفيزيائي الشهير الذي قال معبرا عن نقده الشديد لنظرية الأكوان المتعددة: (إنها ليست فيزياء.. إنها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقيه، ولا يوجد سبب علمي

واحد للإيمان بمجوعة من الأكوان المتعددة.. إن ماعليه العالم الآن هو نتيجة لإرادة خالق يحدد كيف يجب أن يكون)

ومثله قال الفيزيائي الشهير [راسل ستانارد] الذي اعتبر الكثير من طروحات الفيزياء الحديثة فلسفة وليست علما، فقال: (إن فلسفة هاوكنج تحديدا ما أعارضه، فهي كما وصلتني مثال واضح على التعالم، فطرح أن العلم هو مصدر المعلومات الوحيد، وأننا لدينا فهم كامل لكل شيء هراء، بل هراء خطير أيضا، فهو يشعر العلماء بالكبر والغرور بشكل مبالغ فيه)

وبناء على هذا، نحاول في هذا الفصل أن نذكر أهم ما يحتاجه من يواجه الإلحاد من معارف ترتبط بهذه النظريات: الحديثة منها، والتقليدية، ليتبين من خلالها حظها من العلم، ولتكون له القدرة العلمية على مناقشة الدعاوى الإلحادية المتعلقة بها.

ومن خلال استقرائنا للشبهات العلمية المطروحة في هذا الجانب نجد أنها تبدأ ـ **أولا** ـ من فرضية أزلية الكون أو ما يطلق عليه علميا [الحالة الثابتة]، وهو ما سنذكر الرد العلمي عليه في المبحث الأول، والذي نبين فيه الأدلة العلمية على حدوث الكون.

والشبهة الثانية: وهي هي فرضية الصدفة والعشوائية؛ وقد رددنا عليها بتفصيل في الفصل السابق، لكنا سنركز هنا على الطروحات الفيزيائة الجديدة التي حاولت أن تحيي الصدفة بلباس علمي جديد، وذكرنا استحالة ذلك وفق المنتجات العلمية الحديثة كالثوابت الكونية والتوازن وغيرها.. بالإضافة إلى أننا ركزنا خصوصا على طروحات هاوكنج حول التصميم العظيم والأكوان المتعددة والأوتار الفائقة باعتبارها أكثر النظريات انتشارا بين الملاحدة..

وبما أنا أفردنا جزءا من هذه السلسلة [الإلحاد والدجل] لهذه الناحية، وذلك في كتاب [الكون بين التوحيد والإلحاد]، فقد اكتفينا هنا بتلخيص بعض ما ورد فيه، ومن أراد المزيد يمكنه العودة للكتاب ليجد التفاصيل الكثيرة، بالإضافة لما فيه من تبسيط للكثير

من الحقائق العلمية.

أولا ـ الكون بين القدم والحدوث:

من أكثر المغالطات التي ظل الملاحدة يعتمدون عليها لقرون طويلة قولهم بقدم العالم، وكونه بذلك لا يحتاج إلى محدث يحدثه؛ وهذا ما تطلب من الفلاسفة المؤمنين محاولة استعمال براهين عقلية وفلسفية تتماشى مع القول بقدم العالم، مثلما ذكرنا ذلك في الفصل الأول.. وحاول آخرون إثبات حدوث العالم، ولكن بأدلة فلسفية، لا علمية.

وظل الحال هكذا إلى العصر الحديث، حيث كانت الفكرة السائدة قبل بداية القرن العشرين لدى أكثر المدارس المادية هي كون العالم قديما؛ وهي فكرة تتناسب مع الأفكار المادية التي ترى أن المادة كانت الشيء الوحيد الموجود في الكون، وأن الكون وجد في الزمن اللانهائي، وسوف يبقى إلى الأبد[1] .

وقد كان من أنصار هذه الفلسفة الكبار الفيلسوف (إيمانويل كانت) الذي دافع عنها، وأعلن أن الكون موجود في كل الأزمان، وأن كل احتمالية (إن كانت موجودة) فسوف ينظر إليها على أنها ممكنة، وبناء على ذلك رأى عدم انسجام الإيمان مع العقل، وإن كان قد قبل الإيمان باعتباره محفزا على القيم، ولو أنه غير معقول في ذاته.

ومع بداية القرن التاسع عشر صارت فكرة أزلية الكون،

---

1) من أهم المراجع التي رجعنا إليها في هذا المطلب:

1 . خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير، هارون يحي، وهو موجود بموقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

2. فمن خلق الله؟ نقد الشبهة الإلحادية: [إذا كان لكل مخلوق خالق فمن إذن خلق الله؟ في ضوء التحقيق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي]، د. سامي عامري، تكوين للدراسات والأبحاث. المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى 1437هـ 2016م.

وعدم وجود لحظة لبدايته مقبولة بشكل واسع، وتم نقل تلك الفكرة إلى القرن العشرين من خلال أعمال الماديين الجدليين من أمثال (كارل ماركس) و(فريدريك أنجلز) وغيرهما.

لكن مع إطلالة القرن العشرين، انقلب الحال، وصار العلم المادي في صفّ القائلين بأنّ الكون حادث، وأنه وُجد بعد أن لم يكن، وقد كان في ذلك إحراجا كبيرا للملاحدة، وهو ما وضعهم بين أمرين: إما قبول الإيمان، عن طريق الانتساب لأي دين من الأديان، أو عن طريق الإيمان المجرد عن الانتساب لأي دين.. وإما الهروب لأي حل آخر، لينجو به من الإشكالات التي طرحتها الأدلة العلمية على حدوث الكون.

وربما يعتقد الكثير أن (نظرية الانفجار العظيم) هي الدليل العلمي الوحيد لخلق الكون، وذلك ليس صحيح؛ فهناك دلائل أخرى كثيرة، بل إنّ كلّ الدلائل المادية والرياضية تدلّ على أنّ الكون له بداية.

وقد صرح بذلك كبار علماء الفيزياء والفلك وغيرهم، وقد قال الكوسمولوجي الشهير اللاأدري [ألكسندر فلنكن] في حديثه بمناسبة عيد ميلاد (هاوكنج) السبعين، سنه 2012م ، والذي ناقش فيه العلماء أهم نظريات نشأة الكون: (تقول كلّ الأدلة التي عندنا إنّ الكون له بداية)(1)

وأكّد هذا الأمر بلغة أكثر حدّة، بقوله: (لقد قيل إنّ الحجة هي التي تقنع العقلاء والدليل هو الذي يقنع حتى غير العقلاء. لم يعد بإمكان علماء الكوسمولوجيا، بعد أن قامت الآن الأدلة، أن يَتَخفّوا وراء إمكانية وجود كون أزلي. لم يعد هناك مهرب، عليهم أن يواجهوا مشكلة البداية الكونيّة)(2)

1) Lisa Grossman, Death of the Eternal Cosmos, in New Scientist. 1/14/2012, Vol. 213 Issue 2847, p.7 .

2 () Alexander Vilenkin, Many Worlds in One: The Search for Other Universe (New York: Hill and Wang, 2006), p.176..

وبناء على هذا سنحاول هنا أن نـذكر أهم الأدلـة على حـدوث العالم، والموقف منهما:

1 ـ الانفجار العظيم:

مع كون نظرية [الانفجار العظيم] من الحقائق العلميـة الـتي دلت عليها كل الأدلة إلا أننا نجد من يشـكك فيهـا بطـرق مختلفـة، حـتى تـوهم البعض أن هـذه النظريـة مجـرد مغالطـة، في نفس الوقت الذي تعتبر فيـه نظريـة التطـور حقيقـة علميـة مـع انعـدام الأدلة عليها، بل مع وقوف الأدلة ضدها.

وللأسف نجد من المؤمـنين من يـردد هـذا الـوهم؛ فيـذكر أن هـذه النظريـة مجـرد [نظرية]، أي أمـرٌ لم يثبت، وإنما هي مجـرد افـتراض.. ولو ثبت بطلان هـذه النظرية فسـيفقد المؤمنـون بالله دليلهم العلمي الوحيد على وجـود اللـه، لـيرجع الأمر إلى ما كـان عليه سابقًا من دلالة العلم الطـبيعي على أزلية المـادة، خاصة مع وجود بدائل نظرية كوسمولوجية تقرّر أزلية الكون.

وسبب هذا الخطـأ هـو التعبـير عن [الانفجـار العظيم] بكونـه نظرية، في نفس الوقت الذي تعتبر فيـه [النظريـة] مجـرّد رأي لا تسنده البراهين، ولا يحمل أيّة سلطة أدبيّة، ولا يعبر عن أي حقيقة علمية.

لكن هذا غير صحيح؛ فالنظريـة في المفهـوم العلمي ــ طبقًـا لتعريف الأكاديمية القومية الأمريكية للعلوم ــ هي: (تفسـير موثّق بصورة جيدة لبعض جـوانب العـالم الطـبيعي من الممكن أن يضم حقائق، وقوانين، واستدلالات، وفرضيات مختَبرة)[1]

أ ـ أدلة الانفجار العظيم:

وبناء على هذا يمكننا أن نقول: إنّ سـيناريو (الانفجـار الأوّلي العظيم) موثَّق بـالقرائن العلميّـة المدعومـة بـالنبوءات الصـادقة للعلماء، وهو بذلك تفسير علمي مدلّل عليه لنشأة الكون.

1 () National Academy of Sciences, Teaching about Evolution and the Nature of Science (Washington, DC: National Academy Press, 1998), p.7.

وقد صرح بذلك الكثير من العلماء، فقد قال عالم الفيزياء والفلك ورأس علماء وكالة (ناسا) اللاأدري [روبرت جسترو] في ختام كتابه [الله والفلكيون]: (تنتهي القصّة بالنسبة للعالِم الذي عاش بإيمانه بقوّة العقل، كمنامٍ سيء. لقد تسلّق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمّة، وبينما هو يرفع نفسه إلى الصخرة الأخيرة، يُفاجأ بتهنئة من جَمْع من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون)[1]

وقال (بول ديفيس): (لو أنّ نظرية الانفجار الكبير كانت تقوم على عمل (هابل) و(أينشتاين) فقط، لما استطاعت أن تحوز هذا الدعم الواسع. لحسن الحظ، توجد أدلة تأكيدية مقنعة. ... حقيقة أنّ الكوسمولوجيا الحديثة وفّرت أدلّة فيزيائية صلبة لصالح الخلق هو أمر مرضٍ جدًا للمفكّرين المتديّنين)[2]

وشهد [فكتور ستنجر] أنّ (كلّ سنة تمرّ، ومع تراكم المعلومات الكونية، تتوافق معارفنا بصورة أكبر مع الصورة العامة للانفجار العظيم على الأقلّ)[3]

وقال مؤرّخ العلوم [فردريك برنهام]: (هذه الاكتشافات المتاحة الآن، تجعل القول إنّ الله قد خلق الكون فرضية جديرة بالاحترام اليوم، بصورة أكبر من أي وقت مضى في المئة سنة الأخيرة)[4]

وقال عالم الكوسمولوجيا الشهير، ورئيس (الجمعية الملكية البريطانية في لندن لتطوير المعرفة الطبيعية [مارتن ريس]) سنة 1999م: (كنت سابقًا، منذ سنوات قليلة، أثق بدرجة 90%ـ في حدوث الانفجار العظيم... أمّا الآن فالنسبة أعظم بكثير، التقدّم

1() Robert Jastrow, God and the Astronomers (Toronto: George J. McLeod, 1992,), p.116..

2() Paul Davies, God and the New Physics (New York: Simon and Schuster, 1983), 20-24.

3() Cliff Walker, 'An Interview with Particle Physicist Victor J. Stenger' (November 1999) <www.positiveatheism.org/ crt/ stenger1. htm..

4() Henry F. Schaefer III, "Stephen Hawking, The Big Bang, and God," <http://globalwebpost.com/farooqm/study_res/hawking/schaefer.html.

العظيم في المشاهدات والتجارب جعلت الصـورة الكونية الكـبرى أدقّ أثنـاء التسـعينات من القـرن العشـرين، وأرغب الآن في رفـع درجة يقينيى إلى 99%)[1]

وقال: [راسل كانون] ـ وهو عضـو في فريـق علمي أمـريكي قام بمسحٍ لعدد كبير من الكواكب باعتمـاد أسـاليب أحـدث وأكـثر تطوّرًا ـ سـنة 2005م: (لقد عَلِمنا منذ زمن بعيد أنّ أفضل نظريّة لتفسـير الكـون هي الانفجـار العظيم... ما يمكننا الآن أن نكـون واثقين فيه بصورة أكبر هو أنها الفكرة الأساسيّة الصحيحة)[2]

وقال الصحفي الأمـريكي [جـورج ول] مازحًـا: (إنّـه يبـدو أنّ الملاحدة سيعترضون على وكالة (ناسا) باعتبارها تقدمّ دعمًا علميًا للمتديّنين من خلال ما يثبته (مرصد هابل الفضـائي) من حقـائق!)[3]

بنـاء على هـذا، سـنذكر هنـا باختصـار بعض مـا ذكـره عـالم الفيزيـاء الفلكيـة [هيـو روس] من الأدلـة العلميـة على حـدوث (الانفجار العظيم)، وهي ثلاثـون دليلًا منسّـقة على طريقـة جيّـدة، وموثّقـة تفصـيلًا من دراسـات المتخصصـين أصـحاب الكشـوف والدراسات[4] :

1. وجود إشعاع الخلفية الكونيـة وحرارتـه: وقـد قـدّر [رالـف ألفر] و[روبرت هرمان] سنة 1948م أنّ تبرّد الكون بعد (الانفجار العظيم) سـينتج أشـعة كونيـة بحـرارة تقـارب 5 كلفن (-455°F)، وقد اكتشفت هذه الأشعة سنة 1965م وكـانت حرارتهـا تقريبًـا 3 كلفن (-457°F)، وهي قريبة جدًا من النسبة المتنبَّأ بها.

1() Martin Rees, Just Six Numbers: The deep forces that shape the universe (New York: Basic Books, 2000), p.10..

2() Universe is flat with a ripple," January 12, 2005 < http://www.theage.com.au/news/Science/Universe-is-flat-with-a-ripple/2005/01/12/1105423539638.html.

3() George Will, "The Gospel from Science," in Newsweek, November 8, 1998.

4() Hugh Ross, The Creator and the Cosmos, appendix.

2. طابع الجسم الأسود لإشعاع الخلفية الكونية: فالاختلافـات بين طيف الإشعاع الخلفي المتنبّأ به والمكتشف لاحقًا بلغ أقلّ من 0.03% على مدى طول الموجات المدرَكة.

3. نسبة التبريد لإشعاع الخلفيـة الكونيـة: حيث تتنبّـأ (نظريـة الانفجار العظيم) أنّ الإشعاع الكوني كلّما كان أطـول عمـرًا كلّمـا كان أبـرد، وكلّمـا عـدنا إلى الماضـي من خلال قيـاس الإشـعاعات الأبعــد، كلّمــا ارتفعت حــرارة الإشــعاع، وهــو مــا أثبتــه العمــل المرصدي.

4. التماثــل الحــراري لإشــعاع الخلفيــة الكونيــة: فــالاختلاف الحراري بين الإشعاعات الكونية من مختلف الجهات لا يتفـاوت إلّا بقدر جزء واحد من عشرة آلاف، وهو ما لا يمكن أن يفسّر إلّا بأنّ الإشعاعات الخلفية تعود إلى حدث خلق كوني أوّلي حار جدًا.

5. نسـبة الفوتونـات مقارنـة بالبريونـات في الكـون: فنسـبة (الفوتونات) مقارنة بـنسبة (البريونات) -البروتونات والنوترونــات- في الكون تتجاوز 100 مليـون للواحـد، وهـذا يثبت أنّ الكـون في حال أنتروبية عاليـة جـدًا. ولا تفسـير لـذلك إلّا أنّ الكـون كلّـه قـد تفجّر بسرعة من حال حار وكثيف جدًا.

6. تموجات الحـرارة في إشـعاع الخلفيـة الكونيـة: فلا بـدّ أن تبلغ التموّجات الحرارية في خريطة إشعاع الخلفية الكونيــة درجــة تقـارب الواحــد من عشـرة آلاف حـتى تتكـون المجـرّات وعناقيـد المجرّات من انفجار خلقي عظيم. وقــد تمّ رصــد هــذه التموّجـات بالنسبة المتنبّأ بها.

7. قوة طيف التموجات الحرارية في إشعاع الخلفية الكونية: فقد أكّدت تجربة (بومـيرانج) في أبريـل 2000م درجـات الطيـف الحراري لإشعاع الخلفية الكونية المتنبأ بها.

8. معدّل التوسّع الكوني: فقد أظهر قياس سـرعة المجـرات أنّ توسّعًا كونيًا قد بدأ في زمن قريب من الزمن المحدّد للانفجـار العظيم.

9. المــدارات المســتقرّة للنجــوم والكــواكب: فالمــدارات المستقرة للكواكب حول النجوم، وللنجوم حـول نـواة المجـرّة، لا يمكن أن تثبت ماديًا إلّا بعد توسّعات كبيرة وسـريعة ثلاثيـة الأبعـاد في المكان.

10. وجود الحياة والإنسان: فلا بدّ من نظام شمسي مسـتقر لوجود الحياة والإنسان، وهو ما لا يمكن أن يكون في غير سـيناريو الانفجار والتبريد التدرّجي الذي تنبأت به (نظرية الانفجار العظيم)

11. وفـرة الهليـوم في الكـون: حيث يتنبّـأ نمـوذج (الانفجـار العظيم) أن يتحوّل ربع (الهيدروجين) في الكـون إلى (هليـوم) في الدقائق الأربع الأولى للخلق، ذلك أن الاحتراق النجمي هو المصدر الوحيد الآخر (للهليوم).. وقد قاس العلماء نسـبة كثافـة (الهليـوم) في السحب الغازية والمجرات التي ليس فيها البتة نجـوم تحـترق أو فيها فقط قليل من ذلك، وحدّدوا بـذلك نسـبة الهليـوم الأوّليـة، ووجدوا أنّها قريبة جدًا مما تنبّأت به النظريّة.

12. وفرة الديوتريوم في الكون: فالانفجار العظيم هو وحـده القادر على إنتاج (الـديوتريوم) -الهيـدروجين الثقيـل-، أمّـا النجـوم فتدمّره.. وقـد أثبتت قياسـات (الـديوتريوم) في السـحب الغازيـة والمجرات التي ليس فيها البتة نجـوم تحـترق أو فيهـا فقـط قليـل من ذلك، أنّه يلزمنا أن نقرّ أنّ الكـون يعـود في أصـله إلى انفجـار أوّل.

13. وفـرة اللـثيوم في الكـون: فالانفجـار العظيم هـو وحـده القادر على إنتاج (اللثيوم) ، أمّا النجوم فتدمّره.

14.حجج النسبية العامة: فقـد أثبتت نظريـة النسـبية العامـة صحّتها مرارًا وتكرارًا، ولا تصحّ معادلاتها إلّا في كون له بداية، ولـه طبيعة تمدديّة.

15. مبرهنـة الزمكـان للنسـبية العامـة: فقـد أثبتت مبرهنـة رياضـية قـدمها كـلّ من (سـتيفن هـاوكنج) و(روجـر بـنروز) سـنة 1970م أنّه إذا كان للكـون كتلـة، وإذا كـانت ديناميكيّتـه محكومـة بقانون النسبية العامة، فلا بدّ عندها أن يكون متناهيًا في الماضي.

16. قياسات كثافة الطاقـة في الفضـاء: حيث طـوّر كـلٌّ من (أينشـتاين) و(إدنجتـون) نموذجًـا كونيًـا دون أن يتضـمن انفجـارًا عظيمًا، وذلك بإثبات قوة مضادة للجاذبية سمّاها أينشتاين (الثابت الكوني)، وأثبت لها قدرًا معينًا، وقد تراجع (أينشتاين) بعد ذلك عن نظريّته، غير أنّ علماء أثبتوا بعـد عقـود وجـود هـذا الثـابت، وتـدلّ قيمته التي وصلوا إليها على أنّ للكون بداية.

17. الأعمار النجمية: فوفقًا لنظرية الانفجار الكبير، سـتتكون أنـواع مختلفـة من النجـوم في حقب مختلفـة بعـد الخلـق. وتُخـبر الألوان ودرجات حـرارة أسـطح النجـوم عن زمن بدايـة احتراقهـا. وأعمار هذه النجوم تتوافق مع (نظرية الانفجار العظيم)، ومع بقية قياسات الزمن إلى بداية الانفجار.

18. أعمار المجرّات: فطبق (نظرية الانفجـار العظيم)، لا بـدّ أن تتكـوّن المجـرّات في بـدايات الكـون، ضـمن البلايين الأربعـة الأولى. وهو ما يوافق قياسات العلماء.

19. انخفــاض في ازدحــام المجــرّات: حيث تتنبّــأ (نظريـــة الانفجار العظيم) أنّ المجرّات تتباعـد عن بعضـها البعض على مـرّ الزمن. وقد أثبتت صـور مرصـد هابـل أنّـه كلّمـا نظرنـا بعيـدًا إلى الماضي، كلّما كانت المجرّات أكثر تقاربًـا. وعنـد النظـر في الثلث الأول من عمر الكون نلاحظ أنّ المجرّات كانت شـديدة التقـارب، وكأنّها حرفيًا تفكّ أذرعها الحلزونية عن بعض.

20. صور تاريخ الكون: حيث تتنبّأ نظرية الانفجــار العظيم أنّ جميع المجرات قد نشأت في أوقات متقاربة، ولما كانت المجرات تغيّر شكلها بصورة دراماتيكية مـع تقـدّمها في العمـر، كـان شـكل أقدمها غير شكل أحدثها، وهو ما أثبتته صور المرصد هابل.

21. نسبة المادة العادية مقارنة بالمـادة الأجنبيـة: حيث يتنبّـأ نموذج (الانفجار العظيم) أنـه لتتكـون المجـرات والنجـوم وتتطـوّر حتى توجد منطقة صـالحة للحيـاة الفيزيائيـة، لا بـد أن تتحـوّل في الكون نسبة من المادة الأجنبية (التي لا تتفاعل بصـورة جيـدة مـع الإشعاعات) إلى مادة عادية (تتفاعل بصورة جيدة مع الإشعاعات)

بمعدّل خمسة أو ستة إلى واحد، وهو ما أثبتته القياسات الحديثة.

22. وفرة البرليوم والبورون في النجوم الهرمة: حيث كشف الفلكيون أنّ نسبة (البرليوم) و(البورون) في الكون توافق ما تنبأت به (نظرية الانفجار العظيم).

23. كثافة المجموعات النجمية الأولى والثانية والثالثة: حيث يتنبّأ (الانفجار العظيم) أنّه مع توسّع الكون ستظهر ثلاث مجموعات نجمية مختلفة، وأنها في هذه المرحلة العمرية لا بدّ أن تحمل صفات معينة، وهو ما أثبته البحث العلمي.

24. كثافة الثقوب السوداء والنجوم النوترونية ومكانها ونوعها: فالكون الناشئ عن انفجار عظيم، والذي يسمح بوجود حياة مادية في مكان فيه، من المتوقّع أن ينتج بعد بلايين السنين من احتراق نجومه عدد صغير نسبيًا من (الثقوب السوداء)، وعدد أكبر من (النجوم النيوترونية) في كلّ مجرة. ومن المتوقّع أيضًا أنّ تنتج المجرّات الكبيرة (ثقوبًا سوداء) في مركز لبّها. وقد كشف العلماء (الثقوب السوداء) و(النجوم النيترونية)، وكثافتها، ومكانها.

25. تشتّت عناقيد المجرات النجمية: حيث يتنبّأ (الانفجار العظيم) أنه مع توسّع الكون ستنتشر في الكون أنواع مختلفة من المجموعات النجمية والمجرّيّة بدرجات محدّدة تتزايد مع الوقت. ويتنبّأ أيضًا أن المجموعات النجمية الأكثر كثافة لن تتشتت، ومع ذلك ستتطوّر السرعات المدارية لنجومها حول مركز المجموعة نحو وضع يسمى بـ(virialization). وقد كشف الرصد الفلكي عن هذه التطورات في تاريخ الكون.

26. كتلة النيوترينو وطبيعته: حيث تفترض أفضل نماذج (الانفجار العظيم) أنّ الشكل الأكثر هيمنة من أنواع المادة هو مادة أجنبية تسمّى (المادة المظلمة الباردة). ويدرك العلماء اليوم أنّ (النيوترينات) موجودة بكثافة كبيرة في الكون، وأنها باردة ومظلمة.. وتكشف الأبحاث الأحدث أنّ (النيوترينات) تتحوّل من طبيعة ولون إلى آخر. ويدلّ هذا التحوّل أنّ جسيم (النيوترينو) لا بدّ أن تكون كتلته أصغر من (الإلكترون) ببلايين وملايين المرات.

مثل هـذه الأحجـام هي الـتي تفترضـها أفضـل نمـاذج (الانفجـار العظيم).

27. الكثافة الكونية للبروتونات والنيوترونات: فقد أثبتت أربع طرق مختلفة لتحديد كثافة البروتونات والنيوترونات في الكون أنّ النسـب الـتي توصّـلت إليهـا توافـق مـا توقعـه (نمـوذج الانفجـار العظيم) لكون يضمّ نجومًا وكواكب صالحة للحياة[1].

ب ـ نقض أدلة الملاحدة:

بما أن نظريـة الانفجـار العظيم كـانت بمثابـة الصـاعقة الـتي قضت على آخر قشة يتعلق بها الملاحدة، فقد راحوا يفـرون منهـا بكل وسائل الفرار، ويستعملون لذلك كل أنواع المغالطات، والتي سنذكر بعضنا مع الرد عليها هنا باختصار:

1. الهروب إلى المستقبل واكتشافاته العلمية: وهي حيلـة يسـتعملها الملاحـدة كثـيرا كلمـا ضـيقت عليهم السـبل، فيتـذرعون بأنـه سيكشـف في المسـتقبل مـا يثبت دعـاواهم، متجاهلين أن المستقبل أيضا قد يؤيد دعاوى مخالفيهم.

وقد سئل [جاسترو] عن قول الكاتب الملحد الشهير [إسحاق أزيمـوف]: (إنّ العلمـاء وإن عجـزوا اليـوم عن تفسـير الانفجـار العظيم، فسيتمكنون غدًا من فعل ذلك لأنّ العلم يتطـوّر تبعًـا لمـا يكتسبه من معلومات جديدة)

فأجاب بقوله: (أنا متشبّث بفكـرة أنّ العلم لن يتمكّن من أن يفكّ شـفرة سـبب الانفجـار الكـوني مـادام يظهر أنّ الكـون كـان لامتنـاهي الحـرارة والكثافة في لحظاته الأولى. يبـدو لي هـذا الاسـتنتاج كإحـدى الحقـائق الصـلبة للعلم، مثل التقسـيم الكمّي للشحنة، وكتلة الإلكـترون، واللـولب الثنـائي للحمض النـووي. في رأيي، بإمكان الوضع أن يتغيّر فقط إن أطيح بالانفجـار العظيم من خلال الكشـف عن معلومـات جديـدة، ولكن في ضـوء اكتشـاف إشعاع الكرة النارية الأوّلي على يد (بنزياس) و(ويلسن)، يبدو هذا

---

1 () Hugh Ross, The Creator and the Cosmos, appendix.

التطور بعيدًا)[1]

وقد مرّت اليـوم ثلاثـة عقـود على هـذا التصـريح، لم يكشـف البحث العلمي عن أيّـة معلومـة جوهريـة قـادرة على نقض طـرح الانفجار العظيم، بل أكّـد البحث على خلاف ذلـك بدعمـه سـيناريو الحال الملتهبة لبداية الكون.

2 ـ عدم التفريق بين النماذج والنظريـات: فالعلمـاء يميّزون بين النموذج كفكرة كبرى، والنظريات التي تنضـوي تحتـه، وهي لا تتناقض فيما بينها؛ فما يقوم بـه العلمـاء الآن من حـلّ أهم الإشـكالات الـتي تواجـه (نظريّـة الانفجـار العظيم) ليس مناقضـا للنظرية، وإنما هو ضمن نفس النموذج الكوني لذات الانفجار.

وقد نجحت نظرية (التضخم الكوني) ضمن (نموذج الانفجـار العظيم) في حلّ المشكلات الثلاث الكبرى للنموذج والتي تتعارض مـع التصـوّر الكلاسـيكي للانفجـار العظيم، وهي (مشـكلة الأفـق)، و(مشكلة التسطّح)، و(مشكلة أحادية القطب المغناطيسي).

فـ(نظرية الانفجـار العظيم) نجحت في أن تفسّـر مـا نعرفـه عن الكون دون أن تتخلّى عن أصولها، وأهمّها أنّ للمكان والزمـان بداية.

3 ـــ الأدلّـة على الانفجـار العظيم الـذي نشـأ منـه الكون تتراكم مع تتابع الاكتشافات الفلكيّـة الكـبرى ولا تتنـــاقض: وهي تثبت قـــدرتها التفســـيرية للظـــواهر الكونيـــة المشاهدة اليوم والـتي تمثّـل التـاريخ القـديم للكـون. ولعـلّ أبـرز طابع لصلابة (نظرية الانفجار العظيم) هـو صـحّة نبوءاتهـا العلميّـة عن تـاريخ الكـون منـذ بدايتـه، والنـاتج عن انفجـار حـراري هائـل تمددت عناصره لتنشئ المكان المتوسّع بسرعة.

ولم تكن أبحـاث العلمـاء الأمريكـيين وحـدها حجّـة متجـددة لصـــالح نظريـــة الانفجـــار الكبـــير، وإنّمـــا هي أبحـــاث علمـــاء الكوســمولوجيا في كــلّ قــارات الأرض، ومن ذلــك أنّ (الوكالــة

1 () Roy Abraham Varghese, ed. The Intellectuals Speak out about God: A handbook for the Christian student in a secular society (Chicago, Ill. : Regnery Gateway, 1984), p.17..

الأوروبية لأبحاث الفضاء) التي تُعنى بتطوير برامج التعاون الفضائي بين دول أوروبا الغربية، قد أصدرت تقارير سنة 2013م عن تحليل نتائج ما رصده (مرصد بلانك الفضائي) الذي أنشئ لمسح توزيع (إشعاع الخلفية الميكروي الكوني) في الكون بدقة عالية، وقد جاء في أحدها: (إجمالًا، توفّر المعلومات المستقاة من الخريطة الجديدة لبلانك تأكيدًا رائعًا للنموذج القياسي للكوسمولوجيا بدقّة غير مسبوقة)[1]

ج . فشل البدائل المطروحة:

لم يكتف الملاحدة بالامتعاض أو الحزن على تلك الحقائق العلمية التي هدمت جميع الأسس الإلحادية التي استندوا إليها، واستند قبلهم فلاسفة الإلحاد، بل راحوا يضعون النماذج، ويتخيلونها، ليبنوا على أساسها كونا وهميا لا يستند لأي دليل علمي[2].

وقد عبر عن هذا المنهج الجديد في الرد على الانبثاق الكوني عالم الفيزياء الفلكية (كريستوفر إشام)، فقال: (ربّما أفضل حجة لصالح الطرح القائل إنّ (الانفجار العظيم) يؤيّد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قوبل به من طرف بعض الفيزيائيين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكار علمية، مثل (الخلق الدائم) أو (الكون المتذبذب)، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقية ممّا يلزم المرء بأن يرى دوافع نفسيّة أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للمنظّر لدعم نظريّته)[3]

بناء على هذا، سنذكر هنا بعض البدائل التي طرحها الملاحدة للفرار من الانفجار العظيم، وكيف أثبت العلم فشلها:

الحالة الثابتة:

1()Planck Reveals an Almost Perfect Universe "<http://www.esa.int/Our_Activities/Space_Science/Planck/Planck_reveals_an_almost_perfect_Universe>. Retrieved 1/19/2015 ..

2()William Lane Craig, Reasonable Faith (Wheaton, Ill.: Crossway Books, 2008), pp.125-150.

3() C. Isham, "Creation of the Universe as a Quantum Process" in R.J. Russell, W.R. Stoeger and G.V. Coyne, eds. Physics, Philosophy and Theology: A common quest for undestanding (Vatican City: Vatican Observatory, 1988), p.378.

وهي من النظريات التي لم تثبت بعد تقدّم (نظريـة الانفجـار العظيم)، مما اضطر الكل إلى التخلي عنها، ومنهم [أرنو بنزياس] الذي قـال عنهـا:: (لقد تـبيّن أنّ (نظرية الحـال الثابتة) قبيحة جـدًا حتّى إنّ الناس لفظوها. كان الطريق الأيسر لمطابقة الملاحظـات مع العدد الأقل من المعلمات هو الطريق الذي فيه أنّ الكون خُلق من لاشيء، في لحظة، وبقي يتّسع)[1]

ومن الانتقادات التي وجهت لها:

1. فقدانها الأدلة الإيجابية لصحّتها.

2. عدم وجود مجرّات قديمـة جـدًا في محيـط مجرّتنـا، ينفي أن يكون الكون أزليًا.

3. عدم وجود مجرات صغيرة جـدًا في محيـط مجرتنـا، ينفي الخلق العفوي المستمر.

4. نـدرة الانزياحـات الحمـراء وراء z =5 تقتضـي وجـود حـدّ حقيقي للكون أدنى من الحـد البصـري المتوقّـع من كـون لانهـائي ثابت.

5. تفتقد النظرية لآليـة ماديـة (مثـل الانفجـار الأوّلي) لقيـادة التوسّع المبصَر للكون.

6. إشعاع الخلفية الكونية الميكروي المدرَك -والذي يتناسـق تمامًا مع تصوّر تبريد الكرة الناريـة البدائيـة- يتحـدى قصّـة الكـون كما تقدّمها نظرية الحال الثابتة.

7. عدم الانتظام الهائل للكون لا معنى له في (نظرية الحال الثابتة)

8. وفرة (الهليـوم) في الكـون توافـق مـا تنبـأت بـه (نظريـة الانفجار العظيم) لا (نظرية الحال الثابتة)

9. لا تقدّم (نظرية الحال الثابتـة) تفسـيرًا للـوفرة المعروفـة

1() Quoted by Fred Heeren, Show Me God (Wheeling, IL : Day Star Publications, 1997), p.156.

(للديوتريوم) و(الهليوم الخفيف) و(الليـثيوم)، وفي المقابـل تقبـل هـذه الظـاهرة التفسـير السـلس في سـيناريو (الانفجـار العظيم) الحار [1].

وقد أدّى ظهور فساد (نظرية الحال الثابتة)، وعجـز مخزونهـا النبوئي، إلى أن ينصرف عامة أنصارها عنها إلى (نظريـة الانفجـار العظيم) التي نجحت فما فشلت فيه النظرية الأخرى

الكون الساكن:

وهذا مما قد يطرح كبديل لبداية الكون، ذلـك أن الزمـان هـو مقدار الوجود بين حدثين، وفي غياب الحركة بجميع أنواعها ينعـدم الزمان، وهذه الدعوى باطلة من الناحيتين العقلية والعلمية:

أما من الناحية العقلية: فـإن ظهـور الحركـة في الكـون بعد سكونه من الأزل إمّا أن يكون بسبب أو بغير سـبب.. إن قـال الملحد إنّ الحدث الأول نتج عن سـبب، فقـد أوقـع نفسـه في مـا يحاذره؛ وهو افتراض ذات غير مادية متعالية على الزمـان والكـون الهامد أزلًا؛ إذ هي تسبقه أنطولوجيًا. وإن قال إنّ الكون قد انتقـل إلى الحركة دون سبب فقـد زعم أنّ الشـيء قـد ينتقـل من حـال إلى آخر دون سبب، وهذا ظاهر الفساد!

أما من الناحية العلمية: فإن حقائق العلم ترفض التسليم لدعوى الكون الساكن، لأنّ الكون الساكن ميّتٌ حراريًـا، ولا يمكن أن ينتقل إلى الحركة إن افترضنا جدلًا إمكان وجوده دون حـرارة، وهو غير ممكن أصـلًاحتى تُضـخّ إليه الحـرارة من الخـارج، وهو ما يضطرّ الملحد إلى التسليم بوجـود من هو خـارج الكـون، وهـو مـا يسعى لنفيه!

وهــذا الــوهم قــد يقــود إليــه ســوء الفهم لنظرية التمــوّج الكمومي، وهو وهم لا يطـابق الواقع لأنّ الفـراغ الكمـومي ــ كمـا يقول أصحابه ـ هو عالم من الطاقة المتحرّكة المضطربة، وهو مـا يعني أنّه بعيد عن معنى السكون والجمود.

1() Hugh Ross, The Fingerprint of God: Recent scientific Discoveries Reveal the Unmistakable Identity of the Creator (Orange, CA: Promise Publishing, 1991), p.95.

النموذج المتذبذب:

وهو نموذج يحاول تجاوز الانبثاق الكوني، والعوة للحالة الثابتة، باعتبار أنّ الكون في حال توسّع ثم انكماش دائبين منذ الأزل، دون بداية، وقد قال الفيزيائي البريطاني (جون غربن)، معبرًا عن الأيديولوجية التي تنطلق منها هذه النظرية: (الإشكال الأكبر في نظرية الانفجار العظيم المتعلّقة بنشأة الكون هو فلسفي ـ وربما حتى لاهوتي ـ وهو: ماذا كان قبل الانفجار؟ كان هذا الإشكال وحده كافيًا لمنح دفعة أولى لـ(نظرية الحال الثابتة)، ولكن بعد أن تبيّن ــ للأسف ــ أنّ تلك النظرية معارضة للأمور المشاهدة، كان الطريق الأفضل للالتفاف حول هذا الإشكال الأوّلي هو في تقديم نموذج يتوسّع فيه الكون من (مفردة) (singularity)، ويعود فينهار بعد ذلك، ثم يعيد دورته هذه دون نهاية)(1)

وقد انتقدت هذه النظرية انتقادات كثيرة جدا لمخالفتها لكل القوانين العلمية، ولعدم إمكانية إثباتها نظريا أو عمليا، ذلك أن الكون المتذبذب ـ في حال التسليم جدلا بإمكانيته ــ لا يمكن أن يكون أزليًا لأنّه لا يستطيع أن يقاوم عدّة عوامل مادية وقانونية مطلوبة، وقد قال كل من (زلدوفيتش) و(نوفيكوف) عن هذا النموذج: (النموذج متعدد الدورات له مستقبل لانهائي، أمّا ماضيه فهو متناهٍ)(2)

وعندما حسب الفلكي (جوزيف سلك) عدد المرات الممكنة لتاريخ تذبذب الكون انطلاقًا من المستوى الأنتروبي الحالي للكون، وجد أنّ الحالات الممكنة لا يمكن أن تتجاوز مئة مرّة (3).

بالإضافة إلى هذا، فقد انتقدت هذه النظرية انتقادات كثيرة منها:

1. لا يوجد دليل مادي على أكثر من انفجار واحد وتمدّد واحد

1() Hugh Ross, The fingerprint of God, p.97..

2() I. D. Novikov and B. Zeldovich, "Physical Processes Near Cosmological Singularities," in Annual Review of Astronomy and Astrophysics 11 (1973): 401-402..

3() Joseph Silk, The Big Bang, (San Francisco: W. H. Freeman, 1989), pp.311–312..

للكون.

2 . أشار (فلنكن) إلى أنّ هذه النظرية تصـادم وجـود الكـون إلى اليوم؛ إذ إنّها لو صحّت، فلا بدّ أن يكون الكون قد بلـغ مرحلـة (التوازن الترموديناميكي) (thermodynamic equilibrium) لتتوقف جميـع التفـاعلات الفيزيائيـة في الكـون، وهـو خلاف مـا نعلمـه ونشاهده من كوننا اليوم [1].

3. يبـدو أنّ الكثافـة المشـاهدة للكـون لا تكفي في أفضـل أحوالها لنصف ما يُحتاج لانكماش كوني.

4. لا توجـد آليـة فيزيائيـة معروفـة ومعقولـة من الممكن أن تحقق الانكماش العكسي المطلوب.

5. لمـا حسـب الفلكي (جوزيـف سـلك) (Joseph Silk) عـدد المـرات الممكنـة لتـاريخ تذبـذب الكـون انطلاقًـا من المسـتوى الأنـتروبي الحـالي للكـون، وجـد أنّ الحـالات الممكنـة لا يمكن أن تتجاوز مئة مرّة [2].

6. يحتاج الكون لكي يمـرّ بعـدد لانهـائي من دورات التذبـذب المتتابعة أن يبـدأ بمقـادير مضـبوطة ومتقنـة من المـادة والطاقـة والقوانين الحاكمة لها حتى يتمكن من أن يعيش دورة التمدد قبـل الانكماش، وهو ما لا تسمح به عشوائية الكون الإلحادي.

7. إنّ الكون المتذبذب، حتى لو صّح تاريخيًا، فإنه لا يمكن أن يكون أزليًا لأنّه لا يستطيع أن يقـاوم عـدّة عوامـل ماديـة وقانونيـة مطلوبـــة، ولـــذلك قـــال كـــل من (زلـــدوفيتش) (Zeldovich) و(نوفيكـوف) (Novikov) في الحكم على هـذا النمـوذج: (النمـوذج متعدد الدورات له مستقبل لانهائي، أمّا ماضيه فهو متناهٍ)[3]

1() (James D. Sinclair):William Lane Craig and J. P. Moreland, eds. The Blackwell Companion to Natural Theology, p.151.

2() Joseph Silk, The Big Bang, (San Francisco: W. H. Freeman, 1989), pp.311–312..

3() I. D. Novikov and B. Zeldovich, "Physical Processes Near Cosmological Singularities," in Annual Review of Astronomy and Astrophysics 11 (1973): 401-402..

الأكوان المتعددة.

تعتبر نظرية الأكوان المتعددة من أكثر النظريات شهرة وشيوعا على الرغم من عدم التحقق منها علميا، وبأي وسيلة من الوسائل، بل على الرغم من أنه لا يمكن التثبت منها بحال من الأحوال، ذلك أن أصحاب النظرية أنفسهم يذكرون أن كل كون من الأكوان منفصل تماما عن الأكوان الأخرى، بل له قوانين تختلف اختلافا جذريا عن غيرها، والسبب في ذلك ـ كما يذكرون ـ يرجع لما يُعرف بأُفق الجسيم، وهو أقصى مسافة من تلك الجسيمات التي تحمل المعلومات، والتي ما إن تصل للراصد حتى يكون عمر الكون قد انتهى منذ مليارات السنوات الضوئية، وأي كون آخر حتما هو خارج أُفق الجسيم.

ولأجل ذلك يذكر علماء الفيزياء والفلك الكبار استحالة اعتبار هذه النظرية حقيقة علمية لا الآن، ولا في المستقبل للاستحالة العلمية والمنطقية لإثباتها، وقد قال عالم الكونيات [جورج إليس]، معبرا عن ذلك: (إن فرضية الأكوان المتعددة ليست من العلوم، ولا توجد داخل دائرة العلم، وإنما في إطار الفلسفة)

ولذلك فإن هذه النظرية التي لم تدل عليها المخابر، ولا حتى العقل المجرد، ليست سوى مقولات خيالية تحاول أن تتدارك المقولات الإلحادية القديمة التي كانت ترى أن الكون كاف نفسه بنفسه، ولذلك احتاج الملاحدة لوضع أنفسهم في هذا المأزق للبحث عن أكوان متعددة للخروج من مأزق الثوابت الكونية التي هم أنفسهم أطلقوا عليها الثوابت المعدة بعناية.

وقد أشار الفيزيائي الشهير البروفسور [جون بولكنجهورن] هذا المعنى، فقال ـ عند حديثه عن هذه النظرية ـ: (إنها ليست فيزياء.. إنها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقيه، ولا يوجد سبب علمي واحد للإيمان بمجوعة من الأكوان المتعددة.. إن ماعليه العالم الآن هو نتيجة لإرادة خالق يحدد كيف يجب أن يكون)[1]

---

(1) انظر: عالم الفيزياء الملحد ستيفن هوكينج وأفكاره الإلحادية الخيالية في نظر العلماء والمتخصصين، مرجع سابق.

بل إن [ريتشارد داوكنز] في حواره مع [ستيفن واينــبرج] بين سبب اعتماد هذه النظرية والاهتمام بها، وهــو كونهــا وســيلة لنفي الإله، وقد قال معبرا عن ذلك: (إذا اكتشفت هذا الكــون المــدهش المعد فعليا بعناية.. أعتقد أنه ليس أمامك إلا تفسيرين اثنين.. إمــا خالق عظيم، أو أكوان متعددة) [1]

وأشار هاوكنج إلى ذلك أيضا، فقال: (تماما مثلما فسر دارون ووالاس كيف أن التصاميم المعجــزة المظهــر في الكائنــات الحيــة من الممكن أن تظهــر بــدون تــدخل قــوة عظمى، فمبــدأ الأكــوان المتعــددة من الممكن أن يفســر دقــة القــوانين الفيزيائيــة بــدون الحاجة لوجود خــالق ســخر لنــا الكــون.. فبســبب قــانون الجاذبيــة فالكون يستطيع ويمكنه أن ينشيء نفســه من اللاشــيء.. فــالخلق الذاتي هو سبب أن هناك شيء بدلا من لا شيء، ويفسر لنا لمــاذا الكون موجود، وكذلك نحن)[2]

وحــتى يتلافى ســتيفن هــاوكنج الانتقــادات الــتي توجــه لهــذه النظرية في خصوص تفسير دقــة الكــون والثــوابت العجيبــة الــتي تحكمــه راح يفــترض في كتابــه [التصــميم العظيم] وجــود 10 أس 500 كــون.. أي 10 وأمامهــا 500 صــفر، وهــو ــ كمــا يــذكر بعض الباحثين ـ لا يختلف في ذلك عمن يحضــر ســيارة مفككــة من كــل أجزائها ابتداء من أصغر مسمار فيها.. ثم يقول: إن هناك احتماليــة رياضــية لتكــون هــذه الســيارة صــدفة وعشــوائية، وبــالطبع، فــإن الإجابة على استحالتها رياضيا يتخطي 1 إلى 10 أس 50 أو 70 أو حتى 100.. لأن السؤال أصلا خطأ.. وذلك لأن الأجــزاء لن تتحــرك من ذاتها وتتراكب ويدخل بعضــها في بعض إلا بفاعــل قــدير حكيم يعلم ما يفعل ويريده.

التضخم الأزلي:

وهو نموذج اقترحه عــالم الفيزيــاء الفلكيــة الروســي (أنــدري

1() المرجع سابق.

2() المرجع سابق.

لند) في السبعينات من القـرن الماضـي، غـير أنـه عـاد في بدايـة العقد التالي ليقترح نموذجًا آخر يُعرف بـ(التضخم الجديد)، ثم عـاد فانتبه بعد فترة قصـيرة إلى عيـوب نموذجـه الجديـد، لينشـئ بعـد ذلك ما يعرف بنموذج (التضخم العشوائي)، حيث تنشأ من جوانب الكون الأم أكوانٌ جديدة تتوسّـع، وتنشـأ من جوانبهـا أيضًـا أكـوان أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية.

ولم تقدّم هذه النظريات في عناصرها وتاريخهـا حجّـة ماديـة واحدة لإثبـات صـدقها، ولـذلك أعـرب الفيزيـائي [جـون بـرّو] عن امتعاضه منهـا بقولـه: (للأسـف، لا يبـدو أنّ كامل المخطط الكبـير للتضخم الأزلي قابل للاختبار)[1]، ومثله قـال [هـاوكنج]: (في رأيي الخاص، نموذج التضخم الجديد هو ميت الآن كنظرية علمية)[2]

ومن أهم الردود على أزليّـة نمـوذج (لنـد) كـان بنشـر (أرفن بــورد) و(ألكســندر فلنكن) ســنة 1994م دراســة تثبت أنّ كــلّ نظريـات التمـدد، بمـا في ذلـك نظريـة (لِنـد) لا يمكنهـا أن تتلافى المفردة التي نشأ منها الكـون.. وقـد انتهيـا في دراسـتهما إلى أنّ (الزمكان المادي المعقول، والمتوسع أبدًا، لا بـدّ أن يضـمّ مُفـردة أولى في تاريخه)[3]، وهو ما أقــــرّ به (لند) في رده على هــــذه الدراسة[4].

نماذج التذبذب الفراغي:

خلافا لما تذهب إليه معظم نظريات التضخم ـ والتي ترى أنّنا كلّما عـدنا إلى الخلـف وراء حـاجز بلانـك ــ أي الثانيـة 10-43 من الانفجار العظيم ـ انكمش الكون حتى يصبح مفردة ــ فـإن نمـاذج الفراغ المتذبذب ترى في المقابل أنّ العالم قبـل تضـخمه لم يكن

1() John Barrow, The Book of Nothing: Vacuums, voids, and the latest ideas about the origins of the universe (New York: Pantheon Books, 2000), p.256..

2() Stephen Hawking, A Brief History of Time, p. 132.

3() Arvind Borde and Alexander Vilenkin, "Eternal Inflation and the Initial Singularity," in Physical Review Letters 72 (1994): 3305..

4() A. Linde, D. Linde, and A.Mezhlumian, "From the Big Bang Theory to the Theory of a Stationary Universe'" in Physical Review D 49, 1994, 1783-1826.

ككلٍ يتوسّع، وإنما كان فراغًـا بـدائيًا في حـال ثبـات أزلي، وكـانت تفاعلات الطاقة مستمرة في هـذا المجـال الفـراغي، وهـو مـا نتج عنه تحوّل الطاقة إلى مادة، وبالتالي نشوء أكوان صغيرة، وبــذلك فإنّ لكوننا بداية لا تمثّل البداية المطلقة، وإنّما هي مجرّد تغيّر في الكون الأزلي.

وقـد قـدّمت هـذه النمـاذج حلًا مغريًـا للخـروج من إشـكالية الكون المخلوق مع الاعتراف بحقيقة ابتداء كوننا وتمدّده، لكنّها لم تتجاوز في تاريخ حياتها العقد الثـامن من القـرن العشـرين، وذلـك لأسباب كثيرة منها:

1. وجود إشكالات في آليات توليد المادة.

2. أنّ افتراض أزلية الكون يقضي أن تنشأ من الطاقة أكوان أزليّة لا نهائية العدد، لتندمج بعد ذلك فيمـا بينهـا، وهـذا مـا يخـالف حقيقـة كوننـا صـغير السـن نسـبيًا، فأزليـة الطاقـة الأولى الـتي يستحيل معرفة سبب تحوّلها إلى مادة، تقضي أن يكـون مـا ينشـأ منها أزليًـا، والحـلّ الوحيـد للإشـكال السـابق هـو افـتراض تضـخّم الفراغ الأوّل، وهو ما سيعيدنا إلى افـتراض بدايـة مطلقـة للكـون، وهو ما يفرّ منه الملاحدة.

3. أن هذا النموذج فشل في إقناع الراصدين، حتى قال عالم الكوسمولوجيا الكمومية الشهير [كريسـتوفر إشـام]: (إنّـه قـد تمّ التخلّص من هذه النظرية منذ فـترة بعيـدة ، ولم يتم إحياؤهـا منـذ ذلك الحين)[1]

نظرية الأوتار:

وهي مجموعة من الأطروحات الـتي تنطلـق من الـزعم بـأنّ المادة ليست بناءً من الجسيمات مثـل الكواركـات، وإنمـا هي في الحقيقة مجموعة أوتار من الطاقة صغيرة الحجم، ذات بعـد واحـد وطبيعة اهتزازية.

1() Christopher Isham, "Quantum Cosmology and the Origin of the Universe," lecture presented at the conference "Cosmos and Creation," Cambridge University, July 14, 1994.

وعلى الرغم من كثرة الإشكالات المثارة حولها إلا أنها وجدت دعاية إعلامية واسعة بسبب غرابتها وتطرّفها، وكونها وسيلة يستعملها الملاحدة لبث أغلوطاتهم وشبهاتهم.

وتقدّم هذه النظرية صيغتين اثنتين للوجود الكوني:

النظرية الأولى: وهي من وضع الفيزيائيين (غبريال فنزيانو) و(موريزيو غسبريني)، وهي تقرّر أنّ الانفجار العظيم عبارة مرحلة بين انكماش سابق وتمدد لاحق، حيث تكوّن قبل الانفجار العظيم ثقب أسود في الفراغ الأزلي المستقر، وقد أدّى انهياره إلى ظهور النسب اللاحقة من الحرارة والكثافة وغير ذلك، مما أدّى إلى التوسّع اللاحق.

ولا يوجد ما يدل على هذا الافتراض أي دليل مادي، بالإضافة إلى عدم اكتمال تأصيلها النظري، بالإضافة إلى أنه يلزم من نشوء الثقوب السوداء في الفراغ الكوني في أي رقعة منه أن تكون نشأة هذه الثقوب من الأزل، وهو ما يخالف واقع عمر كوننا الصغير سنًا نسبيًا. كما يلزم من ذلك أيضًا أن تندمج الثقوب السوداء في بعضها منذ الأزل لتكوّن ثقبًا أسود مساويًا في امتداده للكون، وهو ما يؤول إلى أن يكون زمن ما بعد الانفجار العظيم قديمًا من الأزل. كما يلزم من كون الكون مغلقًا أن يصل إلى حال التوازن الترموديناميكي، وهو ما لم يبلغه كوننا بعد.

النظرية الثانية: ، وهي الأشهر، وتسمى (نموذج التحوّل الناري)، وانتصر لها (بول ستينهارت)، وهي في أحدث نماذجها، تفترض وجود غشائين أزليين، ينتج من تكرر تصادمهما ثم تباعدهما كون جديد.

وهذه النظرية محض خيال، وهي تعاني من إشكالات داخلية عميقة، وقد انتقدت من نواح مختلفة منها[1]:

1. أنّ سلسلة التصادم اللامتناهية محالة عقلًا.

1() Gary Felder, Andret Frolov, Lev Kaufman, and Andrei Linde,"Cosmology with Negative Potentials," <http://arXiv:hep-th/0202017v2> (February 16, 2002.

2. أنّ الدقة العالية المطلوبة لتـوازي هـذين الغشـائين حـتى عند تباعدهما لا تفسّر بغير الصنعة الحكيمة.

3. أنها لا تملك أن تقدم كونًا أزليًا لأنّ كلّ نمـوذج تضـخمي لا بدّ أن يعود إلى نقطة ابتداء.

وقـد صـرّح (سـتينهارت) أنّـه لا يلـزم من نموذجـه أن تكـون التذبذبات لا نهائية في الماضي، بل واعـترف بنفسـه أنّ لنموذجـه التذبذبي بداية في قوله: (القصة الأرجح هي أنّ التذبذب قـد ابتـدأ ببداية مفرديّة)[1]

ولذلك ردّ ما قبل تلك البداية إلى الغيب، ليصبح هذا النمـوذج في ذاته قاصـرًا عن إثبـات أزلية الكـون، بل قـائلًا إنّ له بداية نشأ منها!

نموذج هارتل- هاوكنج:

وهو نموذج لا علاقة له ببدايـة الكـون، ذلـك أن الـزمن الـذي أثبته قبل الانفجار العظيم، (زمن تخيّلي)، وقـد افترضـه (هـاوكنج) لتصحّ معادلاته دون أن يرى له حقيقة، وكانت غايته تلافي المفردة التي نشأ منها كوننا، ولذلك اعترف بقوله: (عندما يعود المـرء إلى الزمن الحقيقي الذين نعيش فيه، ستظل هناك مفردات)[2]

وهذا السلوك يمارسـه الفيزيـائيون عـادة كسـلوك افتراضـي غير حقيقي، كما عبر عن ذلك الفيزيائي [جـون بـرّو] بقولـه: (من دأب الفيزيائيين الذين يعمدون كثيرًا إلى تحويل الـزمن إلى مكـان لمعالجة بعض إشكالات ميكانيكا الكم، دون أن يتصوّروا أنّ الزمن هو في الحقيقة مثـل المكـان. وفي نهايـة الحسـاب، يعـودون إلى التفسيرات الاعتيادية للوجود على أنه بعد زمني واحد وثلاثـة أبعـاد للمكان)[3]

1() P. Steinhardt, and N. Turok, The cyclic model simplified, p.5.

2() Stephen Hawking, A Brief History of Time, p. 139..

3() John D. Barrow, Theories of Everything (Oxford: Clarendon, 1991), pp.66-67.

ومن الأمثلة على هذا النوع من الاستعمال ما قام به عالم الكيمياء [ويليام هـ. ملر] سنة 1969م عندما استعمل الزمن التخيلي لفهم ديناميكية التفاعلات الكيميائية، ونال بذلك مجدًا علميًا، دون أن يتحوّل الزمن التخيّلي عنده إلى حقيقة موضوعيّة.

وهكذا؛ فإن ما قام به (هاوكنج) هو أنه تخلّص من المفردة التي تمثّل فيزيائيًا بداية المكان والزمان ليصبح تاريخ بداية الزمان كقاعدة ناعمة وليس كنقطة كما في النماذج الكلاسيكية، وبذلك لا توجد للبداية نقطة أولى! وهو تصوّر رياضي لا يمكن نقله إلى الواقع، أو بعبارة (فلنكن): مجرّد (ملاءمة حاسوبية)[1]

ولذلك قال الفيزيائي [دافيد بارك]: (من السهولة المخادعة تصوّر أحداث قبل الانفجار العظيم.. لكن لا سبيل البتّة في الفيزياء لأن يكون لهذه التصوّرات معنى)[2]

ونحب أن ننبه هنا إلى أنّ [هاوكنج] نفسه يقرر بداية للكون مثل سائر الكوسمولوجيين، فهو القائل: (اليوم، تقريبًا يؤمن الجميع أنّ الكون، والزمن نفسه، لهما بداية مع الانفجار العظيم)[3]

مع العلم أن [هاوكنج] صرح أنه يلزم من وجود بداية للكون وجود خالق له؛ فهو الذي أعلن أنّه (إذا كانت للكون بداية، فعلينا أن نفترض أنّ للكون خالقًا، ولكن إذا كان الكون مكتفيًا بنفسه بصورة تامة، دون أن يكون له حد أو حافة، فلن تكون له بداية ولا نهاية)[4]

2 ـ أدلة أخرى:

1() Alexander Vilenkin, Many Worlds in One: The Search for Other Universes (New York: Hill and Wang, 2006), 182.

2() David Park, "The Beginning and End of Time in Physical Cosmology," in The Study of Time IV, ed. J. T. Fraser, N. Lawrence, and D. Park (Berlin: Springer Verlag, 1981), pp.112-113.

3() Hawking and Penrose, Nature of Space and Time, p.20.

4() Stephen Hawking, A Brief History of Time, p.146.

بالإضافة للدليل السابق، والذي يمكن اعتباره حقيقة علمية دلت عليها كل الدلائل، وسقطت في مواجهتها كل النماذج والنظريات، هناك أدلة أخرى كثيرة تزيد في قطعية ذلك الدليل، وتجعل من حدوث العالم قضية قطعية لا مجال للجدل فيها، ومن تلك الأدلة:

القانون الثاني للديناميكا الحرارية:

وهو القانون الذي يحتلّ مكانة خاصة بين القوانين الكونية، حتى اعتبره عالم الكوسمولوجيا [إدنجتون] القانون الأوّل لكلّ العلوم، واعتبر أن (أي نظرية علمية تتعارض مع هذا القانون لا تملك أملًا في البقاء، وستنهار ضرورة)[1]

ومع كون هذا القانون في الأصل متعلّقا بالانتقال الحراري، إلا أنه مع ذلك يستعمل في محال كثيرة، منها أنّ الكون ينحو إلى الفوضى بعد الانتظام، وأنّ النُظُم تتحوّل من السلوك المنتظم إلى السلوك العشوائي.. ومن لوازم هذا القانون أنّ الكون يتّجه إلى فقد طاقته، ويتحوّل بصورة عفوية من الحرارة إلى البرودة، ومن النظام إلى الفوضى، فكلّ شيء يتحوّل من الأعلى إلى الأدنى.. أي أنه [قانون الفساد في الكون]، وهو الحقيقة الكبرى التي ألزمت (أينشتاين) أن يقول بكلّ ثقة: (إنه لا يمكن أن يتمّ إبطاله في يوم ما)[2]

ويمكننا الاستفادة من هذا القانون في الدلالة على وجود بداية للكون، وذلك من خلال التصورات الكبرى التي يؤمن بها الملاحدة حوله ، وهي كونه كيانا مغلقا رغم ضخامته الهائلة.. وكونه كيانا ماديا بحتا.. واعتبار روحه هي طاقته التي يستهلكها وتمنعه من أن يبلغ مرحلة التموّت الحراري..

وبناء على هذا، وبناء على أن الكون يستهلك طاقته على مدى الزمن بما يجعلها تتناقص يومًا بعد يوم، كما يتقلص البنزين

1() Arthur Eddington, The Nature of the Physical World (New York: Macmillan, 1928), p.74.

2() Albert Einstein (author), Paul A Schilpp (editor), Autobiographical Notes)A Centennial Edition, Open Court Publishing Company, 1979(, p. 31.

من خزّان السيارة كلّما أخذت السيارة منه رصيدًا لحركتها؛ فإن هذا يدل على أنّ لهذا الكون بداية محدّدة بدأ منها استهلاك الطاقة، ولا يستقيم لذلك أن يكون الكون أزليًا؛ لأنه لا ينقص إلا المبدوء، فإنّ الكون الذي تتناقص طاقته من الأزل، تنفد طاقته في الأزل.

وقد عبر الفيزيائي اللاأدري [بول ديفيس] عن هذا المعنى، فقال: (اليوم، نحن نعلم أنه لا يمكن لنجم أن يستمر في الاحتراق إلى الأبد؛ إذ لا بدّ أن ينفد وقوده. وهذا يفيد في توضيح مبدأ عام جدًا: [مفهوم] الكون الأزلي يتعارض مع استمرار وجود العمليات الفيزيائية التي لا رجعة فيها. إذا كان بإمكان النظم الفيزيائية أن تخضع لتغييرات لا رجعة فيها بمعدل محدود، فهي إذن ستنتهي من تلك التغييرات في زمن لانهائي مضى)[1]

ويقول: (ثمّة خيوط لأدلّة عديدة تدعم هذه النظرية المذهلة، وسواء قبلنا كافّة التفاصيل أم لم نقبل، فالفرضيات الأساسية ـ بوجود نوع من خلق ما ـ تبدو قاهرة من وجهة نظر العلم، ويعود الفضل ـ مباشرة ـ إلى مجموعة كبيرة من البراهين، تعود إلى أحد أكثر قوانين الفيزياء شهرة، ذلك المعروف بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، ويوضح هذا القانون ـ بالمعنى العام ـ أنّ الكون يصبح ـ يومًا بعد يوم ـ أكثر اضطرابًا، فثمّة نوع من الانحدار التدريجي والعنيد ينزع إلى الفوضى، والأمثلة على صحة القانون الثاني واضحة للعيان، ففي كلّ مكان: بنايات تنهار، بشر يتقدّمون في العمر، جبال وسواحل تتآكل، وموارد الطبيعة تنضب.. وقد أثبتت تجارب دقيقة عديدة أنّ الكميّة الكليّة للاضطراب في نظام ما لا تنخفض أبدًا، وإذا كان النظام معزولًا عن محيطه، فأيّ تغييرات تحدث داخله سوف ترفع الأنتروبي، أي الاضطراب، بحدّة بالغة حتى لا يمكنه بعدها الوصول إلى أعلى، وحينها لن يحدث المزيد من التغيير؛ إذ يكون النظام قد وصل إلى حال توازن

1() Paul Davies, The Mind of God: The Scientific Basis for a Rational World (New York: Simon & Schuster, 1992), p.46.

الديناميكا الحرارية)[1]

ومع وضوح دلالة هذا القانون على وجـود بدايـة للكـون إلا أن بعض الملاحـدة طمـع في أن تكـون الكوسـمولوجيا الكمومـية هي المخرج من هذا المأزق الذي أوقعهم فيه القانون الثاني للديناميكا الحراريـة، لكنّ دراسـة نشـرت قريبًـا للكوسـمولوجي [آرون وال] أثبتت أنّ السـلطان التـام لهـذا القـانون على كوسـمولوجيا الكم يلزمنا بالإقرار بخلق الكون، ولا حلّ لمواجهة ذلك إلا بتبنّي إمكانية أن تسير حركة الزمان بصورة عكسيّة، أي أن يتحرّك الزمـان إلى الماضي لا من الماضي[2].

النظرية النسبية لأينشتاين:

وهي نظرية يمكن الاستدلال بها على وجود بداية الكون، وقد علِم [أينشتاين] أثناء عمله على نظريته أنّ الحسـابات تقـوده إلى كون غير مستقر في حجمه، فاضطرّ للهروب من هـذه النتيجـة أن يفترض سنة 1917م وجود ما سمّاه بـ [الثـابت الكـوني] كإضـافة إلى نظريته في النسبية العامـة، حـتى يتحقـق الاسـتقرار الكـوني بالتغلّب على سلطان الجاذبية بوجود قوة تنافرٍ تفعل فعلًا معاكسًا لفعل الجاذبية، لكنّه اضطرّ إلى التنازل عن رأيـه والإقـرار بتوسّـع الكـون بعـد اكتشـاف [هابـل] في آخـر العقـد الثـاني من القـرن العشرين لدليل مدرك لتنائي المجرّات عنّا.

بالإضافة إلى هذا، فقد نشر بعض الباحثين ورقة علميـة سـنة 2003 في مجلـة [Physical Review Letters]ـ تحت عنـوان [الزمكانـات المتضـخمة غـير تامة من جهـات الماضي]، وأثبتـوا فيها أنّ الكـون اللامتناهي في الزمان لا يتوافق مع نظرية أينشتاين النسـبية الـتي ثبت صدقها علميًا منذ زمن.

تمدد الكون:

1() بول دافيز، اللـه والفيزيـاء الحديثـة (تعـريب: هالـة العـوري، دمشق: دار صفحات، 2013م)، ص22-23.

2() Aron C. Wall, "The Generalized Second Law implies a Quantum Singularity Theorem," < http://arxiv.org/abs/1010.5513v3 >..

ودلالته واضحة على وجود بداية للكـون؛ فقـد اكتشـف [إدون هابـل] في بدايـة القـرن العشـرين أنّ الكـون يتمـدّد، وأن سـرعة ابتعاد الأجرام عن بعضها تطابق سرعة ابتعادها عن الأرض.. وكان هذا الكشف من أقـوى الـدلائل لتأكيـد (نظريـة الانفجـار العظيم)، غير أنّ هذا التمدّد وحده حجّة لوجود بداية للكون.

وقـد أبـدى [هـاوكنج] اسـتغرابه من عـدم الكشـف عن تمـدد الكون قبل القرن العشرين؛ إذ إنّه من المسـتحيل أن يوجـد كـون ثابت من الأزل تعمل فيه الجاذبية عملها الجذبي[1].

وعلّق على ذلك قائلًا: (كان الكشف عن توسّع الكـون إحـدى أكبر الثورات الفكريّة في القرن العشرين. من السهل أن نتساءل ـبصورة متأخرة: لِمَ لَمْ يفكّر أحد في ذلك من قبل. لقد كـان على (نيوتن) والآخرين أن يكتشفوا أنّ الكون الثـابت لا بـدّ أن يبـدأ عن قريب في الانكماش تحت تأثير الجاذبية)[2]

ومن الحجج الأقـوى اليـوم لدلالـة التوسّـع على نفي أزليّـة الكون [مبرهنة بورد وغوث وفلنكن]، والتي لقيت قبـولًا كبـيرًا في أوسـاط الكوسـمولوجيين في العـالم، وهي تقـرّر أنّ كـلّ كـون أو أكوان تتمدّد بدرجة أعلى من الصفر، فلا ريب أنها تعـود إلى بدايـة ولا يمكن أن تكون أزليّة [3]

وقـد لخّص أصـحاب المبرهنـة دراسـتهم بقـولهم: (النمـوذج الكوسمولوجي المتضخم ـ أو حتى المتوسع بسرعة كافية ــ لا بـدّ أن يكون غير تام في الاتجاهات الماضية للعدم والزمان)

مفارقة السماء المظلمة:

وتسمى كذلك [مفارقـة أولـبرز] على اسـم الفلكي الألمـاني [هاينريش أولبرز] (1840م)، وهي تنص على أنه لـو كـان الزمـان

1() Stephen Hawking, A Brief History of Time, p.6.

2() المرجع السابق، ص41.

3() A. Borde, Guth and A. Vilenkin, Inflationary space-times are not past-complete, Phys. Rev. Lett. 90 151301 (2003), pp.1-4.

بلا بداية لكانت السماء كلّها مضيئة ليلًا لأنّها ستكون مغمورة كلّهـا بأضواء النجـوم الـتي وصـلنا ضـوؤها منـذ الأزل، أمّـا والحـال كمـا نعرف من سمائنا اليوم من أنّ ليلها أسود إلا من قليل من النجوم المضيئة، فذاك يعني أنه لا يصلنا من ضوء النجوم إلا مـا انتهى من رحلته إلينا منذ بداية تخلّق النجوم أو بعد ذلك.

يقول [بول ديفيس] معبرا عن ذلك: (لو كان الكون غير متناهٍ في تمـدده المكـاني والزمـاني لكـان الضـوء الآتي من النجـوم اللامتناهيـة منهمـرًا على الأرض من السـماوات. ويظهـر الحسـاب البسـيط أنّ السـماء لا يمكن أن تكـون مظلمـة في مثـل هـذه الظروف. يمكن حلّ المفارقة بافتراض سنّ محدود للكون؛ إذ إننـا في هذه الحال سنكون قادرين فقط على رؤية النجـوم الـتي أخـذ ضوؤها زمنًا للسفر عبر الفضاء إلى الأرض منذ البداية)[1]

ثانيا ـ الكون بين الصدفة والغائية:

بناء على مـا ذكرنـا سـابقا من كـون [الصـدفة] المبنيـة على العشوائية وعدم القصد هي المغالطـة الكـبرى الـتي اعتمـد عليهـا الملاحدة على مدار التاريخ، فإن على الداعيـة المواجـه للإلحـاد ألا يكتفي بما ذكرنا من ردود عقلية وعلمية، بل يذكر هؤلاء الملاحــدة بما يكتشفه العلم كل حين من أدلـة التصـميم والقصـد واسـتحالة الصدفة.

وسنكتفي هنا بالحديث عن ناحيتين مهمتين تـدعمان الغائيـة، وتقضـيان على المغالطـات المرتبطـة بالصـدفة، وقـد وضـحناهما بتفصيل أكثر في كتاب [الكون بين التوحيد والإلحاد]، وهما:

1 ـ الثوابت الكونية:

على عكس مـا يظن دعـاة الإلحـاد الجديـد في مغالطـاتهم الكثرة؛ فإنه كلما تطورت قـدراتنا على فهم الكـون وقوانينـه نجـد أقوى الدلائل على التعقيد الهائـل والتصـميم الـدقيق الـذي لـو لم

1() Paul Davies, The Mind of God, p.46..

ينضبط ضمن أقل تفصيل من تفاصيله لكانت الحياة مستحيلة فيه(2).

ومن أقوى الأدلة على الضبط الدقيق لهذا الكون تلك القوانين التي تحكم الكون، والتي تم ضبطها وتنميقها بدقة عالية، وبشكل هادف وموجه للسماح بتكون الظروف المناسبة لنشوء حياة في هذا الكون، والتي يعبر عنها بالثوابت الكونية.

فبعد الأرض عن الشمس بمسافة دقيقة جدا ثابت كوني للمحافظة على الماء بشكله السائل الضروري للحياة على الأرض..

وهذا المثال بسيط وضئيل جدا مقابل الثوابت الكونية الرئيسية الأكبر والأكثر تعقيدا بكثير، والتي نجد منها الثابت الكوني للجاذبية.. والظروف الأولية لنشأة الكون والحقائق الثابتة كسرعة الضوء.. والظروف المحلية الضرورية لوجود حياة على كوكب ما، كالمسافة الضرورية التي يجب أن تفصل كوكبا ما عن النجم الذي يدور حوله بحيث تكون الحرارة مناسبة لنشوء حياة فيه.. وغيرها كثير.

وهي جميعا في منتهى الدقة.. والتعبير الرقمي عنها معقد جدا، ويعتمد على نوعية الحسابات والوحدات الرياضية المستخدمة..

وهي جميعا محل إجماع من كل علماء الفيزياء والرياضيات، فهم يتفقون عليها، ويتفقون على أنها محكمة، أي أنه لو حصل تغيير ولو بسيط عليها، فإنه سيدمر أي احتمال لتكون الكون ووجود أي نوع من الحياة فيه.

حتى [ستيفن هاوكنج] داعية الإلحاد الجديد لم يستطع أن ينكرها، بل إنه قال عنها: (إن الحقيقة المدهشة هي أن القيم التي

---

(2) انظر لتبسيط الموضوع أكثر مقالا مهما مدعما بالصور والتوضيحات بعنوان: الضبط الكوني الدقيق والثوابت الفيزيائية، فادي السويطي، وقد استفدنا المادة العلمية منه.

تحملها هذه الثوابت الفيزيائية يبدو أنها ضُبطت على مستوى عـال من الدقة حتى تسمح بتطور الحياة في الكون)

ولننتقل من الإجمال إلى التفصيل حتى نسـتوعب مـدى دقـة هذه الثوابت؛ فإن العلماء يذكرون أن هناك أربع قوى كبرى تتحكم في كل الظواهر الكونية ـ بحسب العالم الذي نعيشه ــ وأول هـذه القوى قوة الجاذبية.. وتليها القوى الكهرومغناطيسية مثل الكهرباء والضـوء.. وتليهـا القـوى النوويـة الكـبرى، والـتي تتحكم بسـلوك العناصر الذرية الصغيرة.. وتليها القوى النووية الصغرى أوالخفوت الإشعاعي للذرات.. وهذه القـوى جميعـا تم تشـكلها في أقـل من جزء من المليون من الثانية بعد الانفجار الكوني الكبير..

ولو أنها تأخرت في التشكل، ولو بأقل مقـدار لكـانت المـواد المتفجـرة سـتتبعثر نهائيـا بـدون أن ينجـذب بعضـها لبعض لتكـون المجرات والنجوم والكواكب.. فـالقوى النوويـة القويـة والضـعيفة الكامنة في الجزيئات الذرية كالبروتونـات ــ مثلا ــ تحكمهـا علاقـة دقيقة من التوازن، لو اختلت لما استطاع أي نجم أن يتكون نهائيا.

فلو تغير ثابت الجاذبية الكـوني بمقـدار وحـدة عدديـة واحـدة من ستين جزءا.. لما كانت الحياة ممكنة في الكون.

وهذا مجرد مثال عن ثابت من الثوابت الكونية.. ولهـذا كـانت مصـدر إحـراج للعديـد من العلمـاء الملحـدين.. فــ [كريسـتوفر هيتشنز] أحد أذكى المفكرين الملحـدين في زمنـه قـال بصـراحة: (إن فرضية التظيم الـدقيق للكـون هي أقـوى حجة كـان يواجهـني فيها الطرف الآخر المؤمن بوجود إله)

بناء على هذا، سنذكر هنا باختصار تسعة ثـوابت كونيـة يتجلى من خلالها مدى الدقة التي ينبني عليها الكون.. ومن خلالها نتعرف على استحالة تصور الصدفة أو العبثية في بناء الكون.

1 ـ ثابت الجاذبية الكونية: وهو مهم جدا لتكون المجرات والنجـوم والكـواكب.. وقيمتـه من الثبـات والدقـة بحيث لـو زادت بنسبة بسيطة، فإن النجوم ستحرق مخزونهـا من الطاقـة بسـرعة تجعل الكون قصير العمر، عنيف التفاعل، غير مناسب للحياة.

2 ـ الثابت الكهرومغناطيسي: وهي القوى القطبية التي تتحكم بالقوى الجاذبة والطاردة للجزيئات الذرية، وهي المسـؤولة عن تكون العناصر كلها.. فلو كانت القوى التي تسيطر على علاقة البروتونـات مـع النيوترونـات ونـواة الـذرة.. بالإضـافة للجسـيمات الذرية المكتشفة حديثا.. أقل مما هي عليه، لمـا تكـونت المعـادن والعناصر مثل الهيدروجين والكربون والهيليوم، وغيرها.

3 ــ ثـابت القـوة النوويـة الكـبرى: وهي الـتي تجعـل الجزيئـات تتماسـك فيمـا بينهـا، وهي قـوى عظيمـة لهـا قيمهـا الدقيقـة.. وحين تتفكـك تعطينـا الطاقـة الذريـة.. فالقنبلـة الذريـة ليسـت سـوى انفلات الطاقـة النوويـة الكـبرى الـتي تربـط بين الأجسـام الموجـودة داخـل نـواة ذرة اليورانيـوم.. وهـذه الطاقـة العظيمة ضرورية لتماسك الأجسـام الموجـودة داخـل نـواة الـذرة فيما بينها، لولاها لتفككت كل العناصر الكونية، وما تكون اي جسم فضائي.. وأي تغيير بسيط للمقدار الـدقيق لهـذه الطاقـة سـيجعل تكون العناصر الفلزية مستحيلا.

4 ـ ثابت القوى النووية الصغرى: أو التآكـل الإشـعاعي الموجود في كل العناصر.. فكل ذرة تفقد طاقة إشـعاعية.. وهـذه القـوة هي المسـؤولة عن الإشـعاع الـذري لكـل شـيء في هـذا الكون.. فكل ذرة تموت بشـكل بطيء جـدا حين تطلـق إشـعاعها الذي ينشأ عن تحويل النيوترون إلى بروتون.. وهـذا الثـابت الـذي ينظم الإشـعاع الضـعيف للعناصـر لـو كـان أقـوى ممـا هـو عليـه لاستحال تكون النجوم في الكون.

5 ـ الثابت الكوني: وهو القيمـة الفيزيائيـة لمـدى التـوازن المطلوب لضمان توسع الكون بمقدار لا يجعل الأجـرام السـماوية كالمجرات والنجوم والكواكب وأقمارها تتنـاثر في أرجـاء الكـون.. وبمقـدار لا يجعلهـا متكتلـة بشـكل يحرمهـا من التكـون والتشـكل بحرية للسماح بوجود نجوم وكواكب.. فالثـابت الكـوني بـذلك هـو ميزان قوى الجذب والتنافر الكونية..

وتكمن أهميته في كونه محصلة فيزيائية لتفاعل كل الثـوابت الفيزيائية الأخرى ليصبح الكون ممكنا.. فكل منهـا يتفاعـل بقيمتـه

الدقيقة والثابتة.. أي أن كل ثابت كـوني يعتمـد على الآخـر بعلاقـة نسبية..

وكمثال على ذلك، فـإن القـوى النوويـة الكـبرى الكامنـة في نواة الذرات أقوى من طاقـة الجاذبيـة بعشـر آلاف، مليـار، مليـار، مليار، مليار، مليار مرة.. هذا التـوازن الـدقيق بين القـوى النوويـة الكبرى مع قوى الجاذبية هو الـذي يسـمح بتكـون مجـرات ونجـوم وكواكب في الكون.. فلو أخذنا صفرا واحد من نسبة التوازن هـذه لاختلت موازين الكون لدرجة يصبح بها الكون فضاء خاويـا أو كتلـة مادية خالية من الحياة..

وقيمة هذا الثابت الكوني هي 1:ـ 10 أس 122.. وهـو يعـني أنه لو اختلفت قيمته بأقل من جزء من صفر يليـه 123 صـفرا، ثم 1 من الواحد لانهار الكون بأكمله بعد تشـكله بلحظـات، أو لتوسـع بسرعة هائلة تمنع تشكل الجزيئات الأساسية.

وطبقا للمعلومـات الـتي حصـل بمقتضـاها العلمـاء البـاحثون على جائزة نوبل للفيزياء عام 2011 تبين وجود سرعة في توسـع الكون لا تتيحها المعادلات الفيزيائية، ولا كتلـة المـادة المتاحـة في الكون، ولـذا فقـد اتضـح أن قيمـة الثـابت الكـوني تحـدد بالضـبط التوسـع المطلـوب، وقـد كتب [ليونـارد سوسـكايند] الفيزيـائي الشـهير يقـول: (الثـابت الكـوني 10أس 122 يسـتحيل أن ينشـأ بداهة عن صدفة).. ومثله قال [ستيفن هاوكنج] في كتابـه [مـوجز تاريخ الزمن]: (الحقيقة الواضحة بخصوص الثـوابت الكونيـة تؤكـد على أنها صُممت بعناية تتيح الحياة وبمنتهى الضبط المدهش)

ولمن لا يعرف معنى كلمة 123 صفر، فإن هذه الكلمة تعـني أننا بحاجة إلى قرص صلب بحجم 15 مليار سنة ضـوئية، أي أكـبر من حجم الكون كله، لنخرج منه بهذا الإحتمال، وطبعا هذا هو قمة الجنون الرياضي، لأن المستحيل الرياضي لا يتجاوز 50 صفر فضلا عن 123 صفرا.

فافتراض هذا الثابت الكوني بهذا الرقم المدهش الـذي ظـل العلماء يفترضون أنه صفر زمنا طويلا إلى أن بينت الدراسـات في

1998 أنه ليس صفرا، ويستحيل أن يكون صفر، وإنما هو قريب جدا جدا جدا من الصفر، لكن لابد أن يكون أكبر من الصفر بمقدار ضئيل للغاية بحيث يصبح رقما عشريا وأمامه 122 صفرا ثم واحد.

وقد فشل الفيزيائيون في معرفة سبب كون هذا الرقم بهذا القرب المدهش من الصفر، ومع ذلك لم يصبح صفرا، ولذا اعتبر الكثير من الفيزيائيين هذه المشكلة أعمق مشكلة غير محلولة في الفيزياء، ويطلقون عليها [معضلة الثابت الكوني]

وهكذا نجد كل الأرقام في هذا المجال تمتلئ بمثل هذه المعجزات؛ فكل الأرقام في الثوابت الكونية لا يمكن التعبير عنها لدقتها الشديدة.. فالنسبة بين الإلكترون والبروتون هي 1:ـ 10 أس37.. والنسبة بين القوة الكهرومغناطيسية والجاذبية هي 1: 10 أس 40.. ونسبة تمدد الكون هي 1ـ: 10 أس55.. وكتلة كثافة الكون هي 1: 10 أس59..

إن هذه الأرقام جميعا، وغيرها كثير، تحدد القيم الفيزيائية للثوابت الكونية التي لو حدث أي تغير بسيط للغاية فيها لما نشأ الكون..

لقد قال [ليونارد سوسكايند] أستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد والمؤسس لنظرية الأوتار الفائقة: (إن المشكلة الحقيقية في إعداد الكون بعناية أن هذه المعطيات التي تقف على حافة السكين كلها مستقلة عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تتلاقى لتسمح فقط بإحداث الحياة، وتغير أى مُعطى من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي فضلا عن إمكانية إيجاد حياة أو حتى منظومة كونية)

6 ــ الثوابت الفيزيائية والظروف الأولية لتكون الكون: وهي الحالات الفيزيائية السابقة والموازية واللاحقة للانفجار العظيم، وهي الظروف التي يجب أن تتضافر لتسمح بتكون الكون.. وقد نصفها بالميزان الدقيق لتوزع الطاقة والمادة في لحظات زمنية.

ذلك أن الكون يتوسع الآن في خط زمني مستقيم، وتنخفض حرارته تدريجيا مع توسعه.. فإذا انكمش فإن الحرارة سوف تزيد مع اقتراب الأجسام الفضائية ببعضها حتى تصل لحرارة ضخمة غير قابلة للقياس..

ويمكن التعبير عن الظروف الأولية السابقة للانفجار العظيم بمعادلات رياضية، ولكن قد لا نستطيع تحديدها أبدا.. فنحن نتكلم عن حالة الوجود قبل أكثر من ١٨ مليار سنة.

لقد عبر العالم الفيزيائي البريطاني [روجر بينروز] عن هذا الثابت عند حديثه عن قانون الثيرموديناميكية الثاني، فقال: (التوسع الزماني المكاني للكون يتبعه زيادة في الفوضى، وهذا يعني أنه كلما عدنا عبر الزمن فإن النظام الكوني يزداد دقة وضبطا حتى نصل لقمة الضبط الكوني، وهي لحظة ما قبل الإنفجار الكوني)

وقد حاول هذا الفيزيائي الكبير أن يصل إلى حسابات تقديرية لمحاولة فهم الدقة اللامتناهية لظروف تكون الكون.. وقد استنتج من خلالها استحالة الصدفة في تكون الكون.

فقد استنتج أن احتمالية الصدفة لتوفر كل الظروف لتكون طاقة ومادة من حالة السكون الأدنى هي 1 على 10 يتبعه 123 صفر.. أي أنه لو كان لدينا ١٠ كرات في كيس، ٩ كرات بيضاء وواحدة حمراء.. فاحتمالية حصولنا على الكرة الحمراء هي واحد على عشرة أو 1/10.

أما احتمالية حصولنا على كون يدعم الحياة بالصدفة، فإننا نحتاج إلى رقم خيالي لنفهمه نحتاج إلى تجميع كل الذرات المكونة لحبة رمل على أرضنا، ثم نجمع كل الذرات المكونة لكوكبنا، مع الشمس، مع كواكب المجموعة الشمسية، وكل الذرات المكونة لمجرتنا، ثم نضيف إلى ذلك كله الذرات المكونة لكل المجرات في كل الكون المنظور وغير المنظور.. ومع ذلك كله سيظل الرقم أكبر.

وهذا الرقم الكبير هو الذي دعا إلى طرح فكرة الأكوان

المتعـددة.. أي أنه اذا افترضـنا ذلك العـدد من الأكـوان، فلا بـد أن يحتوي أحدها على كل الثوابت الكونيـة الضـرورية لتكـون أجسـام فضائية تمهد لنشوء حيـاة فيـه.. وهـذه الفرضـية وقبلهـا الفرضـية الأنتروبية مستحيلتان لا يقبـل بهمـا أي عقـل، ولا أي منطـق.. بـل هما ليسا سوى نوع من الهروب من إمكانية وجود الخالق..

7 ـ نسبة كتل البروتونات والالكترونات: فإذا اختلفت هذه النسب الذرية فإن اللبنات الأساسية لتكـون الحيـاة (DNA) مـا كانت لتتكون[1].

8 ـ سرعة الضوء: فإذا كانت سرعة الضـوء أكـبر ممـا هي عليه، فإن المجرات والنجوم والأجسـام المشـعة ستصـبح مضـيئة لدرجـة أن الكـون كلـه سيصـبح كتلـة ضـوئية ضـخمة.. وإذا كـانت سرعة الضوء أقل مما هي عليه فإن الكون سـيكون خافتـا أقـرب إلى الظلمة منه إلى الضياء.

9 ـ نسبة زيادة كتلة الـنيوترون على حسـاب الـبروتون: فلـو كانت الزيادة أكبر لما تكونت العناصر الثقيلة في الكـون، كالحديـد والرصاص وغيرها من المعادن الضرورية للحياة، فأجسادنا تتكـون من نسـب متفاوتـة من هـذه المعـادن، ولـو كـانت الزيـادة أصـغر لانكمشت النجوم، وتكونت ثقوب سوداء تدمر الكون بأكمله.. هـذا إن نشأ الكون أساسا.

هذه بعض الثوابت الكونية، التي تجعل من الصدفة مسـتحيلة عقلا ومنطقا وعلمـا ومن كـل الوجـوه.. وبالإضـافة إلى مـا ذكرنـا هنـاك الظـروف المسـاعدة لأي كـوكب حـتى تقـوم عليـه الحيـاة بشروطها الـتي نعيشـها.. مثـل صـفائح تكتونيـة ثابتـة مـع عوامـل جيولوجية مناسبة.. وتوفر كميات مناسـبة من المـاء في قشـرته.. ومنهـا قمـر بحجم مناسـب ودورة مناسـبة تسـاعد على إضـافة استقرار وثبات للكوكب لكي يحافظ على دورته الشمسية.. ومنها حجم وكتلـة مناسـبين للكـوكب للحصـول على قـدر من الجاذبيـة

1() انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في كتـاب [الحيـاة بين التوحيـد والإلحاد] من هذه السلسلة.

يضمن الحفاظ على الماء والغلاف الغازي من التشتت في الفضاء.. ومنها وجود كوكب آخر ضخم في مكان مناسب حول الكوكب يقوم بجذب كل الكويكبات والنيازك والأجرام السماوية الضخمة بعيدا عن الكوكب الاصلي.. مثلما في حالة الأرض نرى المشتري يقوم بهذه المهمة، حيث أن جاذبيته الضخمة تجذب كل الأجسام الضخمة الخطيرة مما يشكل درع حماية لكوكبنا.. ومنها وجود الكوكب في طرف المجرة بعيدا عن التكدس الداخلي.. ومنها توفر قطبية جزيئية للماء مع خصائص تجعل هذا العنصر الأساسي للحياة في حالته السائلة ونطاق حراري دقيق. فمثلا، لو كان الماء يتبخر ضمن حرارة ٢٥ مئوية، لاستحالت الحياة على الأرض.. وغيرها كثير.

ولا يمكن عقلا في ظل كل هذه الثوابت والشروط الدقيقة جدا أن يكون هناك أي محل للصدفة.

2 ـ التوازن الكوني:

وهو من أكبر الأدلة التي يمكن من خلالها أن نواجه من يقول بالصدفة والعشوائية، فالتوازن في الكون في منتهى الدقة والحساسية، وكمثال على ذلك [القوة النووية الصغرى][1]، فهذه القوة تعتبر من القوى المؤثرة في الكون، وتمتلك قيمة عددية ثابتة ودقيقة جدا، وهي موجودة في بعض جسيمات الذرة، وتسبب النشاط الإشعاعي للمادة.

فلو كانت قيمة هذه القوة أكبر قليلا مما هي عليه لتحلّلت النيوترونات في الكون وندر وجودها فيه، أي لأصبح الهليوم نادرا في الكون منذ الانفجار العظيم، لأن هذا العنصر يحمل نيوترونين في نواة ذرته، ويمكن القول أنه كان سينعدم وجوده بالمرة.

والمعروف عن الهليوم أنه أخف العناصر في الوجود بعد الهيدروجين، وإذا انعدم الهليوم في الكون ينعدم تكون العناصر الثقيلة في جوف النجوم في أثناء التفاعلات داخل مراكز النجوم نتيجة التفاعلات النووية التي تطرأ على نوى ذرات الهيليوم، وهذا

(1) انظر: سلسلة المعجزات، هارون يحي.

يعني أن الهليوم يعتبر مادة خام لإنتاج العناصر الأخرى، أي أن انعدام الهليوم يؤدي إلى انعدام العناصر اللاّزمة لنشأة الحياة واستمراريتها.

وعلى عكس ذلك لو كانت قيمة القوة النووية الصغرى أصغر قليلا مما هي عليه لتحوّلت ذرّات الهيدروجين المصاحبة للانفجار العظيم إلى ذرات الهليوم، ولزادت كميات العناصر الثقيلة في مراكز النجوم زيادة غير عاديّة، وهذه الزيادة تؤدي حتما إلى استحالة نشوء الحياة.

وبذلك، فإن هذه القوة الضعيفة التي تحملها جسيمات الذرة لها قيمة ذات حساسية فائقة، وخلقت بهذه الكيفية لتلعب دورها في نشوء الكون.

بالإضافة إلى هذا، فإن هناك عاملا آخر يؤثر على مدى حساسية قيمة هذه القوة، ويتمثل في تأثير هذه القوة على جُسيم ذرّي يدعى بـ [النيوترينو]، فالنيوترينوات هي الجسيمات التي تلعب دورا كبيرا في دفق العناصر الثقيلة واللاّزمة للحياة والمتكونة في مراكز النجوم العملاقة إلى الفضاء السحيق.

وتعتبر القوة النووية الصغرى هي القوة الوحيدة التي تؤثر على جسيمات النيوترينو في الكون، ولو كانت هذه القوة أصغر قليلا مما هي عليه لأصبحت جسيمات النيوترينوات أكثر حرية في الحركة دون أن تتأثر بقوة جذب أي شيء، وهذا يعني أن هذه الجسيمات تستطيع أن تهرب من قوة جذب النّجوم العملاقة دون أن تتأثر بالطبقات الخارجية لهذه النجوم، وبالتالي سيكون دفق العناصر الثقيلة إلى الفضاء مستحيلا.. ولو كانت هذه القوة أكبر مما هي عليه لبقيت في مراكز النجوم قابعة فيه دون حراك، وهذا يؤدي إلى صعوبة إطلاق العناصر الثقيلة المتكونة إلى الفضاء.

لقد ذكر [بول ديفيس] أن قوانين الفيزياء الأساسية والمؤثرة في الكون تحمل قيما معينة ومحددة لتناسب وتلائم حياة الإنسان، وإذا حدث أي تغيير طفيف في هذه القيم يتغير وجه الكون الحالي تغيرا ملحوظا، فقال: (ولما وجدنا نحن كبشر لنشاهد هذا الكون..

وكلّما استمر الإنسان في أبحاثه الفضائية اكتشف أموراً مثيرة لا يمكن تصديقها بالعقل الإنساني، وآخر ما توصل إليه الإنسان بشأن الانفجار العظيم يثبت أن الكون يتمدد بشكل دقيق وموزون لدرجة مثيرة للحيرة والإعجاب)

ويقول [آرنوبنزياس] أحد من اكتشف الأشعة الكونية الدالة على حصول الانــفجار العظيم، والحاصل على جائزة نوبل سنة 1965 موضّحا هذا التخطيط والتصميم الخارقين للكون: (إنّ علم الفلك يقودنا إلى أمور غير عادية، إلى كون خلق من العدم، الكون الذي يحتوي على موازين دقيقة للغاية تكفي سببا لنشأة الحياة، أي أنّ الكون وجد بهذه الكيفية لتحقيق هذه الغاية)

ويقول البروفيسور [روبرت جاسترو] أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة كولومبيا: (إنّ الكون بالنسبة إلى الفيزيائيين والفلكيين هو المكان المناسب لعيش الإنسان والمحدد بمجموعة من القيم الرّياضية تحديدا ضيقا للغاية، وهذا التعريف يدعى بــ [المبدأ الإنساني]، وتعتبر هذه النتيجة برأيي من أكثر النتائج التي توصل إليها العلم الحديث غموضا)

وكل هذه النتائج التي أقر بها كبار علماء العلماء في التخصصات المختلفة بشأن القوى الكونية المؤثرة من ناحية ثبات قيمها وتناسبها وتوازنها مع بعضها البعض بهذه الدّقة المتناهية تدل على أنه لا تفسير لهذه الحقيقة باستخدام كلمة المصادفة، وإنما التفسير الوحيد لها هو [المعجزة]

ونستطيع أن نتثبت كونها كذلك بإجراء القياسات التي تؤدي إلى نتائج ثابتة دائما، ولا تتغير حتى بنسبة 1 إلى 100 أو 2 إلى 100.. إضافة إلى أن هذه الموازين الدقيقة هي نفسها لم تتغير حتى قبل وجود الإنسان، أو وجود الحياة، ولم تعان أي تغيير أو تحول في قيمتها..

وهذا كله يعني أن الكون مستند إلى موازين دقيقة للغاية، والادّعاء بأنّ المصادفة هي التي أوجدت هذا النظام المتوازن والمتقن يعتبر منافيا لقواعد العقل والمنطق حتما..

الإلحاد.. وخلق الحياة

بعد كل ذلك الجدل واللغط والمغالطات التي حاول الملاحدة من خلالها إثبات عدم حاجة الكون إلى إله، واجهتهم مشكلة أخرى، ربما تكون أعقد من المشكلة السابقة، وهي مشكلة الحياة التي يرونها على الأرض، والتي لا تنسجم مع كل التفسيرات المادية، ذلك أن الحياة فوق المادة، وهي معقدة تعقيدا خطيرا لا يمكن وصفه.. ولذلك راحوا يبحثون عن حلول أخرى لعلها تتدارك ما وقعوا فيه.

وكانت الصدفة هي مغالطتهم في هذا الجانب كما كانت هي مغالطتهم في سائر الجوانب، وحتى يجدوا تصويرا لكيفية الصدفة، راحوا يضعون فرضيات كثيرة لنشأة الحياة، وتنوعها.

ولذلك يحتاج الداعية المواجه للإلحاد أن يتعرف على تلك الفرضيات، وعلى المنهج العلمي في الرد عليها، وقد ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بذلك في كتابنا [الحياة: تصميم لا صدفة]، ولذلك سنكتفي هنا بذكر مغالطاتهم المتعلقة بنشأة الحياة وتنوعها، وكيفية الرد عليها.

أولا ـ الإلحاد .. ونشأة الحياة

على الرغم من عدم قدرة العلم على إثبات أي شيء يتعلق بنشأة الحياة، وكيفيتها، ذلك أنها غيب مطلق، ولا يمكن بأي وسيلة من الوسائل العلمية التعرف على ذلك إلا أن الملاحدة وحتى يفروا من الأسئلة التي تطرح عليهم في هذا الجانب راحوا يفترضون افتراضات عجيبة ممتلئة بالغرابة، وتفتقر لأي مصداقية علمية.. وسنقتصر هنا على اثنين منها:

1 ـ التوالد الذاتي:

وهي نظريـــة تنص على أنه(1)، وقبـــل بضـــع مليـــارات من السنين، قررّت بعض من المواد اللاعضوية الميتة في موضع معيّن من الأرض، أن تجتمع لتكوين أول خلية حيـة.. وقرارهـا هـذا، كـان من تلقاء نفسها ومن دون الاسـتعانة بـأي قـوى خارجيـة، مـا عـدا الظروف الطبيعية التي كانت سائدة آنذاك.

وراحوا لأجل إثبـات هـذا يفترضـون كـل مسـتحيل، ومن تلـك المستحيلات إمكانية نشأة الحياة من المادة الميتة.. وكان هذا هـو المعتقد السـائد في أيـام داروين.. فالنـاس كـانوا يؤمنـون بالتولّـد التلقائي.. فباعتقادهم أن يرقات الديـدان تتولـد من اللحم الميت، كمـا أن القمامــة هي المســؤولة عن توليــد الفــئران والــذباب والحشــرات، والــبراغيث متولــدة من مــواد غــير حيــة كالغبــار، والضــفادع وبعض الكائنــات المائيــة نشــأت مباشــرة من طين الجداول والبرك، والأسماك والزواحـف والفـئران يمكنهـا أن تنشـأ تلقائياً من تربة رملية أو حتى من مواد متعفنة.. بل حـتى الإنسـان نفسه نصوا على أنه يمكن أن ينشأ من بركـة من الوحـل بطريقـة التوالد الذاتي.

وقد ذكر [فـان هلمـونت] الـذي اشـتهر بتجاربـه في التمثيـل الضوئي للنبـات بأنـه لـو أخـذنا كميـة من القمح، وبعضـا من التبن والقش، وقطعة من قماش قديم، وقطعـة أو قطعـتين من ملابس داخلية وسخة.. ثم أضفنا إلى الكل قليلاً من المـاء، ثم تركنـا هـذه المجموعة في مكان هادئ لعدة أيام؛ فإنه سـرعان مـا تولـد هـذه المجموعة مجموعة من الفئران.

وقد انتقـد هـذه النظريـة كـل البـاحثين المحققين ابتـداء من [فرانسيسكو ريدي] الذي أثبت بتجربة بسيطة أن يرقـات الـذباب توجـد في اللحم المتعفن نتيجـة لفقس الـبيض الـذي تضـعه أنـثى الـــذباب على اللحم، لا من توالـــدها ذاتيـــاً ومباشـــرة من اللحم

---

1) من المراجع التي رجعنـا إليهـا في هـذا: كتـاب [وقـال اللـه]، تـأليف الـدكتور فريـد أبـو رحمـة، ترجمـة ميشـال خـوري، ومقـالا بعنوان [نظريات نشأة الحياة]، والمعلومات الواردة فيـه موجـودة في مواقع ودوائر معارف علمية كثيرة.

المتعفن، فلــو جنبنــا اللحم من الــذباب، وذلــك بتغطيــة الوعــاء المحتوي على اللحم وبقطعة من القماش النظيف لاستحال ظهور اليرقات مهما تعفن اللحم وطـال تعفنـه، إلا أن تـرك اللحم بـدون تغطية ولّد عليه يرقات الذباب.. وقـد أدت هـذه التجربـة وتجـارب أخرى من هذا القبيل إلى إضعاف شوكة نظرية التوالد الذاتي.

وبعد اختراع المجهر في نهايـة القـرن السـابع عشـر على يـد [أنطـون فـان ليفنهـوك]، واكتشـافه لكائنـات دقيقـة لم تكن تـرى بالعين المجردة، بل ظهـرت خلال المجهـر الضـوئي، عـاد فـأنعش نظرية التوالد الذاتي بعض الشيء، ذلـك أن وجـود هـذه الكائنـات الدقيقـة في السـوائل المتخمـرة لا يمكن شـرحه إلا على أسـاس فكرة التوالد الذاتي.

وكـان من بين الـذين وجـدوا في اكتشـاف ليفنهـوك انتعاشـاً لفكرة التوالد الذاتي القسيس [الويلزي نيد هام]، لذا أجـرى عـدة تجارب، وجد من خلالهـا أن حسـاء لحم الضـأن سـوف يـؤدي إلى إنتاج كائنات دقيقة حتى بعد تسخينه لدرجة الغليان.

لكن تلــك التجــارب لم تكن علميــة، فقــد وجــد القســيس الإيطــالي [لازورا ســبالانزاني] أن الحســاء الــذي اعتمــد عليــه [الويلزي نيد هام] كان عرضة للتلـوث بـالهواء بعـد التسـخين ممـا يشـرح ظهـور الميكروبـات في تجاربـه.. ولإثبـات ذلـك قـام بعـدة تجارب سخن فيها الحساء لمدة طويلة تستمر بالساعات، وعاملـة بطريقة تحـول دون تلوثـه بـالهواء.. وفي نهايـة هـذه التجـارب لم يظهر أي نوع من الميكروبات.

وهكذا أجرى قريبي [لـويس باسـتور] تجـارب عديـدة قـدمت دلائل قاطعة على عدم صحة التوالد الذاتي.. وقـد أثبت أن الهـواء ملئ بالكائنات الدقيقة التي يمكنها أن تنمـو على الحسـاء بتعـرض الحساء للهواء.. ذلك أنه لـو عرضـنا الحسـاء المعقم لهـواء معقم؛ فإنه لا تنمو أيـة ميكروبـات على الحسـاء، إلا أن الحسـاء بتعرضـه لهواء غير معقم تنمو عليه كائنات دقيقة مختلفة.. وبناء على هــذه التحارب فقد صرح باستور قائلا: (سوف لا تحيا أبداً نظرية التوالـد الذاتي بعد أن صرعتها هذه التجارب البسيطة)

2 ـ الحساء البدائى:

وهي نظرية ينطلق منها جميع الملاحـدة في تصـوير وتفسـير نشأة الحياة، وهي تنص على أن الحياة نشأت بسبب توفر ظروف معينة، اجتمعت جميعا لتشكل ما يسمونه [الحساء البـدائي] الـذي انطلقت منه الحياة، ثم تطورت بعد ذلك إلى الصـورة الـتي نراهـا عليها اليوم.

وقـد أخـذ هـؤلاء بالاسـتعانة بـالكثير من البيولوجـيين(1) ـ المؤمـنين وغـير المؤمـنين ــ محاولـة التعـرف على كيفيـة ذلـك، لمواجهة الطروحات الإيمانية، وحتى يقـدموا تفسـيرا عقلانيـا على معتقداتهم(2) .

والافتراض الذي انطلقوا منه هو أن النشـأة الطبيعيـة للحيـاه الأولى مرت بالمراحل التالية:-

المرحلة الاولى: توليف المواد (غير الحيـة) وفـق ظـروف معينه، وتكون مونـومرات عضـويه صـغيره بدائيـه مثـل الأحمـاض الأمينية أو النيوكليوتيدات (الحساء البدائى)

المرحلـة الثانيه: انضـمام مونـومرات (جزيئـات صـغيره) وارتباطها لتكوين جزيئات أكـثر تعقيـدا هى البـوليمرات مـع مـرور

1) الروسي الملحد الكسـندر ايفـانوفيتش اوبـارين اول من روج لنشر هذه الفكره بسخاء حيث افترض ان جـو الارض انـذاك كـان مختزل كيميائيا ثم بتعرضه لطاقه من نوع ما ينتج اشكال بسـيطه من الحياه تتطـور تـدريجيا فى بـرك ومحيطـات الحسـاء العضـوى البدائى، وفى عـام 1953 خـرج طـالب الدراسـات العليـا بجامعـة شيكاغو سـتانلى ميلـر بسـيناريو مفـترض بتجربتـه الشـهيره الـتى يدعى بانها نجحت بمحاكاة ظروف الارض فى وقت مبكـر وتعزيـز عمليه كيميائيه لانتاج لبنات الحياه.

2) انظر مقالا في الموضوع بعنوان: نشوء الحياة وتجربة ميلـير، ومقالا مميزا آخر بعنـوان: نظريـة التطـور وحقيقـة الخلـق، لعـالم الحياة أحمد يحيى.

الوقت.

المرحلـة الثالثه: إنتـاج جزيئـات بسـيطه ذاتيـه التكـرار والتطور التدريجى للحياه الأولى.

ففى الخطوة الاولى للحياه يجب توليف الماده الخـام الاولى للحياه وهى الاحماض الامينيـه ومفـردات الحمض النـووي، ولـذلك فإن التساؤل البديهى هـو هـل يمكن أن يحـدث هـذه فى ظـروف طبيعيه وكيف؟

وللإجابة على هذا السؤال قاموا بتصميم مخابر للتعـرف على كيفية نشوء الحيـاة من مـادة غـير حيـة، وقـد عـرفت أشـهر هـذه التجارب بتجربة ميللـر، الـتي قـام بهـا البـاحث الأمـريكي سـتانلي ميللر عام 1953.

فقد قام هذا العالم في سـبيل إثبـات إمكانيـة نشـوء الحمض الأميني عن طريق الصـدفة، بصـنع جـو في مخـبره زعم أنـه كـان موجـودا على الأرض البدائيـة (والـذي ظهـر فيمـا بعـد أنـه غـير حقيقي)، وبدأ يعمل.

والمزيج الذي استخدمه في جوه البـدائي مكـون من الأمونيـا والميتان والهيدروجين وبخار الماء، وقـد عـرف ميللـر أنـه لا يمكن أن يتفاعل الأمونيـا والميتـان وبخـار المـاء تحت ظـروف طبيعيـة، وكان يعلم أن عليه أن يحقن المزيج بالطاقة ليبدأ التفاعل.

حينهـا افـترض أن هـذه الطاقـة كـانت تـأتي من الومضـات الضوئية في جو الأرض البدائية، وبناء على هـذا الاعتقـاد اسـتخدم تيارا كهربائيا مصطنعا في تجربته.

وقام ميللر بغلي مزيجه حتى درجة 100 درجة مئوية وادخـل في الغرفــة تيــارا كهربائيــا، وبعــد نهايــة الأســبوع حلــل ميللــر الكيميائيات التي تشكلت في الغرفـة، ولاحـظ أنـه قـد تم تـركيب ثلاثة من الحموض الأمينية العشرين، التي تشكل أساس البروتين.

وقد أثارت هذه التجربـة اهتمـام المـاديين والملاحـدة وبـدؤوا يروجون لها على أنهـا نجـاح بـارز، من غـير أن يحققـوا فيهـا وفي

مدى مصداقيتها.

وبناء على تلك التجربة التي سنرى متى تهافتها وعدم مصداقيتها، راح الماديون والملاحدة يضعون مخططات لكيفية نشأة الحياة؛ فذكروا أن الأحماض العضوية تعاونت فيما بعد في سلاسلها المنظمة عن طريق الصدفة لتشكل البروتينات التي وضعت نفسها داخل غشاء الخلية مثل البنية التي جاءت ـ بطريقة ما ـ إلى الحياة وشكلت الخلية البدائية.. ومع مرور الزمن تجمعت الخلايا وشكلت العضويات الحية.

وقد تعرضت هذه التجربة، وما انبنى عليها لانتقادات كثيرة يحتاج الداعية إلى التعرف على بعضها ليستعملها أثناء مناظراته ومحاوراته، وأهمها:

1 ــ أن الظروف التي نشأت عندها الحياة، والتى يجب محاكاتها غير معروفة، ويفترض أنها مجهوله على وجه اليقين، بل غلب الاعتقاد العلمى وفقا لما تم رصده من مشاهدات أنها كانت مغايره تماما لما تم التكهن به فى النماذج المقترحه من قبل أنصار النشأه الطبيعيه.

2 ـ تعقد ظاهرة الحياة، حتى أننا لا نفهم الخصائص الأساسية لها، فكيف يمكن تفسيرحدوثها؟

وسنرى بعض التفاصيل المرتبطة بهذا في العنوانين التاليين:

أ ـ عدم توافق ظروف التجربة مع البيئة الأرضية:

فلم تكن الظروف البدائية الأرضية التي افترضها ميللر في تجربته حقيقية. فقد كان النتروجين وثاني أكسيد الكربون من مكونات الجو البدائي، إلا أن ميللر أهمل هذا واستخدم الميثان والأمونيا كبديل.

وقد ذكر [كيفين مكين] عن هذا في مقالة كتبها في مجلة [اكتشف]، قال فيها: (قلد ميللر وأوري البيئة البدائية باستخدامهما خليطا من الميثان والأمونيا. حسب اعتقادهم أن الأرض كانت مخزنا حقيقيا لمزيج حقيقي متجانس من المعدن، والصخور

والجليـد. إلا أنــه، ومن خلال الدراسـات الأخـيرة، ثبت أن الأرض كانت في تلك الأزمـان حـارة جـدا وأنهـا كـانت تتكـون من النيكـل والحديد المصهورين، لذلك فإن البيئة الكيميائية لذلك الزمن كانت تحتوي بالدرجة الأولى على النتروجين N_2 وثـاني أكسـيد الكربـون CO_2 وبخار الماء H_2O. ومع ذلك لم تكن ملائمة، كما همـا الأمونيـا والميتان، لإنتاج جزيئات عضوية)

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن التجـارب المنتجـه للاحمـاض الامينيـه تفترض الغياب الكلى للاكسـجين لانـه عـدو للتجربـه مـع أنـه كـان متواجدا بـوفره فى جـو الارض البـدائى، فالبـاحثون الآن متأكـدون تمامـا من أن غـاز الاكسـجين كـان موجـودا على الأرض في وقت مبكـر لأن غلافهـا احتـوى على الكثـير من بخـار المـاء، والإنحلال الضـوئي للميـاه النـاجم عن الأشـعة فـوق البنفسـجية في الغلاف الجوي العلوي سيكون مصدرا رئيسيا للأكسـجين الحـر في الغلاف الجوي حيث أنتج الأكسجين بمعـدلات مرتفعـه للغايـة على الأرض البدائية، لعدم وجود درع الأوزون (المصـنوع من الأكسـجين) لمنـع ضوء الأشعة فوق البنفسجية، وكشف تحليل أقرب عصور ما قبــل الكمــبري للصــخور الرســوبية على وجــود الأكســجين الحــر، وبمستويات مماثلة لما هو عليه اليوم.

كما نشرت مجلـة العلـوم عـدد ديسـيمر 1995 مقـالا لجـون كـوهين يظهـر ذلـك بوضـوح ويؤكـد مخالفـة جـو الارض البـدائى المفترض أن تحاكيه تجربة ميلر لما افترضه ميلر تماما ممـا يؤكـد عدم صلاحيتها.

وقــد تم العثوربواســطة الجيولــوجين فى طبقــات الارض القديمه على المعادن المؤكسـدة (الهيمـاتيت) في وقت مبكـر قبل 3.8 مليار سنة كدليل لا يقبل التشكيك على وجود الاكسـجين بمعدلات مرتفعه جدا كما هى الان.

ثم توالت التأكيدات العلميه لكشـوف تقـر بوجـود الأكسـجين الحر فى غلاف الارض بعد وقت قـريب جـدا من تشـكلها حيث تم اكتشاف وجود نطاقات واسعه من الكائنات الحيـه المعتمـده على التمثيل الضوئى لحياتها

وفى نفس الاطـار نشـرت نيتشـر في نوفمـبر 1996 نتـائج، من معهد سكريبس لعلم المحيطات بوجود النظائرالدالــه على أن الأيض الخلوي كان يجري قبل 3.8 بليون سنة.

وقـد تـوالت الدرسـات والتأكيـدات من قبـل الجيوكيميـائين بتداول تلك الكشوف ففى عام 2004 نشرت مجلة العلـوم حـول الامر لتقـول ان الظـروف المؤكسـدة، وبالتـالي التمثيـل الضـوئى تواجــدت على كــوكب الارض منــذ اكــثر من 3،7 مليارســنه وأن الحياة كانت موجودة تقريبـا في أقـرب وقت كـانت الأرض قـادرة على دعم ذلك،

وهذا كلـه يـدل على فشـل تجربـة ميلـر وشـبيهتها، ذلـك أنـه لايمكن أن تتم فى مجال مؤكسد يحتوى على الاكسجين، كما أكــد ميلر ذلك بنفسه.

ومع ذلك، فإن المـدافعين عن نمـوذج ميلـر وبـدون أى دليـل حقيقى يدعون بأن الاكسجين لم يتواجـد بنسـبه تـذكر فى الغلاف الجوى قبل 2،4 مليار سنه بمعطيـات قديمـة عفى عليهـا الـزمن، مع أن أغلب علماء الجيولوجيا اليـوم يؤكـدن تواجـده بنفس نسـبة وجوده اليوم فى الغلاف الجو بـل وفى اعمـاق البحـار قبـل 3.46 مليـار سـنه من هـذا الـوقت، وتؤكـد اسـبقية البكتيريـا الخضـراء المزرقه المنتجه للاكسجين قبل ذلك بملايين السنين

بالإضافة إلى ذلك، فإنه إذا لم يكن هنـاك اكسـجين فى ذلـك الوقت من عمر نشـوء الحيـاه فلن يكـون هنـاك اوزون، لـذلك لن تكون هناك حمايه من الأشعة فـوق البنفسـجية الـتى تنفـذ لتـدمر المواد الكيميائية الحيوية المتكونه فى الحساء البدائى المزعوم.

ومع كل هذه الأدلة وغيرهـا، لا يـزال المـاديون يصـرون على تلـك التجربـة الـتي أثبت العلم فشـلها، باعتبارهـا الخيـار الوحيـد أمامهم لإثبات نشـأة الحيـاة عن طريـق الصـدفة، وهـذا مـا أقـره [جوناثان ويلز]، عالم الأحياء التنموية، فى كتابه [أيقونات التطور]، حيث قال: (نحن لا زلنا جاهلين جهلا عميقا بكيفيـة نشـأة الحيـاة. ومع ذلك لازالت تجربة ميلر أوري تستخدم كأيقونـه للتطـور، لأنـه

لم يظهر شيء أفضل. وبدلا من قول الحقيقة، أعطينا انطباعا مضللا أن العلماء أثبتوا تجريبيا الخطوة الأولى في أصل الحياة)

وذهب آخرون منهم إلى الإقرار بفشها، ووضع بدائل لها، لتحل محلها، ولو فترة من الزمن، مثل [نيك لين] وفريقه بكلية الكيمياء الحيوية في جامعة لندن عام 2010، حيث ذكر بأن نظرية الحساء البدائي لا تصمد، وأنها من الماضي، وبدلا من ذلك اقترح نشأة الحياة في الفتحات الحرارية المائية تحت سطح البحر.. وهي فرضيه مقترحه فقط للخروج من الازمه، ولا يقوم على دعمها أى دليل، إضافة إلى مواجهتها مشاكل تضعها هى أيضا فى نطاق المستحيل العلمي.

ب ـ تعقد ظاهرة الحياة:

ومع كل ما سبق ذكره من عدم توفر أي دليل علمي على صحة ما يذكره الماديون الملاحدة من نشأة الحياة؛ فإن للحياة من التعقيد ما لا يمكن لأي نظرية مهما اتسمت بالعلمية أن تصوره، أو كما قال [كارل بوبر]: (التقدم العلمى غير المسبوق فى البيولوجيا جعل مشكلة أصل الحياة لغزا أكبر مما كان عليه قبل؛ فقد اكتسبنا مشاكل جديدة وأكثر عمقا)

ذلك أن الاحماض الامينيه ليست سوى ماده عضويه بسيطه جدا خاليه تماما من الحياه، ومجرد لبنة بناء بسيطه وأوليه ويمكن تشبيهها باستخراج معدن الالومينوم كاحد عشرات او مئات المعادن الاساسيه المستخدمه فى بناء طائره وجعلها تطير.

وبالطبع لن يطير معدن الالومينوم الخام إلا فى الطائره، وداخل نظام مصمم وذكى بالغ التعقيد، وهكذا الاحماض الامينيه؛ فإنها لا تمثل أى قيمه بيولوجيه الا فى الخليه مع اعتبار الفارق الشديد فى نسبه التعقيد بين الطائره والخليه.

أو يمكننا تشبيه الاحماض الامينيه بانها جزء من مجموعة الحروف، والخليه الحيه هى كتاب مؤلف من ملايين الحروف لتشكيل ملحمة روائية بالغة الحنكه، والاشكال الحقيقى يكمن فى الاستخدام الذكى لترتيب تلك الحروف، وليست مجرد تراكمات

وتراكبات عشوائيه ناتجه من عمليات فزيوكيميائه.

فالخليه نظام كونى مستقل لـه إراده تخـالف تلـك القـوانين، ونظرة قريبه فى الخليه تثـير الـذهول من ذلـك التصـميم الـدقيق المحكم؛ فهى مدينـــه كاملـــه من الآلات الجزيئيـــه المتعاضـــده المتكاملـه الـتى يحسـدها عليهـا عـوالم التقانـات النانويـة؛ فمـع اهتزازها أو التفافها أو زحفها المتواصـل في أرجـاء الخليـة، تقطـع هذه الآلات، وتلصق وتنسخ جزيئات جينية، وتقوم بنقـل المغـذّيات من مكان إلى آخر أو تحولها إلى طاقـة، وتبـني أو تصـلح الأغشـية الخلوية، وتنقل الرسائل الميكانيكية والكيميائية والكهربائية.

بالإضافة إلى ذلك؛ فـإن من أبـرز ألغـاز الحيـاة، والـتى تقـف بقوه ضـد كـل النظريـات العشـوائيه الـتي تحـاول تفسـيرها، تلـك الغائية والتوجيـه المسـتقل للحيـاة بعيـدا عن العمليـات الكيميائيـة الطبيعية.

فبتخطى تلك العقبات الـتي مـرت بهـا أمثـال تلـك التجـارب، وبافتراض نجاحها فى محاكاة جو الأرض وإنتاج مادة عضوية أوليـة للحياة، وتخليـق الأحمـاض الأمينيـة، فـإن تخليقهـا من مـواد أوليـة ليست الجزء الصعب.. فالإشكال الحقيقى هو الحصـول على نـوع الأحماض الأمينية المطلوبة للحياة، وطريقة تنظيمها.

ذلك أنه يوجد أكثر من 2000 نوع من الأحمـاض الأمينيـة في الطبيعة، بينما لا يـدخل فى الـتركيب الحيـوى للخليـة إلا 20 نوعـا فقـط.. وعلاوة على ذلـك، يتم تجميـع الـذرات الـتي تشـكل كـل الأحمـاض الأمينيـة الأساسـية في شـكلين متنـاظرين عرفـا باسـم (اليد اليسرى، واليد اليمـنى) مقارنـة بتنـاظر كلتـا يـدي الإنسـان.. فلكل يد نفس المكونات، ومع ذلك فهي مختلفة.

ومثل أيدينا، تأتى الأحماض الأمينيـة في شـكلين حيث تتـألف من نفس المكونــات، ولكن هي صــور طبــق الأصــل من بعضــها البعض، ولهــذا تسـمى الأحمـاض الأمينيـة العسـراء، والأحمـاض الأمينية اليمينيه.

لكن المذهل هو أن جزيئات الأحماض الأمينية اللازمـه للحيـاة

كلها عسراء التوجه، وكل السكريات الموجودة في الأحماض النووية اللازمه للحياة يمينية التوجه، أما تلك الأحماض الأمينية المنتجة في المختبر فهي نصف عسراء، ونصف يمينية، وتسمى راسيمات، وهنا تكمن مشكله قاتلة، وهي أن السكريات العسراء والأحماض الأمينية اليمينيه تكون سامة وقاتلة، وتحول دون أى محاوله للتخلق الحيوى المزعوم من تلك المخاليط الراسميه الملوثه.

وعلاوة على ذلك، فقد تم تصميم جميع الإنزيمات لتعمل فقط مع سكريات اليد اليمنى والأحماض الأمينية العسراء.. لذلك إذا تم ارتباط حمض أمينى واحد يمينى الاتجاه أثناء تجميع بروتين، فإن ذلك البروتين الناتج لن يكون له أي قيمة للحياة.

ثانيا ـ الإلحاد .. وتنوع الحياة

تعتبر نظرية التطور أو [النظرية الداروينية] (1) القاعدة التي يعتمد عليها كل الملاحدة والفلاسفة الماديين، ذلك أنها تنطلق من إنكار حقيقة الخلق، وتعتبر كل ما حصل من تنوع للحياة سلسلة صدف متوالية.. ولذلك كان دحض هذه النظرية واجبا يحتمه علينا الدين، لحماية المعتقدات، والرد على كل وسيلة يعتمدها الملاحدة لنفي وجود الله، أو نفي تدبيره لخلقه.

وترجع جذور الفكر الذي قامت عليه هذه النظرية إلى العصور القديمة؛ وذلك بوصفه اعتقادا متعنتا يحاول التنكر لحقيقة الخلق.. فقد دافع معظم الفلاسفة الوثنيين في اليونان القديمة عن فكرة التطور.. وعندما نلقي نظرة على تاريخ الفلسفة، نجد أن فكرة النشوء والارتقاء تشكل العمود الفقري لكثير من الفلسفات الوثنية.

---

1) انظر: خديعة التطور الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديولوجية: هارون يحيى، وغيرها من كتبه، ويستحسن للداعية الرجوع إليها ولغيرها لكونها جمعت الكثير من الاقتباسات والنقول من العلماء والمختصين في الغرب، سواء من أولئك الذين لا يزالون يؤمنون بنظرية التطور، أو من الذين تراجعوا عنها.

وقد أحيا دارون تلك الفلسفات، وحاول أن يعطيها بعدا علميا إلا أنه لم يفلح في ذلك، بل كان كل ما فعله هو ومن تبعه ما عــبر عنه الدكتور البيولوجي التطوري [هنري جي] المُحرر بمجلة نيتشر التطوريــة الشــهيرة في كتابــه [البحث في أعمــاق الــزمن] مُعلقــا على أضحوكات الاستشــهاد ببضــعة عظــام لا تملأ صــندوقا صــغيرا على تطور الإنسان: (إن أخذ سلالة من الأحافير، وادعاء أنها تمثل خطاً تكاثرياً لا يعتبر فرضية علمية قابلة للاختبــار، وإنمــا هــو تأكيــد على قصة تحمل نفس قيمة القصص التي تروى قبــل النــوم ربمــا تكون مفيدة، ولكن ليست علمية!)

مـــع العلم أن دارون لم يتلـــق أي تعليم رســـمي في علم الأحيــاء، ولكنــه اهتم بموضــوع الطبيعــة والكائنــات الحيــة اهتمــام الهواة، وحفزه هذا الاهتمام على الانضمام إلى رحلــة استكشــافية على متن سفينة أبحرت من إنكلــترا عــام 1832، وجــابت منــاطق مختلفة من العالم لمدة 5 سنوات.

وانبهر دارون انبهارا كبيرا بمختلف أنواع الأحياء، وخاصة بنوع معين من العصافير (الحساسين) الــتي شــاهدها في بعض الجــزر، واعتقد دارون أن التنوع في مناقير العصافير يعزى إلى تكيفها مــع موطنها، وانطلاقا من ذلك افترض أن أصل الحيــاة والأنــواع يكمن في فكرة التكيف مــع البيئــة؛ فــافترض أن أنــواع الأحيــاء لم توجــد بشكل منفصل، بل إنها انحدرت من سلف مشــترك، واختلفت عن بعضها البعض نتيجة للظروف الطبيعية.

ولم تستند فرضية دارون على أي اكتشاف أو تجربــة علميــة؛ ولكنه حولهــا ــ مــع مــرور الــزمن ــ إلى نظريــة حظيت بأهميــة لا تستحقها، من خلال الدعم والتشجيع الذي تلقاه من أشــهر علمــاء الأحياء الماديين في عصره.

وتتمثل فكرة النظرية في أن الأفراد التي تتكيف مع موطنهــا على النحو الأفضل تنقل صفاتها إلى الأجيال الآتية، ثم تتراكم هذه الصفات المفيدة مع الوقت، ويتحول الفرد إلى نوع يختلف اختلافا كاملا عن أسلافه. ووفقا لدارون، يمثل الإنسان أكــثر نتــاج متطــور لهذه الآلية.

وقد أطلق دارون على هذه العملية اسم: التطور بالانتقاء الطبيعي، وظن أنه اكتشف أصل الأنواع ؛ أي أن أصل نوع ما هو نوع آخر، ونشر هذه الآراء في كتابه الذي يحمل عنوان [أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي] عام 1859.

وقد كان دارون يدرك جيدا أن نظريته تعاني من مشكلات كثيرة، وقد اعترف بهذه المشكلات في كتابه في فصل بعنوان [صعوبات النظرية]، ويأتي على رأس هذه الصعوبات سجل المتحجرات، وتعقيد أعضاء الأحياء الذي لا يمكن أن يفسر عن طريق الصدفة (مثل العين) وغرائز الأحياء.

وكان يأمل في التغلب على هذه الصعوبات بواسطة الاكتشافات الجديدة؛ ولكن ذلك لم يوقفه عن تقديم عدد من التفسيرات غير الملائمة أبدا لبعض هذه الصعوبات.

وقد علق الفيزيائي الأمريكي ليبسون على صعوبات دارون بقوله: (عندما قرأت كتاب أصل الأنواع لمست أن دارون نفسه كان أقل ثقة مما كان الناس يصورونه في أغلب الأحيان؛ إذ يوضح الفصل الذي يحمل عنوان [صعوبات النظرية] مثلا قدرا لا يستهان به من عدم الثقة بالنفس، وبوصفي فيزيائيا، فقد أثارتني بشكل خاص تعليقاته حول كيفية ظهور العين)

وقد كان من أبرز الشخصيات التي تأثر بها دارون عالم الأحياء الفرنسي [لامارك]، الذي كان يرى أن الكائنات الحية نقلت السمات التي اكتسبتها أثناء حياتها من جيل إلى جيل، وبهذه الصورة تطورت هذه الكائنات؛ فالزرافات تطورت من حيوانات شبيهة بالبقر الوحشي عن طريق إطالة أعناقها شيئا فشيئا من جيل إلى جيل عندما كانت تحاول الوصول إلى الأغصان الأعلى فالأعلى لأكل أوراقها، وبناء على ذلك استخدم دارون فرضية توريث السمات المكتسبة التي اقترحها لامارك بوصفها العامل الذي جعل الأحياء تتطور.

وكان كل من لامارك ودارون مخطئا، ذلك أنه لم يكن ممكنا في تلك الفترة دراسة الحياة إلا بواسطة تكنولوجيا بدائية جدا،

وبمستوى غير ملائم أبدا.. ولم تكن هناك مجالات علمية مثـل علم الوراثة وعلم الكيمياء الحيوية، بل حتى اسـمهما لم يكن موجـودا؛ ومن ثم كـان لا بـد أن تعتمـد نظريتهمـا اعتمـادا كـاملا على قـوة مخيلتيهما.

وبينما كانت أصداء كتاب دارون مدويـة، اكتشـف عـالم نبـات النمسـاوي [غريغـور منـدل] قـوانين الوراثـة سـنة 1865 ، وعلى الرغم من أن اكتشافات مندل لم يسمع بها الكثيرون حـتى أواخـر ذلـك القـرن، فإنهـا اكتسـبت أهميـة عظيمـة في أوائـل القـرن العشرين الذي شهد ولادة علم الوراثة، وفي فترة لاحقة، اكتشـف تركيب الجينات والكرموزومات، وفي الخمسـينيات، أدى اكتشـاف تركيب جزيء (DNA) (الذي يحتوي على المعلومـات الوراثيـة) إلى إيقـاع نظريـة التطـور في أزمـة كبـيرة، ويرجـع ذلـك إلى التعقيـد المدهش للحياة وبطلان آليات التطور التي اقترحها دارون.

وكان حريا بهذه التطورات أن تؤدي إلى إلقـاء نظريـة دارون في مزبلـة التـاريخ، لكن هـذا لم يحـدث نظـرا لإصـرار الفلاسـفة الماديين والملاحدة على تنقيح النظرية وتجديدها والارتفاع بها إلى منابر العلوم.

وبناء على ذلك حاول مجموعة من العلماء الذين أصـروا على ولائهم لدارون أن يتوصلوا إلى حلول مناسبة لتلك الأزمة.. والتقى هؤلاء العلماء في اجتمـاع نظمتـه الجمعيـة الجيولوجيـة الأمريكيـة سنة 1941، وبعد مشاورات طويلـة نجح في النهايـة بعض علمـاء الوراثـة وعلمـاء الحيـوان وعلمـاء المتحجـرات القديمـة وعلمـاء الوراثة الرياضـية في التوصـل إلى اتفـاق حـول الطـرق المناسـبة لترقيع الدارونية.

وقد ركز هذا الفريق من العلماء على مسألة أصـل التغـيرات المفيدة التي من المفـترض أنهـا قـد تسـببت في تطـور الكائنـات الحية (وهي مسألة لم يستطع دارون نفسه تفسيرها، لذلك حـاول ـ ببساطة ـ أن يتجنبها معتمدا على لامارك)

وبدأ تفكير هؤلاء العلماء يدور حول الطفرات العشوائية، وقد

أطلقوا على نظريتهم الجديدة اسم [النظرية التركيبية الحديثة للتطور التركيبي]، التي تم تكوينها بإضافة فكرة الطفرة إلى فرضية دارون الخاصة بالانتقاء الطبيعي، وبعد مرور وقت قصير، أطلق على هذه النظرية اسم [الدارونية الجديدة] كما أطلق على الأشخاص الذين قدموها اسم الدارونيين الجدد.

وأصبحت العقود الآتية لتلك الفترة بمثابة حقبة للمحاولات اليائسة الرامية إلى إثبات صحة الدارونية الجديدة، وكان معروفا من قبل أن الطفرات (أو المصادفات) التي حدثت في جينات الكائنات الحية تلحق بها الضرر دائما، لكن الدارونيين الجدد حاولوا أن يقدموا برهانا على وجود طفرة مفيدة من خلال القيام بآلاف التجارب على الطفرات.. ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل الذريع.

كما حاولوا أيضا إثبات أن الكائنات الحية الأولى قد نشأت عن طريق الصدفة وتحت ظروف أرضية بدائية وفقا لفرضية النظرية، ولكن نفس الفشل صاحب هذه التجارب أيضا.. وكان الفشل حليف كل تجربة تسعى إلى إثبات أن الحياة يمكن أن تنشأ بالصدفة، وأثبت حساب الاحتمالات أنه لا يمكن حتى لبروتين واحد (وهو الوحدة الأساسية للحياة) أن يتكون عن طريق الصدفة.

أما بالنسبة للخلية (التي من المفترض أنها قد ظهرت عن طريق الصدفة تحت ظروف أرضية بدائية يتعذر التحكم فيها وفقا لعلماء التطور)؛ فإنه من غير الممكن تركيبها حتى في أكثر المختبرات تطورا في القرن العشرين.

وقد منيت نظرية الدارونية الجديدة بالهزيمة من قبل سجل المتحجرات أيضا؛ إذ لم يعثر قط في أية بقعة من العالم على أي من الأشكال الانتقالية التي من المفترض أن تظهر التطور التدريجي للكائنات الحية من الأنواع البدائية إلى الأنواع المتقدمة حسبما تزعم نظرية الدارونيين الجدد.

وفي نفس الوقت، كشف التشريح المقارن أن الأنواع التي

يفترض أنها تطورت بعضها من بعض تتسم في الواقع بسمات تشريحية مختلفة تماما، وأنها من غير الممكن أبدا أن تكون أسلافا أو خلفاء لبعضها البعض.

وبما أن [الدارونية الجديدة] لم تكن نظرية علمية أبدا، بل كانت مبدأ أيديولوجيا؛ فقد ظل أنصارها يدافعون عنها على الرغم من كل الأدلة المناقضة لها.. ومع ذلك، لم يستطيعوا الاتفاق على أي من النماذج المختلفة المقترحة لفهم التطور هو النموذج الصحيح. ويتمثل أحد أهم هذه النماذج في السيناريو الخيالي المعروف باسم [التوازن المتقطع]، أو [التطور على قفزات]

فمع أن معظم العلماء الذين يؤمنون بالتطور يقبلون نظرية الدارونيين الجدد المتعلقة بـ [التطور البطيء التدريجي]، ومع ذلك، فقد تم خلال العقود الأخيرة اقتراح نموذج مختلف يعرف باسم التطور على قفزات، أو التوازن المتقطع، ويرفض هذا النموذج فكرة الدارونيين بشأن حدوث التطور بشكل تراكمي وتدريجي، ويرى ـ بدلا من ذلك ـ أن التطور قد تم بقفزات كبيرة ومتفرقة.

وظهر هذا النموذج في بداية السبعينيات، بعد أن أدرك عالما المتحجرات الأمريكيان، [نايلز إلدردج] و[ستيفن غولد] أن مزاعم الدارونيين الجدد يدحضها سجل المتحجرات تماما، لأن المتحجرات أثبتت أن الكائنات الحية لم تنشأ بالتطور التدريجي، بل ظهرت فجأة بكامل تكوينها.

وكان الأصل أن يتخلى الداروينيون عن معتقداتهم بسبب ذلك، لكنهم لم يفعلوا، بل راحوا يقدمون بدائل أخرى، حتى لو كانت ممتلئة بالغرابة.

وحتى نعرف مدى تهافت هذا النموذج الخيال، نذكر أن عالم المتحجرات الأوربي [شايندولف] ذهب إلى أن أول طائر خرج من بيضة إحدى الزواحف كطفرة هائلة، أي نتيجة مصادفة ضخمة حدثت في التركيب الجيني.

وحسب النظرية ذاتها، كان من الممكن أن تتحول بعض

الحيوانـات البريـة إلى حيتـان ضـخمة إذا تعرضـت لتحـول فجـائي شامل.

ومع أن هذه الادعـاءات المخالفـة تمامـا لجميـع قـوانين علم الوراثة والفيزياء الحيوية والكيميـاء الحيويـة، والـتي لا تختلـف عن تلك القصص الخيالية التي تدور حول تحول الضفادع إلى أمـراء إلا أنه ونتيجة لانزعاج علماء المتحجرات المؤمنين بالتطور من الأزمة التي كان يمرون بها جـزم الـدارونيين الجـدد بهـذه النظريـة الـتي كانت تتميز بأنها أكثر غرابة حتى من الدارونية الجديدة نفسها.

ويتمثل الغـرض الوحيـد من هـذا النمـوذج في توفـير تفسـير للفجوات الموجودة في سجل المتحجرات الـتي لم يتمكن نمـوذج الدارونيين الجدد من تفسيرها.

ومع ذلـك، يكـاد يكـون من غـير المعقـول أن تجـري محاولـة لتفسـير فجـوات المتحجـرات الموجـودة في تطـور الطيـور عن طريق الادعاء بأن الطائر قد خرج فجأة من بيضة إحدى الزواحف؛ ذلك أن تطور نوع إلى نوع آخر يتطلب ـ بـاعتراف علمـاء التطـور أنفسهم ـ حدوث تغير ضخم ومفيد في المعلومـات الوراثيـة، ومـع ذلك، لا يمكن لأية طفرة أيا كانت أن تحسـن المعلومـات الوراثيـة أو تضيف إليها معلومات جديدة؛ ذلك أن الطفرات لا تـؤدي سـوى إلى إفسـاد المعلومـات الوراثيـة. ومن ثم فـإن الطفـرات الهائلـة التي تخيلهـا نمـوذج التـوازن المتقطـع لن ينتج عنهـا غـير إضـعاف وإتلاف هائل، أي كبير، في المعلومات الوراثية.

وفضلا عن ذلك، فقد انهار التطـور المتقطـع من أول خطـوة بسبب عدم قدرته على التعامل مع مسألة أصل الحياة، وهي ذات المسألة التي تدحض نموذج الدارونيين الجدد منذ البداية. ومـا دام من غـير الممكن أن يتكـون ولـو حـتى بـروتين واحـد عن طريـق الصدفة، فلا يوجد معنى للجدال حول ما إذا كانت الكائنـات الحيـة المكونة من تريليونات البروتينات قد مرت بمراحل تطور متقطعة أو تدريجية.

بنـاء على هـذا سـنحاول أن نضـع هنـا بين يـدي القـارئ أهم

الردود العلمية على هذه النظرية:

1 ـ الرد على علمية هذه النظرية:

سبق أن ذكرنا في الفصلين المخصصين للمغالطات العلمية والعقلية التي يعتمدها الملاحدة عدم اعتماد الملاحدة على المنهج العلمي والعقلي في طروحاتهم العلمية المرتبطة بالإلحاد، ذلك أنها مبنية على تفكير رغبوي وليس على تفكير علمي.

وأول ما يدل على هذا هو أن كبار علماء الحياة كتبوا في الرد على نظرية التطور، ولم يكونوا يؤمنون بها، ولو كانت نظرية لها مصداقية علمية ما صدر منهم ذلك.. لأن الحقيقة لا يمكن إخفاؤها أو الهرب منها.

فمن العلماء الذين ردوا على نظرية التطور [ديفيد برلنسكي]، وقيمته في هذا المجال هو كونه عالما لا أدريا، وهو عالم في الرياضيات والبيولوجيا الجزيئية والفلسفة، وهو من أشهر من انتقدوا نظرية التطور، والإلحاد الذي يروج بسببها، وهو صاحب كتاب [وهم الشيطان] الذي ألفه في الرد على [ريتشارد دوكينز] وغيره سنة 2008م.. وله حوار مصور شهير باسم [العنيد - مفكر متمرد يتحدى داروين]، وهو مليء باعترافاته من سخرية العلماء الحقيقيين من خرافة التطور، ومليء بالسخرية العلمية من افتراضات التطور الخيالية ونقاط ضعفها القاتلة.

ومنهم [مايكل دنتون]، وهو عالم لاأدري، ومتخصص في الكيمياء الحيوية، وكان يؤمن بنظرية التطور بحكم إلحاده وتخصصه إلى أن اكتشف بنفسه، ومع التقدم الرهيب في البيولوجيا الجزيئية عشرات الثغرات القاتلة التي أزالت عن التطور الهالة العلمية التي ينسجها أتباعه حوله ليمرروه على الناس بغير تفكير ولا مناقشة، فقام ساعتها بوضع كتابه الشهير [التطور نظرية في أزمة] عام 1985م، وهو من أوائل الكتب التي قلبت نظرية التطور في العصر الحديث رأسا على عقب، وله مشاركات عديدة في وثائقيات علمية عن الدقة المتناهية وعلامات التصميم الذكي في الحياة والأرض والكون وصولا إلى

الإنسان.

ومنهم [مايكل بيهي]، وهو عالم لاديني وتطوري سابق ومتخصص في الكيمياء الحيوية وأستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة ليهاي في بنسلفانيا – أمريكا، وقد ساورته شكوك كثيرة أيضا في نظرية التطور مع تخصصه العلمي الدقيق والاكتشافات العلمية الأخيرة، وخصوصا عندما قرأ كتاب (التطور نظرية في أزمة) لمايكل دانتون، حيث وجد أن كل النقاط التي ذكرها بالفعل طعنت التطور الصدفي والعشوائي في مقتل، فقام بتأليف كتابه الشهير [صندوق داروين الأسود] عام 1996م، ويعتبر من أشهر من أسسوا ووضعوا قواعد نظرية (التصميم الذكي) في شكلها الأكاديمي الأخير وخصوصا نقطة (التعقيد غير القابل للاختزال) ودلالته على استحالة التطور التدريجي العشوائي عبر الزمن، وعلى دلالتها على الغائية لظهور الأعضاء المعقدة مرة واحدة من جهة مُصمم ما (هو لا يذكر إله أو خالق بعينه)

ومنهم [جوناثان ويلز]، وهو عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكي، والذي يعترف بأنه كان ملحدا في شبابه، وذلك في مجموعة كتب الصحفي الشهير [لي ستروبل]، لكن بسبب دراسته للبيولوجيا الجزيئية، ومع الاكتشافات الحديثة أيضا الناطقة بعلامات الغائية والخلق تراجع عن إلحاده، وصار من أعدى أعداء نظرية التطور وفضحها وكشف زيفها للناس، وهو صاحب الكتاب الشهير [أيقونات التطور] عام 2002م

ومنهم [جيري فودور]، و[ماسيمو بياتيللي بالماريني]، وأولهما بروفيسور الفلسفة وعلم الإدراك بجامعة ولاية نيوجيرسي، والثاني بروفيسور الفلسفة وعلم الإدراك بجامعة ولاية أريزونا، والاثنان ملحدان، وقد بدأ أولهما بالتشكيك في حقيقة وجود خرافة (الانتخاب) الطبيعي وذلك في كتاب [لماذا لا تملك الخنازير أجنحة؟]، والذي تم نشره في معرض الكتاب بلندن عام 2007م، ثم شارك مع ماسيمو في إصدار الكتاب الصادم للتطوريين [الأمر الذي أخطأ فيه داروين] عام 2011م.

وقد كتبا في مقدمة الكتاب يقولان: (هذا ليس كتاباً عن الله،

ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق. ليس أياً من أحدنا متـورطٌ في شيءٍ من ذلك.. لقد رأينا أنـه من المستحسـن أن نوضـح هـذا منذ البداية، لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأن هنـاك خطـأ ما ـ وربما خطأ لدرجة قاتلة ـ في نظرية الانتخاب الطبيعي)

وهذا يدل على أن أكبر الانتقادات الموجهة لخرافـات التطـور وآلياته الخيالية وغير العلمية هي من أشخاص ملحدين أو لا أدريين أو لادينـيين فضـلا عن أن يكونـوا تطـوريين من قبـل أن يرجعـوا لصوابهم وعقلهم.

ومنهم [جوب مارتين]، وهو أسـتاذ أحيـاء متخصـص وتطـوري سابق، وقد حكى قصته عن الخنفساء المدفعية الشهيرة وتعقيدها غير القابل للاختزال: وكيف أن مناقشـاته مـع الطلبـة كـانت سـببا في إعادة تفكيره في هذه الاسـتحالات التطوريـة الكثـيرة الـتي لا وزن علمي لها إلا الخرافة والتلقين والوهم بصحتها.

ومنهم [فيليب جونسون]، وهو متخصـص في القـانون، وكـان ملحدا وتطوريا، ولكنه أفاق بدوره على كتاب (التطـور نظريـة في أزمة) لمايكل دانتون، وبدأ في التوسـع في القـراءة ومتابعـة آخـر الأخبـار العلميـة إلى أن تيقن تمامـا من خرافـات التطـور وأنهـا لا تعدو تزييفات وتكهنات خياليـة لا يـدعمها أي دليـل عقلي أو علمي تجريبي صحيح، وعلى إثر هذا صار من أشهر مَن ينتقدون خرافات التطور في أمريكا بل كان يخوض مناظرات بنفسـه مـع تطـوريين ويهزمهم، ومن مؤلفاته في هذا المجال (هزيمة الداروينيـة: كتـاب عن منـاظرة)، و(هزيمـة الداروينيـة بعقـول مفتوحـة)، و(محاكمـة داروين)، وهو من أشـهر كتبـه، و(كتـاب عن الاعتراضـات الوجيهـة للتطور وأشياء أخرى)

هـذه بعض النمـاذج عن المعارضـين للتطـور، ومـا كتبـوه في انتقادهـا، ويمكن الاسـتفادة منهـا في الـردود على هـذه النظريـة، وبيان تهافتها.. وكل ما ذكرناه من مناظرات ونحوها موجـودة على النت، ويمكن الوصول إليها بسهولة.

2 ـ التصميم الذكي:

وهي نظرية نشأت في مواجهة نظرية التطور[1]، وتحاول تفسير نشأة الأنواع الحية تفسيرا علميا بعيدا عن كل أنواع الأيديولوجيا والتفكير الغرضي، وهي تتبنى توجهاً مناهضاً للدور العشوائي اللاغائي الذي تعطيه نظرية التطور للطبيعة، باعتبارها أداة فاعلة في الخلق..

وهي لأجل ذلك تواجه دعاوى التطوريين عن وجود عيوب في تصميم الأنواع الحية؛ لكونها تطورت بعضها من بعض، فنشأت العيوب نتيجة السمكرة وإعادة التخليق، وهي لذلك لا تعترف بوجود أعضاء بلا وظيفة، أو أعضاء غيّرت وظيفتها عبر المشوار التطوري.

وهي ترى في الأنظمة الحيوية تعقيدات وظيفية متخصصة، وتعقيدات غير قابلة للاختزال، ومن ثم تعجز الرؤية التطورية التدرجية التراكمية عن تفسيرها.

وهي تحصر دورها في وصف حقيقة الحياة كما هي، وتزيل عنها الرؤية التطورية الخرافية.. وترى كل نوع من الأنواع عالما قائما بذاته، لم يتطور من غيره، ولم ينشأ عنه.. وهي لذلك تفسر خلق الأنواع الحية بكونها تمت من قِبل مصمم ذكي، ولا تسمي اسم ذلك المصمم ليجتمع فيها جميع الأديان المؤمنة بوجود مصمم ذكي بغض النظر عن اسمه وصفاته وحقيقته، وهذا ما يفرقها عن النظريات الدينية.

وهي لا تتبنى رؤية دينية معينة لسببين.. **أولهما** أن ذلك سيبعدها عن أداء دورها المرتبط بمواجهة أيقونات التطور وكهنته.. **والثاني** هو أن تحديد المصمم بدقة وعلمية أمر يخرج عن قدرة العلم.. ولذلك ترى هذه النظرية أن الخلق الخاص لكل نوع حي يتناسب كفرضية تفسيرية مع التصميم الذكي، بينما التطور التدريجي للأنواع الحية بعضها من بعض لا يتواءم مع التصميم.

---

1) انظر مقالا مهما بعنوان: اتجاهات في تفسير التنوع الحيوي، منى زيتون.

ودورها يتعدى تقديم تفسير لنشوء الأنواع الحية، وهي الحدود التي تتناولها نظرية التطور؛ بل إنها تضيف إلى ذلك تفسيراً لنشأة الكون ككل، يُستدل عليه من خلال التوافق الدقيق للكون.

وقد تعرض أصحاب هذه النظرية لمضايقات كثيرة من طرف التطوريين؛ فمنذ بدأت حركة التصميم الذكي، والتطوريون يشيعون عن أصحابها أنهم [خَلْقَوِيُّون]، مع أن المنضمين إلى هذه الحركة والمؤسسات التابعة لها ليسوا كذلك جميعا.. فبعضهم دينيون مع اختلاف دياناتهم.. وبعضهم لا أدريون.. بل إن بعضهم ملاحدة.

ومن أقطاب هذه النظرية البروفيسور [دين كينيون]، وهو من أوائل المؤسسين لهذه الحركة، وأحد المشاركين في وضع نموذج شهير لتفسير نشأة البروتين في بدء الخلق من خلال الأُلفة الكيميائية للأحماض الأمينية، بعد أن تراجع عن نموذجه واعترف بعدم وجود قيمة تفسيرية له.

ومنهم البروفيسور [أنتوني فلو]، الذي قضى عمره في الإلحاد، ثم عاد عنه وصنّف كتاب [هناك إله] الذي أعلن فيه تراجعه عن إلحاده، وانضم إلى حركة التصميم الذكي..

ومنهم الدكتور البيولوجي [هنري جي] المُحرر بمجلة نيتشر التطورية الشهيرة، وذلك في كتابه [البحث في أعماق الزمن]، والذي علق على الاستشهاد ببضعة عظام لا تملأ صندوقا صغير على تطور الإنسان أو غيره ـ مع كونه من التطوريين ـ: (إن أخذ سلالة من الأحافير وادعاء أنها تمثل خطاً تكاثرياً لا يعتبر فرضية علمية قابلة للاختبار، وإنما هو تأكيد على قصة تحمل نفس قيمة القصص التي تروى قبل النوم ـ ربما مفيدة.. ولكن ليست علمية)

ومنهم [جيري فودور]، وهو بروفيسور الفلسفة وعلم الإدراك بجامعة ولاية نيوجيرسي، والذي كتبت كتابه في التشكيك في حقيقة وجود خرافة الانتخاب الطبيعي مع كونه كان حينها ملحدا، وذلك في كتابه [لماذا لا تملك الخنازير أجنحة؟]

وسنذكر هنا نماذج مختصرة عن بعض طروحات هذا الفريق العلمي المواجه لنظرية التطور:

أ ـ التعقيد المتخصص:

ولإيضاح مرادهم من هذا المصطلح، نذكر هذا المثال التقريبي، وهو أنه عندما نرى أحد أحرف الأبجدية لوحده، فإننا نذكر أنه متخصص دون كونه تعقيداً.. لكننا عندما نرى جملة طويلة من الأحرف العشوائية، فإننا حينها نصفها بكونها تعقيدا.. ولكن ليس متخصصاً.. لكن عندما نرى قصيدة لشكسبير حينها نقول: إنها [تعقيد متخصص]

وبناء على هذا؛ فإننا عندما ندقق النظر في تفاصيل الكائنات الحية نجدها جميعا في غاية التعقيد والتخصص للدرجة التي لايمكن فيها اعتبارها وجدت هكذا صدفة.. وقد وجدت ببعض العمليات الرياضية المعقدة أن أي شيء احتمال حدوثه في الطبيعة أقل من 1 من 10150 يعتبر من هذا النوع.. ويعتبر في نفس الوقت من الأمور التي يستحيل في حقها أن تكون صدفة.

أما علاقة هذا بنظرية التطور.. وكيف يتسبب في هدمها، فواضح جدا، ذلك أن كل شيء في الحياة، بل في الكون من هذا النوع.. فالتعقيدات المتخصصة دليل لايقبل الشك على وجود مصمم ذكي قد تحكم بإنشاء هذه التعقيدات، وهذا ماينقض نظرية التطور التي تعتبر أن الكائنات قد تكونت بمحض الصدفة.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.. ومنها مثلا تصميم النظام الميكانيكي للمخلوقات.. فهو تصميم في غاية التعقيد والتخصص لدرجة لا يمكن تصورها، ذلك أنه غالباً ما يكون تصميم الأنظمة المتحركة أكثر تحدياً للمصممين من الأنظمة البنيوية الثابتة.

وكمثال على ذلك أننا نرى المشاكل التي تظهر في المثقب اليدوي أكبر بكثير من تلك التي يمكن أن تنتج عن الإبريق، ذلك لأن الأولى تعمل على أساس ميكانيكي، بينما يقوم الثاني على مبدأ الشكل الفيزيائي، والتصاميم العملية تميل لأن تكون أكثر

تعقيداً.

وسب بذلك هو أن كل عنصر من عناصر التصميم يؤدي هدفاً معيناً.. وغياب أو تعطّل أيٍّ من هذه العناصر يؤدي إلى عجز النظام عن العمل في عنصر واحد يجعل النظام عديم الفائدة.

ولأجل هذا نرى نهاية الكثير من هذه التصاميم مملوءة بالعيوب والأخطاء.. لكن ذلك لا يصدق إلا على الأنظمة التي يصممها الإنسان، حيث نرى فيها أخطاء أكبر بكثير مما يمكن تصديقه، لأن معظم هذه التصاميم أنجزت عن طريق التجربة والخطأ، على الرغم من أن بعض الأعطال يمكن تجنبها في الطور البدائي الذي يسبق إدخال المنتج إلى الأسواق، إلا أنه يبقى من المستحيل تلافي جميع الأخطاء.. ومع ذلك لم يزعم أحد من الناس أن أي تصميم صممه الإنسان وجد هكذا صدفة.

أما عندما ننظر إلى جميع الأنظمة الميكانيكية في الطبيعة، فإننا نراها ترقى إلى درجة الكمال.. فجميع المخلوقات مصممة بإتقان محكم لا يمكن تصور مدى دقته.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك جمجمة نقار الخشب.. فهي مصممة بإتقان بديع لا يمكن تصور مدى دقته وتعقيده وغائيته؛ فنقار الخشب يتغذى على الحشرات واليرقات التي تختفي في جذوع الأشجار، ويستخرجها عن طريق النقر.. حيث يستطيع أن ينقر ما بين تسع إلى عشر نقرات في الثانية الواحدة، ويزداد هذا العدد ليصل إلى ما بين 15 ـ 20 عند الأنواع الأصغر حجماً، ومنها نقار الخشب الأخضر.. وتصل سرعة عمله إلى 100 كم/سا.. أما الزمن الفاصل بين النقرة والأخرى فهو أقل من 1/1000 من الثانية.

والصدمة التي تنتج عن هذه الطرقات المتتالية لا تختلف عن تلك التي يسببها ضرب الرأس في حائط إسمنتي، إلا أن التصميم المعجِز لدماغ نقار الخشب يجنبه التعرض لأي نوع من الإصابة.

ولذلك كانت جمجمة نقار الخشب تتميز عن سائر الطيور في هذه الناحية.. فعظام الجمجمة تتصل عند معظم الطيور

ببعضها، ويعمل المنقار مع حركة الفك السفلي إلا أن منقار وجمجمة طائر نقار الخشب منفصلان عن بعضهما بأنسجة إسفنجية تمتص الصدمات الناتجة عن عملية النقر.. بل إن هذه المادة المرنة تؤدي عملها بشكل أفضل من ماص الصدمات في السيارات.. وجودة هذه المادة تأتي من قدرتها على امتصاص الصدمات المتتالية بفواصل قصيرة جداً واستعادتها لحالتها الطبيعية على الفور، وهي تفوق بجودتها المواد التي أفرزتها التكنولوجيا الحديثة بأشواط.

حيث أن هذه العملية تكتمل حتى في حالات أداء الطائر عشر طرقات في الثانية، وفصل المنقار عن الجمجمة بهذه الطريقة الخارقة تسمح للحجرة التي تحمل دماغ الطائر بالحركة بعيداً عن المنقار العلوي أثناء عملية النقر، وهكذا تكون وتتشكل آلية ثانية في امتصاص الصدمات.

ب ـ التعقيدات غير القابلة للاختزال:

ولإيضاح مرادهم من هذا المصطلح[1]، نذكر هذا المثال التقريبي، وهو عن مصيدة الفئران؛ فهي ـ كما نعلم ــ مؤلفة من عدة أجزاء.. مؤلفة من قطعة خشبية، ومن نابض، ومن ملقط معدني، ومن قطعة جبن.. وعندما نزيل أي جزءٍ منها، فإن باقي الأجزاء لا قيمة لها على الإطلاق، فلن تعمل المصيدة إلا بوجود كامل أجزائها مجتمعةً مع بعضها في أماكنها.. ومثل ذلك القوس الحجري، فإننا إذا قمنا بإزالة أيّ حجرٍ منه، فسينهار تماماً.. وبذلك فإن القوس والمصيدة أنظمة غير قابلة للاختزال.

وهذا هو الحال مع الكائنات الحية.. فالأنظمة المعقدة لا يمكن أن تعمل عند إزالة أحد أجزائها، ولذا لا يمكن لهذه الأنظمة أن تكون قد تشكلت بالتطور التدريجي، بل إنها لا بد أن تكون قد وجِدَت كما هي بشكلٍ فوريّ لا على مراحل، والكائن الحي مثالٌ على هذه الأنظمة.

---

1) انظر: مقالا بعنوان: ما هو التعقيد الغير قابل للإختزال؟، د. أحمد إبراهيم.

أما علاقة هـذا بنظريـة التطـور.. وكيـف يتسـبب في هـدمها، فواضـح جـدا، ذلـك أن نظريـة التطـور تخبرنـا أن الكائنـات الحيـة معقدة التركيب الموجودة اليوم قد تطورت عن كائناتٍ أخرى أقل تعقيـداً، وبمـا أن تعقيـد الكائنـات الحيـة يـزداد عن طريـق إضـافة أجزاء أو وظائف أخرى إليها عن طريق الطفرات مثلاً؛ فبناءً عليـه يمكن أن يقال: كما أن الكائنات تطورت بإضـافة أجـزاء ووظـائف جديدة، فإنه نظرياً يجب أن نتمكن من العـودة خطـوةً إلى الـوراء في المسار التطوري بأن نزيل الجزء المضاف، ويجب على الكائن الحي عندها أن يبقى قادراً على القيام بمهامه الحيوية.

فـإذا كـانت الرئتـان قـد ظهرتـا مثلاً عنـدما خـرجت السـمكة الرئويـة من المـاء، يجب أن يكـون صـحيحاً أننـا إذا أزلنـا رئـتي السـمكة ستصـبح أقـل تعقيـداً لكن قـادرةً على الحيـاة والقيـام بالوظائف الحيوية كما كانت قبل ظهورهما! وبما أن هذا لا يحدث، فإن هذا يؤدي بالضرورة إلى أن نظرية التطور ليست صحيحة.

وكذلك؛ فإنـه إذا كـانت نظريـة التطـور مبنيـة على تصـور أن هذه الوظائف المعقدة الموجودة فى الكائنات الحية جاءت بشكل تدريجى عبر بلايين السنين، وأنه تم انتخاب كل شـيء صـالح أثنـاء هذه الفترة فتراكمت هذه الصلاحيات حتى وصلت إلى هذا التعقيد الـذى نشـاهده، والـذى يقـوم بكـل هـذه الوظـائف الحيويـة فى الكائنات الحية فلاشك أن هذا التصور ينهار إذا وجدنا فى الكائنـات الحية وظائف غير قابلة للاختزال.

وهذا ما أقـر بـه داروين نفسـه فى كتابـه أصـل الأنـواع حيث قال: (إذا كان من الممكن إثبات وجود أي عضو معقد لا يــرجح أن يكـون قـد تكـون عن طريـق تحـولات عديـدة ومتواليـة وطفيفـة، فسوف تنهار نظريتي انهيارا كاملا)

ومعنى أن هذا العضو معقد تعقيد غـير قابـل للاخـتزال أى أن الوظيفة التى يقوم بها لا وجود لها قبل أن تجتمع كل الأجزاء التى يتكون منها هذا الشيء.. وأنه لو فقد ولو جزء واحد من المكونـات لتلاشت الوظيفة بالكلية.

ومثل ذلك الأجهزة الحديثة المعقدة التى لـو قطعت منهـا أي سلك، أو أخرجت منها جزءا صغيرا، فإنها تفسد بالكليـة.. ذلـك أن هذه الأجهزة لا يمكن تصور تكونها بشـكل تـدريجى، نتيجـة تـراكم الصلاحيات والمنافع الـتى يمكن تحصـيلها من أشـكال منهـا أوليـة التركيب.

ومن الأمثلـة على ذلـك المصـعد الكهربـائى، فوظيفتـه حمـل الناس من الأدوار العلوية إلى السفلية أو العكس، وهـذه الوظيفـة لا يمكن تحقيقهـا قبـل أن تجتمـع كـل أجـزاء المصـعد من أسـلاك وأحبال ومحركات والصندوق الكبير الذى يدخله الناس، ويكون كل شـيء من هـذه الأشـياء فى موضـعه بالضـبط، وموصـلا بمصـدر الطاقة.. وكـل هـذا يجب أن يحـدث أولا قبـل أن يتحـرك المصـعد سنتيمترا واحدا.

أما لو أحضـرنا ربـع المكونـات الأساسـية للمصـعد أو نصـفها مثلا، فلن نتمكن من اسـتخدام المصـعد لطـابقين أو ثلاثـة حـتى نكمل باقى الأجـزاء الناقصـة، ولـذلك كـان هـذا تعقيـدا غـير قابـل للاختزال، ولا يمكن تكونه بشكل عشوائى بدون علم ولا حكمة ولا غاية.

فى حين أن العضو أو الشيء المعقد تعقيدا يمكن اختزالــه لا يحتاج إلى مصـمم، ويمكن أن يتكـون بالصـدفة وتـراكم صـلاحيات أجزائه، لأن كل جزء من أجزائه يحمل نفس الوظيفة التى يحملهـا هذا التعقيد المختزل في النهايـة لكن بمقـدرا أقـل، وإلا لمـا وجـد الانتخاب الطبيعى سببا لانتخاب تلك الأجـزاء والتـدريج يفيـد فقـط فى زيادة مقدرا الوظيفة.

وبالمقارنـة مـع مثـال المصـعد الكهربـائى نجـد الـدرج قـابلا للاختزال، ذلك أنه إذا كان عندنا درجـة واحـدة فقـد حققت منفعـة لأنها سترفعنا بمقدار ارتفاع هذه الدرجـة من درجـات الـدرج، ولـو أحضرنا ربع عدد درجات الدرج المطلوب لمبنى مكون من عشـرة طوابق لانتفعنا بها ولاستطعنا الصعود والهبوط عليهـا إلى طـابقين أو ثلاثة.. بخلاف المصعد الذى لا يمكن الإنتفاع به بأى نفـع إلا بعـد اكتمال كل أجزائه.

وبـذلك، فـإن طريقـة الـدرج هى الـتى تتبناهـا الداروينيـة فى تحصيل المنافع بشكل تدريجى بسيط لتحقيق الوظائف المطلوبة، وهي تنهار إذا لم تستطع تعميم هذا الأسـلوب على كـل الوظـائف الموجودة فى الكائنات الحية.

والأمثلة عن الوظائف الحيوية المتصفة بهذا الوصـف لا يمكن حصـرها.. ومن أمثلتهـا السـوط البكتـيرى، وتخـثر الـدم، وتشـفير الحمض النووي، وتنظيم الجهاز المناعى، وغير ذلك كثير.

ونحب أن ننبـه إلى أن التطـور الهائـل لعلم الكيمـاء الحيويـة منذ أواسط القرن الماضي وحتى اليـوم يصـب في خدمـة نظريـة التصـميم الـذكي، وخصوصـا في خدمــة التعقيـدات غـير القابلـة للاختزال[1].

ذلك أن أنه أدى إلى تغير جذري في معرفة العلم والطب بما يجري في جسم الإنسان، وبالذات في مقومات الحياة، فقـد تـبين للعلماء وبوضوح قاطع لا لبس فيه، أن حيـاة أي كـائن حي، قائمـة على عدد يصعب حصـره من الآلات والأجهـزة الـتي تعمـل بشـكل متكامل ومتزامن.. ولو توقف أي منها عن العمل لكان لها تأثيرات قد تكون مميتة على حياة الكائن الحي.

وهذه الآلات ليست مصنوعة من معادن وأخشاب وغيرها من المواد التي نعرفها، ولكنها مصـنوعة من جزيئـات كيميائيـة، تقـوم بكل ما يخطر وما لا يخطر على البال من أعمال، وتتحكم بكل مـا يجري في الكائن الحي من مهام.

فهي تحمـل المـواد، وتنقلهـا، ثم تفـرغ حمولتهـا في المكـان المناسب، وتنسخ الخلايـا وتعطيهـا شـكلها ولونهـا، وتنقـل صـفات الكائن الحي لذريته وتدافع عنه ضد الأعداء، وتولد التيار الكهربائي وتنقله وترسله إلى الأماكن المطلوبة وتقطعه عندما تنتهي مهمته، ولو عددنا كل ذلك بتفصيل لما انتهينا.

---

1) انظر: تطور الكيمياء الحيوية يهدم نظرية دارون، مقالة نشـرت في العدد 89 (نيسان 2015) من مجلة التقدم العلمي الكويتية.

وقد كان هذا التغير في المعرفة أحـد المعـاول الكـبرى الـتي ساهمت مع غيرها في هدم نظرية التطور، ذلك أنه من المعــروف أن نظرية داروين تقوم على أسس ثلاثـة.. أولهـا أن الكائنـات لهـا أصل مشترك.. والثـاني أن الاختلاف والتنـوع والتعقيـد الـذي نـراه في الكائنات هو نتيجـة طفـرات عشـوائية كـانت تحـدث للكائنـات على مر الملايين من السنين، وأن تراكم هذه الطفرات كان يؤدي إلى تغيرات في الكائنات الحية.. وثالثا الاصـطفاء الطـبيعي، الـذي ينتقي من الكائنات مـا تـؤدي طفراتـه المتراكمـة إلى تحسـن في نوعه، فيبقى ويتكاثر وينقل صفاته المحسـنة الجديـدة إلى ذريتـه، في حين ينقرض الكائن الأضعف أو ذو الصفات الأدنى.

لكن اكتشـاف العمليـات البيولوجيـة المتسلسـلة والمعقـدة، والتي لا تكاد تحصى، والموجودة في الخلايا الحيـة، كـان أحـد أهم عوامل انهيار مبدأ تـراكم الطفـرات، وبالتـالي انهيـار النظريـة من أساسها.

الإلحاد.. والتحرر النفسي

الظـــاهرة الـــتي تجمـــع الكثـــير من الملاحـــدة، وخصوصـــا [الوجوديـون] منهم هي تصـورهم أن وجـود اللـه يلغي وجـودهم، ولذلك يضعون أنفسهم بين خيارين: إما الإيمان بالله.. وإما الإيمان بأنفسهم.. أو بعبارة أخرى: إما عبودية الله، أو عبودية الأهواء التي تمليها عليهم نفوسهم.

وقد عبر عن هذا المعنى كل الملاحدة، وخصوصا الوجوديـون منهم، ومنهم [جان بول سارتر(1)] الذي استعمل كل الوسائل لبث مثل هذه الأفكار الخطيرة، والتي عـبر عنهـا بقولـه: (مـرة واحـدة شعرت بأن الله موجود حين كنت ألعب بعيدان الكبريت، وأحرقت سجادة صغيرة، وفيما كنت أخفي جرمي أبصرني الله فجأة.. لقـد شعرت بنظراته داخل رأسي.. أحسُ أنني مرئي منه بشكل فظيع، وشعرت بأنني هـدف حي للرمايـة، ولكن الإسـتنكار أنقـذني، فقـد اغتظت لفضوله المبتذل، لهذا رفضته وجدفت عليه فلم ينظر إليَّ أبدًا فيما بعد)(2)

وقال: (إذا انفجرت الحربة مرة أخـرى في روح الإنسـان، لم يبـق للآلهـة على هـذا الإنسـان أي سـلطة)، وقـال: (إذا كـان اللـه

1) جـان بـول سـارتر (1905 -1980) فيلسـوف وروائي وكـاتب مسرحي كاتب سيناريو وناقد أدبي وناشط سياسي فرنســي.. من مؤلفاتـه: الوجـود والعـدم (1943) والكتـاب المختصـر الوجوديـة مـذهب إنسـانى (1945) أو نقـد العقـل الجـدلي (1960) وأيضـا النصوص الأدبية في مجموعـة القصـص القصـيرة مثـل الحائـط أو رواياته مثل الغثيان (1938) والثلاثية طرق الحريـة (1945). كتب سارتر أيضا في المسرح مثل الذباب (1943) والغرفـة المغلقـة (1944) والعـاهرة الفاضـلة (1946) والشـيطان واللـه الصـالح (1951) ومساجين ألتونا (1959)، وغيرها.

2) نقلا عن: القس أنجيلوس جـرجس، وجـود اللـه وصـور الإلحـاد 85.

موجودًا فالإنسان عدم)، وقال: (إن وجود الله يعطل وجودي أنا، فالأفضل أن لا يكون الله موجودًا حتى أوجد أنا).. وقلت كلاما كثيرا غير هذا لا أذكره الآن.

وقال في مسرحية [الشيطان والإله الطيب]: (لم يكن هناك غيري، لقد قررت وحدي الشر، ووحدي اخترعت الخير، أنا الذي عشت، أنا الذي أفعل المعجزات، أنا الذين أتهم نفسي، وأنا وحدي من أستطيع الغفران لنفسي، أنا الإنسان، إذا كان الله موجودًا فإن الإنسان هو العدم)(1)

ومثل سارتر نرى [فويرباخ] الذي قال: (إن نقطة التحول الكبرى في التاريخ ستكون في اللحظة التي سيعنى فيها الإنسان إن الإله الوحيد هو الإنسان نفسه)، وقال: (الإنسان الذي يؤمن بالله لا يؤمن بنفسه، فالله هو الإنسانية لا أكثر ولا أقل، والدين يجب أن يموت، فيقوم على أنقاضه عالم على مقاييس الإنسان، الذي يلزمه أن يكون إله نفسه)(2)

ومثلهما [إيتان بورن] الذي قال: (يجب ألا يكون الله، حتى يكون الإنسان)

ومثلهم جميعا [باكونين] الذي قال: (إذا كان الله موجودًا فلست بحر، أنا حر فالله إذا غير موجود)، وقال: (تتألف حرية الإنسان من مُجرد التالي: أن يُطيع قوانين الطبيعة لأنه أدركها بنفسه على هذا النحو، وليس لأنها فُرضت عليه بواسطة سلطة خارجية، بشرية أو إلهية، جماعية أو فردية)، وقال: (تتضمن فكرة الإله التخلي عن العقل والعدالة، إنها النفي الأكثر حسماً للحرية الإنسانية. وتنتهي بالضرورة إلى إستعباد الجنس البشري في كل من النظرية والتطبيق)(3)

---

1) الشيطان والإله الطيب ص 131.

2) انظر: رحلة في قلب الإلحاد.

3) انظر هذه النصوص وغيرها كثير في كتاب [ما قاله الملاحدة

وهذه الكلمات وغيرها كثير تعبر عن حقيقة الإلحاد، وكونه قائما عن رغبة نفسية، لا عن حجة عقلية.. فالملحد لا يلحد لكون أدلة الإيمان لم تقنعه، أو لكونه يحمل أدلة الإلحاد، وإنما لشعوره بأن للإيمان أثره الكبير على حياته وسلوكه وعلاقاته، ويرى أن وجود الله سيحد من وجوده، ولذلك يلجأ إلى إعدم الله حتى يظل موجودا.

وموقفهم هذا ليس خاصا بالله، بل بكل شيء، ذلك أن الأنانية التي يسمونها حرية هي المتحكمة في كل سلوكاته وعلاقاتهم، وقد ذكر سارتر في بعض كتبه أنه عندما توفي والده هنأ نفسه بموته، لشعوره بتحرره منه، وقد قال في ذلك: (لو كان أبي حيًا لكان تمدَّد عليَّ بملء قامته وسحقني، ولحسن حظي مات أبي عندما كنت صغيرًا.. إن موت جان باتسيت (والده) كان الحدث الأهم في حياتي، لقد أعاد إليَّ حريتي)[1]

وهكذا كان ينظر بعين الريبة للذين يبدون له مودتهم ومحبتهم، فقد كان يقول عنهم: (إننا منذ الآونة التي نشعر فيها بأن إنسانًا آخر ينظر إلينا، إنما نشعر أيضًا بأن الآخر يسلبنا عالمنا على نحو من الأنحاء، هذا العالم الذي كنا نمتلكه وحدنا حتى هذه اللحظة)، وقال: (إنني ابتداءً من الآونة التي أشعر فيها أن أحدًا ينظر إليّ، أشعر أنني سلبت عن طريق نظر الآخر الموجه إليّ وإلى العالم، إنّ العلاقة بيننا وبين الآخرين هي التي تخلق شقاءنا)

بل عبر عن ذلك بعبارة فجة غليظة؛ فقال: (إن الآخرين هم الجحيم)

من خلال هذه الاقتباسات يمكننا التعرف على نفسية الملحد، حتى نعرف كيف نناقشه؛ فأكثر الملاحدة لم يدرسوا علوما، ولا فلسفات، ولا علاقة لهم بالمنطق والجدل، وإنما هم أصحاب نفوس شهوانية، يتصورون أنهم ما خلقوا في الحياة إلا ليمارسوا ما تهفو إليه غرائزهم، ولذلك يقاومون كل من يتصورون أنه يقف

ولم يسجله التاريخ]

1) الإلحاد.. نشأته وتطوُّره ج 1 ص 169.

دون حريتهم ورحية غرائزهم.

ولذلك نرى الوجودية ـ التي هم بنت الإلحاد وأمه ــ تتصور الوجود وجودا سخيفا بلا غاية.. وجودا في عالم لا معقول.. والإنسان فيه لا يعرف من أين أتى، ولا إلى أين هو ذاهب، فهو بمثابة لقيط في مكان موحش، هو الطبيعة، لا يجد حوله أبًا ولا أمًا، وليس له ما يعتمد عليه إلا نفسه، وكل ما يعرفه عن وجوده هو أنه محكوم ومُسيَّر(1).

وترى الحياة كذلك كلها صراعا بين النفس والعالم، ذلك أنها تتوهم أن كل شيء يريد أن يسلب من الإنسان حريته، وقد قال سارتر في كتابه [الوجود والعدم]، والذي دعا فيه إلى الفلسفة الوجودية، مختصرا الوجود في كونه ليس سوى (صراع عبثي بين الحريات، فكل حرية تحاول أن تفني الأخرى، حتى تحتفظ باستقلالها السيادي)(2)

وقد طرح هذه الفكرة في [مسرحية الذباب] المشهورة، والتي مثلت كثيرا، وهي تهدف للثورة ضد الله، حتى يستطيع الإنسان أن يعيش حرًا، يفعل كل ما يريد بضمير مستريح، وقد ورد فيها هذا المشهد الذي يخاطب فيه [أوريست] الإله قائلة له: (أنت يا جوبتر ملك الآلهة.. ملك النجوم والحجر .. ملك أمواج البحر.. ولكنك لستَ ملك البشر.. فيرد جوبتر، وهو رمز في المسرحية لله: ألست ملكك أيها الدودة الوقحة؟ من خلقك إذًا؟ .. فترد عليه أوريست: أنت. لكن ما كان عليك أن تخلقني حرًا.. فيقول جوبتر: منحتك الحرية لتخدمني.. فترد أوريست: لربما، إلا أنها انقلبت عليك، ولا نستطيع بعد شيئًا، لا أنت ولا أنا.. منذ أن خلقتني لم أعد ملكًا لك.. إنك حتى هذه الساعة كنتُ حجابًا على عيني وسدادًا من الشمع في أذني، خلقتني لأنفذ خططك.. وفجأة انقضت عليَّ الحرية وأتعبتني، وشعرت بنفسي

1) دراسات في علم اللاهوت، القمص بولس عطية بسليوس، ص 265، 266.

2) ملحدوث محدثون ومعاصرون، د. رمسيس عوض، ص 71.

وحيدًا كل الوحدة. ولم يبقَ شيء في السماء من خير أو شر، وما من أحد يلقي إليَّ أوامره.

***

بناء على هذا كله يحتاج الداعية المواجه للإرهاب إلى استعمال أساليب أخرى غير الأساليب التي شرحناها سابقا، وهي تعتمد أولا على تصحيح تصورات الملاحدة التي يحملونها عن الله، والتي سببها ـ في كثير من الأحيان ـ الأديان المنحرفة، ثم بيان مدى الخسارة التي يخسرونها في حال جحودهم لله، وعدم تسليمهم له، وأولهم نفوسهم التي أرادوا أن يلغوا الله من أجلها.

وبناء على هذا سنذكر في المبحثين التاليين ما يجنيه الملحد من خسائر سواء تعلقت بنفسه التي بين جنبيه، أو بمصيره الأبدي في مقابل ما يجنيه المؤمن من فوائد من ذلك الإيمان سواء لنفسه، أو لمصيره.

أولا ـ الإلحاد .. وخسارة الحقيقة الإنسانية:

وقد عبر عن هذا المعنى آيات قرآنية كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: 15]، فالآية الكريمة تخبر عن قاعدة كونية كبرى، وهي أن الخاسرين الحقيقين هم من خسروا أنفسهم، وسبب خسارتهم لأنفسهم هو خسارتهم لله؛ فالله هو مصدر وجودهم، ومن خسر الله، فلن يبقى لوجوده أي قيمة.

ولذلك نرى الملاحدة يرون كل شيء مثل السراب، لا أهمية له، ولا غاية، ولا قيمة، ولا يروي من العطش، ولا يفيد شيئا.. كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: 39]؛ فهذه الآية الكريمة تصور بدقة حال هؤلاء الجاحدين من الملاحدة، فهم يلهثون وراء السراب الذي يتوهمونه ماء، فإذا وصلوا إليه لم يجدوه شيئا، وظلوا على عطشهم وفاقتهم وحاجتهم.. حينها فقط

يعلمون أنه لا يمكن أن يروي ظمأهم إلا الله.. وحينذاك فقط يتحول المتواضع منهم إلى الله.. أما المتكبر، فيظل على هواه، ويمتلئ بالتشاؤم والحزن والألم لأنه لم يجد إلا السراب.

ولهذا نرى الكثير من الملاحدة أو اللاأدريين أو أولئك الذين كانوا لا يبالون بالإيمان بالله تحولوا إليه بعد أن عرفوا قيمة الإيمان بالله، وعدم وجود معنى للحياة من دونه.. ومنهم الفيلسوف الألماني الكبير مارتن هايدغر الذي كان يرى أنه لا يمكن البتّ في وجود الله أو عدم وجوده.. لكنه أنهى مساره الفلسفي بمقولته الشهيرة [إنه لا يُخلّصنا إلا إله]

ومنهم عبد الرحمن بدوي، الذي كتب عن [الوجودية] و[الزمن الوجودي]، بل وصفه بعضهم أنه [رائد الوجودية فى الوطن العربي]، لكنه وبعد تلك المسيرة الطويلة، ترك ذلك كله، وتوجه إلى الإيمان، وقد قال في حوارا جرى معه في آخر حياته: (أي عقل ناضج يفكر لا يثبت على حقيقة واحدة.. ولكنه يتساءل ويستفسر ويطرح أسئلته في كل وقت، ويجدد نشاطه باستمرار، ولهذا فأنا في الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلي عن كل ما كتبت من قبل، من آراء تتصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الادب الملتزم بالحق والخير والجمال)[1]

والأمثلة على ذلك أكثر من أن نعدها أو نحصيها.. فالوجودية ليست قاصرة على الفلاسفة ولا المفكرين، بل هي تعم كل إنسان باحث عن ذاته وحقيقته.. فمنهم من يصل إليها، ومنهم من يقترب منها، ومنهم من يضل عنها، ومنهم من ينحرف بها..

وبناء على هذا ظهرت الدعوات إلى الإيمان بأي شيء، أو الإيمان لأجل الإيمان، حتى يتخلص الإنسان من عقدة العبث، واللا غاية، التي تجعل الحياة لا قيمة لها.

ومن أمثلة ذلك ما طرحه [وليم جيمس] (1842ـ1910)،

1) انظر مقالا بعنوان: في آخر حوار معه الدكتور عبدالرحمن بدوي، نعم.. عدت إلى الإسلام بعد اغتراب ستين عاماً، أجرى الحوار: صلاح حسن رشيد، مجلة الحرس الوطني.

الفيلسوف البراغماتي المعروف، والذي وضـع أربعـة قواعـد لفهم الحقيقة هي[1] :

القناعة والرضا: فمصداقية الفكرة أو القضية عنده تتحــدد بمـدى تحقيقهـا للرضـا، وهي رهن بمـا يـترتب عليهـا من إرضـاء لحاجات الإنسان البسيطة والمعقدة.

الفائدة والنفع: فالفكرة عنده لا تكون ذات فائدة إلا بقـدر ما تزودنا به من الشعور بالراحة والطمأنينة.

التحقق: فمطابقـة القضـايا في البحث العلمي عنـده تحتـاج الى مبدأ التحقق في تعزيز صحة تلـك القضـايا، ذلـك أن صـحتها ـ كما يرى ـ تكمن في النتائج العملية التي تنبثق عنها.

الاختيار: فالاعتقاد ـ كما يرى ـ يقودنا إلى الأدوات والمنـاهج المنتجـة بالاختيـار الـذي يـأتي نتيجـة للخـبرات السـابقة للإنسـان، ونجاحها يعتمد على ماتقدمه من فوائد كبيرة على المدى البعيد.

وبنــاء على هــذا دعــا في كتابــه [إرادة الاعتقــاد] إلى إرادة التسـليم بمعتقـدات قـد لا يبررهـا العقـل، ولكن تبررهـا المنـافع العملية التي تنتج عنها، فهي لا تتضمن إيماناً اعتباطيـاً لا يمـيز بين الصحيح والفاسد من المعتقدات، بل تتضمن اختيـاراً حقيقيـاً ينشـأ عن نتيجة لها خطرها.

وقـد نص في كتابـه ذلـك إلى أن الإنسـان لابـد أن تكـون لـه تجربة دينية، فهو بحاجة للسند الذي يقـف لجـواره ويشـيع الراحـة والسلام الداخلي في نفسه، وهو يحتاج لإله يـدعم الخـير ويحـارب الشر.

---

1) انظر: مقالا مهما حول الموضوع بعنـوان: سـيكولوجية الـدين عنــد وليم جيمس، منتهى عبــد جاســم، نشــره موقــع: الحــوار المتمدن، العدد: 3352 ـ 2011 / 5 / 1.. وانظر: البراغماتية، والعقل والدين، لـوليم جيمس، والعقـل الامـريكي يفكـر، لشـوقي جلال، وقصة الفلسفة الحديثة، لزكي نجيب محمـود واحمـد امين، ودراسات في الفلسفة المعاصرة، لزكريا إبراهيم.

ويـرفض جيمس نظريـة اللا أدريين لأنهـا ضـعف وعجـز عن اتخاذ القرار، ويرفض قولهم إننـا لا يمكن أن نـؤمن بشـيء مـا لم يكن عليه دليل حسـي قـاطع أو بينـة منطقيـة كافيـة تتفـق عليهـا العقول، حيث يجيبهم بأنه من حق الإنسان أن يؤمن، من حقــه أن يعتقد بالله بسبب عاطفته، مع حقه أن يـؤمن بوجـود اللـه لانتفـاء الـدليل عنـد المخـالف، مـع حقـه أن يـؤمن لأي سـبب كـان بكـل الفروض الدينية وبالأخلاق، لأن هذه الفروض حية وخلاقة ومفيدة.

ولم يحصر جيمس مذهبـه هـذا في الاعتقـاد بوجـود اللـه بـل ألحق به مسألة الخلود والحياة ما بعد المـوت، لأن مصـالح كثـيرة ترتبط بذلك.

بناء على هـذا، سـنحاول أن نـذكر هنـا بعض المعـاني الطيبـة التي يخسرها الملاحدة بسبب خسارتهم للإيمان بالله، وكلهـا ممـا يدل عليه الواقع، وأشارت إليه النصوص المقدسـة، ونقتصـر منهـا على ناحيتين:

1 ـ الإيمان.. وتحقيق السعادة:

تعتبر السعادة ـ بإقرار جميع فلاسفة الدنيا، بل جميع بشرها ـ هي الغاية القصوى التي يهدف إليها كل إنسـان، وهي تتشـكل من معـان ومقتضـيات كثـيرة لا يمكن أن تتحقــق بكاملهــا من دون الإيمان.

فـأول مقتضـياتها(1) ، الأمـان النفسـي، فلا يمكن أن يسـعد الإنسان ما لم يعش الأمان والسلام، وهما مرتبطان ارتباطـا وثيقـا بالإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82]

ومن مقتضــياتها الحيــاة الطيبــة المطمئنــة الخاليــة من المنغصات النفسية والاضطرابات الروحية؛ ولهذا نجد روح المؤمن هادئـة طيبـة تعيش منسـجمة مـع ذاتهـا ومـع محيطهـا، تحيطهـا

1) انظر: أثر الإيمان باللـه تعـالى في تحقيـق الأمن النفسـي، د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق.

السكينة والأمن، محصنة من عوادي النفس الإمارة بالسوء، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:97]

ومن مقتضياتها السكون عند حلول المحن التي تطيش بالعقل، فالإيمان بالله وحده من يملك جميع أنواع التسلية والعزاء، وهو يورث هداية للنفس تخرجها من مصيبتها وتهديها للتعاطي الإيجابي مع هذه المصيبة، فتزيدها خيرا على خير، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: 11]

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)[1]

ومن مقتضياتها الشعور بالسكينة والأنس وراحة البال، وذلك ما يتحقق للمؤمن الذي يشعر أنه في حمى الله تعالى، ومن كان تحت رعاية الله وحفظه لا يضيع، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]، وقال: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر:36] وقال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 3])

ومن مقتضياتها صلاح البال والقلب والعقل والنفس، ولا يتحقق ذلك إلا بالإيمان، ذلك أن كل هذه اللطائف لا تستقر إلا بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: 2]، وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي

---

1) رواه مسلم (8/227)

تلبس بها أهل الشرك.

وقد ضرب الله تعالى مثلا يوضح حقيقة العلاقة بين الإيمان وحصول آثاره من راحة القلب وطمأنينة الصدر وطيب النفس وصلاح البال، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 29]

ومن مقتضياتها [1] تحقيق البهجة والانشراح والتّفاؤل؛ ذلك أن المؤمن يعرف أنّ الحياة ذات هدف، وأنّ الهدف هو الخير والتكامل والسعادة، وهذا ما يجعله سعيدا مطمئنا، مثل ذلك الذي يعيش في بلد يعتبر قوانينه وأنظمته وتشكيلاته صحيحة وعادلة، ويؤمن أيضًا بصدق نيّة مدراء البلد الأصليّين، ولا بدّ أن يرى مجال السموّ والرقيّ مهيّئًا ولجميع الأفراد الآخرين، ويعتقد بأنّ الشّيء الوحيد الذي يمكن أن يؤدّي إلى تأخيره هو كسله وعدم تجربته هو وأمثاله من المكلّفين المسؤولين.

وفي رأي هذا الشّخص أنّ المسؤول عن التّأخير هو نفسه، لا أنظمة البلد وتشكيلاته، وكلّ نقصٍ موجود جاء من عدم قيامه هو وأمثاله بواجباتهم ومسؤوليّاتهم. وبالطّبع، فإنّ هذه الفكرة تحرّك فيه الغيرة، وتدفعه إلى الحركة بالتّفاؤل والأمل.

لكنّ الشّخص الذي لا إيمان له في عالم الوجود يشبه شخصًا يعيش في بلد يعتبر قوانين البلد وتشكيلاته ومؤسّساته فاسدة وظالمة، ولا بدّ له من قبولها، فباطن مثل هذا الشّخص مليء بالعقد والحقد، ولا يفكّر بإصلاح نفسه أبدًا، بل يفكّر أنّه لمّا كانت الأرض والسّماء على غير تمهيد، فسائر أنحاء الوجود ظلمٌ وجور وخطأ، وأيّ أثرٍ لصواب ذرّة مثلي؟! ومثل هذا الشّخص لا يلتذّ بالعالم أبدًا. والعالم بالنّسبة إليه كالسّجن الرّهيب، ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124]

---

1) انظر: التوحيد والعدل في فكر الشهيد مرتضى مطهري، جمعية المعارف الإسلامية الثقافيّة، مركز نون للتأليف والترجمة..

وقد عبر بديع الزمان النورسي عن هذا المعنى بواقعة قارن فيها بين الرؤية الإيمانية للوجود، والرؤية الملحدة، فقال: (لقد رأيت في واقعة خيالية أن هناك طودين شامخين متقابلين نصب على قمتيهما جسر عظيم مدهش، وتحته واد عميق سحيق، وأنا واقف على ذلك الجسر والدنيا يخيم عليها ظلام كثيف من كل جانب، فلا يكاد يرى منها شيء، فنظرت إلى يميني فوجدت مقبرة ضخمة تحت جنح ظلمات لا نهاية لها.. ثم نظرت إلى طرفي الأيسر فكأني وجدت أمواج ظلمات عاتية تتدافع فيها الدواهي المذهلة والفواجع العظيمة وكأنها تتأهب للانقضاض. ونظرت إلى أسفل الجسر فتراءت لعيني هوة عميقة لا قرار لها.. كنت لا أملك سوى مصباح يدوي خافت النور، أمام كل هذا الهدير العظيم من الظلمات، فاستخدمته فبدأ لي وضع رهيب، إذ رأيت أسوداً وضواري ووحوشاً وأشباحاً في كل مكان، حتى في نهايات وأطراف الجسر، فتمنيت أن لم أكن أملك هذا المصباح الذي كشف لي كل هذه المخلوقات المخيفة، إذ أنني أينما وجهت نور المصباح شهدت المخاطر المدهشة نفسها)(1)

وقد عبر بذلك المصباح الباهت الضعيف عن رؤيته الذاتية للأشياء، والتي أحالتها في عينيه إلى تلك الصور المفزعة، وهي نفس الرؤية التي يرى بها الملاحدة الأشياء.

ثم ذكر أنه بعد أن استشاط غيظا من مصباحه الضعيف، والتجأ إلى السراج المنير الذي تنكشف به الحقائق، وهو سراج الإيمان رأى أمورا مختلفة تماما؛ فقد (انقشعت تلك الظلمات، وانكشفت وزالت نهائياً، وامتلأ كل مكان وكل جهة بذلك النور وبدت حقيقة كل شيء ناصعة واضحة.. فوجدت أن ذلك الجسر المعلق الرهيب ما هو إلا شارع يمر من سهل منبسط، وتبينت أن تلك المقبرة الهائلة التي رأيتها على جهة اليمنى ليست إلا مجالس ذكر وتهليل وندوة كريمة لطيفة وخدمة جليلة وعبادة سامية تحت إمرة رجال نورانيين في جنائن خضر جميلة تشع بهجة ونوراً، وتبعث في القلب سعادة وسروراً.. أما تلك الأودية

(1) الكلمات، النورسي، ص 350.

السحيقة والدواهي المدهشة والحوادث الغامضة التي رأيتها عن يساري، فلم تكن إلا جبالاً مشجرة خضراء تسر الناظرين، ووراءها مضيف عظيم ومروج رائعة ومتنزه رائع، نعم هكذا رأيت بخيالي، أما تلك المخلوقات المخيفة والوحوش الضارية التي شاهدتها فلم تكن إلا حيوانات أليفة أنيسة) (1)

وبهذا صور النورسي في مثاله هذا حقائق الوجود التي تاه عنها كل ملاحدة الدنيا، فأمضوا حياتهم ممتلئين رعبا.. ناسين أنهم في فنادق الضيافة الإلهية.

وقد فسر بديع الزمان تلك الواقعة، فقال: (فذاكما الجبلان هما: بداية الحياة ومنتهاها، أي هما عالم الأرض وعالم البرزخ، وذلك الجسر هو طريق الحياة، والطريق الأيمن هو الماضي من الزمن، والطريق الأيسر هو المستقبل منه، أما المصباح اليدوي فهو أنانية الإنسان المعتدة بنفسها والمتباهية بما لديها من علم، والتي لا تصغي إلى الوحي السماوي. أما تلك الغيلان والوحوش الكاسرة فهي حوادث العالم العجيبة وموجوداته)(2)

وعلى هذا، فلا الزمان الماضي مقبرة كبيرة واسعة للأموات يسودها الصمت الرهيب، بل تاريخ مفعم بالحيوية والعبادة ونور الإيمان، ولا الموت عدم وفناء، بل بداية لحياة جديدة وعالم آخر، ولا تحمل تغيرات الطبيعة وثوراتها المدمرة الدمار والخراب للبشرية، بل أدوات طيعة بيد القدرة الإلهية يسوقها لحكم ومقاصد خيرة(3) .

في مقابل ذلك نرى الملاحدة ممتلئين بكل أنواع الضنك والتشاؤم، كما عبر عن ذلك [شوبنهاور] فيلسوف التشاؤم المعروف.. فقد قال: (حياة الإنسان كلها ليست إلا نضالا مستميتا

---

1) الكلمات، النورسي، ص 351.

2) الكلمات، النورسي، ص 351.

3) انظر: الأمثال في رسائل النور، د. الشفيع الماحي أحمد.

من أجل البقاء على قيد الحياة مع يقينه الكامل بأنه سيهزم في النهاية).. وقال: (ينبغي أن ندمر في داخلنا، وبكل الأشكال الممكنة، إرادة الحياة، أو الرغبة في الحياة، أو حب الحياة).. وقال: (يُقال أن السماء تحاسبنا بعد الموت على ما فعلنا في الحياة الدنيا.. وأنا أظن أنه بإمكاننا أن نحاسبها أولًا عن المزحة الثقيلة للوجود الذي فُرض علينا من دون أن نعلم لماذا؟ وإلى أي هدف؟)

ومثله قال عالم الأعصاب، والمحلل النفسي النمساوي (فكتور فرنكل): (للكثير من الناس اليوم وسائل للحياة، غير أنهم يفتقدون معنى يعيشون لأجله)

وقد ضرب بديع الزمان النورسي مثالا جيدا قارن فيه بين الرؤية الإيمانية والإلحادية للحياة، وأثرها في تحقيق السعادة، فسربه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة:3)، فقال: (ان كنت تريد ان تعرف مدى ما في الايمان من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، فاستمع الى هذه الحكاية القصيرة) (1)

ثم ذكر أنه خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى احدهما وكان أنانياً شقياً الى جهة، ومضى الآخر وهو رباني سعيد الى جهة ثانية.

فالاناني المغرور الذي كان متشائماً لقي بلداً في غاية السوء والشؤم في نظره، جزاءاً وفاقاً على تشاؤمه، حتى انه كان يرى - أينما اتجه - عجزةً مساكين يصرخون ويولولون من ضربات ايدي رجال طغاة قساة ومن اعمالهم المدمّرة.

فرأى هذه الحالة المؤلمة الحزينة في كل ما يزوره من اماكن، حتى اتخذت المملكة كلها في نظره شكل دار مأتم عام. فلم يجد لنفسه علاجاً لحاله المؤلم المظلم غير السُكر، فرمى نفسه في نشوته لكيلا يشعر بحاله، إذ صار كل واحد من اهل هذه المملكة يتراءى له عدواً يتربص به، واجنبياً يتنكر له، فظل في

1) الكلمات، الكلمة الثانية.

عذاب وجداني مؤلم لما يرى فيما حوله من جنائز مرعبة ويتامى يبكون بكاءاً يائساً مريراً.

أمّا الآخر الرجل الربّاني العابد لله، والباحث عن الحق، فقد كان ذا أخلاق حسنة بحيث لقي في رحلته مملكة طيّبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال.

فهذا الرجل الصالح يرى في المملكة التي دخلها احتفالات رائعة ومهرجانات بارعة قائمة على قدم وساق. وفي كل طرف سروراً، وفي كل زاوية حبوراً، وفي كل مكان محاريب ذكر. حتى لقد صار يرى كل فرد من أفراد هذه المملكة صديقاً صدوقاً وقريباً حبيباً له. ثم يرى ان المملكة كلها تعلن - في حفل التسريح العام - هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات الجوقة الموسيقية وهي تقدم ألحانها الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يساقون الى الخدمة والجندية.

فبينما كان ذلك الرجل الاول المتشائم منشغلاً بألمه وآلام الناس كلهم.. كان الثاني السعيد المتفائل مسروراً مع سرور الناس كلهم فرحاً مع فرحهم. فضلاً عن انه غنم لنفسه تجارة حسنة مباركة فشكر ربه وحمده.

ولدى عودته الى أهله، يلقى ذلك الرجل فيسأل عنه، وعن أخباره، فيعلم كل شئ عن حاله فيقول له:(يا هذا لقد جننتَ! فان ما في باطنك من الشؤم انعكس على ظاهرك بحيث أصبحتَ تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأن كل تسريح واجازة نهب وسلب. عُد الى رشدك، وطهّر قلبك.. لعل هذا الغشاء النكد ينزاح عن عينيك. وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج. فإن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العدل والمرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وان مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم عينيك... لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور)

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسه ويرجع الى صوابه

رويداً رويداً، ويفكر بعقله ويقول متندماً:(نعم لقد اصابني جنون لكثرة تعاطي الخمر.. ليرضَ الله عنك؛ فلقد انقذتني من جحيم الشقاء)

ثم يفسر المعاني الجليلة التي يحملها هذا المثال، فيقول: (فيا نفسي! اعلمي ان الرجل الاول هو الكافر أو الفاسق الغافل فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الاحياء ايتام يبكون تألماً من ضربات الزوال وصفعات الفراق.. أما الانسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راع ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته..وأما الموجودات الضخام ــ كالجبال والبحار ـ فهي في حكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة.. وامثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الانسان وضلالته تذيق صاحبها عذاباً معنوياً مريراً.

أما الرجل الثاني، فهو المؤمن الذي يعرف خالقه حق المعرفة ويؤمن به، فالدنيا في نظره دار ذكر رحماني، وساحة تعليم وتدريب البشر والحيوان، وميدان ابتلاء واختبار الانس والجان.. أما الوفيات كافة ـ من حيوان وانسان ــ فهي اعفاء من الوظائف، وانهاء من الخدمات، فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودّعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنوياً، حيث انهم ينقلون الى عالم آخر غير ذي قلق، خال من اوضار المادة واوصاب الزمان والمكان وصروف الدهر وطوارق الحدثان، لينفسح المجال واسعاً لموظفين جدد يأتون للسعي في مهامهم.. اما المواليد كافة ــ من حيوان وانسان ــ فهي سَوقة تجنيد عسكرية، وتسلّم سلاح، وتسنّم وظائف وواجبات، فكل كائن انما هو موظف وجندي مسرور، ومأمور مستقيم راضٍ قانع...وأما الاصوات المنبعثة والاصداء المرتدة من ارجاء الدنيا فهي إما ذكر وتسبيح لتسنم الوظائف والشروع فيها، أو شكر وتهليل ايذاناً بالانتهاء منها، أو أنغام صادرة من شوق العمل وفرحته..

فالموجودات كلها ـ في نظر هذا المؤمن ــ خدام مؤنسون، وموظفون أخلاّء، وكتبٌ حلوة لسيده الكريم ومالكه الرحيم.. وهكذا يتجلى من ايمانه كثير جداً من أمثال هذه الحقائق التي هي

في غاية اللطف والسمو واللذة والذوق)

2 ـ الإيمان.. والتحقق بالحقيقة الإنسانية:

ذلك أن الملاحدة يتصورون الإنسان بصور ممتلئة بالتشويه، فيقتصرون منه على مقتضيات جسده دون مقتضيات روحه، وبذلك يحولونه إلى مجرد بهيمة ترتع وتمرح، ولا هدف لها، ولا غاية.. وبذلك قد يسعد جسدها، ولكن روحها تظل ممتلئة بالشقاء، في مقابل ذلك نرى المؤمن يعيش بجميع لطائفه ومكوناتها، ويعطيها جميعها ما تتطلبه من حقوق.

ذلك أنه يؤمن أن حقيقته ليست في جسده، وإنما في روحه؛ فالروح هي سبب التكريم الذي حصل له كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29)

وعدم معرفتنا بحقيقة الروح لا يعني عدم وجودها، ولا يعني عدم الإمكانية الاستفادة من الطاقات المتاحة لها؛ فقد ظلت البشرية في دهورها جميعا تأكل الفواكه والخضر واللحوم، وهي لا تعرف عناصرها ومركباتها، ومع ذلك ظلت تستفيد منها، بل لا تستطيع أن تعيش من دونها.. وظلت منذ سالف الدهور متثاقلة إلى الأرض منجذبة إليها مع أنها لا تعلم قوانين الجاذبية.. وظلت منذ سالف الدهور والأحقاب تستفيد من الآلات التي جهزت بها من القلب والمعدة والرئتين وغيرها.. من غير أن تعلم من تفاصيل ذلك شيئا.

ولذلك؛ فإن المؤمن لا ينكر الروح لعدم قدرته على رؤيتها أو التعرف عليها، ذلك أنه عندما لا تكون له الوسائل الكافية التي يبحث بها عن الحقائق والماهيات يكتفي بالاستفادة منها وبالاعتراف بها دون أن يحاول بعقله المحدود أو بوسائله المحدودة تخيلها؛ فنحن لا نرى إلا الألوان والأحجام والأشكال.. فلذلك لا نستطيع أن نرى ما لم تكن له من هذه الجسوم ما تستطيع مداركنا البسيطة أن تدركه.. ولذلك من العبث أن نبحث فيه.. ولهذا قطع الله عنا الجدل الذي يمكن أن نقع فيه إذا ما أردنا أن نبحث عن حقيقة الروح[1]، فقال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ

---

[1] هذا هو السر الذي عزا إليه المحققون من العارفين سر عدم إمكان معرفة الجماهير للروح، وقد تحدث الغزالي عن ذلك عند ذكره للأسرار التي يختص بها المقربون ولا يشاركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم، فقال القسم الأول: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك. وإخفاء سر الروح وكف رسول الله ﷺ عن بيانه من هذا القسم فإن حقيقته بما تكل الأفهام عن دركه

عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء:85)

ولذلك أمرنا بدل البحث عن الماهية أن نستثمر الطاقات الكبرى التي تتمتع بها أرواحنا في أداء الأمانة التي كلفنا بها، قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72)

وبناء على هذا ورد في النصوص المقدسة وفي التراث العلمي الإسلامي بيان طاقات الروح، وقدراتها، وكيفية الاستفادة منها، وكيفية تحقيق السعادة لها، وهو ما يستحيل أن نجد مثله عند الملاحدة الذي قصروا الوجود الإنسان على صورته البهيمية المغالية في الحس والكثافة.

وحتى نرى الفرق الكبير بين الرؤية الإيمانية المكرمة للإنسان، ولحقيقته العظيمة، وبين الرؤية المادية الإلحادية القاصرة نذكر بعض ما ذكره علماء النفس المسلمين في هذا الجانب، وهو محل اتفاق بينهم وبين جميع المؤمنين حتى من غير المسلمين، فقد ذكروا أن الوجود الدنيوي للإنسان يتطلب وسائل خاصة يتمكن بها الإنسان من السكن على هذه الأرض، كما يتطلب رائد الفضاء لباس خاصا يتناسب مع جو القمر، أو أي جو يريد أن يتعامل معه.

واللباس الذي يتناسب مع هذه الأرض، هو هذا الجسد الترابي، وخصائصه هي نفس خصائص المكونات الحية الموجودة على هذه الأرض، فلذلك صار يفتقر إلى ما يحفظه، وما يدفع عنه الهلاك.

وهذا الحفظ والتعهد يتطلب أعضاء تجلب الغذاء وغيره، وأعضاء تدفع عن النفس الهلاك.

وكل هذه الأعضاء التي سلح بها بدن الإنسان هي الوسائل الأساسية لتحقيق متطلبات الوجود من الغذاء والدفاع، بل ليس هناك

وتقصر الأوهام عن تصور كنهه. ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله ﷺ فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة. ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه)(انظر: الإحياء: 1/100)

جزء من جسد الإنسان لا يقوم بهذا الأمر.

ومع أن أكثر هذه الأعضاء يقوم بهذه الوظائف تلقائيا إلا أن أصل الغذاء والدفاع ركب في الجهاز الإرادي للإنسان فتنة وابتلاء.

فركب في الإنسان جهاز الشهوة الدافع إلى الغذاء والحفاظ على النسل.. كما ركب فيه جهاز الغضب الدافع إلى الحمية والحفاظ على الوجود.. وهذان الجهازان ينتظم تحتهما كل ما تتطلبه النفس من غرائز الوجود، وهما المستعملان لأعضاء البدن في تحقيق متطلبات هذه الغرائز.

قال الغزالي يشرح ضرورة هذه الغرائز :(فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها)[1]

والأمر إلى هذا المحل تتفق فيه النفس البشرية مع النفس الحيوانية، وليس هناك أي خصوصية للإنسان في هذه الجوانب، وليس هناك أي مجال للمدح أو الذم لما يتعلق بمتطلبات هذه الغرائز.

وإنما يبدأ التكليف، وينشأ المدح والذم من غريزة أخرى لها علاقة بهذه الغرائز من جهة، ولها علاقة بسر وجود الإنسان من جهة أخرى، فهي بين بين، وعلى أساس هذه الغريزة تتحدد علاقة الإنسان بنفسه.

وهذه الغريزة هي غريزة الإدراك المزودة بأدوات التعرف على العالم الذي نزلت روح الإنسان إليه.

قال الغزالي مبينا وجه الحاجة إلى هذه الغريزة وعلاقتها بما سبقها من غرائز :(ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق، وظاهر، وهو العين والأذن والأنف وغيرها)

---

1) الإحياء:3/5.

وزود بالإضافة إلى هذه الحواس بوسائل التعامل مـع المعلومـات والمدركات، ويمكن إدراكها بسهوله (فإنّ الإنسان بعـد رؤيـة الشـيء يغمض عينـه فيـدرك صـورته في نفسـه وهـو الخيـال، ثم تبقى تلـك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكـر فيمـا حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتـذكر مـا قـد نسـيه ويعـود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بـين المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيـل وتفكـر وتـذكر وحفظ)

فهذه هي الغرائز التي يحفظ بها الإنسان وجوده على هذه الأرض ــ والـتي ذكرهـا علمـاء المسـلمين بنـاء على دراسـتهم التحليليـة للإنسان[1] ـ وربما استفادوا في ذلك من غيرهم.. ولا حرج عليهم في ذلك.

والفرق بين الرؤية الإيمانية والرؤية الإلحادية لهذه الغرائز، هي أن الرؤية الإلحادية تعتبرها أصلا وهدفا وغاية، بينما الرؤية الإيمانيـة تراهـا مجرد وسائل لحفظ الوجود الإنسـاني على الأرض، أمـا الغايـة فـأكبر بكثير.

وقد ضرب الغزالي مثـالا عن حقيقـة الإنسـان ــ الـتي هي روحـه وسر وجـوده ــ وعلاقتـه ببدنـه بملـك في مدينتـه ومملكتـه، فالبـدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها، والجوارح وقواهـا بمنزلـة الصناع والعملة، والقـوة العقليـة المفكـرة كالمشـير الناصـح والـوزير العاقل، والشهوة كالعبد يجلب الطعام إلى المدينة، والغضب والحمية كالحرس والشرطة.

أما العبد الجالب للطعام، والذي يمثل الشهوة، فهـو كـذاب مـاكر

---

1) وضع مكدوغل 14 غريزة، أضاف إليها غرائز أخرى، ومن أهمها غريزة المقاتلة، البحث عن الطعام، التملك، الجنس، الابوة، الراحة، النوم، وقد كان مكدوغل يعبر عن هـذه الغرائـز بالغرائز الفطرية. إلا أن آراءه هذه لقيت بعض النقد، ومن أهم ما وجه اليها من نقد:

1. تنـافي اتجـاه الغرائـز الفطريـة مـع الاتجـاه العلمي للبحث، وكونهـا خارجـة عن إطـار السيطرة والتحكم، اذ أن الغريزة من الأمور الانفعالية.

2. التشـكيك في عـدد الغرائـز المطروحـة (بين 14 و36) ويصـل العـدد، في رأي وليم جيمس، الى مئة غريزة.

3. يرى علماء الانثروبولوجيا وعلم الاجتمـاع أن الاختلاف، في سـلوك الإنسـان، يعـود إلى الاختلاف في الثقافة بين مجتمع وآخر، فتنتفي بعض الغرائز عنـد بعض المجتمعـات، كغريـزة المقاتلة، مثلا، إذ أن بعض المجتمعـات، كـالهنود الحمـر، في كنـدا، يتنـازلون عن الممتلكـات تعبيرا عن الفوز بالمعركة، كان تحدي الانسان لدافع التملك دليل على الفوز.

مخادع، يتمثل بصورة الناصح، وهو في علاقة عداء تام مع الوزير الناصح حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة.

فإذا كان الوالي في مملكته مستغنياً في تدبيراته بوزيره معرضاً عن إشارة هذا العبد الخبيث، أدبه صاحب شرطته، وساسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يصير العبد مسوساً لا سائساً، ومأموراً مدبَراً لا أميراً مدبِراً.

وفي هذه الحالة يستقيم أمر البلد، وينتظم العدل بسببه.

وهكذا النفس متى استعانت بالعقل، وأدبت بحمية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها.

وينطبق على من هذا حاله مع نفسه قوله تعالى فيمن لم يخضع لغرائزه : وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) (النازعات)

أما إن كان خلاف ذلك، وأصبح الحكم في الإنسان هواه وغرائزه، فإنه ينطبق عليه حينها قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) (الجاثية)

وهذا المثل ينطبق تماما على هذا المثل القرآني الجليل، قال تعالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) (الأعراف).. فقد اعتبر الله من خضع لغرائزه لتسيره كما تشاء كلبا.. أو لا يختلف عن الكلب..

وكذلك هؤلاء الذين يقولون للناس: (إن هذه هي غرائزكم.. فلا تكبتوها..) هم في الحقيقة يرمونهم كل مرة في هاوية من البهيمية يصعب عليهم الخروج منها، لأن النفس إذا تعودت شيئا أدمنت عليه.. فإذا أدمنت بان لها أنه الأصل.. ثم يأتي هؤلاء المحللون ليضموه إلى

غرائز الإنسان.

ولذلك نرى المدمنين على المخدرات كيف يشق عليهم تركها.. ولو خيروا بين تلبية غريزة الطعام وغريزة الأفيون لاختاروا الأفيون.. فهل نترك لهؤلاء المحللين المجال ليفرضوا على الإنسان صاحب الفطرة الأصلية ما يقع فيه ضحايا الغرائز الشاذة؟

وهذه النظرة تجعل المسلم يشعر بأنه صاحب إرادة.. فلذلك لا يستسلم لغرائزه.. وإنما يهذبها لتستقيم مع الفطرة السليمة..

وقد ذكر القرآن الكريم أصناف الناس، وتعاملهم مع غرائزهم.. فذكر الغافلين عن أنفسهم الذين توحد الأنا فيهم بالنفس، فلم يدركوا من وظائف وجودهم غير إرضاء الشهوات والغرائز التي وضعت في الأصل لخدمة المطية التي تحملهم، قال تعالى :﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:19)

والفاسق هو الخارج عن حقيقته المستغرق في شهواته الغافل عن وظيفة وجوده، والآية تنبه إلى أن سر فسوقه هو نسيانه وغفلته عن الله، وفي ذلك إشارة إلى أن معرفة الله هي الأساس والمنطلق الذي ينطلق منه من يريد أن يترقى عن حجاب النفس.

وقد سمى القرآن الكريم هذه النفس بالنفس الأمارة بالسوء، قال تعالى :﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء)(يوسف: من الآية53)

وهي نفس مطمئنة من جهة اطمئنان صاحبها لما هو فيه، فلا تحدثه نفسه بملامة أو عتاب، فهو راض عن حاله، قد كفى الشيطان هم الوسوسة، وكفى نفسه هموم الصراع، فنفسه مستقرة مطمئنة، والقلب مغلف مطبوع.

وفي مقابل هذه النفس نفس أخرى، وهي كذلك نفس مطمئنة، لأنها استسلمت بعد جموحها، وذلت بعد كبريائها، فصاحبها في راحة منها، والشيطان لا يجد مجالا ليدخل إليها، وقد عبر القرآن الكريم عنها بالنفس المطمئنة، فقال تعالى :﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر:29 ـ 30)

وهذه هي نفوس الخلاصة من عباد الله من الأنبياء والأولياء والصالحين، وهي المرحلة الأخيرة التي تنتهي إليها المجاهدات، وهي المرحلة الأولى التي تبدأ منها المواهب.

ومثل هذه النفس كالتربة الطيبة التي هذبت وصـفيت وأصـلحت، ثم بذرت فيها البذور الطيبة، ولا يبقى لها إلا المطر الذي ينزل عليهـا، فتبسق أشجارها وتطيب ثمارها.

وبين هاتين النفسين ما يسميه القـرآن الكـريم بـالنفس اللوامـة، قال تعالى :﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:2)

وهذه النفس هي التي تتعامل مع صاحبها، أو يتعامل معها صاحبها كمـا يتعامـل مـع شـخص أجنـبي، فهـو يلومهـا ويعاتبهـا، وقـد يضـطر لمعاقبتها ومجاهدتها.

وقد ذكر بديع الزمان النورسي مثالا مقربا لهذا، فذكر أنه كان في الحرب العالمية الأولى، جنديان اثنان: أحدهما مدرَّب على مهمته مجدّ في واجبه، والآخر جاهل بوظيفته متّبعٌ هواه.

فكان الأول يهتم الاهتمام كله باوامر التدريب وشؤون الجهاد، ولم يكن يفكـر قـط بلـوازم معاشـه وأرزاقـه، لإدراكـه أن رعايـة شـؤونه وتزويده بالعتاد، بل حتى مداواته اذا مرض إنما هو من واجب الدولـة، وأما واجبه هو فالتدّرب على امور الجهاد ليس إلاّ.

وهو مع هذا لا يمتنع من ان يقوم بشؤون التجهـيز وبعض الأعمـال التي تتطلبها حياته وفي هذه الاثناء لو سُئل: مـاذا تفعـل؟ لقـال: إنمـا اقوم ببعض واجبات الدولة تطوّعاً، ولا يجيب: انني اسعى لأجل كسب لوازم العيش.

أما الجندي الآخر، وهو الجاهل بواجباتـه فلم يكن يبـالي بالتـدريب ولا يهتم بالحرب، بل كان يقول: ذلك من واجب الدولة، وما لي أنــا؟! فيشغل نفسه بامور معيشته ويلهث وراء الاستزادة منها.

قال النورسي معقبا على هـذا المثـال شـارحا لـه:(أمّـا الجنـديان الاثنـان؛ فأحـدهما هـو العـارف باللـه والعامـل بـالفرائض والمجتنب الكبائر، وهو ذلك المسلم التقي الذي يجاهد نفسه والشيطان خشــية الوقوع في الخطايا والذنوب.. وأما الآخر: فهو الفاسق الخاسر الــذي يلهث وراء همـوم العيش لحـد إتهـام الـرزاق الحقيقي، ولا يبـالي في سبيل الحصـول على لقمـة العيش أن تفوتـه الفـرائض وتتعـرض لـه المعاصي.. وأما تلك التدريبات والتعليمات، فهي العبادة وفي مقدمتها الصـلاة.. وأمـا تلـك الحـرب فهي مجاهـدة الانسـان نفسـه وهـواه، واجتنابـه الخطايـا ودنايـا الأخلاق، ومقاومتـه شـياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين)

ثانيا ـ الإلحاد .. وخسارة المصير الأبدي:

لا يتألم الملاحدة لشيء كآلامهم لما تذكره الأديان من البعث بعـد المـوت، وبـدء نشـأة وحيـاة أخـرى جديـدة، تتـوفر فيهـا من الكمالات ما لا يتوفر في هذه الحياة الدنيا، وذلك لسببين:

أولهما: أن المؤمنين يجـدون عـزاء كبـيرا في هـذا الاعتقـاد الذي لا يوفره الإلحاد؛ فالملحد لا يـرى إلا الحيـاة الـدنيا، ولـذلك لا يرى للحياة معنى، بل يظل متألما متشـائما، ممتلئـا بالكـدورة وإن حاول أن يغطي ذلك ببعض المسكنات والمخدرات الكاذبة.

وثانيهما: أن العلم مهمـا ارتقى، والكشـوفات مهمـا دقت، فإنها لا يمكن أبدا أن تعتبر ما يـذكره المؤمنـون كـذبا مطلقـا، بـل يبقى هناك نسبة للقول بصـحته، وفي ذلـك آلام كبـيرة للملاحـدة، لأنهم حينها سيخسرون كل شيء.

وسـنحاول أن نفصـل في كلا المعنـيين وموقـف الملاحـدة والمؤمنين منهما في العنوانين التاليين:

1 ـ الإيمان.. وسلوى المصير الأبدي:

لا يتألم الملاحدة لشيء كما يتـألمون لـذلك التفـاؤل والفـرح والاستبشـار بالمسـتقبل الـذي يجـده المؤمنـون بـالآخرة؛ فهم يتحملون كل عناء وفاقـة بصـبر عظيم، بـل بفـرح عظيم، لكـونهم يعلمون أن تلك الحال لن تدوم، وأنهم سيعوضون عنها في الآخرة بـالعوض الحسـن، ولـذلك لا ينظـرون للمـوت بتلـك النظـرة التشاؤمية، وإنما ينظرون إليـه باعتبـاره محطـة ضـرورية للـدخول في عالم السعادة الأبدية.

والملحـد لا يسـتطيع أن يـوفر لنفسـه هـذا العـزاء العظيم، فلذلك يحاول أن يبحث عن عزاءات أخرى بديلة، ومن أمثلتها ذلـك

الذي ورد في حوار بين [دانييل دينيت][1]، و[ريتشارد دوكنز] عـام 2008 ، في سلسلة مقابلات أجراها البيولوجي التطوري لحسـاب القناة البريطانية الرابعة، وكـانت تحمـل عنـوان [عبقريـة تشـارلز داروين][2]، فحينما طلب دوكنز من دينيت أن يخبره بتجربته الـتي أوشك فيها على الموت؛ وبعد حوار جرى بينهمـا حـول الموضـوع، ذكـر [دانييـل ديـنيت] أنـه مجـرد حيـوان متطـور جـاء من العـدم مصادفة، ثم رجع إلى العدم الذي أتى منه إلى الأبد.

وعندما سئل عن السبيل إلى الجمع بين التطورية الداروينيـة المادية الإلحادية وبين إعطاء معنى أسمى لحياة الإنسان ومماتـه، ذكر أن الطريقة المثلى تأتي على أربع خطوات أساسية كمـا يلي: (أولاً ـ يتصور الإنسان احتمالية وجوده الضئيلة جـدّاً.. ثانيـاً: يتصـور الزمن التطوري المديد.. ثالثاً ـ يتصور عدد الكائنات الحيـة الهائلـة وعدد أنواعها في الكون.. رابعا: يتصور حجم وعمر الكون نفسه!) [3]

فـالعزاء الـذي يـراه الملاحـدة، والـذي نجـده في مـواقعهم

---

1) هـو فيلسـوف أمـريكي يـؤمن بـالتوافق بين الإرادة الحـرة والحتمية، وهـو من أركـان الإلحـاد الأربعـة، وأقلهم شـهرة وصـيتاً، وصاحب كتـاب [الـدين كظـاهرة طبيعيـة] الـذي نشـره في العـام 2006 والذي حاول فيه (كما هو واضح من اسمه) أن يشرح نشأة ووجود الدين على أسس علمية وفلسفية.. وقـد حقـق كتابـه هـذا حوالي نصف رقم المبيعات الذي حققه كتاب سام هـاريس [نهايـة الإيمان]

2) المقابلـة موجـودة على حسـاب مؤسسـة دوكـنز(Richard Dawkins Foundation for Reason & Science) على اليوتيوب.

3) من كتاب نظرة خلف الستار : بائعو التشكيك تحت المجهـر - سـامي أحمـد الـزين - مركـز دلائـل - الطبعـة الأولى 1437هـ/ 2016م).

الكثيرة أنه حال تعرّض الملحد إلى أي مصيبة فإن زعماء الإلحاد يفتونه أن باستطاعته أن يحصل على السلوان من تذكره أولاً أنه محظوظ جدّاً لوجوده أصلاً على قيد الحياة على الرغم من أن احتمالية وجوده تعد ضئيلة جدّاً، ثم عليه أن يُلهي نفسه بالتفكر في أن وجوده على شكله الحالي احتاج إلى مليارات السنوات من التطور التدريجي البطيء الذي تسبب في النهاية في وجوده ووجود باقي الأحياء؛ وهذا أمر ينبغي أن يُنسي الملحد حزنه على ما يبدو، وأخيراً على الملحد أن يعرف حجمه الحقيقي مقارنة بباقي الكون، وأنه جزء صغير لا يُذكر من عالم حي كبير، وعليه أيضاً أن يتذكر أن هناك مجرات تبعد عنه مسافات تُقدّر بمليارات السنوات الضوئية تقع داخل كون يتجاوز عمره الثلاثة عشر بليون سنة، والمعنى: تفكر في جمال الكون لتنسى همك.

ومن أمثلة العزاءات التي يعتمدها الملاحدة، ويتصورون أنها يمكن أن تعوضهم عن عزاءات المؤمن، ما ذكره بعضهم في مقال له بعنوان [الإلحاد ومعنى الحياة][1]، فقد قدم الملحد صاحب المقال لذلك بقوله: (إن إحدى أكبر الإعتقادات الخاطئة وأكثرها شيوعا حولنا ــ معشر الملحدين ــ هي الافتراض بأننا نفتقر، أو ليس لدينا أي احترام لقيمة الحياة، سواء أكانت حياة البشر أو الكائنات الأخرى. ولأننا نؤمن بأن الحياة قد نشأت بسبب صدفة عشوائية تولدت من توافر مجموعة مقومات في الطبيعة كانت ملائمة لانبثاق الجيل الأول من الكائنات أحادية الخلية، فإن هذا يُفسّر من قبل الآخرين على أنه اعتراف من الملحدين بأنه لا معنى ولا مغزى للحياة وأنها مجرّدة من أية قيمة، وأنه لا يمكننا نحن الملحدين أن نكتسب أي متعة أو رضا أو سعادة أو شعور بالإنجاز المتأتي من كينونة الحياة كما يفعل الدينيون، وأننا لا نبالي بمعاناة وألم الآخرين، لأنه في نهاية الأمر سيصبح الجميع طعاما تقتات عليه الديدان والبكتريا)

ثم راح يرد على هذا المعنى، لا باعترافه بالحقيقة التي يدل عليها كل شيء، وأولها عقله الذي يفكر به، والذي يجعل من اليوم

[1] انظر: الإلحاد ومعنى الحياة، ليث البرزنجي، الحوار المتمدن-العدد: 1164 - 2005 / 4 / 11 - 11:15 .

الآخر ضرورة كبرى، لا يمكن أن يكون للحياة معنى من دونها، بدل ذلك راح يقول: (نعم، الحياة على هذا الكوكب مصادفة محظوظة، مثلها مثل عدد لا يحصى من المصادفات الأخرى المشابهة التي تولد عنها نشوء الحياة في أماكن أخرى من هذا الكون الشاسع. ليس وراء هذه المصادفة أي معنى أو مغزى خاص أو استثنائي - ولماذا يجب أن يكون؟ فالحياة على كوكب الأرض محصورة بداخل ما يعرف بالمحيط الحيوي الذي يمتد من أعلى نقطة في الغلاف الجوي، على ارتفاع 20 كم فوق سطح البحر، وحتى أعمق نقطة في خندق ماريانا في غرب المحيط الهادي، وهذا المحيط الحيوي في نهاية الأمر ما هو إلا قشرة كروية رقيقة جدا تغطي سطح الكوكب، وذات سمك صغير جدا (31 كم) مقارنة مع نصف قطر الكوكب (6378 كم)! ثم يأتي كوكب الأرض نفسه الذي يشكل، بكل ما عليه، جزءا صغيرا للغاية من المجموعة الشمسية، حيث يمكن مقارنته بحبّة ذرة موجودة على بعد 82 مترا من مركز ساحة دائرية نصف قطرها حوالي 4 كم! والمجموعة الشمسية نفسها ما هي إلى نقطة ضئيلة للغاية على طرف إحدى الأذرع الخارجية لمجرّتنا الحلزونية، والتي هي بدورها واحدة من بلايين وبلايين المجرات الموجودة في الكون. في ضوء كل هذا، ما الذي يعطينا الحق في اعتبار أنفسنا حالة خاصة وأصحاب أهمية مركزية في الكون، لدرجة الإعتقاد أن الحياة على هذا الكوكب لا يمكن إلا أن يكون لها مغزى أو معنى أو هدف أسمى، كما تدّعي الأديان؟)

وبعد هذا التحقير للإنسان وحياته والأرض التي يسكن فيها، باعتبارها جزءا بسيطا من الكون، وأنها لذلك لا تستحق أي نوع من أنواع العناية، راح يذكر البدائل التي يتعزى بها الملاحدة؛ فقال: (رغم هذا فإنني أعتبر الحياة (رغم عبثيتها) مقدّسة جدا. فنحن الملحدين على يقين بأننا نحظى بفرصة واحدة فقط للحياة - فرصة واحدة لا غير. فلا حياة أخرى ولا بعث أرواح ولا جنة ولا نار وما إلى ذلك. الحياة مباراة من جولة واحدة، لذا فمن المؤسف جدا أن يبعثرها المرء أو يضيعها سدى.. لذا، فلإعطاء هذه القدسية حقها الكامل، على المرء أن يستغل فترة وعيه الوجيزة جدا ككائن حي إلى أبعد الحدود. ثقّف نفسك وعلّمها،

عزيزي القارئ، ليتسنى لك رؤية عجائب هذا الكون لما هي عليه فعلا، بمنأى عن ضباب الفكر الديني. إسبح في المحيط الهندي.. راقب غروب الشمس في وادي رم.. دغدغ رضيعا.. تسلق شجرة أو جبل.. تعلّم حرفة يدوية كالنجارة أو الفخارة.. إشتر منظارا ودليل فضاء وفلك للمبتدئين وتمعن في أعماق الكون وابحث عن كواكبه ومجراته.. كن سببا لتحسين حياة غيرك من الناس الأقل حظا واكتسب من عملك هذا المتعة والرضا، فهناك الكثير من البشر الذين يعيشون في ظروف من السوء لا توصف، ويكسبون في أسبوع ما قد تكسبه أنت في ساعة (هذا إن كانوا يكسبون شيئا أصلا).. تبرع بالدم بين الحين والآخر إن كانت صحتك تسمح.. إدعم ميتما أو داراً للعجزة.. إلخ)

هذا هو العزاء الذي ذكره هذا الملحد، وذكره قبله وبعده الكثير من الملاحدة، وهو لا يختلف عن تلك المسكنات والمخدرات التي يهرب بها صاحبها عن الحقيقة المرة التي يعيشها.

وللاستدلال لهذه المسكنات الكاذبة راح يشبه الحياة ببناء تمثال ثلج، أو قلعة من الرمال على الشاطئ، فهذه الأشياء ـ كما يعبر ـ (كالحياة نفسها، زائلة بدون شك تذيبها الشمس أو يمحيها المد.. هي أشياء ليس لها غاية أو هدف أسمى، وبعد زوالها لا يتبقى أي أثر يدل على وجودها الذي دام ساعات أو أيام قليلة.. إلا أننا نبني تماثيلا ثلجية أو قلاعا رملية لأننا، دينيين كنا أم ملحدين، نعيش في هذا المكان الصغير جدا من الكون وفي هذا المقطع الزمني القصير جدا من عمره. في ضوء حياتنا الفانية القصيرة جدا نسبيا، نستطيع كبشر أن نتمتع معظم الوقت بهذه الحياة بالقيام بأعمال لا معنى لها لمجرد كونها ممتعة. فمن الممتع بناء تمثال ثلج أو قلعة رملية، أو تسلق جبل، أو مشاهدة الغروب، أو رمي قطعة حجر مسطحة ومشاهدتها تتقافز على سطح الماء، أو تطيير طائرة ورقية، أو الخروج في رحلة إلى الطبيعة أو الريف للتنزه أو ركوب الدراجات. هذه الأعمال، بطبيعتها، ليس لها معنى أو غاية أو هدف أسمى في انتظار أن يُحرز أو يتم تحقيقه - بل هي أعمال تكتسب معناها وقيمتها مما تعنيه لنا ومن تأثيرها

المباشر علينا. أنا لست قلقا جدا حول مستقبل سيأتي بعد خمسين بليون سنة. ما يهمني هو مستقبل البشرية الآن - مستقبل الأجيال الحالية والتي ستأتي بعدها. هذا هو جوهر معنى الحياة الفانية، وهذا هو بالتحديد السبب الذي يجعلني، كملحد، مكترثا ومهتما جدا بهذه الحياة ومستعدا أن أبذل أقصى جهدي للإستفادة البناءة من هذه الفرصة التي تمنحها الحياة لي)

وهذا العزاء الذي ذكره هذا الملحد لا يمكن أبدا أن ينسجم مع كل الناس، بل هو خاص فقط بطبقة محدودة من أصحاب الأموال الذين يمكنهم أن يمارسوا ما يشتهون حتى يشعروا بالعزاء، أما أولئك المستضعفين الفقراء، والذين تشكل الحياة عبئا كبيرا عليهم؛ فإن تلك العزاءات لن تفعل لهم شيئا، فالحياة عندهم مجموعة آلام.. ولذلك لا يستطيع الإلحاد أن ينقذهم من آلامهم.. بل الوحيد الذي ينقذهم من آلامهم هو الإيمان.

ولهذا نجد الملاحدة، ولأتفه الأسباب ينهارون، وينتحرون، لأن الحياة عندهم لا معنى لها، ولذلك لا معنى لتحمل العذاب فيها.

ومن أنواع العزاء التي ذكرها بعض فلاسفة الملاحدة[1] فكرة: بقاء الأنواع، حيث يذكر [ديدرو] أن الفرد يموت، ولكن الأنواع لا نهاية لها.

أما الفيلسوف الملحد الفرنسي [لامتريه] (1709ــ1751)؛ فقد ربط القضية بالموت، ولذلك اقترح دعوى أن القلق من الموت لا ينشأ إلا من العقائد الدينية، لما في الآخرة من عقاب، ومن ثم فإنه يرى أن إلغاء هذه الفكرة ـ الدين ـ من شأنه أن يلغي القلق.

ومثلهما [هولباخ] (1723ــ1789) الذي أشاد بالرؤية الأبيقورية للموت بأنه لا يخضع للتجربة، ومن ثَمَّ فإنه لا ينبغي أن يمثل أهمية للبشر، فرأى هولباخ أن المذكور في الأديان عن عواقب الموت لا يمثل قلقًا.

---

1) نقلا عن: الأسس اللا عملية في الإلحاد.. (معنى الحياة) نموذجًا، عمرو بسيوني، موقع الباحث عن الحقيقة.

ومثلهم [إتيان دي سينانكور] (1770ـ1846) الـذي اعتـبر أن الحل الوحيد لمشكلة الموت هـو شـفاء البشـر من مـرض الرغبـة في الخلود؛ وبناء على ذلك، فإن المرء يمكنه أن يقمع هذا الخوف من خلال استغلال جميع طاقته دفعة واحدة في حياته الحاضرة.

ومثلهم [ماركيزدي ساد] (1740ـ1814) الذي دعا إلى رفض الرغبـة في الخلـود، بـل وازدرائهـا، والاسـتغراق الكامـل في الشهوانية، وإلحاق المعاناة ـ وحتى المـوت ـ بـالآخرين، باعتبارهـا وسيلة لإطفاء الخوف من الموت، وهو الاتجـاه المعـروف بالإلحـاد الأيروسي.

وهو يمثل العزاء الأكبر لأكـثر الملاحـدة، ولعـل أحسـن تعبـير عنه، ما ورد في محاورة تخيلية مشـهورة كتبهـا [مـاركيزدي سـاد] بين راهب يدعو محتضرًا للتوبة، وهذا المحتضـر الـذي يتحـدث دي ساد بلسانه يشرح للراهب فلسفته في الحيـاة: (الطبيعـة شـكلت روحي وتصرفاتي نتيجة لذلك، بكل ما فيها من رغبـات واحتياجـات خاصـة، فهي تحتـاج الرذائـل بقـدر مـا تحتـاج الفضـائل، والطبيعـة أثارت فيّ الشر، وقالت لي أن أفعل ذلك، كما أرادت مـني أعمـل صالحًا، أنا فقط أفعل كما تأمرني(

وكان المحتضَر معِدًّا لوليمة شهوانية خاصة للحظة موته، ولم يكتـف بـذلك حـتى وجـه الـدعوة للـراهب للاشـتراك معـه في الانغماس: (يا صديقي، الشهوانية ـ الحسية ـ تعني الكثـير بالنسـبة لي أكـثر من أي شـيء آخـر، إنـني أعبـدها طـوال حيـاتي، وكـانت رغبتي في وضع حد لها في صـدري. نهـايتي اقـتربت، ولكن هنـاك سـت نسـاء جميلات في الغرفـة المجـاورة، إنـني أحتفـظ بهن خصيصًا لأجل هذه اللحظة، لماذا لا تشـاركني في هـذه الوليمـة؟، لمـاذا لا تتخـذني قـدوة، وتبـني على تجربـتي بـدلاً من خرافـات المغالطـات الفارغـة؟ إن السـماح لهن بالمداعبـة تسـاعدك على نسيان نفاق إيمانك لبعض الوقت)(1)

هذه بعض النماذج الـتي حـاول الملاحـدة أن يكـذبوا بهـا على

1) Alister McGrath , THE TWILIGHT OF ATHEISM , 34ـ35..

أنفسهم، ولكن الحقيقة هي ما عبر عنه [كلود أدريان هيلفيتوس] (1715ـ1771)، و[دنيسديدرو] (1713ـ1784) بذكرهما أن النتائج المترتبة على الإلحاد تتسق مع الاكتئاب، وذلك لافتقار الملاحدة لأي عزاء.

في مقابل ذلك نرى المؤمنين ممتلئين بكل أنواع العزاء.. حتى أنهم يستقبلون الموت بفرح عظيم، وذلك لعلمهم بما ينتظرهم عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30]

وسنسوق هنا نموذجا عن ذلك، وهو ما ذكره بديع الزمان النورسي ردا على ملاحدة عصره الذين كانوا ينكرون اليوم الآخر، ويسخرون من المؤمنين بسبب ذلك [1].

فقد ذكر بديع الزمان كيف خرج بنور الإيمان من كل الأفكار المشؤومة التي تعتري الملاحدة، فقال: (ذات يوم من الايام الأخيرة للخريف، صعدت الى قمّة قلعة انقرة، التي اصابها الكبر والبلى اكثر مني، فتمثلّت تلك القلعة امامي كأنها حوادث تأريخية متحجرة، واعتراني حزن شديد واسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبي انا، ومن هرم القلعة، ومن هرم البشرية ومن شيخوخة الدولة العثمانية العلية، ومن وفاة سلطنة الخلافة، ومن شيخوخة الدنيا)

فهذه الآلام الكثيرة التي قد نبصر مثلها، والتي تملأ النفس أسفا وحزنا، دعت بديع الزمان للبحث عن ترياق يعالج به هذه الكآبة، قال:(فاضطرتني تلك الحالة الى النظر من ذروة تلك القلعة المرتفعة الى اودية الماضي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وابحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من أكثف الظلمات التي غشيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط)

وهذا العزاء الذي بحث عنه بديع الزمان يبحث عنه كل إنسان

[1] انظر النص بطوله في : اللمعات/ 351.

شعر أو لم يشعر، ولكن يختلفون فقط في الجهة التي يولـون لهـا وجوههم للبحث عن هذا العزاء، وكانت الجهة الأولى الـتي قصـدها بديع الزمان هي الجهـة الـتي يـولي لهـا الملاحـدة وجـوههم، وهي الجهة البعيدة عن الحقائق الإيمانيـة، وهي بجهاتهـا السـت لا تزيـد القلب إلا غمـا وهمـا، قـال بـديع الزمـان:(فــحينما نظـرت الى اليـمين الـذي هـو الــماضي باحثـاً عن نـور ورجـاء، بـدت لي تلـك الــجهة من بعيـد على هيئـة مقـبرة كـبرى لأبي واجـدادي والنـوع الانساني، فأوحشتني بدلاً من ان تسلـّيني)

أمـا اليسـار الـذي هـو الــمستقبل:(فـتراءى لي على صـورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثالي وللجيل القابل، فأدهشني عوضـا من ان يؤنسني)

أما الأمـام وهـو الـزمن الــحاضر (فبـدا ذلـك اليـوم لنظـري الــحسير ونظـرتي التأريــخية على شـكل نعش لــجنازة جسـمي الـمضطرب كالـمذبوح بين الـموت والـحياة)

أما القمة التي تمثل قمة شـجرة العمر (فرأيت أن على تلك الشجرة ثـمرة واحدة فقط، وهي تنتظر اليّ، تلك هي جنازتي)

أمـا الأسـفل الـذي يمثـل جـذور شـجرة العمـر (فـرأيت ان التراب الذي هناك ما هو الاّ رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قـد اختلطا معـاً وامتزجـا، وهمـا يُداسـان تــحت الاقـدام، فأضـافا الى دائي داء من دون ان يـمنحاني دواءً)

أما الخلـف الـذي يمثـل عمـر الـدنيا (فـرأيت ان هـذه الـدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في اودية العبث وتنحدر في ظلمات العدم، فسـكبتْ هـذه النظـرة السـمَّ على جـروحي بـدلاً من ان تواسـيها بالـمرهم والعلاج الشافي)

فهـذه الجهـات السـت، والـتي يتصـور الملاحـدة أنهـا تمثـل الحقائق المطلقة، والـتي يعـزون أنفسـهم بأنـه لا محيـد عنهـا، ولا مخرج منها، ثم يهربون لأي شيء، يتكفل الإيمـان بمـداواتها، قـال النورسي يحكي عن تجربته الإيمانية:(وفيما كنت مضطرباً وســط الـجهات الست تتولى عليّ منها صنوف الوحشة والدهشة واليأس

والظلمة، اذ بأنوار الإيمان المتألقة في وجه القرآن المعجز البيان، تمدني وتضيء تلك الجهات الست وتنورها بانوار باهرة ساطعة ما لو تضاعف ما انتابني من صنوف الوحشة وانواع الظلمات مائة مرة، لكانت تلك الانوار كافية ووافية لإحاطتها)

وقد كان أثر أنوار الإيمان عظيما:(فبدّلت تلك الانوار السلسلة الطويلة من الوحشة الى سلوان ورجاء، وحولّت كل المخاوف الى انس القلب، وامل الروح الواحدة تلو الاخرى)

فالقرآن الذي هو قبس الإيمان (مزق تلك الصورة الرهيبة للماضي وهي كالمقبرة الكبرى، وحوّلها الى مجلس منوّر أنوس والى ملتقى الاحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين)

أما المستقبل الذي كان يمثل قبرا واسعا كبيرا، فإنه استحال بالنظرة القرآنية (مجلس ضيافة رحمانية أعدّت في قصور السعادة الخالدة)

أما تابوت الزمن الحاضر، فقد صوره القرآن الكريم (متجرا أخرويا، ودار ضيافة رائعة للرحمن)

أما الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة، فإنها بالقرآن لم تبق كذلك، (وانما هي انطلاق لروحي - التي هي أهل للحياة الابدية ومرشحة للسعادة الابدية - من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد)

حتى تلك الصور المريعة التي كانت الغفلة تصور بها (عظامي ورميمها وتراب بداية خلقتي) لم تبق (عظاماً حقيرة فانية تداس تحت الاقدام، وإنما ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة)

أما أحوال الدنيا واوضاعها المنهارة في ظلمات العدم التي نبصرها بنظر الغفلة، فإنها لم تبق كذلك بنور القرآن الكريم (بل انها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للاسماء السبحانية قد أتّمت مهامها، وأفادت معانيها، واخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم

اليقين)

أما القبر، فلم يبق قبرا، بل هو بنظر القرآن الكريم (باب لعالم النور) ومثله ذلك الطريق المؤدي الى الابد، فإن لم يبق (طريقاً ممتداً ومنتهياً بالظلمات والعدم، بل انه سبيل سوي الى عالم النور، وعالم الوجود وعالم السعادة الخالدة)

وهكذا بددت النظرة القرآنية كل الأوهام التي سربتها الغفلة، وأصبح ما كان يتصور داء عين الدواء، يقول النورسي:(وهكذا اصبحت هذه الاحوال دواء لدائي، ومرهماً له، حيث قد بدت واضحة جلية فأقنعتني قناعة تامة)

وهكذا عاش الرجل سعيدا، مع أنه أمضى أكثر حياته منفيا مسجونا يدس له السم كل مرة، بل يحرم كل أسباب الحياة، لكن الإيمان جعله يستهين بذلك كله.

2 ـ الإيمان.. وإمكانية المصير الأبدي:

وهذه المعضلة الثانية التي يتألم لها الملاحدة دون أن يستطيعوا التصريح بذلك، ذلك أنه لا يمكن لمن يحترم عقله وعلمه ونفسه أن يجزم بعدم إمكانية شيء اتفقت عليه عقول أكثر الخلق من الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين.. بل لا يكاد يوجد شعب من الشعوب إلا وهو يعتقد هذا الاعتقاد.

ولهذا نرى في الحوارات بين المؤمنين والملاحدة هذا الجانب الذي عبر عنه أبو العلاء المعري بقوله:

زعم المنجم والطبيب كلاهما — لا تبعث الأجساد قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر — أو صح قولي فالخسار عليكما

أو ما عبر عنه بعضهم، بقوله: (قال الملحد للمؤمن: ما موقفك اذا مت ولم تجد الله! فرد المؤمن: لن يكون اسوأ من موقفك اذا مت ووجدت النار!)

أو ما عبر عنه مصطفى محمود في حواره مع صديقه الملحد، والذي ذكر أنه قال له ساخرا: (ماذا يكون الحال لو

اخطأت حساباتك، وانتهيت بعد عمر طويل إلى موت وتراب ليس بعده شيء؟)، فأجابه مصطفى محمود بقوله: (لن أكون قد خسرت شيئا .. ولكنكم أنتم سوف تخسرون كثيرا لو أصابت حساباتي وصدقت توقعاتي .. وإنها لصادقة.. سوف تكون مفاجئة هائلة يا صاحبي)[1]

أو ما عبر عنه ـ قبل ذلك كله ـ الإمام الصادق ع مع بعض الملاحدة، حيث قال مخاطبا له: (إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون، يعني المؤمنين، فقد سلموا وعطبتم وإن يكن الأمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم)، فقيل له: وأي شيء نقول وأي شيء يقولون ما قولي وقولهم إلا واحد؟ فقال: (وكيف يكون قولك وقولهم واحدا، وهم يقولون إن لهم معادا وثوابا وعقابا ويدينون بأن في السماء إلها وأنها عمران، وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد...)[2]

وقد صاغ هذا المعنى [بليز باسكال[3]] في رهانه المعروف، والذي يمكن صياغته على الشكل التالي[4]:

1- إن آمنتَ بالله وكان الله موجوداً، فسيكون جزاؤك الخلود في الجنة، وهذا ربح لامحدود.

---

1) حوار مع صديقي الملحد.

2 () الكافي، ج1 ص74..

3) بليز باسكال (19 يونيو 1623ـ 19 أغسطس 1662)، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات هو من اخترع الآلة الحاسبة. استطاع باسكال أن يسهم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته الرسائل الريفية..

4) استفدنا أكثر ما ذكرناه حول هذا الرهان من مقال مهم بعنوان: الصراط المستقيم في الحجج والبراهين: رهان باسكال، آية الله السيد مرتضى الشيرازي، شبكة النبأ.

2- إن لم تؤمن بالله وكـان اللـه موجـوداً، فسـيكون جـزاؤك الخلود في جهنم، وهذه خسارة لامحدودة.

3- إن آمنتَ باللـه وكـان اللـه غـير موجـود، فلن تُجـزى على ذلك، وهذه خسارة محدودة.

4- إن لم تؤمن بالله وكان الله غير موجود، فلن تُعاقب لكنك ستكون قد عشت حياتك، وهذا ربح محدود.

ولتقريب هذا الرهـان، نـذكر هـذا المثـال التقريـبي، وهـو لـو فرضنا وجود حلبـة سـباق للخيـول، وشـاهدنا الحصـان الأبيض هـو الفـائز في كافـة المسـابقات الماضـية، ولنفرضـها مائـة سـباق، ووجدنا الحصان الأسود هو الخاسر في كـل المسـابقات الماضـية، بل لو وجدنا الحصـان الأبيض فـاز في 99 بالمائـة من المسـابقات الماضية والحصان الأسود فاز في 1 بالمائة منها.

فمن الواضـح ان العاقـل يـراهن على الحصـان الأبيض، على الرغم من أنه يحتمل عقلاً أن يكون هو الحصان الرابح هذه المرة، ولكن العقلاء بالإجماع يرون من السفاهة أن يراهن على الحصـان الخاسـر دائمـاً أو في 99 بالمائـة من المـوارد أو حـتى في 90 بالمائة منها.. ويرون من الحكمة والمنطق أن تكون المراهنة على الحصان الفائز دائماً أو غالباً.

ولذلك، فـإن العقـل وإن احتمـل العكس لكن العقلاء بمـا هم عقلاء يلغـون احتمـال الخلاف، ويعتـبرون الحجـة في اقتفـاء أثـر التجارب الناجحة السابقة.

وهكذا تمامـاً رهـان المؤمـنين على وجـود الخـالق، وإن كـان بصيغة أخرى، فإننا إن راهنا على وجوده ووجود الثـواب والعقـاب، وكان موجوداً كان الثواب العظيم بما لا يتناهى شدةً ومدةً وعِـدةً، وإذا راهنا على عدم وجوده وعدم الجنة والنار وكان موجوداً كانت الخسـارة هائلـة مذهلـة، وفي المقابـل لـو لم يكن موجـوداً، فـإن الكافر غاية الأمر أنه سيربح حياته المحدودة، مع العلم أن المؤمن هو الـرابح حـتى في هـذه الحيـاة إذ يتجنب السـرقة والغش وغـير ذلك، فيزداد مكانةً ومصداقيةً لدى النـاس كمـا سـيحظى بالصـحة

والسلامة وغير ذلك.

فأي الرهانين يختاره العقلاء.. هل رهان الربح اللامتناهي، أو رهان الربح المحدود جداً؟

بل إن ذلك الربح المحدود الذي يتوهمه الملاحدة، ينال المؤمنون أكثر منه، كما ذكرنا في العنوان السابق، ونضيف إليه أن الإنسان إذا آمن بالله تعالى وبالمعاد والثواب والعقاب ولم يكن الله تعالى ـ فرضاً ـ موجوداً فإن المؤمن مع كونه لا يخسر شيئاً، ولا يربح المنكر شيئاً إلا أننا عندما نرى المؤمنين الملتزمين نراهم أسعد حالاً من غيرهم من الكفرة العصاة؛ وذلك لأن المحرمات إنما حرمت لمفاسد واقعية وأضرار حقيقية فيها؛ فالمؤمن المتدين يتجنب شرب الخمر وأكل لحم الخنزير والزنا مثلاً وغير المؤمن لا يرى سبباً لتجنبها، وقد ثبت في العلم أن الخمرة تضر العقل والبدن، وتتسبب في الكثير من الأمراض الخطرة، وكذلك لحم الخنزير، كما أن الزنا يهدم المجمعات ويتسبب في مجموعة من أخطر الأمراض كالسفلس والسيلان وغيرهما.. وبذلك فإن المؤمن يتجنب كل تلك الآثار الخطيرة للمعاصي، ويربح بذلك، بخلاف الملحد الذي لا يجد من يردعه عنها، ولذلك يخسر بسببها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الاستقراء والتجربة يدلان على أن المؤمن الملتزم أسعد من غيره في أسرته ومجتمعه، ذلك أن الصدق والوفاء النزاهة وحب الأهل والوطن ومواساة الجار والقريب والبعيد والصلاة والصوم وغيرها مما أمر به الشارع الأقدس كلها عوامل سعادة وسلام وتقدم ورفاه وأمن وطمأنينة.

فإذا قيل بأنه يوجد في المؤمنين الكثير من الفقراء والمرضى، يقال كذلك بأن في الكفار الكثير من الفقراء والمرضى.. فكما في الكفار أغنياء وفقراء وعلماء وجهال فكذلك في المؤمنين، وإنما الكلام هو في أن المؤمن من حيث إيمانه والتزامه بتجنب المعاصي وبفعل الطاعات رابحٌ، عكس الكافر من حيث كفره وعصيانه، وأقل ما في الأمر أن المؤمن لأطمئنانه بالآخرة والجنة والثواب العظيم، أقدر على تحمل المصائب

والنـوازل من الكـافر ولـذلك تـراه ـ على حسب درجـات إيمانه ـ يمتلك الهدوء النفسي والطمأنينة والسـكينة إذ يـرى كل ذلك بعين الله، عكس الكافر الذي لا يؤمن باللـه، كمـا أن الكـافر إذا تعـرض أبوه أو أخوه أو ابنه لحادث مؤلم أودى بحياته، فانـه لا سـلوان لـه ولا مستند يتكأ عليه إذ يراه قد تحوَّل إلى عدمٍ محض، أما المؤمن فإنه يرى حبيبه قد انتقل إلى عالم أرحب وأوسـع وأجمـل وأفضـل فَلِئن حزن عليه سـاعة أو أيامـاً اطمـأن بعظيم لطـف اللـه تعـالى ساعات وأسابيع.

ومع وضوح كل هذا وقوته إلا أن الملاحدة حاولوا ـ كعـادتهم ـ الالتفات عليه بصنوف من المغالطات:

منهـا قـول بعضـهم: (يفـترض الرهـان أن الإلـه الحقيقي هـو بصورة الإله الإبراهيمي الذي يجازي أتباعه، ويمكننـا هنـا تخيـل أن الإلــه الحقيقي هــو عكس ذلــك تمامــاً: فقــد يقــوم على ســبيل السخرية بزج بالمؤمنين به في الجحيم وبجـزاء غـير المؤمـنين بـه بالجنة، أو قد يكون الإله الحقيقي هو إله الفكرة المالثيسية والـتي تقول بأن الآلهة تأكل أرواح المؤمنين بعد موتهم)

وقال: (الرهان المعـاكس إحـدى الطـرق الـتي نـرد بهـا على الرهان تكون بافتراض إله آخر في محل إله باسـكال، الإلـه الآخـر يعـاقب هـؤلاء الـذين يؤمنـون بوجـوده من دون دليـل ويجـزي من سواهم)

وقال: (لاحظ أن هذه الفرضية لا تفترض مسـبقاً أن الإنجيـل أو القرآن أو مـا شـابههم من الكتب المقدسـة ليسـت من مصـدر إلهي، فقد يكون الإلـه قـد أنـزلهم بالضـبط لاختبـار مـدى سـذاجة البشر)

وقد تصور هـؤلاء الملاحـدة أنهم بهـذه الافتراضـات يحصـلون على الربح في كلا الحـالتين سـواء كـان اللـه موجـوداً أو لا، بينمـا يخسر المؤمنون في الحالتين أيضا.

وقال آخر: (يفترض المؤمنون بطرحهم لهـذا الرهـان أنـه في صورة ملاقاة إله ما بعد الموت سيكون بلا شك هـو إلههم الواحـد،

فإما العدم أو الله الذي يؤمنون به وهم بذلك يجعلون الرهان مقتصرا على إحتمالين فقط بينما تعرض لنا الميثولوجيا آلاف الالهة والديانات التي تعد أتباع الآلهة والمعتقدات الأخرى بالجحيم والعذاب الأبدي ! فلنفترض إذا وجود 3999 الهة مقترحة و احتمالا واحدا في عدم وجود الهة، احتمال أن يكون اعتقاد المؤمن صحيحا هو 1/4000 مساو لإحتمال أن يكون الملحد على حق للنجاة من الجحيم يملك المؤمن نسبة 2/4000 أي في أن يكون إلهه موجودا أو عدم وجود آلهة بينما يملك الملحد نسبة 1/4000 للنجاة من العقاب)

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن احتمال أن يعاقب الله (المفترض) عباده الذين يؤمنون به، ويثيب المنكرين له والمعارضين بالجنة، هو صفر لدى العقلاء، وهو وإن كان احتمالاً عقلياً إلا انه ليس بعقلائي أبداً، بل لا تجد عاقلاً في حياته العملية ينساق مع مثل هذا الاحتمال الهش.

فهل يمكن أن نجد عاقلاً يرى أن الجندي في الجيش إذا أطاع الضابط، أو الموظف في الشركة إذا أطاع المدير والتزم بأوامره ونفذ التعليمات كلها كما طلبت منه، فإنه من المحتمل أن يعاقبه المسؤول أشد العقاب ويسجنه ويعذبه، على سبيل السخرية مثلاً، وأنه إذا عصى المدير ودمر شركته وممتلكاته، أو خالف قرارات الجيش وأفسد خططه العسكرية فإنه حينئذٍ سيقرِّبُه إليه أكثر وسوف يمنحه ترقية كبرى في الشركة أو الجيش.

إن هذا الاحتمال وإن كان عقلاً ممكناً، لكنه عقلائياً صفر، وهل يلتزم هذا الفيلسوف بمقتضى كلامه؟ فمثلاً إذا وجد هذا الفيلسوف شرطي المرور يأمره بالوقوف عند الإشارة الحمراء فهل يعصيه ويعارضه متذرِّعاً بأنه من يدري: فلعلني إذا عصيته أعطاني هدية رائعة، أما إذا أطعته ووقفت عند الإشارة ضربني بالهراوة الغليظة على أمّ راسي وقادني إلى السجن المظلم وفي أشد أنواع التعذيب.

ونقول لهؤلاء: تصوروا أن هنالك غابة تقع في وسط بلدتين (أ وب) وأن فيها عصابة من الأشرار يعتدون على كل من يمرّ عبرها، ويسلبونه كافة أمواله، ثم يقتلونه شر قتلة، وأن هناك طريقاً آخر للوصول إلى البلدة (ب)، وهو طريق آمن، فهل تجد عاقلاً يعكس الرهان ويقول: سأسلك طريق الغابة إذ من المحتمل أن هؤلاء الأشرار إذا رأوني يحتضونني ويكرموني ثم يهبونني كل أموالهم؟ ومن المحتمل أنني إذا سلكت الطريق الآمن أن تهاجمني الشرطة (المعروفة بالنزاهة) وتسلبني حتى ثيابي ثم تقتلني شر قتلة؟

من البديهي ان العقلاء يراهنون على خيار الطريق الآمن، وإن احتمل عقلاً أن يتحول الشرطة الأخيار (وهم تحت رقابة صارمة) فجأة إلى أشرار، وأنهم يَعُدُّون من يسلك طريق الغابة الخطر لمجرد ذلك الاحتمال العقلي الواهي (أن الأشرار فجأة يتحولون إلى أخيار عشاق له ويكرمونه) من السفهاء بل من أكثر السفهاء سفاهة ويرون تفكيره أشد الأفكار تفاهةً!

الوجه الثاني: وهو أن كل برهان إنما يتكفل البرهنة على ما هو في حدود مقتضاه ولا يتكفل الأكثر من ذلك، فهذا البرهان الذي ذكره الإمام الصادق وبعده المعري والغزالي وباسكال وغيرهم، إنما يتكفل أصل احتمال وجود إله خالق للكون، وأن البناء عليه هو الأسلم الأفضل بلا شك، وهو على تقدير التنزّل، والخطاب فيه موجه لمن يشك في وجوده تعالى، ولا يطمئن للأدلة كبرهان إبطال الدور والتسلسل فرضاً، فنقول له حينئذٍ: لكن هذا الرهان هو الرهان الرابح وذاك الرهان هو الخاسر مثلما ذكرنا سابقا، ولكنه ـ بصيغته الحالية ـ لا يتكفل الأكثر من ذلك، أي لا يتكفل بمجرده إثبات عدم وجود شريك للباري وعدم التثليث مثلاً، إلا إذا جرى تطويره، كما لا يتكفل إثبات ان الله مجرد مثلاً.. بل ذلك يحتاج إلى تتميم أو ضمائم من أدلة أخرى، وذلك ككافة الحقائق التي تفتقر إلى إقامة العديد من البراهين على أصل وجودها تارة ثم على تفاصيل حقائقها، وبذلك تندفع بعض الإشكالات الأخرى على هذا البرهان، ولا حاجة للإطالة باستعراضها مع الأجوبة عليها.

ونحب أن ننبـه في الأخـير إلى أن رهـان باسـكال لا يعـني الإيمان الحقيقي، ولكنه نـافع للمتحـيرين كمقدمـة للبحث العقلي، وكمخلص للـدوافع النفسـية الـتي تـدعو للإلحـاد، وقـد ذكـر بعض المتحيرين كيف استفاد منه للوصول إلى الإيمـان الحقيقي، فـذكر أنه كان في مرحلـة من مراحـل حياتـه مؤمنـا بوجـود اللـه، لا عن اقتناع عقلي ولكن لأن الإيمان ـ في نظـره ــ مناسـب لـه، وملائم للطمأنينة التي يرجو تحقيقها في حياته، ويفتقـر إليهـا الملحـد في معيشته المضطربة المتحيرة.. وقد عبر عن هذا بقوله: أنـا مـؤمن لأن الإيمــان يلائمــني! ثم مــا زال الرجــل مســتمرا في رحلتــه الإيمانيــة، متنقلا من الإشـارات الوجدانيـة إلى الـبراهين العقليـة، حتى تحول إلى الإيمان الحقيقي.

وعلى الداعية للإيمان بعد هذا أن تتـوفر لديـه الأدلـة العقليـة الكثـيرة الدالـة على وجـود اليـوم الآخـر، وقـد تكفلت المصـادر المقدسة بالإشارة إلى الكثير منها.

فمنها أن قـدرة اللـه تعـالى الـتي أخـرجت هـذا العـالم بهـذه الصورة لا تعجز عن أن تنشئه من جديد، وبصور أخرى لا نهاية لها، فقدرة الله لا تحد، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَـارًا فَـإِذَا أَنْتُمْ مِنْـهُ تُوقِـدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُـوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ (82) فَسُـبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَـيْءٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (83)﴾ [يس: 78 - 83]

وقال في آية أخـرى: ﴿فَعَيِينَـا بِـالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَـلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15]

وقد ضرب الله تعالى لنا الأمثلة المقربة لذلك ببعض مظـاهر الحياة التي نـرى عودتهـا بعـد المـوت، كمـا قـال تعـالى: ﴿ يَاأَيُّهَـا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْـغَةٍ مُخَلَّقَـةٍ وَغَيْـرِ مُخَلَّقَـةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ

وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج: 5]، فمن قدر على خلق الإنسان في أطوار متعددة لا يعجز عن إعادته مرة أخرى، بل إن الإعادة أهون من البدء في حكم العقل.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه ليس هناك ما ينفيه العقل من شأن البعث والجزاء ، إذ العقل لا ينفي إلا ما كان من قبيل المستحيل كاجتماع الضدين، أو التقاء النقيضين ، والبعث والجزاء ليسا من ذلك في شيء .

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن وجود الحياة الدنيا وما فيها من نعيم وشقاء ، شاهد على وجود حياة أخرى في عالم آخر يوجد فيها من العدل والخير والكمال ، والسعادة والشقاء ما هو أعظم وأفضل بكثير ، بحيث أن هذه الحياة وما فيها من سعادة وشقاء لا تمثل من تلك الحياة إلا ما تمثل صورة قصر من القصور الضخمة ، أو حديقة من الحدائق الغناء على قطعة ورق صغيرة[1].

وقد طرح بديع الزمان النورسي في [رسالة الحشر] الكثير من التساؤلات التي تهدي العاقل لا محالة إلى الإيمان باليوم الآخر نقتصر منها على ما يلي:

أمن الممكن لـمَن له شأن الربوبية وسلطنة الالوهية، فأوجد كوناً بديعاً كهذا الكون؛ لغايات سامية ولمقاصد جليلة، إظهاراً لكماله،ثم لا يكون لديه ثواب للمؤمنين الذين قابلوا تلك الغايات والمقاصد بالايمان والعبودية، ولا يعاقِب أهل الضلالة الذين قابلوا تلك المقاصد بالرفض والاستخفاف..؟!

أمن الممكن لربّ هذا العالم ومالكه الذي أظهر بآثاره كرماً بلا نهاية، ورحمة بلا نهاية، وعزة بلا نهاية، وغيرة بلا نهاية، ان لا يقدّر مثوبة تليق بكرمه ورحمته للمحسنين، ولا يقرر عقوبة

1) انظر في ذلك مقالا بعنوان: الأدلة العقلية على إثبات اليوم الآخر والبعث والحساب والجزاء.

تناسب عزته وغيرته للمسيئين؟.. فلو أنعم الانسان النظر في سير الحوادث ابتداءً من أضعف كائن حيّ وأشده عجزاً وانتهاءً بأقوى كائن، لوجد ان كل كائن يأتيه رزقه رغداً من كل مكان، بل يَمنح سبحانه أضعفَهم وأشدّهم عجزاً ألطف الارزاق وأحسنها، ويسعف كل مريض بما يداويه.. وهكذا يجد كل ذي حاجة حاجته من حيث لا يحتسب.. فهذه الضيافة الفاخرة الكريمة، والاغداق المستمر، والكرم السامي، تدلّنا بداهة، ان يداً كريمة خالدة هي التي تعمل وتدير الامور.

ما دام رب هذا العالم ومدبّره له هذا الكرم الواسع، وهذه الرحمة التي لا منتهى لها، وله الجلال والعزة المطلقان، وان العزة والجلال المطلقين يقتضيان تأديب المستخفين، والكرم الواسع المطلق يتطلب اِكراماً غير متناه، والرحمة التي وسعت كل شئ تستدعي احساناً يليق بها، بينما لا يتحقق من كل ذلك في هذه الدنيا الفانية والعمر القصير الا جزء ضئيل جداً هو كقطرة من بحر.

فلابد ان تكون هناك دار سعادة تليق بذلك الكرم العميم، وتنسجم مع تلك الرحمة الواسعة.. والا يلزم جحود هذه الرحمة المشهودة، بما هو كانكار وجود الشمس التي يملأ نورُها النهارَ، لأن الزوال الذي لا رجعة بعده يستلزم انتفاء حقيقة الرحمة من الوجود، بتبديله الشفقة مصيبةً، والمحبة حرقةً، والنعمة نقمةً واللذة ألماً، والعقل المحمود عضواً مشؤوماً.

وعليه فلابد من دار جزاء تناسب ذلك الجلال والعزة وتنسجم معها. لأنه غالباً ما يظل الظالمُ في عزته، والمظلومُ في ذلته وخنوعه، ثم يرحلان على حالهما بلا عقاب ولا ثواب.

فالأمر اذن ليس اِهمالاً قط، واِن اُمهلَت الى محكمة كبرى، فالقضية لم تُهمل ولن تُهمل، بل قد تُعَجّل العقوبة في الدنيا. فانزال العذاب في القرون الغابرة بأقوام عصت وتمردت يبين لنا ان الانسان ليس متروكاً زمامه، يسرح وفق ما يملى عليه هواه، بل هو معرّض دائماً لصفعات ذي العزة والجلال.

أمن الممكن لخـالق ذي جلال أظهـر سـلطان ربوبيتـه بتـدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بـالمجرات، بغايـة الحكمـة والنظـام وبمنتهى العدالـة والمـيزان.. ان لا يعامـل بالاحسـان من احتموا بتلك الربوبية وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وان لا يجـازي اولئك الذين عصوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمة والعدالة؟.

بينما الانسان لا يلقى ما يسـتحقه من الثـواب أو العقـاب في هذه الحياة الفانية على وجه يليق بتلـك الحكمـة وتلـك العدالـة الا نادراً، بل يؤخر، اذ يرحل اغلب أهل الضلالة دون ان يلقوا عقابهم، ويذهب اكـثر اهـل الهدايـة دون أن ينـالوا ثـوابهم.. فلابـد ان تنـاط القضية بمحكمة عادلة، وبلقاءٍ آيل الى سعادة عظمى.

نعم، انه لواضح ان الذي يتصرف في هذا الكون انما يتصرف فيه بحكمة مطلقة. فأتطلب برهاناً على هذا؟.. فانظر الى رعايتـه سـبحانه للمصـالح والفوائـد في كـل شـئ!.. ألا تـرى ان اعضـاء الانسـان جميعـاً سـواء العظـام منهـا أو العـروق وحـتى خلايـاه الجسمية وكل جزء منه ومكان، قد روعيت فيه فوائد وحكم شتى، بـل ان في اعضـاء جسـمه من الفوائـد والإسـرار بقـدر مـا تنتجـه الشجرة الواحدة من الثمار، ممـا يـدل على ان يـد حكمـة مطلقـة تدير الامور. فضلاً عن التناسق البديع في صنعة كل شئ والانتظام الكامل فيها اللذان يدلان على ان الامور تؤدى بحكمة مطلقة.

إلى آخر ما ذكره في الرسـائل من خطابـات وبـراهين توجـه لأصحاب العقول السليمة، التي تحاول التعرف على حقيقة الوجود كما هو في الواقع، لا كما ترغب.

عندما نستقرئ الأطروحات الكبرى للملاحدة ابتداء من عصر النهضة الأوروبية إلى اليوم نجد الغالب عليها دعوى خطيرة هي كون الإيمان بالله عقبة دون تحقيق القيم الحضارية.. فهم لم يكتفوا بكونه عقبة دون التحرر الإنساني، وإنما أضافوا إليه أيضا كونه عقبة دون التحضر والقيم المرتبطة به.

ولذلك نشأت الماركسية وغيرها من التيارات الإلحادية في ظل تلك التصورات التشويهية للدين، ونشأ معها وقبلها شعار [الدين أفيون الشعوب]، وهو الشعار الذي رفع قبل الثورة الفرنسية، وبقي مستعملا لدى الملاحدة إلى اليوم.

ولهذا، فإن على الداعية المواجه للإلحاد أن يناقش الشبهات المرتبطة بهذا في الجانب، لا بالدفاع عن الدين، ذلك أن المقصود في العادة بالدين هي تلك الأديان المنحرفة التي كانت حقيقة أفيونا للشعوب.

ولذلك فإن الجدل معهم في هذا لا طائل من ورائه، بل قد يكون لهم الحق في كثير منه، وقد قال تعالى مشيرا إلى ذلك الشعار الذي يرفعونه، ومقرا له في بعض معانيه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]؛ فهذه الآية الكريمة تشير إلى ما كان يقوم به رجال الدين من استغلال للدين في سبيل تحقيق المصالح الشخصية، وتشويه الدين لأجل ذلك، حتى يصبح مطية لخدمة أغراضهم.

وإنما بناحيتين مهمتين:

أولاهما: بيان عدم علاقة الإيمان بالله بكل ما وقعت فيه الأديان من الانحرافات، وأن الإيمان بالله، كقضية عقلية منفصل تماما عن الأديان.. ولكل منهما منهجه الخاص في البحث.

فالبحث عن الإيمان بالله، يقتضي استعمال الأدلة العقلية التي سبق أن أشرنا إلى مجامع الكثير منها في الفصل الأول.. أما البحث في الأديان، ومدى مصداقيتها، فيقتضي مناهج كثيرة، كالمنهج التاريخي والوثائقي للتحقق من مصادرها المقدسة، وملاحظة مدى التحريف الذي وقع لها.. أو كدراسة نصوصها والقيم التي جاءت بها والأدلة التي تعتمد عليها وغير ذلك، مما سنراه في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

وثانيهما: هو بيان عدم إمكانية مساهمة الإلحاد في التنوير والتحضر، وأن الجرائم التي أصابت البشرية إبان حكم الملاحدة لا تقل عن الجرائم التي أصابتها إبان حكم رجال الدين المزيفين، ولذلك، فإن الإلحاد ليس حلا كما يزعم الملاحدة، بل هو يساهم في الظلامية والاستبداد، وكل أنواع الظلم والجور، كما نرى في الواقع.

بناء على هذا، سنحاول في هذا المبحث تطبيق ما ذكرناه على ناحيتين مهمتين ترتكز عليهما كل القيم الحضارية، لنرى مدى صلة الإيمان أو الإلحاد بهما.

وقد اعتمدنا فيهما بالدرجة الأولى على ما كتب من مؤلفات كثيرة حول العلمانية، وتاريخها، وتاريخ المذاهب الفكرية المرتبطة بها[1].

أولا ـ الإلحاد.. والعلم:

ربما تكون دعوى [العلمية] أو [المنهج العلمي] هي الأيقونة التي يستعملها الإلحاد في كل عصوره، فمنذ عهد ديموقريطَسْ، ذلك الفيلسوف اليوناني المادي صاحب المذهب الذرّي، والملاحدة يصفون المؤمنون بالجهل وقلة العقل، ويرمونهم بالدجل والخرافة والابتعاد عن العلمية والعقلانية، أو كما عبر عن ذلك توماس جفرسون ـ كما ينقل عنه دوكينز ــ بقوله: (رجال الدين من مختلف الطوائف يعانون من تقدم العلم كما يعاني

(1) ومنها: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر الحوالي، والعلمانيون والإسلام لمحمد قطب، وغيرها من الكتب.

السحرة من موعد شروق الشمس، ويعبسون في وجه تلك الإطلالة التي تعلنهم بأن تلك الوهام التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال)(1)

وبناء على هذا ظهرت المذاهب المادية والوضعية، والتي تقسم التاريخ العلمي للبشرية لثلاثة أطوار: الطور اللاهوتي، والطور الميتافزيقي، والطور العلمي الوضعي.. ثم تسخَر من كل الأطوار، وتعتبر الطور العلمي هو الوحيد الجدير بالاحترام، وتدعو إلى العزوف عن البحث عن أصل الكون ومصيره أو علله الأولى، وتعتبر البحث في ذلك أو الاهتمام به أوهاما وخرافة.

وهكذا راح فرويد وأشباهه من علماء النفس يفسرون وجود الله تفسيرا نفسيا لا علاقه له بالعلم ولا بالعقل، فالناس في رأي فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون لأنهم، بوصفهم أطفالاً، بحاجة ماسة إلى رعاية أب، وهكذا فإن الإنسان ـ عند فرويد وغيره في ذلك العصر ـ هو الذي يخلق الله، لا العكس(2).

وبناء على هذا اعتبر الدين مرضا من الأمراض النفسية، فقال: (يمكن القول بأن الدين هو عصاب البشرية الوسواسي العام، وبأنه ينبثق، مثله مثل عصاب الطفل، عن عقدة أوديب، عن علاقات الطفل بالأب. وانطلاقاً من هذه التصورات، يمكننا أن نتوقع أن يتم العزوف عن الدين عبر سيرورة النمو المحتومة التي لا راد لها)(3)

---

1) وهم الإله، دوكنز، ترجمة بسام البغدادي، دط، دت، ص113.

2) علم الأديان مساهمة في التأسيس، ميشال، مسلان ، ترجمة: عزالدين عناية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، ومنشورات كلمة. ص: 143..

3) قلق في الحضارة، سيغموند فرويد، ترجمة، تحقيق: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص 60.

ومثلـه برترانـد راسـل الـذي راح يصـور الإيمـان باللـه بكونـه مجـرد فكـرة مسـتمدة من نظم الطغيـان والاسـتبداد: (الإنسـان استمد فكرة الإيمان باللـه من نظم الطغيـان والجـبروت السـائدة في الشرق، فعلاقـة الإنسـان باللـه أشـبه مـا تكـون بعلاقـة العبـد الذليل بالحاكم المستبد، وهي ذلة تأباها كل نفس تشـعر بـالمعزة والكرامة)(4)

لكن كل المواقف السلبية التي نطق بها دعاة الإلحاد القـديم لا تشكل شيئا أمام دعاوى أصحاب الإلحاد الجديـد الـذين تصـوروا أنهم وحـدهم أصـحاب العلم والعقـل والحكمـة، وأن من عـداهم ليسوا سوى بلهاء وأغبياء، ولا علاقة لهم بـالعلم، ولا بـالمنطق، ولا بأي أداة من أدوات التفكير.

وقد عبر عن هذه اللغة الساخرة من العقل المـؤمن كـل من كتب في الإلحاد الجديد، أو قدم حصصا وبرامج تـدعو إليـه، فكلهـا مملوءة بالتهكم والسخرية من العقول المؤمنة، وكلها تعتـبر العلم ومناهجه بضاعة خاصة بالملاحدة لا يشاركهم فيها غيرهم.

وكـل هـذا غـير صـحيح، ومجـرد دعـاوى، وللـرد عليهم نعتمـد منهجين:

أولهما: بيان أن كبار العلمـاء والفلاسـفة والبـاحثين في كـل العصور كانوا من المؤمنين، وأن الإيمان لم يحـل بينهم وبين العلم ولا البحث ولا التفكير، بل كـان داعمـا لهم، وسـندا في الكثـير من الأطروحات التي نوروا بها العالم.

ثانيهما: بيـان عـدم تنـافي الـدين الصـحيح مـع العلم، وأن التناقضات التي حصلت بين العلم والـدين سـببها تحريـف الأديـان، وليس الدين نفسه.

وسنحاول أن نشرح ـ باختصار ــ كلا المعنـيين في المطلـبين التاليين:

---

4) مُلحدون محـدثون ومعاصـرون، د. رمسـيس عـوض، مؤسسـة الإنتشار العربي ، 1998، ص 56.

1 ـ العلماء .. والإيمان:

مما قد يحتاج إليه المناظر للملاحدة، ليثبت لهم عدم التعارض بين العلم والإيمان، التعرف على أعلام العلماء الكبار في جميع المجالات، والذين لم يحل الإيمان بينهم وبين العلم، وذلك ليثبت لهم أنه لو كان العلم يقتضي الإلحاد، لكل كل أولئك العلماء المؤمنين غير جديرين بتلك الألقاب العلمية الكثيرة التي لقبوا بها.

فمن هؤلاء العلماء[1] الفيزيائي الكبير [جيمس جول] (1818ـ 1889) الذي بيّن العلاقة بين الحرارة والحركة الميكانيكية، ولذا دعيت وحدة الطاقة باسمه [الجول] بالإضافة الى كونه أحد مؤسسي ما عرف بالطاقة الحرارية، وذلك بفضل تقديمه أساسا اختباريا للقانون الأول المختص بالديناميكا الحرارية، والذي يشير إلى أن الكون عاجز عن خلق نفسه بنفسه.. وقد عبر عن إيمانه بالله بقوله: (بعد التعرف على إرادة الله وطاعتها، يجب أن يكون هدفنا التالي هو الاطلاع على خصائص الحكمة والقدرة والصلاح لديه، كما تبرزها أعماله)[2]

ومنهم [وليم طومسون] (1824ـ 1907) الذي اشتهر بإرسائه مبادئ الطاقة الحرارية، وبصياغته الدقيقة لكل من قانونها الأول الذي كان العالم جول قد عرضه أولا، ولقانونها الثاني.. بالإضافة إلى ذلك، فهو مكتشف قياس الحرارة المطلقة، والتي أطلق اسمه على وحدتها تكريما له، كما أنه سجل نحو تسعين اختراعا خلال حياته.. وقد عبر عن إيمانه بالله بقوله: (كل ما حولنا يشير بوضوح تام إلى خطة حكيمة وصالحة.. أما فكرة الإلحاد فهي بعيدة كل البعد عن المنطق السليم بشكل أعجز عن

---

(1) من المراجع التي رجعنا إليها في هذا: كتاب [وقال الله]، تأليف الدكتور فريد أبو رحمة، ترجمة ميشال خوري، وهو في موقع [مقدمات ومعاجم] على هذا الرابط:

https://www.kalimatalhayat.com/outlines/300-and-god-said.html

(2) Crowther, British Scientists of the Nineteenth Century, Routledge & Kegan Paul, London, 1962, .p. 138.

التعبير عنه بالكلمات)[1]

ومنهم [جايمس كلارك ماكسويل] (1831ـ 1879)، صاحب نظرية الكهرطاسية، مع ما يرافقها من معادلات، والتي مهدت السبيل أمام فيزياء القرن العشرين.. وقد كان من صلواته التي حفظت في وثائقه قوله: (اللهم القادر على كل شئ، يا من خلقت الإنسان، وجعلته نفسا حيا حتى يتسنى له أن يطلب وجهك، كما سلطته على المخلوقات، علمنا أن ندرس أعمال يديك بهدف تسخير الأرض لخدمتنا، وعزز دوافعنا المقدسة لخدمتك)

ومنهم [جوانّس كبلر] (1571ـ 1630) الذي استحق، بفضل اكتشافاته في علم الفلك، أن يوصف بالرجل الذي باشر العملية التي اعتمدت المنطق بدل الخرافات، فقوانينه الثلاث حول مسار الكواكب، هي التي أرست أسس علم الفلك الحديث، وقد عبر عن إيمانه بقوله: (أنا مسيحي مؤمن، معترفاً بأن الله هو الخالق اللطيف الذي كوّن الطبيعة من لا شيء)[2] وذكر في كتابه [انسجام العالمين]، والذي أصدره في العام 1619 لتدوين مبدأه الثالث المتعلق بمسار الكواكب، هذه الكلمات: (عظيم هو الله ربنا، وعظيمة قدرته، ولا نهاية لحكمته)[3]

ومنهم [روبرت بويل] (1627ـ 1691) الذي يعتبر بحق رائد الكيمياء الحديثة، والذي كان له دور كبير في تقدم التفكير العلمي، ومن جملة اكتشافاته الشهيرة، جهوده بشأن علاقة ضغط الغازات بحجمها، والتي لا تزال تُعرف في أيامنا بقانون بويل.. فهو لم يكتف بتلك العلوم فقط، بل أضاف إليها تأليفه لبعض الكتب الدينية التي ضمنها مجموعة من التأملات الروحية التي انطلق فيها من عالم الطبيعة لتوضيح حقائق الدينية [4].

1() Thomson, W. Journal of the Victoria Institute, Vol. 124, p. 267..

2() Tiner, J.H. Johannes Kepler- Giant of Faith and Science, Mott Media, Milford (Michigan), 1977, pp. 195- 6

3() المرجع السابق.

4() More, L. T. The Life and Works of the Hounourable Robert Boyle, oxford University Press, Oxford, 1944, P. 171..

ومنهم [إسحق نيوتن] (1642ـ 1737)، صاحب الاكتشافات الكثيرة، كقوانين الجاذبية وقوانين الحركة وغيرها، بالإضافة إلى مساهماته في حقول الفيزياء، والرياضيات، وعلم الفلك وغيرها، وقد كتب متحدثا عن كتابه [برينسيبا ماثيماتيكا] الذي يعد من أعظم الكتب العلمية، وأكثرها تأثيرا في مسار التطور العلمي، ولا سيما في الفيزياء: (لقد كتبت هذا الكتاب وأنا أضع نصب عيني أن يكون سبيلا إلى مساعدة الناس على أن يؤمنوا بالله المعبود، ولن يسعدني شيء أكثر من تحقيق هذه الغاية)، ومن أقواله المأثورة: (يكفي أن أنظر لإبهامي حتى أكون مؤمنا بالله)، ومن أقواله: (الإلحاد هو ضربٌ من الغباء. فعندما أنظر إلى النظام الشمسي، أرى أن الأرض تقع على المسافة المناسبة من الشمس، والتي تمكّنها من الحصول على الكميات المناسبة من الحرارة والنور. وهذا بالطبع، لم يحدث من قبيل الصدفة)، ومن أقواله: (إن هذا النظام الرائع الذي يتكوّن من الشمس والكواكب والمذنّبات لا يمكنه أن يصدر إلاّ عن مشورة وسلطان كائن فهيم وفطن... وهذا الكائن الإلهي هو الذي يتحكّم بالكل إذ هو رب الكل)[1]

ومنهم [مايكل فاراداي] (1791ـ 1867) الذي كان رائداً في حقل الكهرباء، وهو المسؤول عن اختراع كل من المولّد الكهربائي والمحوّل الكهربائي، كما أنه كان من أوائل مصنعي المحركات الكهربائية، ولهذا أطلقت فاراد (Farad) على وحدة المواسعة الكهربائية، ومن أقواله المعبرة عن إيمانه قوله لمن سأله عن تخميناته بشأن ما يحصل بعد الموت: (أنت تحدثني عن تخمينات؟ ليس عندي أية تخمينات. بل أنا مستند إلى أمور يقينية وأكيدة. لأني عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم)[2]

ومنهم [صموئيل مورس] (1791ـ 1872) مخترع التلغراف، ونظام مورس الذي دُعي باسمه، والذي اختار عبارة [ما فعل

1() Tiner, J. H. Issac Newton- Inventor, Scientist, and Teacher, Mott Media, Milford (Michigan), 1975- inside front cover..

2() Boreham, F. W. A Handful of Stars: Tests that Moved Great Minds, Epworth Press, London, 1933, P. 180.

الله] الواردة في الكتاب المقدس [1]، لتكون أول رسالة رسمية تم نقلها بواسطة التلغراف، ومن تصريحاته المعبرة عن إيمانه قوله: (أنه عمل الرب... ليس لنا، يا رب، ليس لنا، لكن لاسمك أعطِ مجداً)[2]

ومنهم [متى موري] (1806ـ 1873) الذي كان رائداً في مجالي علم المحيطات، وعلم وصف المياه، والذي كانت مقالاته وكتبه من أشهر المراجع في هذين الحقلين، ومن كلماته المعبرة عن إيمانه قوله: (لقد لامني العلماء على اقتباسي من الكتاب المقدس لتثبيت مبادئ الجغرافيا المادية. فالكتاب المقدس، في زعمهم، لم يُكتب لأهداف علمية، وبالتالي لا سلطة له في ما يتعلق بالمسائل العلمية. لكن أرجو منكم المعذرة. فالكتاب المقدس هو السلطة بالنسبة إلى كل شيء يأتي على ذكره... إن الكتاب المقدس هو حق وصحيح، كما أن العلوم أيضاً هي حق وصحيحة. وهكذا فإن قراءة كل واحد منهما، على نحوٍ صحيح، لن يعمل إلا على برهان صحة الآخر)[3]

ومنهم [لويس باستور] (1822ـ 1895)، مؤسس الصنف علم الأحياء المجهري (Microbiology) وعلم الجراثيم (Bacteriology)، والذي اقترح التلقيح، وتحصين المناعة، والبسترة، والتي ساعدت على إنقاذ حياة الملايين من الناس، وصاحب قانون النشوء الإحيائي، داحضاً بذلك فكرة التولّد التلقائي، والتي كانت رائحة في ذلك الحين.. وهو مع كل هذه المنجزات العلمية الضخمة، كان مؤمنا، ولم يحل العلم بينه وبين الإيمان، وقد عبر عن إيمانه بقوله: (العلم يعمل على تقريب الناس من الله)، وقال: (كلّما أمعنتُ في دراسة الطبيعة، كلّما ازدادت دهشتي أمام عما الخالق)[4]

1() سفر العدد 23: 23.

2() Williams, E. L. and Mulfinger, G. Physiacal Science for Christian Schools, Bob Jones University Press, Greenville (South Carolina), 1974, P. 458.

3() Corbin, D. F. M. A Life of Matthew Fontain Moaury, USN & CSN, Sampson & Low & Co., 1888.

ومنهم [البروفسـور جـون بولكنجهـورن] الفيزيـائي الشـهير الذي تأثر تأثرا شديدا بسبب انحراف الفيزياء النظرية عن مجالها، ودخولها في عوالم ممتلئة بالغموض والغرابـة للهـروب من اللـه.. وقد قال معبرا عن نقده الشديد لنظريـة الأكـوان المتعـددة: (إنهـا ليست فيزيـــاء.. إنها في أحسن الأحـــوال فكـــرة ميتافيزيقيه، ولا يوجد سـبب علمي واحد للإيمـان بمجوعة من الأكـوان المتعـددة.. إن ماعليه العـالم الآن هو نتيجة لإرادة خـالق يحـدد كيف يجب أن يكون)

ومنهم [جوهانس كبلر] صاحب الاكتشافات العظيمة في علم الفلك، والذي يوصف بالرجل الـذي باشـر العمليـة الـتي اعتمـدت المنطــق بــدل الخرافــات، بفضــل قوانينــه الثلاثــة حــول مســار الكـواكب، والـتي أرسـت أسـس علم الفلـك الحـديث.. والـذي لم تمنعه شهرته العلمية من إعلان إيمانه بالله، معترفـا بـأن اللـه هـو (الخالق اللطيف الذي كوّن الطبيعة من لا شيء).. كما أنه اعترف بأنه قوانينه التي اكتشـفها جـاءت وليـدة إيمانـه بـأن اللـه هـو إلـه ترتيب، وليس إله تشويش.. ولهـذا فقـد أطلـق على كتابـه عنـوان [انسـجام العـالمين]، الـذي وردت فيـه هـذه العبـارات الجميلـة: (عظيم هو الله ربنا، وعظيمة قدرته، ولا نهاية لحكمته)

ومنهم [أنطوني فلو] ذلك الفيلسوف والعالم الذي عـاش فـترة طويلة من حياته في الإلحاد، حتى أنه اشتهر بكونه فيلسـوف الإلحـاد، لكونـه ظـل مـا يقـارب سـتين عامـاً يـدافع عن الفكـر الإلحـادي في جامعات أكسفورد وأبـيردين وكيلي وريـدينغ وفي كثـيرمن الجامعـات الأمريكيه والكنديه التي قام بها بزيارتها، مستخدما لذلك كل الوسـائل من مناظرات وكتب ومقالات وغيرها، لكنه لم يجد في الأخير ملاذا إلا في الإيمان، فكتب كتابه الذي ينتقد فيه نفسه، وسماه [للكـون إلــه]، وقد عبر عن سبب اختياره الإيمان، فقال: (لقـد أثبتت أبحـاث علمـاء الأحيـاء في مجـال الحمض النـووي الـوراثي، مـع التعقيـدات شـبه المستحيله المتعلقه بالترتيبـات اللازمـه لإيجـاد الحيـاة أثبتت أنـه لابـد حتمـاً من وجـود قـوة خارقـة وراءهـا).. وقـال لي: (لقـد أصبح من الصـعوبه البالغـه مجـرد البـدء في التفكـير في إيجـاد نظريـة تنـادي

4() Tiner, J. H. Louis Pasteur- Fouder of Modern Medicine, Mott Media, Michigan (1990), p. 75..

بالمذهب الطبيعي لعملية نمو أو تطور ذلك الكائن الحي المبـني على مبدأ التوالد والتكاثر)

ومنهم [جـورج ايـرل دافـيز] عـالم الطبيعـة، ورئيس قسـم البحـوث الذريـة بالبحريـة الأمريكيـة، والأخصـائي في الإشـعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية، والذي لم يمنعـه علمـه من أن يصرح بإيمانه بالله، بل يكتب المقالات العلمية في الـدعوة إليـه، ومن أقوالـه في ذلـك، والـتي سـجلها في بعض مقالاتـه: (تعددت الأسباب التي تدفع بالإنسـان إلى إعـادة النظـر في أمـور الدين، ولكننا نؤمن أنها ترجع جميعا إلى رغبة البشر رغبـة صـادقة في الوصول إلى الحقيقة)

ثم راح يفرق بين انتقاد بعض المفاهيم أو الممارسات الدينية وبين الإيمـان باللـه، فقـال: (ينبغي أن نفـرق في هـذا المقـام بين معارضة الدين أو الخروج عليه ويبين الإلحاد، وأن نعـترف بـأن من يخـرج على بعض الأفكـار التقليديـة الـتي ينطـوي عليهـا دين من الأديان، لكي يؤمن بوجود إله قوي كبير، لا يجـوز أن نعـده بسـبب ذلك وحده ملحدا.. فمثل هذا الشخص قد يكون غـير معتنـق لـدين من الأديان، ولكنه يؤمن بالله، وقد يكـون إيمانـه هـذا باللـه قائمـا على أساس متين)

ثم راح يفنـد تلـك المقولـة الـتي تجعـل العلم حكـرا على الملاحـدة، فقـال: (وليس معـنى ذلـك أننـا ننكـر وجـود الإلحـاد والملحدين بين المشتغلين بدراسة العلوم، إلا أن الاعتقـاد الشـائع بأن الإلحاد منتشر بين رجال العلوم أكثر من انتشاره بين غـيرهم، لا يقوم على صحته دليل، بل إنه يتعارض مـع مـا نلاحظـه فعلا من شيوع الإيمان بين جمهرة المشتغلين بالعلوم)

ومنهم الفيزيـائي الشـهير [راسـل سـتانارد] الـذي عـبر عن رفضه لأمثال تلك الطروحات الـتي لبسـت لبـاس العلم والفيزيـاء لتبتعـد اللـه، وتلغي وجـوده، ومن أقوالـه في ذلـك: (إن فلسـفة هـاوكنج تحديـدا ما أعارضه، فهي كما وصـلتني مثـال واضح على التعالم، فطرح أن العلم هو مصـدر المعلومـات الوحيد، وأننا لـدينا فهم كامل لكل شـيء هـراء، بل هـراء خطـير أيضا، فهو يشـعر

العلماء بالكبر والغرور بشكل مبالغ فيه)

وقال عن [نظرية الأوتار]: (إنها نظرية تحتاج لمصادم هيدروني بحجم مجرة لاختبارها وهذا غير ممكن.. حسنا لو قلنا ـ طبقا للنظرية ـ إن الكون خلق نفسه، فمن أوجد النظرية؟ ومن أوجد القوانين الفيزيائية الخاصة بها؟.. ورغم ذلك فلا توجد لها معادلة فيزيائية حتى الآن.. أطلب منهم أن يكتبوا معادلة فيزيائية.. لن يفعلوا لانهم ببساطة لايمتلكونها)

ومنهم الفيزيائي الألماني الكبير، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1932.. وأحد مؤسسي فيزياء الكم، وصاحب أحد أهم مباديء الفيزياء الحديثة، مبدأ عدم اليقين، والقائل: (إنه نظام مبهر تحكمه قوة حكيمة قادرة، لو اختفت من الوجود لاجتاحت الجنس البشرى مصائب رهيبة أسوأ من الانفجارات النووية وحروب الإبادة)

ومنهم [توماس دافيدباركس] ذلك الأستاذ الألمعي في الكيمياء، والأخصائي في النظريات الكهربية والأشعة السينية.. والذي لم يمنعه علمه من أن يؤمن بالله، وينضم إلى الدعاة إليه.

ومنهم [وولز اوسكار لندبرغ] عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية، والقائل: (للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره، وإذا استطاع أن يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله، فالمبادئ الأساسية التي تستند اليها الطريقة العلمية التي يجري بحوثه على مقتضاها هي ذاتها دليل على وجود الله)

ومنهم [ليونارد سسكايند] (من مواليد 1940) أبو نظرية الأوتار الفائقة، وأستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد، والذي كان في بداية أمره مُلحدا، لكن بعد أبحاثه الأخيرة أعترف أنه يستحيل أن ينشأ الكون إلا من خلال تصميم ذكي وتَرك الإلحاد جانبا، وهو يدافع الآن بكل قوة عن ضرورة وجود إله، وقد كتب في ذلك كتابه [حرب الثقب الأسود: معركتي مع ستيفن هاوكنج من أجل جعل العالم أكثر أمانا مع ميكانيكا الكم]، والذي انتقد فيه

بشدة طروحات ستيفن هاوكنج الإلحادية.

ومنهم [روبــرت مــوريس بيج] (1853 ــ 1924 م) عــالم الطبيعة، وأول من اكتشف الرادار في العالم سنة 1934، وسـجل عشـرات الأبحـاث حولـه.. والـذي لم يمنعـه علمـه من أن يصـرح بالإيمان بالله، بل يدعو إليه، ويبرهن عليـه، ومن أقـوال في ذلـك: (ولابد لنا أن نسلم فوق ذلك بما يسلم به الكثيرون من أن قــدرتنا على الملاحظة لا تستطيع أن تمتـد لغـير جـزيء ضـئيل نسـبياً من الحقيقـة الكليـة.. فالإلـه الـذي نسـلم بوجـوده لا ينتمي إلى عـالم الماديات، ولا تسـتطيع حواسـنا المحـدودة أن تدركـه، وعلى ذلـك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة)

ومنهم [ألكســيس كاريــل] (1873ـــ1944)ذلــك الطــبيب الجراح، الذي حاز على جائزة نوبل في الطب عام 1912.. والذي لم يحجبه علمه عن ربه، فقد كتب كثيرا عن الله وأهمية التواصــل معه، ومن أقواله في ذلك: (لعل الصـلاة هي أعظم طاقــة مولـدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت بوصفي طبيبــاً كثـيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم فلما رفع الطب يديه عجــزاً وتسليماً دخلت الصلاة فبرأتهم من عللهم)

وقال: (إن الصلاة كمعدن الراديوم مصـدر للإشـاعات ومولـد للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى زيادة نشاطهم المحـدود حين يخاطبون القوة التي يغنى نشاطها)

وقال: (إننـا نربـط أنفسـنا حين نصـلى بـالقوة العظمى الـتي تهيمن على الكون ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبسا منهـا نسـتعين به على معاناة الحياة بل أن القراءة وحدها كفيلة بـأن تزيـد قوتنـا ونشاطنا ولن نجد أحدا يضـرع إلى اللـه إلا عـادت عليـه الضـراعة بأحسن النتائج)

وكان يقول في تواضع شديد، وهـو الحـائز على جـائزة نوبـل في العلـوم: (لسـت فيلسـوفاً، ولكنـني رجـل علم فقـط، قضـيت الشـطر الأكـبر من حيــاتي في المعمــل أدرس الكائنــات الحيــة،

والشطر الباقي في العالم الفسيح أراقب بـني الإنسـان، وأحـاول أن أفهمهم، ومع ذلك فإنني لا أدعي أنني أعالج أموراً خارج نطـاق حقل الملاحظة العلمية)

هذه مجرد نماذج عن كبار العلماء الذين لم يحل علمهم بينهم وبين الإيمان، وذلك أكبر دليل على أنه لا علاقة بين العلم والإلحاد، وأن الإلحاد رغبة نفسية، لا نتيجة للأبحاث العلمية.

بل إننا نجـد في العصـر الحـديث كبـار المفكـرين والفلاسـفة والعلماء الذين لم يكتفوا بالإيمـان المجـرد، وإنمـا اسـتطاعوا بعـد البحث الطويل، والمرور على التيارات الفكرية المختلفـة التعـرف على الإسلام، والإيمان به، والإذعان له، والكتابة في الدعوة إليـه.. وهم كثيرون جدا، وذلك دليل على ما يحملـه الإسـلام من مفـاهيم الدين الصحيح التي تتناسب مع العقل والفطرة، وتحمل مشــروعا للبشرية، يدل على كونه رسالة إلهية.

ومن هـؤلاء[1] الفيلسـوف السـويديِّ هوجـان لارسـون الـذي أعلن عن إسلامِه في السويد مؤخرا، والفيلسوف الفرنسي روجيه غـارودي، والعـالم والطـبيب الفرنسـي مـوريس بوكـاي، والكـاتب النمسـاوي محمـد أسـد، والدبلوماسـي والسـفير الألمـاني مـراد هوفمـان، والمغـني الإنجلـيزي كـات سـتيفنس(يوسـف إسـلام)، والداعية الإسكتلندي عبد القادر الصوفي، والكاتبة الأمريكية مـريم جميلة، والدبلوماسي الانكليزي غي إيتون، والمستشرق الانكلـيزي مارتن لنغر، والكاتبة الانكليزية عايشة بـويلي، والكاتبـة الاسـترالية جميلة جونز، والأنتروبولوجي الألمـاني أحمـد فـون دينفـر، وأسـتاذ الرياضيات الأمريكي جيفري لانغ، وغيرهم كثير..

وقـد ذكرنـا الكثـير منهم، ومـواقفهم من الإسـلام في كتـاب [قلـوب مـع محمـد ﷺ]، ويمكن للداعيـة الرجـوع إليـه لمعرفـة مواقفهم ومواقف الكثير من الغربيين من الحضـارة الماديـة الـتي أنشأها الفكر الملحد، والتي لم تستطع أن تلـبي حاجـات البشـرية النفسية والروحية والعقلية.. بل كـانت وسـيلة للصـراع بين الأمم،

---

[1]() انظر مقالا تحت عنوان: تحولات المفكرين نحو الإيمان.

واستغلال المستكبرين للمستضعفين.

بالإضافة إلى ذلك نجد في سير حياتهم كيفية تعرفهم على الإسلام، وسر انجذابهم له، ونقدا عميقا للفكر المادي الإلحادي وللديانة المسيحية أو اليهودية، متفاعلين بعقول ناقدة ويقظة مع منتجات الحضارة الغربية وإشكالات الثقافة الأوروبية في مختلف الأبعاد الفلسفية والتاريخية والفكرية والسياسية.

فمن هؤلاء ـ مثلا ـ [روجيه غارودي] فيلسوف القرن العشرين بفرنسا، والذي مر بتحولات فكرية كثيرة إلى أن وصل إلى الإسلام، [1] فمنذ سنة 1933 انتمى للحزب الشيوعي الفرنسي معتقدا (أن الشيوعية كانت الاختيار الوحيد الذي يطرح بديلا للخروج من أزمة الرأسمالية. كما كانت أفضل جبهة تقاوم هتلر والنازية في هذه الفترة، ففي فرنسا ـ على سبيل المثال ـ كان معظم المشتغلين بالكتابة والفنون وأساتذة الجامعات، وحائزي جائزة نوبل: إما أعضاء في الحزب الشيوعي أو أصدقاء للشيوعيين. وذلك بسبب الحالة السيئة التي نشأت عن أزمة الرأسمالية وتيار المقاومة لنازية هتلر)[2]

وكان غارودي يبحث عن إيديولوجيا توفر السلام والأمن للبشرية، وتمنح الانسجام بين الأخلاق والسياسة، وبين الروح والمادة، وبين الفرد والمجتمع، وبين الثقافات الغربية وغير الغربية؛ أي أيديولوجيا عالمية تضم كل البشر.

كان يبحث عن دين يسمو فوق القومية والوطن واللغة والمستوى الاقتصادي للحياة، ويمنح الحياة الإنسانية معناها الحقيقي، وقد وجد غارودي في الإسلام النموذج لنوع من الحوار التوفيقي الذي كان مشغولا به طوال ثلاثين عاما.

---

(1) انظر: شاهد من الغرب: ورقات تمهيدية لقراءة فكر جارودي، عبد العتاق مخلص، دار القرويين، الطبعة الأولى 2004.

(2) صلاح عبد الرزاق، نقلا عن مصطفى حلمي، إسلام غارودي بين الحقيقة والافتراء، دار الدعوة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1996. ص17.

ولذلك فإنه وفي سنة 1966 أصدر كتابه [ماركسية القرن العشرين]، مؤسسا بذلك موقفا نقديا من مسلمات الماركسية الثابتة، متهما الماركسية بالتحول إلى دين رسمي ذي طقوس وأتباع، ومبرزا أن هذه المقولة مخالفة لقول انجلز: (نظريتنا ليست ناموسا إلهيا، ناموسا يجب حفظه عن ظهر قلب وترديده بصورة آلية، بل هي دليل عمل)، كما انتقد فيه الفهم الخاطئ لمقولة: (الدين أفيون الشعوب)، فالادعاء بأن الدين في كل زمان ومكان يصرف الإنسان عن العمل والكفاح متناقض تناقضا صارخا مع الواقع التاريخي[1].

وقد طرح غارودي في سياق مراجعاته للماركسية الجامدة، مقولة [لا دين أفيون للشعوب، ولا إلحاد وضعي]

ولذلك رأى في تلك الفترة ـ وفي سياق نقده للماركسية ـ أن البديل الحقيقي هو إيمان مناضل وخلاق، لا يقصر الواقع على ما هو كائن فحسب، بل يضمنه أيضا جميع ممكنات مستقبل يبدو على الدوام مستحيلا في نظر من لا يملك قوة التأمل. فالإيمان يعني الأمل، مع ما يحمله من استكشاف الإمكانيات الكامنة وراء الواقع المباشر.

ويبرز ذلك غارودي بعمق وتفصيل أكثر في كتابه: [نحو حرب دينية] في سياقه مراجعته للماركسية، حيث اعتبر أن الإلحاد لم يكن مكوّنا ضروريا من مكونات الاشتراكية. كما أكد أن ماركس لم يقم بنقد فلسفي للدين، بل قام بنقد سياسي، مفسرا ذلك بقوله: (ففي نضاله من أجل الطبقات المستغلّة والمضطهدة، اصطدم[ماركس] في أوروبا التي سيطرت عليها روح [الحلف المقدس] بين كبار رجال الدين والأمراء ضد كل حركة ديموقراطية أو اشتراكية، بدين يلعب، فعلا، دور أفيون الشعب)[2]

---

[1]() روجي غارودي، ماركسية القرن العشرين، ص147.

[2]() روجيه غارودي، نحو حرب دينية: جدل العصر، ترجمة: صياح الجهيم، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 1997..

وبعد تلك التحولات الكثيرة التي مر بها، تحدث عن نفسه ملخصا رحلة حوالي ثمانين عاما من البحث الفكري والعمل النضالي في قضية [المحاكمة بالذات] والتي انتهت باتهامه بمعاداة السامية، ومما جاء فيها قوله ـ متوجها لقاضيه وللجمهور الحاضر في قاعة المحكمة ـ: (إنني أستاذ جامعي متقاعد، وكاتب ألفت 54 كتابا وترجمت كتبي إلى 29 لغة وقدمت عني 22 أطروحة جامعية، وقد قاومت النازية في أثناء الاحتلال، ونفيت طيلة 33 شهرا في الجزائر، وكنت عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، لكنني فصلت من الحزب عام 1970؛ لأنني قلت إن الاتحاد السوفيتي ليس بلدا اشتراكيا، كما عملت 14عاما كنائب في الجمعية الوطنية (البرلمان) ثم اعتنقت الإسلام)

وعندما نبحث في كتبه عن أسباب اعتناقه للإسلام بعد كل تلك الرحلة الطويلة من البحث نجد أنها أسباب فكرية بالدرجة الأولى، فالواقع الإسلامي لم يكن يشجع أبدا على الإسلام، ولكنه وعند عودته للمصادر المقدسة للمسلمين، وجد فيها كل ما يهفو إليه.

لقد وجد روجيه أن كل تلك المراحل الفكرية التي مر بها ابتداء من المادية الجدلية، والتفسيرات الأرسطية والهيجلية والماركسية للمجتمع وللاقتصاد والثقافة والفن وللكون بشكل أشمل، وانتهاء ببعض التجارب الدينية من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، كانت مجرد طريق عبد له ليصل من خلاله إلى الإسلام.

وقد قال في بعض حواراته: (الخطيئة الكبرى في الحضارة الغربية أنها اعتمدت صيغة النمو المادي التراكمي.. نمو الإنتاج ونمو الاستهلاك كمعيار أوحد للتقدم وللسعادة وللعمل الإنساني ولكن ماذا بعد؟ ماذا بعد المزيد والمزيد من إنتاج السيارات والماكينات وأجهزة الكومبيوتر؟ ماذا بعد المزيد والمزيد من البنوك والأرباح المالية؟ ماذا بعد المزيد والمزيد من المدن والطرق والمصانع؟ إلى أين سنصل بعد ذلك.. وأين النمو في

القيم والأخلاق والمعاملات والسعادة الحقيقية؟)[1]

وفي حوار آخر له مع مجلة الأمة لخص أسباب انجذابه للإسلام قائلا: (إذا حكمت على الأمور في ضوء تجربتي الشخصية فإنني أقول: إن ما كان يشغلني هو البحث عن النقطة التي يلتقي فيها الوجدان بالعقل أو الإبداع الفني والشعري بالعمل السياسي العقيدي، وقد مكنني الإسلام والحمد لله من بلوغ نقطة التوحيد بينهما ففي حين أن الأحداث في عالمنا تبدو عمياء متطاحنة وقائمة على النمو الكمي والعنف يروضنا القرآن الكريم على اعتبار الكون والبشرية وحدة واحدة يكتسب فيها الدور الذي يسهم به الإنسان معنى)[2]

وقال: (أحب أن أقول إن انتمائي للإسلام لم يأت بمحض الصدفة، بل جاء بعد رحلة عناء وبحث، ورحلة طويلة تخللتها منعطفات كثيرة، حتى وصلت إلى مرحلة اليقين الكامل، والخلود إلى العقيدة أو الديانة التي تمثل الاستقرار، والإسلام في نظري هو الاستقرار.. بدا لي الإسلام حامل إجابة على أسئلة حياتي)[3]

هذا مجرد نموذج عن مفكر مر بمراحل فكرية ودينية متعددة إلى أن وصل إلى الإسلام، ويوجد أمثاله الكثير من المفكرين والعلماء، والذين يمكن الاستفادة من طروحاتهم في التفريق بين الدين المزيف والدين الإلهي، لأن مشكلة الملاحدة هي جحودهم للإيمان بالله بسبب مواقفهم من التحريفات الدينية.

2 ـ الدين .. والعلم:

من الطروحات التي يرددها الملاحدة كثيرا في ردودهم على

---

(1) مجلة الدوحة ديسمبر 1982.

(2) مجلة الأمة العدد 29السنة الثالثة ـ فيفري 1983.

(3) غارودي، محاضرة حوار الحضارات، ألقاها في الاسكندرية يوم 21ـ03ــ1983. نقلا عن روجي غارودي، محمد عثمان الخشت(إعداد) لماذا أسلمت نصف قرن من البحث عن الحقيقة.

الإيمان بالله، وبيان عـدم مصـداقيته دعـواهم التنـاقض بين الـدين والعلم.. وهذا ــ مـع كونـه غـير مرتبـط بالإيمـان باللـه كمـا ذكرنـا سابقا، لأن الدين قضية، والإيمان بالله قضـية أخـرى ــ صـحيح من بعض الجهات، ولكنه ليس صحيحا من الجهات كلها.

ولذلك كان على الداعيـة أن يـبين بعض مصـداقيتهم في هـذا الجانب، ولا يجادلهم فيه؛ فالحق أحق أن يتبع، بل إن اتفاقـه معهم في هذا الجانب قد يكون مقدمة لتليينهم لمعرفـة الحـق والإذعـان له.

ذلك أن هناك الكثير من رجال الدين الذين ربطـوا بين الـدين وبين بعض الخرافات، ثم طلبـوا من العلمـاء أن يؤمنـوا بهـا، وقـد وقع ذلك في جميع الأديان بما فيها الإسلام نفسه..

ولذلك كان الموقف الصحيح هو مواجهـة التحريفـات، لا الـرد على الــدين نفســه.. والأولى أن يقــوم أصــحاب الــدين نفســه بالمواجهة والرد، حتى لا يكون دينهم عقبة وحائلا دون الإيمان.

وســنذكر هنــا بعض الأمثلــة على ذلــك من خلال الــديانتين الكبيرتين: المسيحية والإسلام.

أ ـ المسيحية والعلم:

لا يمكننـا أن ننكـر الصـراع بين المسـيحية كـدين أو كنيسـة والعلم، فكلاهما يتبـنى بعض المعتقـدات الـتي تتنـاقض مـع العلم، ولـذلك كـان ذلـك الصـراع سـببا في ظهـور الكثـير من المـدارس الإلحادية الـتي لم تسـتطع أن تمـزج بين منتجـات العلم القطعيـة، وبين ما في الكتـاب المقـدس، أو مـا تتبنـاه الكنيسـة من معـارف وعلوم.

وسبب ذلـك لا يعـود للـدين الإلهي نفسـه، ذلـك الـدين النقي الصافي الذي جاء به المسـيح عليـه السـلام، وإنمـا يعـود لخطـأين وقعت فيهما الكنسية:

أولهما: تحريف حقائق الوحي الإلهي وخلطهـا بكلام البشـر، ولهذا نجد الكثير من الأسفار التي كتبها بشـر عـاديون، ومـع ذلـك

توصف بالكتب المقدسة، وقد فصلنا الحديث عنها في كتاب [الكلمات المقدسة]

وثانيهما: فرض الوصاية على العلماء الذين يخالفونها في تلك المعتقدات التي تؤمن بها، وقد نشأ هذا عن ضيق صدر الكنيسة بما يخالف تعاليمها المختلطة، وإصرارها على التشبث بها، فكان الامتداد الطبيعي للطغيان الديني طغياناً فكرياً عاماً.

الخطأ الأول:

أما الخطأ الأول؛ فهو أنه كما تسربت الوثنيات إلى عقائد المسيحية، وتسربت طقوس الوثنية إلى شعائرها، تسربت الخرافات إلى علومها.. ولم تكتف بقبولها، بل راحت تحتكرها، وتعتبرها عقائد لازمة يحرم من جحدها.

فقد تبنت الكنيسة آراء أرسطو في الفلسفة والطب ونظرية العناصر الأربعة ونظرية بطليموس في أن الأرض مركز الكون.. وما أضاف إلى ذلك كله القديس أوغسطين وكليمان الإسكندري وتوما الاكويني.. واعتبرت هذا المزيج من الآراء البشرية أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك.

وقد كانت هذه العلوم المسيحية تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون.. تذكر بأن الله خلق العالم ابتداء من سنة 4004 ق.م، وتوج ذلك بخلق الإنسان في جنة عدن.. والعجيب أنها ظلت مصرة على هذا الرأي حتى مطلع القرن التاسع عشر، فقد طبع كتاب الأسقف (آشر) الذي يحمل هذه النظرية سنة 1779 م [1].

بالإضافة إلى هذا؛ فقد رأت الكنيسة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن الأقنوم الثاني.. الذي هو المسيح.. تجسد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني، وأضافوا إلى هذا ما فهموه من قول التوراة:

---

[1]) انظر معالم تاريخ الإنسانية: ج1 ص16.

(الأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق) (سفر الجامعة:1/ 5-6)

أما كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر، فنفتها الكنيسة بحجة أن (من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رؤوسهم وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل، وقالت إنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض ويموت مصلوباً هناك من أجل خلاصهم)[1]

أما تاريخ الطوفان فتختلف فيه تقاويم التوراة، لكنه على أقصى آرائها وقع بعد خلق آدم بـ (2262)سنة[2]، ومعنى ذلك أنه كان سنة 1742 ق.م.

ومن الطريف أن مجلساً كنسياً كان قد أعلن في بداية القرن العاشر للميلاد أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل، لأن الله قد جعل المدة بين إنزال ابنه ونهاية العلم ألف سنة فقط[3].

هذه بعض معلوماتها التاريخية.. أما معلوماتها الطبية، فقد كانت أفضل وأنجح الوسائل العلاجية في نظرها إقامة الطقوس لطرد الشياطين التي تجلب المرض، ورسم إشارة لصليب ووضع صور العذراء والقديسين تحت رأس المريض ليشفي.

الخطأ الثاني:

وقد برز بعد احتكاك الكثير من الأوروبيين بمراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطالية، ونتجت عنه ثورة علمية في أوروبا، وهنا ثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار.. والذين لم يكونوا في نظرهم غير المسلمين..

1) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /205 وانظر كذلك تكوين العقل الحديث 3/348.

2) انظر: إظهار الحق:218.

3) انظر قصة الحضارة:14/ 379.

فلـذلك أعلنت حالـة الطـوارئ ضـدهم، وشـكلت محـاكم التفـتيش في كـل مكـان تتصـيدهم وتـذيقهم صـنوف النكـال.. وأصدرت منشورات بابويـة جديـدة تؤكـد العقائـد السـابقة، وتلعن وتحـرم مخالفيهـا.. وبـذلك قـامت المعركـة بين الكنيسـة والعلم، وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام.

وقد كان من أول النظريات العلميـة الـتي صـادمت الكنيسـة نظريـة كوبرنيـق (1543) الفلكيـة، فقبـل هـذه النظريـة كـانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة، وكـانت فلسـفتها تعتنـق نظريـة بطليمـوس الـتي تجعـل الأرض مركـز الكـون، وتقـول أن الأجـرام السماوية كافة تدور حولها.

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلـة بعكس ذلـك كـان جـديراً بأن يقع في قبضـة محكمـة التفـتيش، ولم ينج من ذلـك لأنـه كـان قسيساً، بل لأن المنيـة أدركتـه بعـد طبـع كتابـه بقليـل، فلم تعـط المحكمة فرصة لعقوبتـه، إلا أن الكنيسـة حـرمت كتابـه (حركـات الأجرام السماوية)، ومنعت تداوله وذكرت أن ما فيه هو وسـاوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل.

وقد ظن رجال الكنيسة أن أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخـر هـو (جردانـو برونـو) بعث النظريـة بعـد وفـاة صـاحبها، فقبضـت عليـه محكمـة التفـتيش، وزجت بـه في السـجن سـت سنوات، فلما أصر على رأيـه أحرقتـه سـنة 1600م وذرت رمـاده في الهواء.

وبعد موته ببضع سـنوات كـان (جـاليلو) قـد توصـل إلى صـنع المرقب (التلسكوب)، فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً، فكان ذلـك مـبرراً للقبض عليـه ومحاكمتـه، وقضـى عليـه سـبعة من الكرادلـة بالسـجن مـدة من الزمـان، وأمـر بتلاوة مزامـير النـدم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات [1]..

ولمـا خشـي على حياتـه أن تنتهي بـالطريق الـتي انتهى بهـا برونو أعلن ارتداده عن رأيـه، وهـو راكـع على قدميـه أمـام رئيس

[1] معالم تاريخ الإنسانية:1/1008.

المحكمة قائلاً: (أنا جاليلو.. وقد بلغت السبعين من عمري.. سجين راكع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض)

ولم يكتف بهذا التعهد.. بل أضاف إليه التعهد بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل[1].

لكن الكنيسة لم تستطع أن تستمر في نصرة آرائها بهذه الطريقة، ذلك أنه لم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كان لنظرية كوبرنيق وما أضاف إليها برونو وجاليلو آثار واسعة، ظلت راسخة في الفلسفة الأوروبية عامة، وذلك ما أحدث أثرا خطيرا في ثقة الجماهير بالكنيسة جعلتهم يشكون في سلامة معلوماتها، وهو أثر له أهميته القصوى.

لقد قدم ذلك الصراع إيحاءات فلسفية جديدة، هزت فكرة الثبات المطلق التي كانت مسيطرة على العقلية الأوربية وحطت كذلك من قيمة الإنسان ومكانته في الوجود.

والأخطر من ذلك كله هو ما حصل من ثورة العلماء على الكنيسة كما ثار العامة عليها.. وتولد من تلك الثورة جاهلية جديدة فصلت العلم عن المبادئ والمثل.

وكان في إمكان الكنيسة حينها أن تراجع أطروحاتها، وتميز الإلهي من البشري في دينها، وتبحث عن أي محاولة توفيق تحفظ للعلم حرمته، وتحفظ للدين قداسته، لكنها لم تفعل، بل لجأت إلى سلاح الإرهاب الذي تدربت على استعماله في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش.

فقد كان القرن السابع عشر هو القرن الذهبي لمحاكم التفتيش؛ فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد، واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية وظهرت الفهارس أو (القوائم البابوية) التي تحتوى على أسماء الكتب المحرمة، وكان وجود شيء من

---

1) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /205 وانظر كذلك تكوين العقل الحديث 3/348.

هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسوقه إلى محكمة التفتيش وتعريضه لأليم عقابها.

وقاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد وإن كانت نافعة خيرة، فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً.

واضطرب حبل الكنيسة بظهور الروح الجديدة اضطراباً واضحاً وألقت بكل ثقلها في معركة كانت في غنى عن دخولها أمام الناس، لا سيما المثقفون الذين انتهزوا الفرصة وخيل إليهم أن الأقدار قد لاقت أيهم مفتاحاً سحرياً يخلصهم من سجن الكنيسة وأغلالها ذلك هو مفتاح (العلم والتجربة)

وبدأت خطايا الكنيسة والمسيحية التي كانت تغطى بستار القداسة تفتضح.. وأصبحت للناس ـ وللعلماء على الأقل ــ الجرأة الكافية ليقولوا للكنيسة: لا.

وكان (سبينوزا) ذلك اليهودي المتحرر من هؤلاء.. بل لعله أعنفهم.. فقد طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس نفسه، ووضع الأسس التي قامت عليها (مدرسة النقد التاريخي) التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية.. أى على أساس أنها تراث بشري، وليست وحياً إلهيا.

وقد استنتج سبينوزا ــ انطلاقا من تطبيق هذا المنهج ــ أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام، مستدلاً بما جاء في سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه، وقول كاتب السفر: (لم يأت نبي مثله من بعده)[1]

واستطاع أن يثبت أن التوراة قد عينت أماكن بأسماء لم (توضع لها إلا بعد موسى بقرون عديدة)[2]

---

1) انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) من سلسلة [حقائق ورقائق]

وفي إنجلترا طور جيبون النقد التاريخي للمسيحية في كتابه (سقوط الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها).. أما هليوم فقد ابتدع مذهب الشك المطلق الذي كان ثورة نفسية على الإيمان المطلق طوال القرون الماضية.

كما استطاع (باسكال) أن يوجه نقده إلى عقيدة الخطيئة قائلاً: (لا شيء يزحم العقل الإنساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية، وأنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة)

أما (جون لوك)، فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض قائلاً: (من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً، فقد أطفأ نور كليهما وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق)

كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

لكن كل تلك الأصوات ظلت خافتة أمام بطش محاكم التفتيش، وضغط المجتمع الذي كان يدين بالمسيحية ويراها جزءاً من كيانه.. ولذلك لم يحرقوا.. ولكن تراثهم مع ذلك تعرض للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصياً للإيذاء والمضايقة من قبل الكنيسة.. إلى أن تفجر البركان العلمي في كل مكان والخلافات الداخلية بين الطوائف المسيحية شغلتها عن إعطائهم ما يستحقون من الاهتمام.

كما أن النظريات الجديدة عن الكون في ذلك الوقت قد غمرت الأفكار الفلسفية، واستأثرت بالاهتمام البالغ من قبل الأوساط الدينية والعلمية على السواء.

وحينها تجاوز النقد حد الأدب ليفسح الأمر لإله العقل الذي

---

2) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي.

خلف إله الكنيسة.. فظهر فولتير الذي كان أعدى أعداء الكنيسة آنذاك؛ فقد نقد الكنيسة نقدا لاذعا، وكان أول ما انتقده العقيدة المسيحية في التثليث وتجسيم الاله والصور المقدسة وأنحى باللائمة على بولس الذي طمس المسيحية وحرفها، ولذلك كان الإيمان بالمسيحية في نظره هو (الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأشياء تستعصي على الفهم فالحية تتكلم والحمار يتحدث وحوائط أريحا تتساقط بعد سماعها صوت الأبواق، إن الإيمان على هذا النحو هو على ما يقول أرازم هو الجنون)

أما الخطيئة الأولى فيرفضها فولتير، ويعتبرها إهانة لله واتهاماً له بالبربرية والتناقض، وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته[1].

وقد انتقد فولتير الطقوس السبعة نقدا مريرا، وسخر من الكتاب المقدس سخرية لاذعة تتجلى في قوله تعليقا علي معلومات التوراة الجغرافية: (من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا).. وقوله عن صيام المسيحية (دواء للفقراء لا يتعاطاه الأغنياء)، ويري (أن الطقوس والشعائر والعبادات و الاحتفالات الدينية جرائم محلية يعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع خاصة إذا تمت في صورة أضاح وقرابين)

أما آراؤه السياسية، فقد عبر عنها بقوله: (إن التوحيد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام لذلك يجب إلغاؤه وإقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي)

وقال: (إنه لا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله لابد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة)[2]

---

1) سلسلة تراث الإنسانية ج 8 ص 78، 80.

2) وقد كان فولتير صرح ببعض التصريحات ضد الإسلام قبل أن يعرفه، ولكنه بعد معرفته أعلن توبته عن مواقفه من الإسلام، ومن محمد ﷺ ولكن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة فقد طُمست، فهو يعترف بأنه كان ضحية الأفكار السائدة الخاطئة:(قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

وقد جزعت الكنيسة من هذه الانتقادات والآراء جزعا شديدا، ولعنت فولتير وأشياعه وكفرتهم وحـرمت قـراءة كتبهم.. وتعـرض فولتير للمضايقة والاضطهاد من قبل رجال اللاهوت، حتى أنه قال مخاطبـا إنسـان ذلـك العصـر: (أنت طـائر في قفص محـاكم التفتيش.. لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك)[1]

وقد نشأت عن هذا ردود فعليـة سـلبية نحـو الـدين عمومـا لا المسيحية وحدها، مع أن الـدين ليس محصـورا في المسـيحية، ولا في الكنيسة، وقد كـان في إمكـان العقلاء أن ينظـروا في الأديـان ويدرسوها دراسة موضوعية ليبحثوا عن الحقيقة، ويسلموا لها.

لكنهم لم يفعلوا، بل استبدلوا إله الكنيسة بإله العقـل؛ فصـار العقل هو الإله الجديد لذلك العصر.. وصار المخـبر هـو الكنيسـة.. وصار البشر هم القرابين التي تقدم لمحرقة كنيسة العلم.

وقد وصف برنتن ذلك العصر الذي ابتدأت فيه عبودية العقـل المصارع لإله الكنيسة، فقال: (كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير هو كلمـة السـر الكـبرى لعالمـه الجديـد، العقـل هـو الـذي يسـوق النـاس إلى فهم الطبيعـة.. وهـذه هي كلمـة السـر الثانيـة الكبرى.. وبفهمه للطبيعة يصوغ سـلوكه طبقـاً لهـا، وبـذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل لأفكار المسيحية التقليدية الخاطئة، وما يخالفها في الأخلاق والسياسة ممالا يناقض الطبيعة)[2]

ثم يقول في قاموسه الفلسفي:(أيهـا الأسـاقفة والرهبـان والقسيسـون إذا فُـرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار في شهر الصـيام.. إذا فـرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطاء 2,5 بالمائة من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعـون بزوجـات تبلـغ ثمـاني عشـرة زوجـة أحيانـاً، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بـأن هـذه الشـريعة شريعة لذّات؟!)

ويقول:(لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسـان أن يقوم به على الأرض.. إن أقل ما يقال عن محمد أنه قـد جاء بكتاب وجاهد، والإسـلام لم يتغـير قـط، أمـا أنتم ورجـال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)

1) مقتطفات من سلسة قراءات إنسانية ج 8 ص 80 – 87.

2)أفكار ورجال: 474، 476.

وبين أن السبب في هذا يعود إلى المسيحية التي طبعتها الكنيسة بطابعها الخاص، قال: (إن المسيحية التقليدية لم تعد قادرة على أن تمد المستنيرين بنظرية كونية فقد بدأ الناس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يبين أن تاريخ الخليقة الذي حدده الأسقف (آشر) بعام 4004 ق م وتاريخ قصة الطوفان بعيدا الاحتمال.. ولكن مبدأ التثليث في المسيحية مثلاً: إن الرياضة كانت ضد هذا المبدأ فإن أي نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة وواحداً في آن واحد، أما عن المعجزات فلماذا توقفت؟ إذا أمكن إحياء الميت في القرن الأول، فلماذا لا يحيا في القرن الثامن عشر)[1]

وبعد تخلص الإنسان في هذا العصر من القيود التي كانت تربطه بالكنيسة، راح يتمرد عليها في كل شيء، وراح يطلق العقل من أغلاله، ولم يعد مقيداً بأغلال الثنائية الديكارتية، بل بدأ يبحث عن ذاته، ويسلك طريقه لكي يتصرف كما لو كان (إلها) بالفعل، وتعالت أصوات الباحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهم وخرافة، ابتداء بالوحي وانتهاء بالفداء والصلب والرهبانية.. فكلها أباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسق مع العقل.

ومع أن العقل والمنطق العقلي يقتضي وجود الله بل وجود كمالات الله إلا أن رد فعل العقلانيين على الكنيسة جعلهم ينفرون من الإله نفورا كليا، واستبدلوه بالطبيعة، التي حلت محل الإله، كما يقول (سول): (صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة)[2]

وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر (تأليه الطبيعة)، أو عبادة الطبيعة، وليست هذه العبارات مجازاً، بل هي مستعملة على الحقيقة تماماً، فكل صفات الله التي عرفها الناس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة إلى إلههم الجديد، مع فارق كبير

---

[1] أفكار ورجال: 476.

[2] جورج سول: المذاهب الاقتصادية الكبرى:51.

بين الإلهين في نظرهم.

فإله الكنيسة حقود يعـذب السـلالة البشـرية ويقتـل ابنـه لأن الإنسان الأول أكل فاكهة من حديقته.. وهو إله متعنت يضع القيود الاعتباطية على حرية الإنسـان ويقيـده بالالتزامـات ويفـرض عليـه الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض.

أمـا الطبيعـة فإلـه جـذاب رحب الصـدر ليس لـه كـنيس ولا التزامات ولا يسـتدعي طقوسـاً ولا صـلوات، وكـل مـا يطـالب بـه الإنسان أن يكون إنساناً طبيعياً يلبي مطالبه الطبيعيـة في وضـوح وصراحة.

وميزة الإله الجديد أنه ليس لـه رجـال دين ــ كمـا للكنيسـة ـ يستعبدون الناس لأنفسهم.. ولا كتاب مقدس متناقض.. ولا أسرار علياً مقدسة.. بل له دعاة من أمثال روسو وفولتـير وديـدرو.. ولـه كتب علميــة هي (دائــرة المعــارف) و(العقــد الاجتمــاعي) و(روح القوانين)

والقانون الطبيعي يجعل الكون مترابطاً متناسقاً لا اضـطراب فيه ولا خلل، وبالمقابل جعلت الطبيعـة للإنسـان قانونـاً يكفـل لـه السـعادة التامــة ولكن النظم الإنسـانية والأديـان طمسـت هــذا القانون فشقي الإنسان وتعذب.

تلك هي المبادئ الأولى للمذهب الطبيعي الذي تبلـور ليصـبح ديناً إنسانياً عند (كـومت) في القـرن التاسـع عشـر، وعنـه انبثقت الماديات المتعددة التي تفسر الكون تفسيراً آلياً حسـب القــوانين التي سميت (قوانين الطبيعة)

ولم يبـدأ ذلـك دفعـة واحـدة بطبيعـة الحـال.. فقـد انفصـلت الفلسفة عن الدين بادئ ذى بدء ونبذت البحث فيما وراء الطبيعــة كما كانوا يطلقـون على أمـور الغيب المتعلقـة باللـه وخلقـه لهـذا الكون، والغاية من هذا الخلـق، والـوحى الربـانى المتضـمن للقيم الدينية التى ينبغى أن يتبعها الإنسان من أجل الخلاص فى الآخرة.

واتجهت الفلســفة إلى دراســة الطبيعــة والكــون المــادى،

والإنسان باعتباره كائنا موجـودا فى الطبيعـة، لا بوصـفه كائنـا قـد خلقه الله لغاية معينة وهدف يؤديه.

وكان التقدم العلمى الذى حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة التى سـاعدت على اتجـاه الفكـر الأوربى ذلـك الاتجـاه من خلال المذهب العقلى والتجريبى.

وعلى سبيل المثال، فقـد كـانت اكتشـافات نيـوتن ونظرياتـه خطوة دافعة على طريق الإلحاد عن الكثير من أهل ذلـك العصـر، بحجة أن نيوتن اكتشف بعض ما سمى عنـدهم (قـوانين الطبيعـة) التى يجرى الكون المادى بمقتضاها.. وكشف عما يسـمى عنـدهم (قانون السببية) أى القانون الذى يفسر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة، وقد كان هذا فى أوروبا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة، أى نفى الأسباب الغيبية.

يقـول برينتـون: (إن السـببية تهـدم كـل مـا بنتـه الخرافـات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة فى هذا العالم)

ويقول: (الإله فى عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع السـاعة، ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعـنى بهـا الكـون – لم يلبث أن شـد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلهـا تعمـل حـتى الأبـد، أمـا الرجـال على هـذه الأرض فقـد صـممهم الإلـه كـأجزاء من آلتـه الضخمة هذه ليجروا عليها، وإنـه ليبـدو أن ليس ثمـة داع أو فائـدة من الصلاة إلى الإله صانع هذا السـاعة الكونيـة الضـخمة، الـذى لا يستطيع إذا ما أراد التدخل فى شئون عمله)[1]

ويقول: (ولكن ثمة أناس ذهبوا إلى أبعـد من ذلـك، واعتـبروا فكـرة الإلـه فكـرة شـريرة، وخاصـة إذا مـا كـان إلـه الكنيسـة الكاثوليكية، وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسم الملحـدين، وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود لمسيح أو لإله المسيحية، ويقولون إن الكـون ليس إلا مجموعـة متحركـة ذات نظـام معين يمكن فهمـه

1) منشأ الفكر الحديث ص 151.

باللجوء إلى السببية المعتمدة على أساس العلوم الطبيعية)[1]

هكذا سار الاتجاه المادى المادى الملحد بخطوات حثيثة حتى جاء القرن التاسع عشر، فظهرت الفلسفة الوضعية التى تقول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل، واعتبارها هى الأصل الذى ينبثق عنه كل شئ.. والذى يبعث الأفكار فى العقل البشرى، وكان من أهم فلاسفتها (أوجست كومت) و(فرباخ)

وقد ظهر بعد هؤلاء، ونتيجة لهم فلاسفة ومفكرون ماديون كثيرون؛ فقد ظهر ماركس فرعون الإلحاد ليبشر بالجدلية المادية.. والتفسير المادي للكون.. وظهر قبله (فيشته) و(هيجل) ليؤسسا لأقواله..

لقد جاء هذان بالتفكير الجدلى الذي يبحث عن تصور فلسفى يسمح بوجود المتناقضات فى الكون والحياة ويفسرها.. ذلك أن المنطق اليونانى القديم (الذى يسمى المنطق الصورى) ينفى وجود التناقض فى الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة – وإن كان قد رجع إلى الفكر الإغريقى يستمد منه ـ كانت له التفاتات مختلفة عنه فى مجالات متعددة. حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى ــ عصر سيادة العقل فى الفكر الأوربى قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض فى الكون والحياة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

فأما فيشته (1762 – 1814 م)، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة.

وأما هيجل (1770 – 1831)، فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد

---

1) منشأ الفكر الحديث ص 152.

الوحى كمصدر أخير للمعرفة، وهو يعتبر الله عقلا[1].

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. إذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين: جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة.. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق ولا تحديد عقل الطبيعة، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق، ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

بالإضافة إلى هذين، فقد استلهم ماركس نظرية التطور.. فقد جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنها تخلق كل شئ ولا حد لقدرتها على الخلق.. ويؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية.. وأن التطور ذاته – الذى أنشأ الحياة المادية الميتة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان – هو نتيجة أسباب مادية بحتة، وأنه يتم مستقلا عن إرادة الكائن الحى، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

ب ـ الإسلام والعلم:

يمكننا أن نقول بكثير من التحفظ أن الصراع الذي حصل بين المسيحية والعلم، وعلى المستويات المختلفة النظرية والواقعية، كما شرحنا ذلك في العنوان السابق، حصل مثله بين بعض الجهات في الإسلام وبين العلم، ولذلك ليس على الداعية أن يدافع عن المتهمين، أو يكذب الواقع، أو يبرئ ساحة المسلمين من أمثال تلك التهم.

وكيف يبرئهم، ورسول الله ﷺ نفسه اتهمهم، وأخبر أن من أمته من سيسير مثل سيرهم، ففي الحديث المتفق على صحته: (لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا

[1] عن الفكر الإسلامى الحديث ص 289 بتصرف.

جحر ضب لدخلتموه)، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال:(فمن؟)[1]

والفرق بين الإسلام والمسيحية في هذا، هو أن الإسلام ليس لديه كنيسة تتحدث باسمه، وإنما هناك مسلمون، ومدارس إسلامية مختلفة، بل متناقضة أحيانا، ولذلك كان على المحقق والباحث أن ينظر في مواقف تلك المدارس من العلم، ولا يصح أن يرميها جميعا بما وقع فيه بعضها.

ومن خلال استقراء واقع المدارس الإسلامية وموقفها من العلوم الكونية، ومنهج البحث فيها، نجد اتجاهين كبيرين:

الاتجاه الأول: وهو الاتجاه الذي ينطلق من المصادر المقدسة للإسلام من غير أن يخلطها بغيرها، وهو ما يسمى بالإسلام المحمدي الأصيل، وهو اتجاه يميز بين الفهم البشري للدين، وبين حقيقته.. فالدين لله، أما الفهم؛ فبشري، ويمكن مراجعته ورفضه، واستبداله بغيره.. وبناء على هذا لا يُضم للإسلام إلا القطعي من الدين، والذي وردت به المصادر المقدسة.

وهذا الاتجاه لا يتنافى مع العلم، ولا يتصارع معه، بل يقبله ويدعو إليه، ويقبل منتجاته جميعا إذا ما تحققت بالمصداقية العلمية، بل إنه فوق ذلك كله كان منتجا للمعرفة بجميع أنواعها.

الاتجاه الثاني: وهو الاتجاه الذي يخلط بين المصادر المقدسة، والفهم البشري لها، ويجمع بينها جميعا في بوتقة واحدة، وقد حصل لهذا الاتجاه ما حصل للكنيسة نفسها من تبني بعض الفهوم البشرية، أو الثقافات السائدة لدى بعض الشعوب، ليعطيها من القداسة ما لا تستحقه، وبناء على هذا حصل الإنكار من هذا الاتجاه للكثير من منتجات العلم، وإن كان لم يحصل له استبداد نحو أصحابها لعدم وجود سلطة زمنية لهؤلاء بخلاف الكنيسة.

وسنتحدث عن كلا الاتجاهين في العنوانين التاليين:

---

[1] رواه البخاري 13 / 255 ، ومسلم رقم (2669).

الاتجاه الأول:

وهـو الاتجـاه الـذي يـؤمن بـأن الإسـلام دين العلم والعقـل والتجربـة والمنطـق.. وكـل مـا توصـلت إليـه البشـرية من منـاهج البحث عن الحقيقة[1] .. وهو يعتمدها جميعا، ولا ينكر عليهـا إلا أذا اسـتعملت المغالطـات، أو الخـدع العلميـة، ولـذلك فـإن إنكـاره لنظرية التطور وغيرهـا من النظريـات الـتي يسـتعملها الملاحـدة، ينطلـق من كونهـا لم تصـل إلى مرحلـة العلميـة، بـل هي مجـرد افتراضات للهروب من الإيمان.

وهو ينطلق في ذلك من المصادر المقدسة الـتي تعتـبر العلم ركنـا من أركـان الـدين لا يقـل عن الإيمـان والشـعائر التعبديـة: فالتعرف على الله الذي هو جوهر الدين وأصله وغايته وموضــوعه يحتـاج إلى العلم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَـاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد:19)

ولهذا كان أول أمر من أوامر هذا الدين هو:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق:1)، ثم كرر هذا الأمر في قولـه:﴿اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (العلق:3)

والقرآن يعتبر وظيفة الرسل هي وظيفة المعلمين:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران:164)

وأخبر أن كل الأنبيـاء جـاءوا أقـوامهم بالبينـات، وهي العلـوم الواضحات التي قويت أدلتها.﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَـوْمِ نُــوحٍ وَعَـادٍ وَثَمُــودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْــدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَـاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَـرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـوَاهِهِمْ وَقَـالُوا إِنَّا كَفَرْنَـا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (ابراهيم:9)

بل إن القرآن فوق ذلـك كلـه أخـبر عن مزيـة الإنسـان الـتي أهلتـه للخلافـة في الأرض، وأهلتـه للتكـريم الربـاني، فقـال يقص

[1] تحدثنا عن هذا بتفصيل في كتاب (سلام للعالمين) من سلسلة [حقائق ورقائق].

قصة بداية خلـق الإنسـان: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ قَـالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنْتُمْ تَكْتُمُـونَ﴾ (البقرة:31 ـ 33)

انطلاقا من هذا وردت النصوص الكثـيرة عن رسـول اللـه ﷺ بالحض على العلم والترغيب فيه ورفع مكانة أهله؛ فقد أخـبر بـأن العلم نوع من أنواع العبـادة، بـل هـو من أفضـلها، فقـال: (أفضـل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)[1]

وصـرح بـذلك فقـال : (فضـل العلم خـير من فضـل العبـادة، وخير دينكم الورع)[2]، وقال: (قليل العلم خـير من كثـير العبـادة، وكفىٰ بـالمرء فقهـا إذا عبـد اللـه، وكفىٰ بـالمرء جهلا إذا أعجب برأيـه)[3]، وقـال: (مـا عبـد اللـه بشـيء أفضـل من فقـه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عمـاد وعماد هٰذا الدين الفقه)[4]

وقـايس بين بعض النوافـل وبين طلب العلم، فقـال لأبي ذر، وقد رأى حرصه على النوافل: (يـا أبـا ذر لأن تغـدو فتعلم آيـة من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغـدو فتعلم بابـا من العلم عمـل بـه أو لم يعمـل بـه خـير لـك من أن تصـلي ألـف

[1]) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

[2]) الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

[3]) الطبراني في الأوسط.

[4]) الدارقطني والبيهقي.

ركعة)(1)

وأخبر أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال: (أفضـل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)(2)

ويروى أنه ذكر له رجلان: أحدهما عابد والآخـر عـالم، فقـال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قال: (إن اللــه وملائكته، وأهل السمٰوات والأرض حتى النملة في جحرهـا، وحـتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)(3)

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطـالب للعلم، بـل دليل على اجتباء الله له، قال: (من يـرد اللـه بـه خـيرا يفقهـه في الدين)(4)، وقال: (يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهـه في الـدين، و ﴿إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28])(5)

وهذا الاجتباء هو الذي يؤهله للجنة ولهذا التكـريم الـذي أخـبر رسـول اللـه ﷺ عنـه، ففي الحـديث الـذي ورد في فضـل طـالب العلم: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتهـا لطـالب العلم رضـا بمـا يصـنع، وإن العالم ليسـتغفر لـه من في السـمٰوات ومن في الأرض حـتى الحيتان في الماء، وفضـل العـالم على العابـد كفضـل القمـر على سـائر الكـواكب، وإن العلمـاء ورثـة الأنبيـاء، إن الأنبيـاء لم يورثـوا

---

(1) ابن ماجه بإسناد حسن.

(2) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

(3) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(4) البخاري ومسلم وابن ماجه.

(5) الطبراني في الكبير.

دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[1]

وقال: (ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمتين، أو ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة)[2]

ويخبر عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فعن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: (مرحبا بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)[3]

بل إن رسول الله ﷺ يرفع درجة أهل إلى درجة الأنبياء، فيقول: (من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة)[4]

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنها أضعاف مضاعفة، قال رسول الله ﷺ: (من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)[5]

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال رسول الله ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية،

---

(1)) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

(2)) أبو نعيم.

(3)) أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(4)) الطبراني في الأوسط.

(5)) الطبراني في الكبير.

أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(1)

وفي حديث آخر مفصل، قال محمد: (إن مما يلحق المـؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركـه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه أو بيتـا لابن السـبيل بنـاه، أو نهـرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(2)

وقـد ورد وصـف مفصـل لفضـل العلم وفضـل أهلـه، ففي الحـديث: (تعلمـوا العلم، فـإن تعلمـه للـه خشـية وطلبـه عبـادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صـدقة، وبذله لأهلـه قربـة لانـه معـالم الحلال والحـرام ومنـار سـبل أهـل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربـة، والمحـدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسـلاح على الأعـداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله بـه أقوامـا فيجعلهم في الخـير قـادة قائمـة تقتص آثـارهم ويقتـدىٰ بفعـالهم، وينتهىٰ إلى رأيهم، تـرغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويسـتغفر لهم كـل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حيـاة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبـد بـالعلم منـازل الأخيـار والـدرجات العلىٰ في الـدنيا والآخـرة، التفكـر فيـه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحـرام، وهـو إمـام العمـل، والعمـل تابعـه، يلهمـه السعداء، ويحرمه الأشقياء)(3).

وقد كانت هذه النصوص وغيرها كثير هي السـبب في ظهـور أكـبر نهضـة علميـة عرفتهـا البشـرية، والـتي تمثلت في الحضـارة الإسـلامية، والـتي ولجت كـل العلـوم والمعـارف، وسـاهمت في

---

1)) مسلم وغيره.

2)) ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله.

3)) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم قال المنذري: ورفعه غريب جدًّا.

خدمة البشرية فيها.

فمنذ قال رسول الله ﷺ تلك النصوص هرعت كل أمته تنهل من العلم صغارها وكبارها ورجالها ونساؤها.. حتى الشيوخ الكبار كانوا يحتضرون، وهم يطلبون العلم.

وقد فهم هذا الاتجاه، أن العلم الذي أمر به رسول الله ﷺ يشمل كل شيء، ولذلك انفتح على جميع الثقافات الأجنبية، واستفاد منها، وتعامل معها بإيجابية تامة.. يأخذ منها ما يراه مفيدا، ويرد ما لا يراه صالحا.. لعلم المسلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق بها.

ولذلك كان فقهاء المسلمين يقرؤون الفلسفة اليونانية والثقافة الهندية وجميع أنواع الثقافات، ولكنهم لا يتعاملون معها تعامل الخاضع الذليل.. بل يتعاملون تعامل الند للند.. ويناقشونها مناقشة موضوعية علمية.

وقد صحح أصحاب هذا الاتجاه أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون في الفلسفة والعلوم والكثير من أخطاء الفلسفة اليونانية، وأبطلوا صناعة التنجيم، وعللوا ذلك بأن اليونان أخذوه من غير برهان ولا قياس..

وأبان علماء المسلمون ضعف نظام بطليموس ونقط القصور فيه، وقد عكف (التباني) على دراسة بطليموس، وحقق مواقع كثير من النجوم، وصحح حركات القمر والكواكب السيارة، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي.

وأنكر الغزالي ما قاله فلاسفة اليونان من أن بالسماء حيوانًا وأن له نفسًا، ونقد الأطباء المسلمون طب اليونان، ورفضوا الأخذ ببعض نظرات أبقراط وجالينوس، ومن طريق التجربة والاختبارات الشخصية، ورفض ابن النفيس قبول نظرية جالينوس عن الدور الذي تلعبه الرئتان في نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى، وأعلن أنها خاطئة.

أما الخواجة نصير الدين الطوسي، فقد كان علامة في علوم

كثيرة جدا؛ فله مؤلفات في علوم الأخلاق، والمنطق، والفلسفة، والكلام، والرياضيّات والنجوم، من أمثال: أخلاق ناصري، أوصاف الأشراف، أساس الاقتباس، شرح الإشارات، تجريد الاعتقاد، جامع الحساب وكتابه المشهور بـ زيج الإيلخاني وتذكرة في علم الهيئة في مجال علم النجوم. كما أسس مرصد مراغة ومكتبتها التي توفر فيها أكثر من 400.000 كتاب.

الاتجاه الثاني:

وهو اتجاه يشبه ما قامت به الكنيسة، نتيجة تأثره بالفكر اليهودي، واعتماده على المصادر اليهودية في تفسير القرآن الكريم، وهذا الاتجاه لا يمكن إنكاره، أو التكتم عليه، وكيف يمكن ذلك، ومنتجاته في هذا المجال واضحة، ولعلها السبب الأكبر في صرف الناس عن الدين الإلهي.

ولذلك كان على الداعية المواجه للإلحاد أن يبادر بالإنكار على هذا الاتجاه، وقد قلت في مقدمة سلسلة [الإلحاد والدجل] أشير إلى هذا المعنى: (وقد رأينا أنه لا يمكن لأحد من الناس أن يواجه هذين النوعين من الإلحاد [التنويري والجديد] من دون أن يعترف بوجود الدجل الديني، فلا يمكن لمن يظل محتفظا بالخرافات والضلالات المتسربة للدين أن يواجه الحقائق العلمية والعقلية التي يدل عليها كل شيئا.. ولذلك كتبنا سلسلة [الدين .. والدجل] قبل أن نكتب هذه السلسلة الجديدة، لنحطم بذلك أكبر الأسس التي تقوم عليها البراهين الإلحادية، والمعتمدة على نقد التراث الديني، واستغلال أخطائه وضلالاته ودجله، ولكي لا نلتزم بكل ما يريد دعاة الإلحاد التنويري أو الجديد من إلزامنا به، فدين الله أعظم من أن يمثله البشر، وإنما يدل على نفسه بنفسه من خلال مصادره المقدسة)[1]

وبناء على هذا؛ فإن هذا الاتجاه الذي لا يختلف عما قامت به الكنيسة إلا في كونها لم يقم بإعدام العلماء، ولا حرقهم، اتجاه غريب عن الإسلام، ولا يمثل مصادره المقدسة، بل يمثل سلفه

1) ما قاله الملاحدة ولم يسجله التاريخ، ص7.

الذي يعود إليه، والذين يتشكل أكثرهم من اليهود، أو من الذين لم يستوعبوا الإسلام، وخلطوه بآرائهم وأهوائهم.

ومن الأمثلـة على هـذا الاتجـاه مقبـل بن هـادي الـوادعي[1] (توفي 1422 هـ)، وهو من كبار أعلام السـلفية المعاصـرين، وقـد كتب في كتبــه المختلفــة الــرد الشــديد على المهتمين بــالعلوم الكونية، والـتي يطلـق عليهـا تسـميات مختلفـة كعلـوم الملاحـدة، وغيرها.

ومن كتبـه في هـذا المجـال مـا كتبـه ردا على التفسـيرات العلمية لأسباب الزلازل، حيث ألف رسالة في ذلك بعنوان (إيضاح المقال في أسباب الزلزال والرد على الملاحدة الضـلال)، وقـد رد فيها بشدة على ما تقوم به مدارس المسلمين من تعليم تلاميــذها علوم الكفار، فقال: (نحن نأسف لبعض الملاحدة المخذولين الذين منّ اللـه عليهم وجعلهم من ذوي اللسـان العـربي ثم لا يشـكرون الله على هذه النعمة، ويتّبعون أناسًـا كالأنعـام بـل هم أضـل، ذاك كوبي، وذاك روسي، أعـاجم لا يفهمـون الإسـلام على حقيقتـه ولا يفهمون قول الله ولا قول رسول الله ﷺ، ولعل بعضـهم لم يبلغـه الإسـلام على حقيقتـه.. جـدير بأبنـاء اليمن أن لا يودّعـوا عقـولهم لماركس ولينين ومن جرى مجراهم من أئمـة الضـلال، فـأنتم أيهـا اليمنيون لكم مواقف طيّبة في الدفاع عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ وفي الفتوحات الإسـلامية، ثم بعـد هـذا تلحقـون بأنفسـكم الخـزي وتحرمـون نعيم الجنـة الـتي فيهـا مـا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. أي خير تحرمونه أيها الملاحدة؟ وأي خطر تعرّضون لـه أنفسـكم؟ إنّهـا النـار الـتي وقودهـا النـاس والحجارة، وهناك لا تنفع المكابرة ولا ينفعك مـاركس وليـنين، بـل يكونان أمامك في النار)[2]

ومن تلاميذ مدرسته النجباء، المدعو أبو عبـد الـرحمن يحـيى

---

1) يعتبر من كبار علماء السلفية باليمن وأحد رواد الحديث، قام بالدعوة السلفية في اليمن، وأنشأ مدرسة علمية سلفية بدماج سماها بدار الحديث يفد إليها الطلاب من أنحاء اليمن، ومن بلدان أخرى، وتخرج على يديه شيوخ أنشئوا مدارس في عدد من مناطق اليمن.

2) إيضاح المقال في أسباب الزلزال والرد على الملاحدة الضلال (ص: 17)

بن علي الحجوري، والذي ألف كتابا في الـرد على الاسـتدلال بمـا ورد في العلــوم الكونيــة في القضــايا العقديــة، ســماه (الصــبح الشارق على ضلالات عبد المجيد الزنداني في كتابه توحيد الخالق)

والذي قرضه شيخه الوادعي بالإضافة لشيخ سـلفي آخـر هـو أحمد بن يحيى النَّجمي، والذي قال في مقدمته للكتاب مبينا بعض الضلالات الواردة في كتـاب [توحيـد الخـالق]: (.. ومنهـا اسـتدلاله بـأقوال الفلاسـفة من اليهـود والنصـارى من فلكـيين وطبـائعيين وغيرهم على صدق القرآن وهل القرآن بحاجـةٍ إلى شـهادة هـؤلاء الضــلال؟!. ومنهــا تقريــره أنَّ الأرض كــوكبٌ من المجموعــة الشمسية ثم انفصلت عنها وتبردت كما قرر ذلـك سـيد قطب في تفسـيره، واللـه تعـالى يقـول: ﴿قُـلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُـرُونَ بِالَّذِي خَلَـقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصــلت: 9] وصدِّق بعد ذلك من شئت.. ومنها زعمـه أنَّ السـماوات السـبع كانت طبقةً واحدة وأنَّها فتقت فيما بعد، يفسر بـذلك قولـه تعـالى في سورة الأنبيـاء: ﴿أَوَلَمْ يَـرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الفاتحة: 30]، وقـد ردَّ عليـه الشـيخ يحـيى الحجوري جزاه الله خـيرًا في هـذه الفقـرات، وغيرهـا ردًا مفحمًـا بالأدلة القاطعة الساطعة من الكتاب وصحيح السـنة، فجـزاه اللـه خيرًا وبارك فيه وكثَّر الله من أمثاله الـذابين عن الحـق الناصـرين للتوحيد الذائدين عن حياضه)[1]

ومن النمــاذج الــتي يمكن من خلالهــا التعــرف على الــتراث السلفي، وموقفه من أبسط المعـارف العلميـة الحديثـة مـا ذكـره الشيخ الحجـوري من انتقـادات لمـا ورد في كتـاب توحيـد الخـالق حول سرعة الرياح، وأنها لو بلغت 200 ميل في الساعة لما أبقت شيئًا على وجه الأرض إلا دمرته[2]، فقد قال الشـيخ ردا على هـذه المعلومــة البسـيطة: (هــذا القــول ينطــوي على لحن شـديد في التوحيـد فقولـه: عن الـريح لمـا أبقت شـيئًا على وجـه الأرض إلا

---

1) الصبح الشارق، ص6.

2) توحيد الخالق، ص (41)

دمرته. هذا غير صحيح لأن الريح مأمورة من الله لا يمكن أن تدمر شيئًا إلا بأمر ربِّها سبحانه، وقد وصف الله عز وجل ريح عاد بالعتو والشــدة.. وعن ابن مســعود، وحذيفــة بن اليمــان، وعبــادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وسعد بن أبي وقاص وغـيرهم، أن النـبي ﷺ قال: (لا يَجِدُ عَبدٌ حَلاوَةَ الإيمَانِ حَتَّى يَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَـابَهُ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخطَـأَهُ لَم يَكُن لِيُصِـيبَه)، فلـو أن اللـه عـز وجـل أرسل الريح بِهذا القدر الـذي ذكـر أو أكـثر ولم يـرد تـدمير الأرض ومن فيها لحفظهم منها كما جعل النار على إبراهيم عليـه السـلام بردًا وسلامًا، وكما نجى نوحًـا عليـه السـلام ومن معـه من الغـرق وأمر الماء أن يغشى من سواهم على وجه الأرض)(1)

ومنهـا رده على هـذه العبـارة الـتي وردت في كتـاب توحيـد الخالق: (من الذي قضى بِهذه السنن والقوانين المنظمة الدقيقة) (2) فمع بساطتها ووضوحها إلا أن الشيخ جعـل منهـا قصـة كبـيرة، فقال ردا عليها: (قلت: اللفظ المشروع أن يُقال: من الذي قضــى بالسنن والأحكام، أما لفظة القـانون فليسـت موجـودة في كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ الصحيحة فيما نعلم واستعمالها غـير فصـيح.. وذكر هذه اللفظة الشيخ بكر أبوزيد في)معجم المنـاهي اللفظيـة) فراجعها إن شـئت، فعلم أنـه لا يجـوز أن نسـمي أحكـام اللـه عـز وجل وأقداره قوانين، ونعرض عن اللفظ الشـرعي: قضـاء، قــدر، حكم، إرادة، مشيئة. فإن تسمية هذه المسـميات الشـرعية قانونًـا يعتبر تحريفًا للكلم عن مواضعه)(3)

ثم يبين أن اعتبار العلماء بالعلوم الحديثة علماء كون نوع من الاحتقـار للسـلف، فقـال: (ألم تـر أن هـذا إزراء بجـانب السـلف وعلومهم غاية الإزراء وهو إطراء لليهود والنصارى والزنادقـة إيمـا إطراء، لأنه إذا كان هؤلاء هم علماء الكـون فلا حاجـة لمـا عـداهم

1) الصبح الشارق، ص48.

2) توحيد الخالق، ص (44)

3) الصبح الشارق، ص51.

من علماء الشريعة الإسلامية، وأنت لو قرأت تراجم جهابذة علـوم الكتاب والسنة كلهم لا تكاد تجد أنه قيل في واحد منهم هـو عـالم الكون بل لو قرأت في مناقب الأنبياء ودلائل نبـواتِهم لا تكـاد تجـد أن واحدًا منهم وصف بعالم الكون بل إن الملائكة الذين يقول الله عنهم: ﴿ فَالْمُـدَبِّرَاتِ أَمْـرًا﴾ [النازعـات: 5] لا تجـد أنَّهم وصـفوا بعلماء الكون، لكن الطبائعيين من أساتذة الزنداني يصـفهم بـذلك ولا يدري الجاهل أنه أشـرك الملاحـدة في شـيء من خصوصـيات رب العالمين)[1]

ثم رد اعتبار صاحب الكتاب الإسلام مبنيا على العقل، وأنـه لا يطـالب معتنقيـه أبـدًا بتجميـد طاقـاتِهم الفكريـة، فقـال: (وقـول الزنداني: أن الإسلام مبني على العقل. هذا غـير صـحيح فالإسـلام مبني على الكتاب والسنة لا على العقل.. ووظيفة العقل في هـذه الأدلة فهمهـا وتعقلهـا، فـإذا كـان مفقـودًا ولم يفهمهـا ولم يعقلهـا وصار صاحبه في حيز المجانين فهنا يصير غير مكلف، أما أن يقال إن من مفاخر الإسلام أنه مبني على العقل فباطل لمـا علمت من الأدلة، قـال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة: العقـل مـع النقـل كالعـامي المقلد مع العالم المجتهـد، بـل هـو دون ذلـك بكثـير فـإن العـامي يمكنه أن يصير عالمًـا ولا يمكن للعاقـل أن يصـير نبيًـا رسـولاً)[2]، ومعنى ذلك أن العقل الصحيح يقبل النقـل الصـريح فهـو متبـع لـه يفهمه ويعمل به فعلاً أو تركًا)[3]

هـذه نمـاذج عن مدرسـة الـوادعي السـلفية، وموقفهـا من العلـوم الكونيـة، ومن شـاء المزيـد، فيمكنـه مطالعـة مؤلفاتهـا الكثيرة، والمنتشرة في المواقع المختلفة، والتي يعتبرها السـلفية ممثلا حقيقيا للإسلام نتيجة صراحتها وعـدم اسـتعمالها أي تقيـة أو دبلوماسية.

---

1) الصبح الشارق، ص124.

2) درء تعارض العقل والنقل (ج1 ص78)

3) الصبح الشارق، ص124.

ومن النماذج على هذا الاتجاه كذلك الشيخ حمود بن عبد الله التويجري (1334 -ـ 1413 هـ)، وهو من كبار السلفية المتأخرين بسبب إنتاجه الكثير، والذي أشاد به كبار السلفية كابن باز وغيره، وله كسلفه الكثير من كتب الردود على الجهات المختلفة، ومنها ردوده على أصحاب العلوم الكونية الحديثة.

ومن كتبه في هذا المجال كتابه (الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة)، والذي استعمل فيه كل السيوف السلفية للإجهاز على العلوم الحديثة.

ومن تلك الأدلة القاطعة التي حاول من خلالها أن يضرب هذه العلوم في مقاتلها نسبتها إلى الكفار والمشركين، يقول في ذلك: (وأول من قال إن الشمس هي المركز الثابت الذي تدور عليه السيارات من الكواكب وإن الأرض من جملة الكواكب السيارة التي تدور على الشمس هو فيثاغورس الفيلسوف اليوناني وكان زمانه قبل زمان المسيح بنحو من خمسمائة سنة. وقيل ستمائة. وذهب كبير الفلاسفة ومقدمهم بطليموس - وكان زمانه قبل المسيح بنحو مائة وخمسين سنة - إلى أن الأرض هي المركز الثابت وإن الشمس والقمر وسائر الكواكب تدور على الأرض. وأهل الهيئة القديمة يقولون بهذا القول وهو الحق الذي تدل عليه الآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وأئمة العلم والهدى من بعدهم كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وأما قول فيثاغورس فكان مهجوراً نحو من ألف وثمانمائة سنة حتى ظهر الفلكي البولوني (كوبرنيك) في القرن العاشر من الهجرة فقرر رأي فيثاغورس وأيده بالأدلة الرياضية. ولما كان في أثناء القرن الثاني عشر من الهجرة ظهر هرشل الإنكليزي وأتباعه من فلاسفة الإفرنج أصحاب الرصد والزيج الجديد فنصروا قول فيثاغورس وردوا ما خالفه وشاع قولهم منذ زمانهم إلى زماننا هذا وتلقاه كثير من المسلمين بالقبول تقليداً لأعداء الله تعالى. وذلك بسبب سيطرة الإنجليز وبعض الدول الأوربية على كثير من بلاد الإسلام في آخر القرن الثالث عشر من الهجرة وأكثر القرن الرابع عشر. فامتزج أهل تلك البلاد بأعداء الله تعالى امتزاجاً تاماً، وظهر النشء منهم

متثقفين بالثقافة الإفرنجية يحذون حذو أعداء الله تعالى في هيئاتهم وأنظمتهم وقوانينهم ويسارعون إلى قبول آرائهم وظنونهم وتخرصاتهم. ويتمسكون بها أعظم مما يتمسكون بنصوص الكتاب والسنة. وكثير منهم كانوا يسافرون إلى الجامعات الأوربية ويتروون من تعاليمها الآجنة المسمومة عللاً بعد نهل حتى فشت فيهم الزندقة والإلحاد والاستخفاف بشأن القرآن العظيم فكان كثير منهم يحملونه على ما يوافق آراء الإفرنج وأقوالهم الباطلة كما هو موجود في كثير من مصنفاتهم فأدخلوا بذلك على المسلمين شراً كثيراً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)(1)

وقد أورد للدلالة على بطلان هذه العلوم الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وعقبها بفهم السلف الصالح لها، وتفسيرهم العلمي لما ورد فيها، ثم قال: (فهذا ما يسره الله تعالى من الآيات والأحاديث الدالة على أن الشمس تسير وتدور على الأرض وأن الأرض قارة ثابتة بخلاف ما يزعمه أهل الهيئة الجديدة من أن الشمس قارة ثابتة وأن الأرض تدور عليها. وحقيقة قولهم تكذيب الآيات والأحاديث التي ذكرنا واطراحها بالكلية وذلك هو الضلال البعيد. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 68] وقول أهل الهيئة الجديدة في الشمس والأرض دائر بين افتراء الكذب والتكذيب بالحق)(2)

وهو يعتب بشدة على تدريس هذه العلوم الحديثة، فيقول: (ومن أعجب العجب أنه قد جعل في زماننا من الفنون المهمة التي تدرس في كثير من المدارس ويعتنى بها في كثير من الأقطار الإسلامية أكثر مما يعتنى بالعلوم الشرعية. وهذا مصداق ما جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل)..

1) الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 7)

2) الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 44)

وقال الشعبي: (لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلا والجهل علماً)، رواه ابن أبي شيبة، وله حكم المرفوع لأنه إخبار عن أمر غيبي ومثله لا يقال من قبل الرأي وإنما يقال عن توقيف، ومن أقبح الجهل وأظلم الظلم تكذيب الله تعالى وتكذيب رسوله ﷺ ومعارضة الآيات والأحاديث الصحيحة بأقوال أعداء الله تعالى وتخرصاتهم الكاذبة وآرائهم الفاسدة وتوهماتهم الخاطئة وتعلم ذلك وتعليمه)[1]

وقد لاحظ التويجري أنه مع الهجمة الشرسة التي شنتها صواعقه الشديدة على علم الهيئة الجديدة إلا أنها مع ذلك لم تؤثر تأثيرها المطلوب، فأعقبها بكتاب آخر سماه: (ذيل الصواعق لمحو الأباطيل والمخارق)، والذي رد به على الأستاذ محمد محمود الصواف في كتابه (المسلمون وعلم الفلك)

وقد بدأ رده عليه من العنوان نفسه، فقال: (قال الصواف: (المسلمون وعلم الفلك)، **والجواب** أن يقال إن هذا العنوان خطأ ظاهر لأن غالب ما في الرسالة من الكلام في الأرض والسموات والشمس والقمر والكواكب ليس من أقوال المسلمين وعلومهم، وإنما هو من تخرصات أهل الهيئة الجديدة وتوهماتهم، وأهل الهيئة الجديدة ليسوا من المسلمين، وإنما هم من فلاسفة الإفرنج، وهم كوبرنيك البولوني وأتباعه في القرن العاشر والقرن الحادي عشر من الهجرة، وهرشل الإنجليزي وأتباعه في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر من الهجرة، وغالب ما نقله الصواف عن الألوسي، فهو مما نقله الألوسي عن أهل الهيئة الجديدة كما صرح بذلك في مواضع كثيرة من كتابه الذي سماه (ما دل عليه أهل الهيئة الجديدة) وتخرصات أتباعهم فنسبة ذلك إلى المسلمين فرية عليهم، وتسمية الرسالة بهذا العنوان لا تطابق المسمى، وإنما المطابق له أن يقال (الإفرنج والتخرص في علم الفلك)[2]

---

1) الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 44)

2) ذيل الصواعق، ص7.

ثم ذكر قول الصواف في مقدمة رسالته: (وحرصا مـني على نشر العلم وبيان فضل علماء المسـلمين الـذين كـان لهم الفضـل الأكبر في تشجيع علم الفلك وبنـاء المراصـد في مختلـف البلـدان رأيت أن أطبـع هـذا الـرد في كـتيب؛ ليطلـع شـبابنا على مفـاخر أجدادهم وسبقهم للعالم في مختلف الميادين العلمية)[1]

ورد عليه بقوله على طريقة سلفه، فقال: (والجواب عن هذا من وجوه: أحدها أن يقـال: ليس مـا نشـره الصـواف في رسـالته بعلم، وإنمـا هي تخرصـات وظنـون كاذبـة أوحاهـا الشـيطان إلى أوليائــه من فلاســفة اليونــان وأتبــاعهم من فلاســفة الإفــرنج المتـأخرين، فـاغتر بهـا أتبـاعهم ومقلـدوهم من جهلـة المسـلمين، وظنوها علما صحيحا، وهي في الحقيقـة جهـل صـرف لا يـروج إلا على جاهل لا يميز بين العلم والجهل.. **الوجه الثاني:** أن علمــاء المسلمين منــزهون عن تشـجيع علم الفلـك وبنـاء المراصـد كمـا سيأتي بيان ذلك في الفصـل الـذي بعـد هـذا الفصـل، ومـا زعمـه الصواف ههنـا فهـو من الافـتراء على علمـاء المسـلمين.. **الوجه الثالث:** أن الذي نشره الصـواف في رسـالته كلـه من تخرصـات فيثـاغورس اليونـاني وأتباعــه من فلاسـفة الإفـرنج المتـأخرين.. وهؤلاء كلهم من أعداء المسـلمين، وليسـوا من المسـلمين فضـلا عن أن يكونوا من أجـداد المسـلمين، كمـا توهمـه الصـواف، ومن زعم أن هـؤلاء الفلاسـفة من أجـداد المسـلمين فهـو من أكـذب الكاذبين.. **الوجه الرابع:** أن المفاخر كل المفـاخر للـذين حملـوا علم الكتــاب والســنة ونشــروه في هــذه الأمــة وهم الصــحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، وأئمة العلم والهدى من بعدهم، فأمـا تخرصات أعداء اللـه وظنـونهم الكاذبـة فليسـت بمفـاخر كمـا قـد توهمه الصواف، وإنما هي معـائب وجهـالات وضـلالات تـزري بمن تعلق بها غايـة الأزراء.. **الوجه الخـامس:** أن بنـاء المراصـد من أفعــال المنجمين من اليونــان والصــائبين، ومن يقلــدهم ويحــذو حذوهم من المنحرفين عن الدين من هـذه الأمـة، ومـا كـان هكـذا فليس فيـه فضـل البتـة، وليس هـو من المفـاخر كمـا قـد توهمـه الصــواف، وإنمــا هــو من المثــالب والمعــائب واتبــاع غـير سـبيل

1) المسلمون وعلم الفلك، ص11.

المؤمنين) (1)

ثم ذكر قول الصـواف: (إن مـا جمعـه في رسـالته فهـو ممـا تركه العلماء الأعلام والخلفاء العظام)(2)

وأجـاب على ذلـك بقولـه: (ليس هـذا بصـحيح، فـإن الخلفـاء العظام على الحقيقة هم أبو بكر وعمـر وعثمـان وعلي، ولم يـؤثر عن أحـد منهم أنـه تكلم في علم الفلـك بشـيء فضـلا عن القـول بسكون الشمس ودوران الأرض عليها، وكذلك مـا ذكـره الصـواف من الهذيان الكثـير في الأرض والشـمس والقمـر والكـواكب فـإن هذا مما ينـزه عنه أحاد العقلاء فضـلا عن الخلفـاء الراشـدين.. ولا عبرة بمن حـاد عن منهـاج هـؤلاء الخلفـاء الراشـدين من الملـوك كالمأمون، فإنه قـد اعتـنى بتعـريب كتب الأوائـل وعمـل الأرصـاد، ففتح بذلك على الأمة باب شر عـريض، وقـد ذكـر السـفاريني عن الصلاح الصفدي أنه قال: (حدثني من أثق به أن شيخ الإسـلام ابن تيمية كان يقـول: مـا أظن أن اللـه يغفـل عن المـأمون ولا بـد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخـال العلـوم الفلسـفية بين أهلها)(3)

ثم أخذ يذكر بهسـتيرية مـا فعلـه المـأمون، وينقـل لـذلك مـا ذكره سلفه من فتح أبواب الضلال، بسبب ترجمة العلوم اليونانية، فقال ـ ناقلا عن الذهبي في (تذكرة الحفاظ) ـ مؤيـدا لـه: (إن من البلاء أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وتقـدم عقـول الفلاسفة، ويعزل منقول اتباع الرسل ويمـاري في القـرآن ويتـبرم بالسنن والآثار وتقع في الحيرة. فالفرار قبل حلـول الـدمار وإيـاك ومضلات الأهواء ومحارات العقول، ومن يعتصـم باللـه فقـد هـدي

1) ذيل الصواعق، ص10.

2) المسلمون وعلم الفلك، ص12.

3) ذيل الصواعق، ص14.

إلى صراط مستقيم)(1)

ونقـل عن المقريـزي قولـه في كتـاب الخطـط: (وقـد كـان المأمون لما شغف بالعلوم القديمة بعث إلى بلاد الروم من عَـرَّبَ له كتب الفلاسفة، وأتاه بهـا في أعـوام بضـع عشـرة ومـائتين من الهجرة، فانتشرت مذاهب الفلاسفة في النـاس، واشـتهرت كتبهم بعامـة الأمصـار، وأقبلت المعتزلـة والقرامطـة والجهميـة وغـيرهم عليها، وأكثروا من النظر فيهـا والتصـفح لهـا، فـانجرَّ على الإسـلام وأهلـه من علـوم الفلاسـفة مـالا يوصـف من البلاء والمحنـة في الـدين، وعظم بالفلاسـفة ضـلال أهـل البـدع، وزادتهم كفـرا إلى كفرهم)(2)

وعلق على ذلك بقوله: (وقـد سـار على منهـاج المـأمون في عمل الأرصاد كثير من الملوك المنحـرفين مثـل الحـاكم العبيـدي، وبعض بني بويه والسلاجقة، وهولاكو وتيمورلنك وأولغ بك. فهـؤلاء خلفاء الصواف الذين تركـوا لـه ولأشـباهه من علم الفلـك وعمـل الأرصاد ما تركوا، ومع مـا كـانوا عليـه من الاعتنـاء بالأرصـاد وعلم الفلـك فقـد كـانوا على مـذهب أهـل الهيئـة القديمـة في القـول بسكون الأرض وجريان الشمس، ولم يذكر عن أحد منهم أنه قـال بتعدد الشموس والأقمار، ولا بغير ذلـك ممـا يهـذو بـه أهـل الهيئـة الجديدة وأتباعهم في أبعاد الكـواكب ومقاديرهـا، وغـير ذلـك ممـا أودعه الصواف في رسالته، وزعم أنه مما تركـه الخلفـاء العظـام، وهو بذلك قد افترى عليهم ونسـب إليهم مـا لم يـؤثر عنهم، وإنمـا هو مأثور عن أهل الهيئة الجديدة وأتباعهم)(3)

ثانيا ـ الإلحاد.. وحقوق الإنسان:

مثلما استثمر الإلحاد تلك المواقف السلبية التي وقفهـا بعض

1) ذيل الصواعق، ص14.

2) ذيل الصواعق، ص14.

3) ذيل الصواعق، ص14.

رجال الدين من العلم، ليلغي بها وجود الله، وليدعو من خلالها إلى الإلحـاد نجـده، وبنفس المنهج، يسـتثمر بعض الأخطـاء التاريخيـة المرتبطة بالأديان ليجعلها وسيلة لذلك أيضا.

والمواجهة لهؤلاء تكون عبر مرحلتين:

أولاهما: نفي علاقـة الاسـتبداد والظلم بـدين اللـه الأصـيل، وإثبات أن ما حصل من ذلك سـلوكات بشـرية، واسـتغلال خـاطئ للدين، ولا علاقة له به.

ثانيهما: إثبـات أن الإلحـاد نفسـه لا يحمـل أي قيم أخلاقيـة تجعله يلتزم القيم التي تتطلبها حقوق الإنسان، ولذلك حوى حكمه من الظلم والاستعمار والاستبداد والتفرقة العنصرية عشـرات بـل مئات أضـعاف مـا وقـع من الحكم الاسـتبدادي الناشـئ عن الفهم الخاطئ للدين.

وسنشرح كلا الأمرين في العنوانين التاليين:

1 ـ موقف الدين من حقوق الإنسان:

عندما نطـالع النصـوص المقدسـة في جميـع الأديـان، نجـدها تخبر بوقوع التحريف في الأديان، وبتسلط رجـال الـدين وظلمهم، وتعاونهم مع المستبدين والظلمة، وفي نفس الوقت تبين أن ذلـك ليس عاما، بل ستظل فئة من الناس تتمسك بالدين الأصيل، حتى تكون مثابة يهتدي بها المهتدون، وسفينة نجاة يركبونها حتى يهتدوا إلى دين الله الأصيل.

ولذلك كان على الداعية المواجه للإلحاد أن يقر بوجود الظلم الذي يلبس لباس الدين، بل يسـاهم في التحـذير منـه، وفي نفس الـوقت يحمي الـدين والإيمـان من تبعـة الظلمـة، ويشـرح الـدين الأصيل الذي لا يمكن فهمه من دون تميـيزه عن الـدين المزيـف.. وسنشرح ذلك باختصار في العنوانين التاليين:

أ ـ الدين الإصيل وحقوق الإنسان:

عنــدما نعــود للمصــادر المقدســة، ومن يمثلهــا من الأنبيــاء

والأولياء، نجد كل القيم النبيلة الطاهرة الـتي لا يمكن تحققهـا من دون الإيمان، ذلك أنها تعتمد على التضـحية والإيثـار والوفـاء وكـل القيم النبيلــة الــتي لا يســتطيع الإلحــاد فهمهــا ولا تفســيرها ولا تنفيذها.

وبناء على هذا نحاول أن نذكر هنا باختصار بعض القيم النبيلة التي يتشدق الملاحدة بأنهم دعاتها وأصحابها بينما هم أبعـد النـاس عنها، وهو ما وضعوه في ذلك الشعار الذي رفع إبـان الثـورة على الكنيسة، وهو [الحرية والأخوة والمسـاواة]، وسـنرى في المطلب المتعلق بالإلحاد مدى صدق الملاحدة في تطبيق هذا الشعار.

الدين الأصيل والحرية:

عنـدما نعـود للمصـادر المقدسـة للإسـلام الأصـيل باعتبـاره رسالة الله الخاتمة التي جمعت كـل الرسـائل السـابقة وصـححتها نجـد مفهومـا للحريـة يختلـف عن تلـك المفـاهيم الـتي يطرحهـا الملاحـدة، والمبنيـة على إتاحـة المجـال للغرائـز البهيميـة لتعبث بالإنسان وكرامته وقيمه.

فمفهوم الحرية في الإسلام الأصـيل تختلـف عن ذلـك تمامـا، ذلـك مؤسـس على أسـس تخـدم الفـرد، وتخـدم المجتمـع وتقيم عمـارة الأرض الـتي لا تسـتقيم إلا بالحريـة المنضـبطة بضـوابط المسؤولية.

ولذلك فإن الحريـة في الإسـلام تنطلـق من الخصـائص الـتي عرف بها الإسلام الإنسان، وأولها العبودية لله، وهي تعني الانقيــاد التـام والطاعـة الكاملـة للـه؛ فهي الـتي تحـرر الإنسـان من كافـة العبوديات والانقيادات والتبعات لأية جهة أخرى.

فالعبودية لله تعـني أسـمى أنـواع الحريـة الـتي لم يحلم بهـا الإنسان، ولم يتصـورها أبـداً، وهـو يصـارع ألـوان العبوديـات الـتي سلبت منه نعمة الحرية والحياة الآمنة والعيش الهانىء.

وهي تحــرر الإنســان من كــل القيــود.. لا من قيــود الظلم والامتهـان والاسـتعباد والآلهـة المـزورة فحسـب، وانمـا من قيـود

النفس وأهوائها الجامحة ونزعاتها الجنونية.

وذلك ما يتيح للانسان شق طريقه بشكل أفضل وأداء دوره بالصورة المطلوبة.

ولئن كانت الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرر لتنتهي إلى ألوان من العبودية والأغلال، فإن الحرية الرحيبة في الإسلام على العكس.. لأنها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى لتنتهي إلى التحرر من كل اشكال العبودية المهينة[1].

فالإسلام يأمر بالعبودية التي تتوجه لله وحده من دون أي وسائط.. ولذلك فإن هذه العبودية هي عين الحرية.. فهي تحرره من أي قيد فكري أو سياسي أواجتماعي أونفسي.. وغيرها من القيود التي تحاول فرضها عليه الافكار والعقائد والتقاليد والقوى التي لاتمت إلى الله بصلة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64)

وانطلاقا من هذه العبودية الجميلة التي يعيشها الفرد المؤمن كما تعيشها الجماعة المؤمنة يتحرك المؤمن في الحياة طبقاً لمرضاة من توجه إليه بالعبودية.. فالمسلم مطالب بتحقيق مرضاة الله، والبحث عنها في التكاليف التي كلف بها..

وليس في هذا أي قيد للحرية، ذلك أن الطيب الذي ينهى مريضه عما يضره، أو يأمره بما ينفعه، ثم يفعل المريض ما طلبه منه طبيبه عن رضا تام.. وطواعية محبة.. فإن ذلك لا يمكن اعتباره قيدا.. فالطواعية تتنافى مع القيد.

وهكذا العبودية التي أمر بها الإسلام، والتي يقوم بها المؤمن، ففيها وصفان يزيلان عنها ما نتوهمه من قيود:

أما أولهما، فكونها لا يمكن أن تتحقق إلا بالرضى التام والطواعية التامة.. ولهذا يربط الإسلام بين العبادة والمحبة..

1) الاضواء، العدد 2، مقالة للشهيد آية الله الصدر.

فالعبادة التزام من قلب ممتلئ بحب الله.. قلب يشعر أنه ليس في الوجود من هو أجدر من الله بأن يحب، والإسلام بمصادره المقدسة يعمق في المؤمنين هذه المحبة.. فهو يصف الله بأنه صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، وخلق له ما في الأرض جميعا، وأسبع عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وخلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات، وعلمه البيان، واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته.

فإذا امتلأ المؤمن بهذه المحبة مارس العبودية ــ بجميع أنواعها ـ برضا وتلذذ وطواعية..

وأما الثاني.. فهو أن هذه العبودية التي يمارسها المؤمن عن طواعية تامة لم يقصد منها إلا مصالحه.. والمصالح بالمفهوم الإسلامي تشمل مصالح الدنيا، ومصالح الآخرة، ولهذا نرى النصوص المقدسة تربط بين طاعة الله والمصالح..

أما الحرية التي يتصور الملاحدة أنهم جاءوا بها، وهي حرية الرأي، أو الديمقراطية الحديثة، فهي ليست سوى ديمقراطية المشاغبين.

ذلك أنه لو كان هناك معلم.. وكان له تلاميذ.. وكان أكثرهم مشاغبين لا علاقة لهم بالعلم، ولا اهتمام لهم به.. وراحوا يطالبونه بانتخابات تحدد لهم الدروس التي يقرؤونها، والمنهج الذي يدرسهم به.. فإن هذا الأسلوب لن يكون نافعا لهم، ولا مجديا معهم.. فهم سيرمون جميع الدروس في سلة المهملات.. وسيجعلون من المدرسة ملعبا لأهوائهم وشغبهم.

وهكذا هذه الديمقراطية المزيفة.. فهي تتيح للص والمجرم والقاتل والمنحرف من الأصوات ما تتيحه للمفكر والعالم والعبقري، وهي مع ذلك لا تتيح لهم إلا حرية محدودة في أطر رسمتها [1].. فالمتتبع لواقع حرية الرأي في الفكر الغربي يجدها

---

[1] انظر: د. محمد مفتي، د. سامي الوكيل، الحرية السياسية الغربية وحق إبداء الرأي في التصور الإسلامي.

قد قيدت بقيدين: أولهما سيطرة الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على وسائل الإعلام، وقدرتها على توجيه الإعلام، والتحكم في مصادر الأخبار والمعلومات.. وثانيهما تلك القيود المثيرة التي تفرضها الدولة، بحجة عدم الاعتداء على حريات الآخرين، والمحافظة على الأمن الداخلي، والتي غالباً ما تستخدم كذريعة للحد من قدرة الأفراد على التعبير عن آرائهم.

أما الإسلام، فهو يكبت حرية الرأي الذي يريد أن يخرب المجتمع، أو يفتت وحدته، أو يحول وجهته عن الله الذي خلقه، أما الرأي الذي يكون نصحا أو نقدا بناء.. فإن الإسلام لا يكتفي باعتباره حقا.. بل يعتبره واجبا على الكل.. وهو لا يسميه رأيا.. بل يسميه نصيحة، ويشرع له من الأخلاق ما يضعه في قمة قمم الأدب.

وهكذا نرى الإسلام ينهى عن الإكراه في الدين، ولا يجيز لأحد أن يكره أحد على أي اعتقاد، وحتى المرتد[1]، فإن النصوص المقدسة للمسلمين لم تذكر قتل المرتدين.. فليس في القرآن الكريم آية واحدة تأمر بقتل المرتد.. بل إنا لا نجد فيه إلا التحذير من مصيره في الآخرة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)﴾ [آل عمران: 90-91]، فهي واضحة في كونها لا تفرض أي عقوبة على المرتد إلا العقوبة الأخروية.

وقد مارس بعض اليهود هذا في عهد النبوة، كما ذكر القرآن: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72)﴾(آل عمران)، ومع ذلك لم يقتل محمد واحدا منهم بسبب ذلك.

بل إن الإسلام لا يتوجه بالعقوبة إلا للمحارب المفسد الذي لا

---

1) رددنا على هذه الشبهة في (عدالة للعالمين) من سلسلة [حقائق ورقائق].

هدف له إلا تخريب المجتمع، وتفتيت وحدة المسلمين، وخرق صفوفهم.. أما المرتد الذي يحتفظ بردته لنفسه، ويحتفظ بكفره لنفسه، فلا يتدخل الإسلام في اختياره.. بل إن محمدا كان يرى المنافقين ويعلم أسماءهم.. ولم يقتل واحدا منهم.

الدين الأصيل والأخوة:

عند استقراء الأديان المختلفة لا نجد دينا أعطى الأخوة وكل العلاقات الإنسانية من القيم ما أعطاه الإسلام في نسخته الأصلية التي تعتمد بالدرجة الأولى على المصادر المقدسة ولا تخلط معها أي مصادر أخرى مبنية على الهوى، ومتأثرة بالبيئة والثقافات السائدة.

فقد اعتبر القرآن الكريم البشر جميعا إخوة، مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم وأديانهم.وهذا ما لا نجده في أي دين من الأديان، ولا في شريعة من الشرائع السماوية أو الوضعية.. ولهذا نجده ينادي البشر بهذا الوصف: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (لأعراف:26).. يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (لأعراف:27)..: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (الاسراء:70)

بل إنه اعتبر الأنبياء الكرام إخوة لأعدائهم الذين كانوا يسومونهم الخسف فقد اعتبر قوم نوح إخوانا لنوح: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء:106).. واعتبر قوم هود إخوانا لهود: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء:124).. واعتبر ثمود إخوانا لصالح: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء:142)

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: (اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك..

اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)[1]

فقد اعتبر رسول الله ﷺ إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالعبودية والرسالة.

وبالإضافة إلى هذه الأخوة العامة، فإن القرآن الكريم يدعو إلى نوع آخر من الأخوة، وهي الأخوة الخاصة بين المسلمين، وأو تلك التي سماها [أخوة الدين]، كما قال تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (التوبة:11)، وقال: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ (الأحزاب: 5)، وقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات:10)

فالإسلام يعتبر المسلمين جميعا ــ مهما تعددت أوطانهم وأعراقهم وألوانهم ـ أسرة واحدة لها أب روحي واحد هو محمد ﷺ.. ولها دين واحد هو الإسلام.

وهذه مرتبة من مراتب العلاقات مرتبة ضرورية، ذلك أن الناس جميعا يمارسون في علاقاتهم هذا الأسلوب؛ فيفرقون بين إخوانهم وأصدقائهم وأقاربهم وأهل بلدهم وسائر الناس.. وهي لا تلغي غيرها من المراتب، كما لا تلغي الصداقة ولا القرابة غيرها من العلاقات.

وهذه الأخوة هي العلاقة الوحيدة التي تحكم بين المسلمين جميعا.. فليس في المسلمين أي عنصرية كتلك العنصرية التي تمتلئ بها شعوب الأرض.

وقد زخر التراث الإسلامي بجميل الأخلاق وعظيم الآداب التي طبعت علاقات المسلمين بعضهم ببعض.. والتي استوحت معانيها من نصوص القرآن ومن حديث رسول الله ﷺ، فقد قال

---

1) رواه أحمد.

معبرا عن أصل أصول ذلك: (: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1]

الدين الأصيل والمساواة:

عندما نقوم بعملية مسح علمية منهجية لكل الأديان السماوية والوضعية، لنبحث عن موقفها من المساواة بين البشر لا نجد دينا يحفل بذلك الكم الكبير من النصوص المقدسة حولها، فالإسلام يعتبر البشر جميعا عبادا لله.. وأفضلهم أقربهم لله، وأكثرهم نفعا لعباده[2].

لقد نص القرآن على هذا في مواضع كثيرة.. فهو يرد على اليهود والمسيحيين الذين اعتبروا أنفسهم أبناء لله، فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (المائدة: 18)

وبين عدالة الجزاء الإلهي الذي يتعامل مع العباد بحسب أعمالهم لا بحسب أمانيهم، فقال:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾ (النساء:123)

وقد رسخ رسول الله ﷺ بسلوكه وهديه هذه المعاني.. حيث كان يصحبه العرب والعجم، والبيض والسود، والأحرار والرقيق، ولم يكن يميز أحدهم عن الآخر.

وقد ورد في الحديث: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: (يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن

---

[1]) البخاري:1/10.

[2] في الحديث سئل النبي ﷺ:(أي الناس أحب إلى الله؟) قال:(أنفع الناس للناس) رواه الطبراني وغيره بألفاظ متقاربة، وهذا لفظ الطبراني، انظر: المقاصد الحسنة ص (200 – 201)

أبـاكم واحـد، ألا لا فضـل لعـربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجـرات:13)، ألا هـل بلغت؟ قـالوا: بلى يا رسول الله، قال: فليبلغ الشاهد الغائب)(1)

وفي حديث آخر، قال: (إذا كان يوم القيامـة أمـر اللـه مناديـا ينـادي ألا إني جعلت نسـبا وجعلتم نسـبا فجعلت أكـرمكم أتقـاكم فأبيتم إلا أن تقولـوا فلان ابن فلان خـير من فلان بن فلان فـاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون)(2)

وفي حديث آخر قـال: (إن اللـه عـز وجـل أذهب عنكم عبيـة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب مـؤمن تقي وفـاجر شـقي، لينتهين أقـوام يفتخـرون برجـال إنمـا هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تـدفع النتن بأنفها)(3)

وفي حديث آخر: (أنسابكم هذه ليست بمسـبة على أحـدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين أو تقـوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا)(4)

ولتعميق الإسلام لقيمة المساواة في نفوس المسلمين، قـام ـ بمصادره المقدسة ـ بتربيتهم على التواضع لله، ولخلق الله..

فقد اعتـبر القـرآن الكـريم الكـبر الحجـاب الأكـبر بين العبـاد ومعرفـة ربهم والاتصـال بـه، فقـال:﴿ سَأَصْـرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ

(1) المعجم الكبير للطبراني.

(2) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعا وموقوفا وقـال المحفـوظ الموقوف.

(3) أحمد.

(4) أحمد.

يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلاً وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِـذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (لأعراف:146)

بل أخبر أن المتكبرين لا يدخلون الجنـة حـتى يلج الجمـل في سم الخياط، فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْـوَابُ السَّـمَاءِ وَلا يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَـلُ فِي سَـمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْـزِي الْمُجْـرِمِينَ (لأعـراف:40)، وقـال: تِلْـكَ الدَّارُ الْآخِـرَةُ نَجْعَلُهَـا لِلَّذِينَ لا يُرِيـدُونَ عُلُـوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَـاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (القصص:83)

وقـد ربى رسـول اللـه ﷺ في أصـحابه هـذا الخلـق العظيم.. فكان يحثهم عليه بكل الأساليب، ففي الحديث القدسي: (إن اللـه تعالى أوحى إلي أن توضعوا حتى لا يفخر أحـد على أحـد ولا ينبغي أحد على أحد)(1)

وفي حديث آخر: (ما نقصـت صـدقة من مـال، ومـا زاد اللـه عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد إلا رفعه الله)(2)

وفي حديث آخر: (طوبى لمن تواضـع في غـير منقصـة، وذل في نفسه من غير مسألة)(3)

وفي حديث آخر: (من مات وهو برئ من الكبر والعلو والدين دخل الجنة)(4)

وفي حديث آخر: (من تواضع لأخيه المسلم رفعـه اللـه، ومن ارتفع عليه وضعه الله)(5)، وفي رواية: (من تواضع تعظيما يحفظه

---

1) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

2) رواه مسلم والترمذي.

3) رواه مسلم والترمذي.

4) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

الله، ومن تواضع خشية يرفعه الله)

أما العزة التي دعا إليها الإسلام، فليست كـبرا، ويسـتحيل أن تكون كبرا، ذلك أنها امتلاء النفس تعظيما للحق الـذي هـداها اللـه إليه، فلا تتشوف لغيره، والمعتز بـالحق هـو الـذي يسـعى لإيصـاله لغيره من غير أن يستعلي عليهم به.

لقد أخبر رسـول اللـه ﷺ (أن رجلا قـال: واللـه لا يغفـر اللـه لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فـاني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك)(1)

وفي حـــديث آخـــر: (ألا أحـــدثكم حـــديث رجلين من بـــني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسـه، وكـان الآخـر يـراه بنـو إسـرائيل أنـه أفضـلهم في الـدين والعلم والخلـق، فـذكر عنـده صاحبه، فقال: لن يغفر الله له، فقال الله لملائكتـه: (ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فاني أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فذا تتألوا على الله)(2)

وفي حديث آخر: (قال رجل لا يغفر اللـه لفلان، فـأوحى اللـه إلى نبي من الانبياء أنها خطيئة، فليستقبل العمل)(3)

وفي حديث آخـر ورد مـا هـو أعظم من ذلـك، فقـد قـال ﷺ: (كان رجل يصلي، فلما سجد أتاه رجل فـوطئ على رقبتـه، فقـال الذي تحته: والله لا يغفر لك الله أبـدا، فقـال اللـه عزوجـل: تـألى عبدي أن لا أغفر لعبدي، فاني قد غفرت له)(4)

---

5) رواه الطبراني.

1)مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة عن جندب باب النهي عن تقنيط الانسـان من رحمة الله وبرقم (2621).

2)أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي قتادة.

3)الطبراني في الكبير عن جندب.

وقد سمى رسول الله ﷺ هؤلاء الذين زعموا لأنفسهم امتلاك خزائن الجنان (المتألين)(1)، فقال: (ويل للمتألين من أمتي، الذين يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار)(2)

بل أخبر عن هلاك هذا النوع من الناس، فقال: (إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم)(3)، وقال: (إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم)(4)

ب ـ الدين المحرف وحقوق الإنسان:

ولا نقصد بالدين المحرف هنا المسيحية أو اليهودية أو غيرها من الديانات فقط، بل نقصد به الإسلام أيضا، فقد أصاب هذا الجانب فيه الكثير من التحريف، سواء من رجال الدين، أو من السلطات الزمنية التي حكمت طيلة التاريخ الإسلامي.

وقد نبه رسول الله ﷺ إلى ذلك، وأخبر أن هناك ظلما واستبدادا كثيرا سيصيب الأمة، وتنحرف به عن دينها، حتى لا يتحمل الدين تبعات ذلك الاستبداد والتحريف، بل أخبر أن ذلك سيتم في العصور الأولى منه، بل أشار القرآن الكريم إلى إمكانية أن يحصل ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى لا يتحمل دين الله الأصيل أي تبعات يقوم بها أتباعه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

4) الطبراني في الكبير.

1) معنى يتألى: يحلف والالية اليمين.

2) البخاري في التاريخ.

3) مالك وأحمد ومسلم وأبو داود.

4) أحمد ومسلم وأبو داود.

وأخبر أن ذلك سنة في المجتمعات جميعا، والتي تسيء خلافة الرسل، ويتحقق بسببها تحريف الدين، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]

وأشار في آية أخرى إلى بعض المظالم التي تحصل بسبب البغي وسوء فهم الدين، فقال:﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: 253]

والآية الكريمة تشير إلى أنه كان في إمكان الله تعالى أن يمنع كل ذلك، ولكن تركه، لأنه أراد من خلقه أن يمارسوا تكاليفهم بكل حرية حتى يتميز الخبيث من الطيب، والمصلح من المفسد.

وهكذا أخبر رسول الله ﷺ عما يحصل في أمته من انحرافات عن الدين الأصيل، وهي كثيرة جدا لا يمكن استيعابها هنا، وكلها تفيد أنه لا علاقة للدين بالمآسي التاريخية التي حصلت باسمه.. فالدين تمثله مصادره المقدسة، لا سلوكات أتباعه، وفهومهم له.

ومن النصوص الواردة في ذلك هذا التحذير الشديد من رسول الله ﷺ من أن تترك الأمة للسياسة ورجالها المجال للتأثير عليها في دينها، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: (خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، يمنعكم من ذلك المخافة والفقر، ألا وان رحى الايمان دائرة، وان رحى الا سلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث يدور، ألا وان السلطان والكتاب سيفترقان ألا فلا تفارقوا الكتاب، ألا انه سيكون عليكم أمراء ان أطعتموهم أضلوكم، وان عصيتموهم قتلوكم)، قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: (كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم حملوا على الخشب ونشروا

بالمناشير، موت في طاعة الله، خير من حياة في معصية الله)(1)

فهل يمكن اعتبار هذه الأوامـر الـتي تـدعو إلى التضـحية في سبيل تحقيق العدالة والقيم الحضارية النبيلة أفيونا للشعوب؟

وقد أخبر في حديث آخر ما يبين قرب ذلـك، فعن أبي سـعيد قال: خطبنا رسول اللـه ﷺ فقـال في خطبتـه: (ألا اني أوشـك أن أدعى فـأجيب، فيليكم عمـال من بعـدي يعملـون بمـا تعملـون ويعملون ما تعرفون، وطاعة أولئك طاعة، فتلبثون كذلك زمانا، ثم يليكم عمال من بعدهم يعملـون بمـا لا تعملـون، ويعملـون بمـا لا تعرفـون فمن قـادهم، وناصـحهم، فأولئـك قـد هلكـوا، وأهلكـوا خالطوهم بأجسادكم، وذايلوهم بأعمالكم، واشهدوا على المحسـن أنه محسن وعلى المسئ أنه مسئ)(2)

وقد ذكـر ﷺ خوفـه على مـا يحصـل بعـده من تسـلط الأئمـة الظلمـة، ومن يعينهم من علمـاء السـلاطين، ففي الحـديث: قـال رسول الله ﷺ: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)(3)

وقـد نبـه ﷺ الأمـة إلى كيفيـة التعامـل مـع هـؤلاء الأمـراء المستبدين، فقال: (اسمعوا، إنه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم، ولا تصدقوهم بكذبهم، فإنه من أعـانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم، فلن يرد علي الحوض)(4)

وبناء على هذا؛ فإن كل ما حصل في الواقع الديني من مآس تمس بحقـوق الإنسـان لا علاقـة لهـا بالـدين، وهي سـلوك بشـري

---

1) رواه احمد بن منيع برجال ثقات واسحاق، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (5/ 228)

2) رواه الطبراني في الأوسط، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (5/ 237)

3) رواه أحمد (1/42، رقم 293) ، قال الهيثمى في مجمع الزوائد: (5/239) : رجاله ثقات.

4) رواه أحمد (5/111، رقم 21111) ، وابن حبان من طريق أبى يعلى (1/518، رقم 284)

مبني على الهوى، ولذلك لا يتحمل الدين الصحيح ذلك، لأنه تبرأ من أصحابها.

بل إن المتدين الحقيقي يجب عليه قبل الملحد أن ينكر ذلك، حتى يبقى دين الله صافيا سليما بعيدا عن تأثيرات متبعيه وأهوائهم.. ولذلك نرى القرآن الكريم يحمل حملة شديدة على هؤلاء، ويرد عليهم، ويعتبرهم أبعد الناس عن الدين، بل يشبههم بالحمير، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: 5]

وشبه عالم الدين الذين يركن إلى هواه، ويفسر الدين بمزاجه بالكلب، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: 175 - 177]

2 ـ موقف الإلحاد من حقوق الإنسان:

من المغالطات الكبرى التي يمارسها الملاحدة في هذا الجانب تصويرهم للمجتمع الملحد بكونه المجتمع الذي يمثل جميع القيم الحضارية التي حال الدين دون تحقيقها، ويستدلون لذلك بما وقع في التاريخ من انحرافات رجال الدين، والتي نقرهم فيها، بل ننكرها مثلما ينكرونها، بل إن المصادر المقدسة للأديان نفسها نبهت إليها وحذرت منها.

ونحن سنعاملهم هنا بنفس طريقتهم في تعاملهم مع الأديان، فقد أتيحت لهم فترة طويلة حكموا فيها البشرية، ولا يزالون يحكمونها، ورفعوا حينها الكثير من الشعارات، والتي توهموا أنهم جاءوا بها في مواجهة الدين الذي جاء بنقيضها.

ومن أهم تلك الشعارات، ذلك الشعار الذي رفع إبان الثورة

على الكنيسة، وهو [الحرية والأخوة والمساواة]، وسنرى مدى تطبيقهم لهذه الثلاثية.

أ ـ الحرية والإلحاد:

لقد كان أول ما فعلته الثورة الفرنسية التي أعلنت الحرية هي أن بترت الإنسان عن الإنسان، لأنها تصورته قيدا يكبت حرية الإنسان.. وقد بدأت ذلك بتحريره من الله.. أو بعزل الله عن حياته.

ثم كان الانقلاب الصناعى[1] الذى أتى على بقية ما كان من بنيان، فقد أحدث هذا الانقلاب تغيراً كاملاً فى صورة المجتمع فى كل شىء فيه، وكان عاملاً من أهم العوامل فى التركيز على (فردية) الإنسان..

وقد ذاق هؤلاء جميعاً فرديتهم المستقلة (المتحررة) من غير طريقها السوى، الذى كان يضمن لهم ــ مع الإحساس بالذاتية المتميزة ــ توازناً فى الإحساس بالحقوق والتبعات، والحرية والالتزام.

فسكان المدينة الجدد كانوا ـ رويداً رويداً ـ قوماً يتحللون من الدين والأخلاق والتقاليد، بتأثير الانتقال من الكبت العنيف فى الريف إلى (حرية) المدينة وبحبحتها، وبتأثير الانسلاخ التدريجى الدائم من الدين، وبتأثير التفسير الحيوانى للإنسان الذى بثته الداروينية فى النفوس؛ وبتأثير التفسير الجنسى للسلوك الذى بثه فرويد؛ وبتأثير وجود الشباب الفاره القوة بلا أسر تعصمه من الخطيئة، فيلجأ إلى الحل الرخيص الذى تقدمه المدينة فى صورة بغاء..

والمرأة ـ وهى تحس رويداً رويداً بفرديتها ــ كانت تستقى هذه الفردية على انحراف، فهى خارجة من حالة انعدام الكيان.. فى كل شىء.

فلما أحست بذاتيتها أخذت تناضل لتحطيم كل قيد.. لازماً أو

[1] انظر كتب سيد قطب ومحمد قطب، خصوصا (مذاهب فكرية معاصرة).

غــير لازم.. وأخــذت بالــذات تســعى إلى تحطيم الــدين والأخلاق والتقاليد لأنها استخدمت ضدها فى معركــة (التحــرر).. اســتخدمها الرجل ليصدها عن منافسته، بينما كان هو فى واقــع حياتــه متحللاً من الدين والأخلاق والتقاليد.

وحــدث عنــد هــذا انحلال مــدمر شــنيع؛ فقــد تحطمت روابــط المجتمع، وروابط الأسرة، وفســد كيــان الرجــل والمــرأة كليهمــا.. فلم يعودا رجلاً وامرأة كما خلقهما الله.

أما الرجل ـ وقد فقد روابطه الاجتماعية وضـعفت فى نفســه روابط الأسرة وروابط الرجولة ذاتها ـ فقد أصبح شــيئاً أقــرب إلى الآلة منه إلى الإنسان.. آلة منتجة، ولكنها لا تكــاد تفكــر أو تحس.. وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة، بلا هدف شامل ولا وعى بإنسانية الإنسان.. ثم إذا فــرغ من الإنتــاج المــادى الــذى يكبت كيانــه الحى ويطمس إشعاعه الروح فيه ـ بسبب الأسلوب الآلى الذى يؤدى به العمل ـ انطلق فى حيوانية هابطة يشبع دوافــع الحيــوان، وتتحــول فى نظــره إلى هــذين الهــدفين القريــبين: إنتــاج كالآلــة.. وانطلاق كالحيوان.

ب ـ الأخوة والإلحاد:

لقد كان أول مظهر من مظاهر الإخــاء الــذي مارســه الإلحــاد إبان الفتة الطويلة التي حكم فيها ابتداء من الثورة الفرنســية إلى اليوم هو الاستعمار والنهب والسيطرة على حقوق المستضــعفين، ثم قتلهم بعد ذلك.

فلم يكتــف تلاميــذ الثــورة الفرنســية النجبــاء بــإعلان أخــوتهم للعالم بهذا الأسلوب، وإنما ساروا إلى الأرض يقسمونها كما يحلــو لهم، وكأنها تركة لأبيهم الــذي مــات، فهم يرثونهــا عنــه.. أمــا أهــل الأرض من البسطاء والمستضعفين، فلهم مصيران لا ثــالث لهمــا: إما الموت.. وإما السخرة.

أما السخرة، فهي تلك الوظائف القاسية والمهينــة الــتي قــام بها أبناء الشعوب المستعمرة، وأمــا المــوت.. فــإن جــرائم الإبــادة التي نــالت البشــر في الفــترة الــتي أعلنت فيهــا حقــوق الإنســان،

والأخوة الإنسانية لا تعدلها جرائم البشر في جميع فترات تاريخهم.

لقد بلغ عدد الذين أبادتهم بريطانيا العظمى من أجل إخضـاع الصين لتاجها أكثر من عشرين مليون إنسان.

وكـانت فرنسـا تسـتعمر الجزائـر رغم إرادة شـعبها الـذين قاوموا الاستعمار بعنف، ولم تستجب فرنسا لنداء الحرية المـدوي في صفوف الشعب الجزائري، إلا بعـد أن قتلت من ذلـك الشـعب المضطهد ما يقارب المليونين نسمة، وبصورة بشعة قاسية.

وفي أثناء حرب الجزائر طلب حكام فرنسا من القائـد العـام للجيش أن يحـول أجمـل مسـجد في الجزائـر إلى كنيسـة، فوقـع اختياره على مسجد الحي الأورلي في القشارة فتقدمت مجموعة من آلية الهندسـة للسـلاح الفرنسـي إلى المسـجد، وكـان الـوقت وقت صلاة المغـرب، وكـان المسـجد غاصـاً بالمصـلين الـذي قـدر عددهم بـ(1400) مصلٍّ، فدخلوا عليهم وقتلـوا فيهم إلى منتصـف الليل، حيث أبادوهم جميعاً.

وقد أحصي عدد القنابل الـتي ألقاهـا الطـيران الأمـيركي من سنة 1961 إلى سنة 1972م زهاء ستة ملايين وسـبعمائة وسـبعة وعشرين ألف طن من القنابل على منطقة الهند الصينية وحدها.

وألقت الطائرات الأميركيـة واحـد وسـبعين مليـون لـتراً، من المواد الكيمياويـة السـامة على منطقـة في جنـوب فيتنـام تـوازي مساحة إيرلندا الشمالية.

أما ما فعله تلميذ نيتشة وغيره من الملاحـدة [هتلـر]، فهـو لا يكاد يوصف أو يعبر عنه، والكثير للأسف يقصر مواقفه مع اليهـود، وينسى مواقفه الأخطر مع الغجر[1]، فقد نال الغجر المستضعفين من الإبادة ما نالهم.. فقد وصفت إحـدى منشـورات اليونسـكو مـا

---

1) ارتبطت الإبادة النازية بـ (اليهود) بحيث استقر في الأذهـان أن النـازيين لم يبيـدوا سوى اليهود، وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حـتى أصـبح دور الضحية حكراً على اليهود.. بل تطور الأمر إلى حد أنـه إذا مـا أراد بـاحث أن يـبيِّن أن الإبـادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسـلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس (انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري)

حصل لهم، ومما جاء فيها من مآس[2]:

أن الدكتور هانز جلوبكه ـ أحد المساهمين في صياغة قـوانين نورمبرج ـ عام 1936 ـ ذكر أن الدم الذي يجري في عروق الغجر (دم أجنبي). ثم صنَّفهم الأستاذ هـانز ف. حينـثر في فئـة مسـتقلة تمثل مزيجاً عرْقياً غـير محـدَّد (إذ لم يسـتطع نفي أصـلهم الآري). وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجة أهلتهـا لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه، ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الـدكتور ريتّـر في قسـم الأبحـاث العِرقيـة بـوزارة الصـحة (عنـد مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغاً على صــفاء الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلـر يقـترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمــهم بالجملـة نظـراً لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

وفي 14 ديسـمبر عـام 1936، صـدر قـرار أدى إلى تفـاقم أوضاع الغجر، إذ وصمهم بأنهم (مجرمون معتادون على الإجرام)

وفي نهايــة عــام 1937 وخلال عــام 1938 شُــنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّـص لهم جنـاح في معتقـل بوخنولد.

وفي عام 1938، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقـر المركـز الوطـني لشـئون الغجـر إلى بـرلين.. وفي السـنة نفسـها اعتُقـل ثلاثمائة غجـري كـان قـد اسـتقر بهم المقـام في قريـة مـانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم.

وقـد أمـر همـلـر بتصـنيف الغجـر في الفئـات التاليـة: غجـري صرف (Z)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (ZM+)، وخلاســي يغلب عليـه العـرْق الآري (ZM-)، وخلاسـي يتسـاوى فيـه العرْقـان الغجري والآري (ZM).

---

[2] نقلا عن الموسوعة اليهودية للمسيري.

ويميِّز المؤرخ ح. بلَنج في كتابـه (ألمانيـا وإبـادة الجنس) بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثل في الإبـادة عن طريـق إزالـة القـدرة على الإنجــاب واخــتطاف الأطفـال، والإبـادة عن طريـق الزج في المعتقـلات، والإبادة عن طريق الإفناء.

وهذا مجرد مثال واحـد عن بعض جـرائم الإبـادة الـتي تهـدف إلى تنقيــة العــرق.. أمــا جــرائم الإبــادة الــتي تهـدف إلى نشــر ديمقراطيــة الــدماء.. فهي كثــيرة جــدا، تشــهد عليهــا أفغانســتان والعراق وفلسطين.. بل جميع عوالم المستضعفين.

وبعد كل هذه المآسي التي تدل عليها كـل الوثـائق التاريخيـة يأتي الملاحدة، وبناء على حوادث بسيطة قام بهـا المنحرفـون عن الدين الأصيل، ليعتبروا الدين هو وسيلة العنف الكبرى، وأن الحــل الذي يحمي البشرية من العنف هو الإلحاد.

ويذكر الملاحدة الجدد منهم خصوصا [1] أنه لـولا الـدين لمـا شهدنا هجمـات 11 سـبتمبر أو الـنزاع الفلسـطيني الإسـرائيلي أو مشاكل ايرلندا الشمالية أو أية نزاعات عنيفـة بسـبب كلمـات في كتب مقدسة.. بل ولا حتى الدولة الإسلامية.

ويحاجج أكثر الملحدين البريطانيين شـهرة [ريتشـارد دوكـنز] بأن الدين كان سبباً رئيسياً للعنف والحروب عبر التاريخ حيث قال في مذكراته التي كتبها عام 2013: (الـدين هـو العلامـة الرئيسـية والأخطر التي بموجبها نقسم أنفسنا إلى طرفين: نحن وهم)

وأضاف أنه لو ألغي الدين لأصبحت الفرصة أكبر بكثير لعــالم بلا حـروب، كمـا كنـا لاحظنـا انخفاضـاً في منسـوب الكراهيـة لأن الكثــير منهــا يعــود للطائفيــة كمــا في ايرلنــدا الشــمالية والهنــد وباكستان على حد تعبيره.

لكن الدراسات الأكاديمية تدحض تلك النظرية التي تربـط مـا بين الحـروب والـدين؛ ففي بحث نشـره معهـد نيويـورك وسـيدني

---

1) استفدنا المادة العلمية الواردة هنا من مقال مترجم بعنوان: هـل الـدين مسـبب حقيقي للحروب؟ وهل يخلو تـاريخ الملحـدين منهـا؟، موقـع السـوري الجديـد، ترجمـة ديمـة الغزي.

للاقتصاد والسلام تبين أنه عموماً لا توجد علاقة بين الدين والنزاعات في أي من الحروب التي اندلعت في 2013.. ومن بين خمسة وثلاثين نزاعا مسلحا خمسة فقط (14 بالمائة) كانت أسبابها المباشرة مرتبطة بالدين، في حين غاب العامل الديني تماماً في أربع عشرة حالة أخرى (40 بالمائة)، واشتركت جميع الحالات قيد الدراسة في تعدد مسبباتها، وكانت أكثر الأسباب شيوعاً هي ما تعلق بمعارضة الحكومة أو النظام الاقتصادي أو الايديولوجي أو السياسي أو الاجتماعي للدولة حيث برزت في ثلثي الحالات التي تمت دراستها.

كما نجد في موسوعة الحروب ـ وهي دراسة شاملة لكافة الحروب الألف وسبعمائة وست وثلاثين عبر تاريخ الإنسانية ــ أن الحروب الدينية في طبيعتها لم تتجاوز المئة وثلاثة وعشرين حرباً.. أي أقل من 7 بالمائة.

من ناحية أخرى أسفر تقرير معهد الاقتصاد والسلام عن نتيجة مفادها أن انحسار الدين في دولة ما لا يجعلها تلقائياً تتمتع بالسلم أكثر، ونسبة الملحدين في الدولة لا علاقة لها بمستوى السلم فيها، فالدول التي تعلو فيها نسبة الملحدين ـ بالأخص الدول الشيوعية أو التي كانت شيوعية مثل روسيا والتشيك ـ لم تنعم بالسلام.

وبحسب التقرير أيضاً كانت كوريا الشمالية ضمن لائحة الدول العشر الأقل سلاماً رغم أنها الأقل نسبة من حيث عدد السكان المنتمين إلى ديانة ما.

وقد فسر [جون وولف] سبب كون الدين بارزا في أغلب النزاعات، بأنه عندما يكون الواقع معقداً يتم توصيف الصراعات بأنها دينية كوصف مقتضب لها، ويضيف: (حتى عندما نرجع بالتاريخ إلى ما يعرف بالحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر فيما بعد حركة الإصلاح البروتستانتي في غرب وشمال أوروبا نجد أن العامل الديني كان مهماً، ولكن يتبين أنه كان هناك أيضاً تأثير الأسر الحاكمة والسلطة والاقتصاد التي كان من شأنها تحريك الحروب)

ويختم جون بقوله: (لعلني أتفق مع الطرح القائل بأنه تم توريط الدين في معظم الحروب، لكن القول بأن الدين هو المسؤول عنها هو تحريف للأدلة)

وهكذا ذكرت الكاتبة الأسترالية المسلمة [ريتشل وودكوك] أن الانقسامات الدينية أصبحت واضحة أكثر في الحروب الحديثة. وتقول في كتابها [لفهم الإله]: (إن أهمية الدين قد تصاعدت اليوم بسبب العولمة التي تتحدى وتغير كل شيء، وأن الهوية الدينية لا تتأثر عندما تنهار التحالفات السياسية والقومية لا بل تزداد أهمية كما رأينا في يوغوسلافيا سابقاً في أوائل التسعينات عندما انقسم الصربيون والكرواتيون والبوسنيون إلى أورثودوكس وكاثوليك ومسلمين)

كما أشارت وودكوك إلى الديكتاتور صدام حسين الذي استخدم السلاح الكيماوي ضد الأكراد بينما ظهر على شاشات التلفاز وهو يصلي لله، وقالت في الكتاب: (للأسف يوفر الدين غطاء مناسباً ومحركاً قوياً لأصحاب النوايا السيئة. في الحقيقة يكون الدين مختلفاً تماماً عندما يمارسه المتعطشون للسلطة عما يبدو عليه عند الأتقياء والصالحين، وهذا يدل على نفسية الإنسان أكثر مما يدل على الدين. ولذلك نرى الكثير من النزاعات الإنسانية تحوم حول الدين)

وفي ايرلندا الشمالية نلاحظ أنه يتم توظيف الخطاب الديني من قبل الطرفين وبالأخص في حالة القس البروتستانتي [إيان بيزلي] الذي اعتبره البابا عدوا المسيح.

وقد ذكر [وولف] أنه قد تم تضخيم دور العوامل الدينية في النزاع الدائر في ايرلندا الشمالية (التوصيفات الشائعة هي كاثوليك وبروتستانت بدلاً من قومي واتحادي مما يساهم في خلط الأمور، وكان هناك الكثير مما يجري خلف الكواليس مما لم يتطرق له الإعلام من مصالحات وما إلى ذلك، لقد كان بيزلي شخصاً واضحاً ومؤثراً في طرف البروتستانت وبنى مواقفه على أسس دينية، لكني أعتقد أنه لم يكن ممثلاً جيداً لتلك الشريحة بشكل عام)

بالإضافة إلى ذلك، فقد أشارت الدراسات الكثيرة إلى الـدور الإيجابي الـذي يلعبـه الـدين في تحقيـق السـلام، وهي للأسـف لا تنـال التغطيـة المناسـبة في الإعلام ــ بحسـب معهـد الاقتصـاد والسلام ـ فقد وجد المعهد أن الانخراط في أي مجموعة ـ دينية أو رياضـية مثلاً ـ من شـأنه أن يقـوي العلاقـات بين المواطـنين في الدولة، ويرتبط عادة بالمناطق التي تنعم بسلم أكـثر. وقـد عـرف التاريخ أناساً متدينين جداً وهم من أشهر دعاة السلام مثل مـارتن لوثر كينج جونيور والمهاتما غاندي والمطران ديزموند توتو.

ويذكر [جون وولف] ذلك، فيقول: (يجب علينـا أن نتمعن في الحالات التي يعمل فيها الناس المتدينون بكد لإحلال السلام.. وهو جـانب نـادراً مـا يحظى بالتغطيـة الإعلاميـة على عكس الجـانب الآخر)

وبالنظر إلى الحروب الكبرى في المئة عام الأخيرة كـالحرب العالميـة الأولى والثانيـة والحـرب البـاردة وحـرب فيتنـام.. نـرى بوضوح كيف يمكن للـدوافع غـير الدينيـة أن تكـون مـدمرة تمامـاً كالدوافع الدينية. مما يطرح السؤال عما إذا كان الإلحـاد المتشـدد مسؤولاً القدر بنفسه عن الدمار والعنف كما الدين.

وبحسب ما تقول [ريتشل وودكوك]، فإنه (لا يقع اللــوم على الايديولوجيـة الدينيـة فقـط في نشـوب النزاعـات، بـل إن الإلحـاد المفروض من قبل الدولة كان علامة فارقة في الأنظمـة الفاشـية في القرن العشرين كنظام ستالين وتيتـو ومـاو تسـي تـونج وبـول بوت وغيرهم.. مما نتج عنـه مصـرع ومعانـاة الملايين، كمـا أعـدم الملحــدون عشــرات الآلاف من الــروس المســيحيين بســبب معتقداتهم بهدف إفراغ الدولة من الدين)

ج ـ المساواة والإلحاد:

لا يصطدم الإلحاد بشيء كمـا يصـطدم بالمسـاواة، ذلـك أنـه يعتقد بنظرية التطـور، ويعتقـد معهـا بمـا يطلـق عليـه [الداروينيـة الاجتماعية]، وهي ذلك التبرير العلمي لكل أنواع العنصرية.

وهي نظرية تدعو إلى ممارسـة كـل أنـواع التجـبر والطغيـان

لإلغــاء المستضــعفين من الوجــود حــتى لا يبقى في العــالم إلا الأقويــاء.. فالبقــاء لهم وحــدهم.. ولــذلك لهم أن ينتهبــوا ثــروات الفقــراء المستضــعفين.. ولهم أن يبيــدوهم.. حــتى لا يبقى في الأرض إلا الأصـلح والأقـوى.. وهـو بالتأكيـد ليس سـوى (الإنسـان الأبيض)، والأوروبي على وجه التحديد.

لقـد كـان هـذا المعيـار هـو الـذي فتح المجـال للرأسـمالية البشعة.. والـتي تعـني عـدم تـدخل الدولـة في الأعمـال والسـوق التجارية نهائيًا، بـل تـترك البـاب مفتوحًـا للمنافسـة، ومن يسـتطع التنـافس يبقَى في الحلبـة، ومن لا يجـاري الأقويـاء عليـه مغـادرة حلبة الصراع، فلا مكان للضعفاء! وليس الضعفاء إلا أولئـك الـذين لا يملكون من رأس المـال مـا يمكنهم من منافسـة المليـارديرات والمليونيرات.

وكان هذا المعيار هو الذي دعا إلى التخلص من دولة الرفاه.. وهي الدولة التي تقدم التعليم والتأمين الصحي ومعاشات التقاعـد والمساعدة في تأمين السكن وغيرهـا مجانـا للمستضـعفين .. لأن ذلـك سـيترك لهم الفرصـة البقـاء مـع استضـعافهم.. وهـذا منـاف للقوانين التي وضعناها.

وكان هـذا المعيـار هـو الـذي دعـا المسـتكبرين الأقويـاء إلى استعمار الشعوب المستضعفة.. فتلك الشعوب لا تستحق الحياة.. لأن الحياة لا تكون إلا للأقوى.

ولم يتوقــف تــأثير تلــك الأفكــار على المجــال الاقتصــادي، والمآسي التي أحـدثها.. بـل راحت تسـتعمل كـل الوسـائل لإبـادة المستضـعفين، فقــد كــان الفلاسـفة المــاديون يؤمنــون بتــوريث الصــفات.. أي أن الوراثــة هي الــتي تلعب دورًا مهمًــا في تحديــد طبيعة الإنسان، والسمات الفردية له كالذكاء والهويـة الشخصـية.. وكانوا لذلك يعتقدون أن الجينات الوراثية تستطيع تفسير خصائص الشخصية البشرية وحل المشكلات الإنسانية سواء كانت اجتماعية أو سياسية.. وكانوا يكـذبون كـل مقولـة تـذكر أن البيئـة هي الـتي

تؤثر في سـلوك الإنسـان وسـماته الشخصـية(1)، وبنـاء على هـذه الاعتقادات راحوا يدعون إلى ممارسة كـل الوسـائل حـتى لا يبقى على الأرض إلا العناصر الصالحة القوية، والتي تجعل الإنسان أكثر تطورا ورقيا.

ولأجـل تحقيـق هـذا قـام الكثـير من البـاحثين في المجـالات المختلفـة ليمـيزوا بين العناصـر الإنسـانية الصـالحة القويـة، وبين العناصر التي لم تصل بعد إلى المرتبة الإنسانية.

ومن النتائج التي وصلوا إليها ما عبر عنه بعضـهم بقولـه: (إن للبالغين السود جماجم طويلة ،وبشرة داكنة ،وفكان بـارزان بقـوة إلى الامـام ، فى حين أن لـدى البـالغين الـبيض ولأطفـال السـود جماجم قصيرة ،وبشرة فاتحة، وفكـان صـغيران ، ومن ذلـك فـإن العـرق الأبيض هـو الأكـثر رقيـا وتطـورا بإعتبـاره الأكـثر احتفاظـا بسمات الحدث)

وقــال [هــافلوك إيليس]: (قلمــا يكــون أطفــال العديــد من الأعــراق الإفريقيــة أقــل ذكــاءا من الطفــل الاوروبي ، ولكن فى الـوقت الـذي يكـبر فيـه الإفـريقي يصـبح غبيـا وبليـدا، ويحتفـظ الاوروبي بالكثير من حيويته الطفولية)

وكـانت التفرقـة تجـري بين البشــر كالتفرقــة بين الغنم هي الأساس لكـل فكـر مـادي، فقـد ميَّز [إرنسـت رينـان] بين الآريين والساميين على أساس لغوي، ثم انتقـل من الحـديث عن اللغـات السامية إلى الحديث عن الروح السامية والعبقرية السامية مقابل الروح الآريـة والعبقريـة الآريـة الـتي هي أيضـاً الـروح الهيلينيـة أو النابعة منها (2) .

ثم ســادت الفكــرة العضــوية الخاصــة بالفولــك أو الشــعب العضوي، ومفادها أن لكل أمة عبقريتها الخاصة بها ولكل فـرد في

1) ذكر ذلك بتفصيل السير فرانسيس غالتون في كتابه (العبقري الـوراثي) عـام 1869. و هو عالم بريطاني وأحد أقرباء تشارلز دارون..

2) هذه النصوص مقتبسة من [موسوعة اليهودية].

هذه الأمة سمات أزلية يحملها عن طريق الوراثة، وانتهى الأمر إلى الحديث عن تفوُّق الآريين على (الساميين) ، هذا العنصر الآسيوي المغروس في وسط أوربا، كما دار الحديث عن خطر الروح السامية على المجتمعات الآرية.. مما دفع إلى استعمال كل الوسائل لمحاربتهم.

وكان هذا النوع من العداء يستند إلى نظريات ذات ديباجات ومسوغات علمية عن الأعراق عامة، وعن السمات السلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتمية للشعوب التي يراد تصنيفها عرقيا.

وقد كانت هذه الداروينية الاجتماعية من أهم مصادر الفكر المادي الإلحادي الذي انتشر في العالم الغربي[1].. وبناء عليه كان يتم تبرير إبادة الملايين في أفريقيا واستعبادهم في آسيا على أساس أن هذا جزء من عبء الرجل الأبيض ومهمته الحضارية؛ فهو يبيد الملايين ليؤسس مجتمعات متقدمة متحضرة!

وبمناسبة الحديث عن الرجل الأبيض.. فقد قسم الكونت جوبينو البشر إلى أعراق: أبيض (آري) ، وأصفر، وأسود.. وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض هو مؤسس الحضارة، وأن السمات المتفوقة لهذا العرْق لايمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق النقاء العنصري.. وأكد أن التيوتونيين هم أرقى العناصر الآرية لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بنقائهم.

---

1) هذه النصوص مقتبسة من [موسوعة اليهودية].

من الأسلحة المهمة التي يحتاج الداعية إلى الله المقاوم للإلحاد إلى استعمالها، سلاح [القيم الأخلاقية]، وخاصة تلك التي تعارفت عليها البشرية، ودانت بها فطرتها، ذلك أنه لا يمكن أن يكون للملحد أي جواب حولها؛ فالفلسفة المادية التي تختصر الإنسان في كيانه البيولوجي لا تستطيع أن تفسر أي قيمة من القيم الخلقية، ولا تستطيع كذلك أن توفر لأتباعها أي حافز يدفعهم للسلوك الأخلاقي، وخاصة إن كان يحمل معاني التضحية والإيثار والبذل.

وكيف يمكن ذلك لمن يرى الحياة الدنيا فرصته الوحيدة؛ فلذلك يسرع لاستعمال كل وسيلة لنيل ملذاتها وشهواتها قبل أن يطبق عليه العدم ـ كما يتصور ـ ولا يمكن لمثل هذا أن يؤدي أي وظيفة أو خدمة للبشرية تكون على حساب مصالحه، وإن فعل ذلك قوض جميع فكره ومذهبه الذي يؤمن به.

وقد أشار إلى هذا السلاح الذي يمتلكه المؤمنون، ولا يمتلكه الملاحدة [بوخينسكي] أستاذ الفلسفة بجامعة [فريبورج] بسويسرا تعليقا على تلك الآراء الوجودية الممتلئة بالشذوذ بقوله: (ليس في وسعنا هنا سوى الاقتصار على ذكر النتائج الأخلاقية التي تربت على هذه الفلسفة، والتي تمثلت في نكران كل القيم، وكل القوانين الموضوعية، وفي ادعاء استحالة وعدم جدوى الحياة الإنسانية، بل إن الوجودية قد أرغت حتى ظاهرة الموت نفسها من معناها على يدي سارتر.. ومن نتائج الوجودية أيضًا، دعوتها إلى التشكيك في جدوى قيام كل ما يتسمم بروح الجد وطابعه، فهي فلسفة انحلالية عدمية تمامًا)(1)

وقد أشار إلى هذا بعضهم بما سماه [الدليل الخُلُقي على وجود الله] (2)، ويقصد به القيم الخلقية، باعتبارها قيما ضرورية لوجود المجتمعات البشرية، بل لا يمكن أن يكون بدونها المجتمع،

1) في كتابه (تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا) ترجمة (محمد عبدالكريم الوافي).

وهذه الأخلاق تعتمد على وجود إلـه، لانـه إذا لم يكن هنالـك خـالق يرى ويسمع ما يفعل البشر، ولم تكن هنـاك دار أخـرى يـثيب اللـه فيها المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إسـاءته، وكـان الكسب المادي في هذه الحياة الدنيوية هو وحده الكسب المعتبر؛ لكان كل ما نراه لغوا وعبثا.

وبناء على هـذا؛ فإننـا عنـدما نقـارن بين معـايير الأخلاق عنـد المؤمن ـ وخاصة في الدين الأصـيل الـذي لم يحـرف، ولم تتلاعب به الأهواء ـ مع المعايير التي يعتمدها الملحد نجد فرقا كبـيرا جـدا، فالمؤمن يمتلك معايير دقيقة ومضبوطة للأخلاق، وهي تتناسب مع الكرامة الإنسانية والنبل الإنساني، بينما الملحد يعجز أن يصف أي معيار، لأنه سيصطدم لا محالة بتصوراته المادية للكون والحياة.

ومثـل ذلـك نجـد المـؤمن يمتلـك دوافـع حقيقيـة للالـتزام بالأخلاق، بخلاف الملحد الذي لا يجد أي دوافع، لأنه ـ في تصـوره ـ ليس سوى كائن بيولوجي، جاء صدفة، وسيعدم بعد فترة قصـيرة، ولا شيء غير ذلك.

انطلاقا من هذا سنحاول هنـا باختصـار أن نقـارن بين معـايير الأخلاق بين المؤمنين والملاحدة والدوافع التي تحفـز للالـتزام بهـا ليكون ذلك وحده كافيا في تهافت الرؤية الإلحادية، وعـدم قـدرتها على تأسـيس أي مجتمـع أو أي حيـاة نبيلـة وفـق قيم واضـحة مضبوطة.

أولا ـ معايير الأخلاق عند الملحد ودوافعها:

من التعبيرات التي قد تختصر لنا تصور المعـايير الـتي يسـتند إليهـا الملاحـدة في تحديـدهم للأخلاق مـا ورد في المنـاظرة المشهورة، والتي سُـئل فيهـا الفيزيـائي الشـهير الملحـد [لـورنس كراوس] عن موقفه من زنا المحارم، فردّ قائلا: (ليس من الواضح بالنسبة إليّ أنه خطأ)(1)

2) انظر: الفيزياء ووجود الخالق: مناقشـة عقلانيـة إسـلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، أبو القاسم حاج حمد.

ومثله [ريتشارد دوكنز] الذي صرّح في تغريدة له على موقـع تويتر بأن الإجهاض فعل أخلاقي ومشـروع طالمـا ليس هنـاك ألم، وبرّر ذلك قائلا: (لأن الجنين في بطن أمّه هو أقل إنسـانية من أي خنزير بالغ)

أما الملحد الأسترالي وأستاذ الفلسفة الأخلاقية [بيتر سنجر]، بصرح بأن ممارسة البشر للجنس مع الحيوانات والبهائم طالمـا لا تتضمّن أذيّة من أي نوع للحيوان هو أمر طبيعي ومقبول في إطار حميمية العلاقة بين الحيوانات والإنسان، وبالنسبة إليـه: (فلا خطـأ في ذلـك على الإطلاق، بـل إنـه أمـر محمـود طالمـا يـؤدي إلى استمتاع الطرفين: الحيوان والإنسان)

هذه التعابير كلها تدل على المعايير التي يستند إليها الملاحدة في تفسير الأخلاق وتحديدها، وهو كونها ذاتية لا موضـوعية، فليس هنـاك شـيء اسـمه أخلاق عنـدهم، ومـا نـراه من أخلاق في تصرفاتهم، لا ينطلق من كونهم ملاحدة، وإنما من تأثير البيئة الـتي يعيشون فيها أو غيرها، أما لو ترك الأمـر للملحـد وعقلـه المجـرد؛ فإن كل شيء بالنسبة له مباح، أو كما عبر [فرانك توريك] بقولـه: (لا أقـول بـأن الملاحـدة لا يعرفـون الأخلاق، وإنمـا أقـول إنهم لا يمكنهم تبرير الأخلاق. نعم يمكنهم التصرّف بخُلـق ويمكنهم الحكم على بعض الأفعال بأنها أخلاقية أو لاأخلاقيـة، لكنهم لا يسـتطيعون توفير قاعدة موضوعية لأحكامهم الأخلاقيـة.. وأيـا مـا كـان الأمـر: الهولوكوست، الاغتصاب، ذبح الأطفال، أو أكل الأطفال، فلا يوجـد لدى الملحدين معيار موضوعي للحكم على أي منهم)

وعبر عن ذلك علي عزت بيجـوفيتش قـائلا: (يوجـد ملحـدون على خلق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي)[1]

ولا يصعب على أي عاقـل أن يعـرف سـبب خلـو الإلحـاد من الرؤية الأخلاقية، ذلك أن الإلحاد لا يـؤمن إلا بـالحس والمـادة ومـا

---

1) انظر هذه النصوص ومصادرها في مقال بعنوان: هل يمكن بناء منظومة أخلاقية أساسها الإلحاد، إسماعيل عرفة، موقع ميدان.

1) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص175.

ينشأ عنهما، وبما أن الأخلاق أمور معنوية، ويصعب عليه تفسيرها وفق رؤيته المادية، ولذلك ينكرها.

وقد عبر الفيلسوف الأميركي اللاأدري [توماس نيجل] في كتابه [العقل والكون: لماذا يكاد يكون التصوّر المادّي الداروينيي خطأ قطعا؟] عن هذا المعنى بذكره (أن هناك ثلاثة عناصر تعجز الرؤية الكونية المادّية أن تقدّم تفسيرا لها، وهي: الوعي، والإدراك، والقيم الأخلاقية)

لكن إلحاحات المؤمنين على الملاحدة في هذا الجانب الذي لا تكاد تخلو مناظرة منه، جعلهم يفكرون في حل ينقذون به أنفسهم، والإلحاد الذي يؤمنون به، والذي لا يوفر لهم، ولا للبشرية أي غطاء أخلاقي يمكن أن يفيدهم.

ومن تلك الحلول وأكثرها رواجا [1] محاولة الملحد الشهير سام هاريس في كتابه [المشهد الأخلاقي: كيف يمكن للعلم أن يحدّد القيم الإنسانية؟]، والذي حاول أن يبرّر فيه ما هو أخلاقي بما يحقق للبشرية الرفاه والسعادة والرخاء.

وما ذكره هو تكرار لما ذكره الكثير من الملاحدة في عصورهم المختلفة، فهم يعتبرون[2] معيار الأخلاق تحقيق المنفعة أو الرفاه الاجتماعي، وكذلك دفع الألم والضرر، فهذا هو الذي يحدد مصير كون الفعل أخلاقيا من عدمه، فهو أخلاقي إذا حقق المنفعة والرفاه أو الرخاء الاجتماعي، وهو غير أخلاقي إذا أدى إلى ألم أو ضرر.

وأما كيف يتم تحديد المنفعة والضرر وعلى أي أساس؛ فيرى هؤلاء أن ذلك يتم من خلال ما يُبينه العلم، فالعلم هو المؤهل الوحيد لديهم لإثبات ذلك من عدمه، ولذلك يُعلنون رفضهم

---

1) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، عبد الله الشهري، ص280.

2) انظر مقالا مهما في الموضوع بعنوان: الملحدون والمسألة الأخلاقية.. تحليل نقدي من خلال المقارنة بين الإلحاد والأديان، أ. سلمان عبد الأعلى، مجلة نصوص معاصرة، 6 سبتمبر 2016، وقد حاولنا أن نلخص الكثير مما ذكره هنا.

الاعتماد على النصوص الدينية في مسألة الأخلاق، بل ويشترط بعضهم أن لا تكون الفلسفة الأخلاقية معتمدةً على نصوص دينية.

ويمكننا تلخيص الرد عليهم في الوجوه التالية[1]:

1 ـ الخداع اللفظي:

ذلك أن ما ذكروه لا يمثل معياراً حقيقياً للأخلاق، لأنه لم يبين كيفية تمييز الأخلاق من عدم الأخلاق أو الخير من الشر، فالتعبير بالرفاه أو الرخاء الاجتماعي أو الألم والضرر لن يحل المسألة، لأن تبديل الألفاظ لا يُغير من حقيقة الأمر، وسيبقى السؤال: ما الذي يجعل زيادة الرفاه أو الرخاء الاجتماعي أمراً أخلاقياً؟ وما الذي يجعل إلحاق الضرر أو الألم أمراً غير أخلاقي؟! فهذا السؤال تم الالتفاف عليه، لأن كل ما ذكره هؤلاء هو إعادة تعريف لمسألة الخير (الرفاه أو الرخاء الاجتماعي)، وكذلك لمسألة الشر (الألم والضرر) من جديد، وهذا الأمر لا يمكن أن يُعتبر معياراً حقيقياً للتمييز بين الأخلاق وغير الأخلاق أو الخير والشر.

وهذا ما أشار إليه ويليام لان كريغ[2] في مناظرته مع سام هاريس[3] حول المسألة الأخلاقية، إذ يقول قاصداً الأخير: (فهو يعيد تعريف كلمة (خير) لتصبح (رخاء الكائنات الواعية)، ولذلك فإن تسأل: (لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات أمراً خيراً؟) يعادل وفق تعريفه الجديد سؤال: (لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات زيادة في رخاء الكائنات؟) إنه مجرد حشو، إنه مجرد الحديث في دوائر

1) المرجع السابق.

2) ويليام لين كرايغ (بالإنجليزية: William Lane Craig) وهو فيلسوف تحليلي ولاهوتي مسيحي أمريكي ولد في يوم 23 أغسطس 1949 في مدينة بيوريا في ولاية إلينوي في الولايات المتحدة وهو من أشهر اللاهوتيين الدفاعيين في العالم وهو خريجي جامعة بيرمنغهام وجامعة لودفيش ماكسيميليان في ميونخ وقد قام بمُناظرة عدة مروجي للإلحاد منهم ريتشارد دوكينز وسام هاريس وقد أنشأ عدة كُتُب منها الايمان المنطقي (ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

3) سام هاريس (المولود 9 أبريل، 1967) هو مؤلف وفيلسوف ومفكر و عالم أعصاب أمريكي وهو أحد مؤسسي مشروع إدراك و مديره التنفيذي- مؤلف كتاب (نهاية الإيمان) الذي صدر عام 2004 والذي ظهر في لائحة النيويورك تايمز لأفضل المبيعات 33 أسبوعًا على التوالي. – مؤلف كتاب (رسالة إلى أمة مسيحية) ردّا على انتقادات لكتاب (نهاية الإيمان). تَبِع هذا العمل كتابه (المشهد الأخلاقي)، الذي صدر سنة 2010، ليتبعه بمقاله من الطراز الطويل (أنْ تكذب) سنة 2012، لتتم سلسلة مؤلفاته مع كتاب (الإستيقاظ: دليل إلى الروحانية الخالية من التدين) (ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

مفرغة! وهكذا (حل) الدكتور هاريس مشكلة القيم بإعادة تعريف مصطلحاته فقط، وهذا مجرد تلاعب بالألفاظ)(1)

وبناء على هذا، فإن القول بأن الأخلاق وعدم الأخلاق يُحدد بالمنفعة أو الرفاه الاجتماعي أو باجتناب الألم والضرر، لا يُمكن أبداً أن يُعتبر معياراً حقيقياً لتمييز المسألة الأخلاقية من غيرها.

2 ـ عدم التفريق بين الأفعال الأخلاقية وغيرها

يحاول الملاحدة ــ تجنبا لأن يوصفوا بالاضطراب الفكري ـ الملاءمة بين الإلحاد والفلسفة المادية التي يؤمنون بها، ولذا تجدهم يعتمدون معايير مادية تنسجم مع هذه الفلسفة مثل المنفعة أو الرفاه، أو الألم والضرر؛ فهم يحاولون أن يصوروا كل المسائل بصورة مادية بحتة حتى مسألة الأخلاق والقيم.

وكل هذا غير صحيح، لأن القيم الأخلاقية لا يمكن أن تعتمد على المعايير المادية، أو كما عبر الشيخ مطهري بقوله: (والفرق بين الفعل الأخلاقي وسائر الأفعال هو أن الفعل الأخلاقي قابل للثناء والمدح، ويضفي الناس قيمة على مثل هذا الفعل، لكن هذه القيمة ليست من نوع القيمة التي يقيم بها عمل أحد العمال، وذلك لأن العامل يوجد قيمة مادية يستحق مبلغاً من المال أو شيئاً من السلع في مقابل عمله، بينما الفعل الأخلاقي يتميز بقيمة تفوق هذه القيم بحيث لا يمكن تقويمها بالمال ولا بالسلع المادية. فالجندي الذي يضحي بروحه من أجل الآخرين يقوم بفعل ذي قيمة، لكن هذه القيمة ليست من لون القيم المادية)(2)

لذلك لا يمكننا قياس القيم الأخلاقية بالمعايير الإلحادية (المادية)، لأنه يصعب عليها تفسيرها وتبريرها، وكلامنا هذا ليس عن الملحدين وإنما عن الفلسفة المادية الإلحادية، فهناك فرق

1) عبدالله الشهري. ص25، الطبعة الأولى 1437هـ، مركز دلائل، الرياض-المملكة العربية السعودية.

2) فلسفة الأخلاق للشيخ الشهيد مرتضى المطهري ص5-6، منشور ضمن كتاب سلوك وأخلاق الإسلام، الطبعة الأولى 1432هـ-2011م.

بين الأمرين كما وضحنا ذلك سابقا، وكما سنوضحه في الوجه التالي.

3 ـ عدم التفريق بين الفلسفة الأخلاقية والواقع الأخلاقي

من المغالطات التي يمارسها الملاحدة في هذا المجال هروبهم من فلسفة الأخلاق إلى واقع الأخلاق، وهذه مغالطة كبيرة، ذلك أن الواقع الأخلاقي قد يكون له مصادر أخرى غير الإلحاد؛ فلذلك لا يمكن اعتباره.

ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون الحوار مع الملاحدة حول الفلسفة الأخلاقية للدين، وليس عن الواقع الأخلاقي العملي للمتدينين، وهذا الخلط يقع فيه بعض الملاحدة فيركز مثلاً على سلوكيات الجماعات الدينية المتطرفة لإثبات بأن الأديان تخلو من فلسفة أخلاقية، ولإثبات بأنهم يعتمدون على النصوص الدينية لتبرير تصرفاتهم وممارساتهم، وهذا الأمر بالتأكيد مجانب للصواب، لأن الفلسفة الأخلاقية تختلف عن الواقع الأخلاقي سواءً عند المتدينين أو عند الملاحدة.

وهكذا؛ فإن الأخلاق في الواقع العملي عند المؤمنين لا تعني بالضرورة أنها تمثل الفلسفة الأخلاقية الدينية، وكذلك العكس، فالأخلاق في الواقع العملي عند الملحدين لا تعني بالضرورة بأنها نتاج الفلسفة الأخلاقية عندهم، ولذا فعندما نجد ملحدون وقفوا مع المظلومين ضد الظالمين بل وضحوا بأرواحهم في سبيل تحقيق العدالة، ونجد في المقابل أشخاصاً يدعون الإيمان بالله سبحانه ولكنهم يقفون مع الظالمين في سحق المظلومين، فلا نحيل ذلك مباشرة إلى الفلسفة الأخلاقية عند الطرفين، لأن هناك من الطرفين من يفعل عكس ذلك، وكشاهد على ذلك نجد أمثال جماعة داعش من المسلمين، وأمثال جوزيف ستالين من جانب الملحدين.

لذا فالسؤال المهم المتعلق بالمثال المتقدم هو: ما هي الفلسفة الأخلاقية للإلحاد التي تجعل الملحد يضحي بنفسه وهو لا

يؤمن بالحياة الأخروية ولا بالجزاء الأخروي؟ فالفلسفة الأخلاقية عند المتدين في حال تضحيته بنفسه في مناصرته للمظلومين واضحة ومعروفة وأما الملحدين فلا، إذ لا يوجد مبرر من الناحية الفلسفية يتوافق مع الفلسفة المادية التي يتبعونها.

وهذا ما جعل الدكتور جون لينكس(1) يبين بأن الملحد ليس بعاجز عن أن يكون خيراً ولكن الإلحاد لا يدعم أي أسس فكرية للأخلاق، لأن فرضية الإلحاد –كما يقول- ليس لديها تأسيس لمبادئ الخير والشر(2).

4 ـ اعتبارهم المنفعة والضرر معيارا أخلاقي

وهذا معيار لا يمكن قبوله، لأنه يتنافى مع الأخلاق، ذلك لأنه من الممكن تحقيق منفعة في أفعال غير أخلاقية، كما يمكن إلحاق الضرر في بعض الأفعال، ومع ذلك تكون أفعالاً أخلاقية، ومن الأمثلة على ذلك الكذب، إذ قد يترتب عليه منفعة رغم كونه غير أخلاقي، وكالتضحية بالنفس من أجل الآخرين، فهو بالتأكيد يؤدي إلى الضرر رغم كونه يُعد من الأفعال الأخلاقية، ولذلك نستطيع القول أن المعايير التي اتخذها الملاحدة للأخلاق غير

---

1) جون كارسون لينكس (بالإنجليزية: John Carson Lennox) عالم بريطاني في الرياضيات وفلسفة العلوم ومناظر مؤيد للمسيحية ويعمل كبرفسور في الرياضيات في جامعة أكسفورد.وهو عضو في زمالة في الرياضيات وفلسفة العلوم في كلية تمبلتون الخضراء، جامعة أكسفورد. وهو أيضا مستشار الرعوي في كلية تمبلتون الأخضر وقاعة يكليف، ومحاور وكاتب معروف في قضية العلاقة بين العلم والإيمان (ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

2) أقوى براهين د.جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، جمعه وعلق عليه م.أحمد حسن، ص509، الطبعة الأولى 1437هـ مركز دلائل الرياض- المملكة العربية السعودية.

صحيحة[1].

بالإضافة إلى ذلك، فإن تحقق الرفاه الاجتماعي وانتفاء الضرر والألم ليست من المسائل الأخلاقية أصلاً، وإنما هي تعبير عن صور الحياة السعيدة (بالمفهوم المادي)، وهناك فرق كبير بين الحياة الأخلاقية والحياة السعيدة.

وهذا ما ذكره [ويليام لان كريغ] رداً على [سام هاريس]، حيث قال: (ومقارنة الدكتور هاريس بين الحياة الحسنة والحياة السيئة ليست مقارنة أخلاقية بين الحياة الخيرة أخلاقياً والحياة الآثمة أخلاقياً، بل هي مقارنة بين الحياة السعيدة والحياة البائسة، وليس هناك أي سبب للمساواة بين (السرور والبؤس) و(الخير والشر)، وخصوصاً ضمن النظرة الإلحادية. وهكذا فلا يوجد مطلقاً أي سبب في الرؤية الإلحادية يدفع للاعتقاد بأن ازدهار الكائنات الواعية هو خير موضوعي)[2]

وعندما سئل الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي؛ فقيل له: (على أي فعل من أفعالنا الاختيارية يطلق (الخير) وما هو معيار خيريته؟)، أجاب بقوله: (إن العمل الذي له دور ايجابي في تحقيق كمال الإنسان، أي العمل الذي يسعى الإنسان بأدائه للوصول إلى مقصودة وغايته النهائية سيكون خيراً بسبب تأثيره في ضوء ذلك المطلوب بالذات والغاية النهائية، أي لكونه سبباً وواسطة للوصول الى الغاية النهائية والخير بالذات فهو خير بالواسطة ومطلوب بالغير اصطلاحاً ومنه ينتزع معنى (القيمة الأخلاقية)[3]

---

1) نلاحظ أن بعض الملاحدة يتكلمون عن الضرر والمنفعة ولكنهم لا يبينون إن كان مرادهم من كون الضرر أو تحقيق المنفعة مرهون بالأمور الفردية أو الجماعية أو إن كان القيمة لهذه المنفعة مادية أو معنوية، فهذا الأمر مهم ولا ينبغي التغافل عنه، كذلك لم يحددوا الحالة إذا كانت النتائج العلمية مختلفة أو إذا لم يستطع العلم التوصل إلى نتيجة تفضي لذلك.

2) الإلحاد بين قصورين، ص52.

وأضاف قائلاً: (ومما ذكر نستنتج أن (الخير) ليس ـ في ذاته ومطلقاً ـ معياراً للقيمة الأخلاقية، بل يكون أخلاقياً مع ملاحظة القيود المذكورة، كما أن (الشر) يكون أخلاقياً فيما لو أطلق على الفعل الاختياري، والفعل الذي له دور سلبي في تحقق كمال الإنسان يكون (شراً). فالشر أيضاً يكون بملاحظة هذه القيود مفهوماً أخلاقياً وذا قيمة أخلاقية سلبية وبكمة أخرى: اللاقيمة)(1)

5 ـ عدم التفريق بين المصلحة والمنفعة:

حيث يخلط الملاحدة بين المصلحة والمنفعة، وقد رد على هذا الخلط الشيخ مطهري بقوله: (وفي هذا المجال لا ينبغي أن يختلط علينا الأمر فهناك فرق كبير بين الكذب ذي المصلحة والكذب ذي المنفعة، وكثير من الناس يشتبه عليه أمرهما أو يتظاهر بذلك، والواقع أن الكذب ذا المصلحة يعني ذلك الكذب الذي انسلخ عن فلسفته واكتسب فلسفة الصدق، فالإنسان بهذا الكذب ينقد حقيقة ما، بخلاف الكذب ذي المنفعة وهو الكذب الذي يتورط فيه الإنسان من أجل الظفر بربح)(2)

ثم أعطى القانون العام للتفريق بينهما؛ فقال: (إذن لا ينبغي الخلط بين موضوع المصلحة وموضوع المنفعة. فالمصلحة تدور مدار الحقيقة، والمصلحة والحقيقة توأمان لا ينفصلان. والمصلحة تعني مراعاة الحقيقة وليس مراعاة الربح الشخصي فهذه هي المنفعة)(3)

---

3) الأخلاق في القرآن الكريم، محاضرات للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، ج1، ص57، تدوين وتحقيق: محمد حسين اسكندري، ترجمة الشيخ كاظم الصالحي، دار التعارف للمطبوعات لبنان، 1425هـ-2004م.

1) المصدر السابق، ج1، ص57-58.

2) فلسفة الأخلاق المطبوع ضمن كتاب سلوك وأخلاق الإسلام، ص44.

لذلك فإن تصوير تحقق المنفعة أو الرفاه مساوياً لتحقق المصلحة كما توحي بذلك بعض عبارات الملاحدة غير دقيق، بل غير صحيح، وبهذا يتضح بطلان الاعتماد عليها كمعيار للأخلاق.

6 ـ الدعوة إلى المفاصلة بين الأخلاق والدين:

حيث يُطالب الملاحدة بإثبات وجود معايير أخلاقية غير معتمدة على نصوص دينية، مع أنه لا حاجة إلى ذلك؛ فما الضير في أن تكون الأخلاق معتمدة على ضوابط مستلة من نصوص دينية، فالأخلاق لا تقاس بكونها معتمدة على نصوص أو لا، كما أن عدم الأخلاق أيضاً لا يُقاس بهذا الأمر، إذ لا ملازمة بين الأمرين.

وسبب ذلك هو عدم وجود تناقض في هذا الأمر، ذلك أن النصوص الدينية قد لا تتقاطع بالضرورة مع العقل والمنطق، ولذلك ما الحاجة لرفضها أو الاستغناء عنها؟

وتصوير الأمر على هذه الشاكلة مجازفة على حساب الواقع، فحتى القوانين الوضعية نجدها تعتمد على نصوص مدونة، ومع ذلك لم يقل أحد بأن هذه القوانين غير صحيحة لمجرد كونها معتمدة على نصوص مدونة، علماً بأن بعض القوانين في بعض الدول تتقاطع مع قوانين أخرى في دول أخرى.

ولذلك فإن مطالبة الأديان وأتباعها كالمسلمين بأن تكون لهم فلسفة أخلاقية لا تعتمد على النصوص الدينية شيء، وإنكار وجود هذه الفلسفة من الأساس شيء آخر، ولا يصح أبداً الخلط بين الأمرين.

بالإضافة إلى ذلك، فإن لدى المؤمنين بالدين الأصيل ضوابط عقلية ومنطقية مستقلة عن النصوص الدينية كما يُطالب الملاحدة بالضبط، فهذا هو مفاد مبدأ الحسن والقبح العقليين، ومعنى ذلك

---

(3) للمزيد حول علاقة الحسن والقبح العقليين بالأخلاق في الإسلام يمكن الرجوع إلى كتاب تزكية النفس، للسيد كاظم الحسيني الحائري، ص13 وما بعدها،دار الفقه للطباعة والنشر الطبعة الأولى 1422هـ.

بأن العقل يستقل بمعرفة الحسن والقبح بذاته، فهذه ركيزة أساسية في فلسفة الأخلاق الإسلامية، وهو مبدأ مستقل عن النصوص الدينية كما هو واضح، لذلك، فمن غير الصحيح تصوير اعتماد الأخلاق على نصوص دينية بأنه دليل على عدم وجود فلسفة أخلاقية حقيقية، وعلى من يدعي هذا الأمر أن يثبت ذلك.

7 ـ عجز العلم عن تحديد معايير للأخلاق:

فالملاحدة يزعمون أو يغالطون بأنهم ـ وبواسطة العلم وحده ـ يمكنهم اكتشاف المنظومة الأخلاقية والمعايير التي تحددها، بناء على كون العلم هو الذي يميز المنفعة من الضرر، لكن هذا غير ممكن في الواقع من نواح كثيرة، ذلك لأن الكون وما فيه، وفقاً للرؤية الإلحادية خاضع لقوانين حتمية كالتطور والانتخاب الطبيعي الذي يحتم مبدأ البقاء للأصلح.

وهذا المبدأ لا يمكن له أن يعرف الخير من الشر، كما عبر عن ذلك الدكتور [جون لينكس] بقوله: (كيف تستطيع في عالم مادي أن تفسر لي عدم السرقة والقتل إن كان فيهما مصلحة (أي منفعة)، وإذا أمنت العقاب (عدم الضرر) أو أن يكشف أمرك أحد؟.. كيف تفسر عدم غواية زوجة جارك أو أخيك أو صديقك واستغلال غيابه عنها إذا تأكدت من عدم الفضيحة؟.. كيف تفسر عدم خيانتك لزوجتك؟.. كيف تفسر أمانتك في العمل؟.. بل ما هو الدافع المادي لديك مثلاً للمخاطرة بنفسك لإنقاذ طفل يغرق؟.. هل يمكن (اختراع) أي فكرة مقنعة ساعتها للإجابة عن مثل هذه الأسئلة بالغاً ما بلغت من الخيال؟)[1]

ويقول: (من الصعب جداً أن نرى كيف للعملية التطورية غير الواعية أن تشرح لنا حالة الإيمان بالأخلاق ذات المكانة المتأصلة والشاملة في البشر والتي توجب علينا دعم الناس الذين –في طبيعة الأمور- مسؤولين عن إيقاف أو حتى تهديد (التقدم) التطوري كالضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة والمرضى والكبار

---

1) أقوى براهين د.جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، ص507-508.

في السن)[1]

ويقول د. عمـرو شـريف: (إذا كـان الدراونـة قـد عجـزوا عن تفسير نشأة التعاطف بين البشر، فلا شك أن تفسـير نشـأة خلـق الإيثار سيكون أصعب، فهو يعمل ضد هدف التطور الرئيسي، وهـو المحافظة على النوع، فعلى المستوى الفردي، مـا الـذي يـدفعني للتضحية بـذاتي من أجـل المجتمـع والجنس البشـري؟.. مـا الـذي يدفع جيناتي الأنانية للتضحية بذاتها؟.. وما الذي يدفع جينات كرات الدم البيضاء للتضحية بـذاتها في صـراعها ضـد الميكروبـات لـدفع المـرض عن الجسـد؟!.. وعلى المسـتوى الأكـبر، مـا الـذي يـدفع المجتمع للتضحية بموارده وجهد أفراده من أجل العناية بالضــعفاء والمرضى والمعوقين والمسنين؟.. أليس ذلك ضد البقاء للأصـلح؟ ألا يزيد ذلك من فرص بقاء الأقل صلاحية؟)[2]

ويقول: (يفرض الدراونة إننـا نفعـل ذلـك من أجـل أن يفعلـه معنا الآخرون عندما نمرض أو نهرم، بـالرغم من أن هـذا التفسـير مرفوض داروينياً؛ فـالتطور ليس لـه بصـيرة مسـتقبلية، ومن ثم لا يفرض علينا التزاماً أخلاقياً تجاه ضـعفائنا حـتى يسـاعدنا الآخـرون فيما بعد. إن التطور لا يعرف مثلنا الشعبي (من قدم السبت يلقى الحد (يوم الأحد) قدامه)[3]

لـذلك، فإنــه من المسـتحيل التوفيـق بين الفلسـفة الماديـة ونظرية التطور التي يؤمن بها الملاحدة وبين القيم الأخلاقية.

بالإضافة إلى ذلك كله؛ فإن العلم يخبرنا فقط عما يكـون، ولا يخبرنـا عمـا يجب أن يكـون، فالكائنـات البشـرية من وجهـة نظـر

1) المصدر السابق، ص532.

2) خرافة الإلحاد للدكتور عمـرو شـريف، ص 302، الطبعـة الأولى 1435هــ2014م مكتبــة الشــروق الدوليــة، القــاهرة-جمهوريــة مصرالعربية.

3) المصدر السابق، ص302.

المذهب الطبيعي مجرد حيوانات، وليس على الحيوانات أي واجب أخلاقي تجاه بعضها البعض، فعندما يقتـل الأسـد الحمـار الوحشـي فإنه يقتله فقط، ولا يرتكب جريمة قتل.

ولـذا لـو لم يكن الإلـه موجـوداً، فلمـاذا نعتقـد أن علينـا أي واجبات أخلاقية لفعل أي شيء كان؟ من أو ما الذي يفـرض علينـا هذه الإلزامات؟ من أين تأتي؟.

ومن وجهــة النظــر الإلحاديــة قــد لا تكــون بعض الأفعــال كالاغتصاب ونكاح المحارم مفيدة بيولوجياً أو اجتماعياً، ولكنهـا في سياق تطور الإنسان وتحضره أصبحت من المحرمات، أي أصبحت سلوكاً غير مقبول اجتماعياً، لكن ذلك لا يثبت أبداً أن تلك الأفعـال خطأ حقيقي، فمن وجهـة النظـر الإلحاديـة؛ فـإن المغتصـب الـذي اختـار خـرق أخلاقيـات القطيـع، لا يقـوم بفعـل أكـثر خطـراً من ممارسة شيء غير مألوف[1].

إذاً إحدى الأمور المهمة هي معرفة طبيعـة العلاقـة بين العلم أو عالم المعرفـة (مـا هـو كـائن) وبين الأخلاق أو عـالم القيم (مـا يجب أن يكون)، ومن المستحيل أن تخضـع القيم الأخلاقيـة للعلم، وفي ذلـك يقـول الـدكتور جـون لينكس: (فالمعرفـة هي وصـف للواقع بـ (يكون) والقيم هي مـا يجب أن يكـون أي (الحتميـة) من (يكون) وهذا مستحيل. فإن كان الأمـر صـواباً وأن ليس هنـاك من هدف في الكـون، وأن البشـر نتـاج الصـدفة المحضـة، فلا يمكنـك اشتقاق أي (يتحتم) من (يكون)[2]

بالإضافة إلى ذلك، فإن (الوجوب) في الأخلاق والقيم يقتضي (الاستطاعة)، فالشخص غير مسؤول أخلاقياً عن فعـل لا يسـتطيع اجتنابـه، فعلى سـبيل المثـال إن دفعـك أحـدهم من الخلـف نحـو شخص آخر فلن تكون مسؤولاً عن اصـطدامك بـه، إذ ليس لـديك خيار.

---

1) انظر: الإلحاد بين قصورين، ص26 وما بعدها.

2) انظر: الإلحاد بين قصورين، ص28 وما بعدها.

وهكذا لا يوجد أي أساس للواجبات الأخلاقية الموضوعية لأنه لا يوجد مشرع للقانون الأخلاقي، وليس هناك إمكانية لوجود الواجبات الأخلاقية الموضوعية بسبب غياب الإرادة الحرة.

وينقل الدكتور جون لينكس عن أينشتاين قوله: (إن إحساسنا بالجمال وغرائزنا الدينية ما هي إلا: أشكال مساعدة تدفع القدرة الاستنتاجية باتجاه أعظم الإنجازات. أنت محق في الكلام عن الأسس الأخلاقية للعلم، ولكن لا يمكنك عكس الأمر والكلام عن الأسس العلمية للأخلاق)

ويبين بعدها بأنه وفقاً لأينشتاين، فإنه لا يمكن للعلم أن يشكل أسساً للأخلاق، ويعقب موضحاً بقوله: (يمكن أن تساعدنا معرفة مقدار الألم الذي تحس به الحيوانات في صياغة الأحكام التي تخص القيام بالاختبارات الحيوانية، ولكن يبقى الحكم مقدراً على أساس اقتناع أخلاقي سابق بأن الألم والمعاناة أمر سيء. يمكن للعلم أن يخبرنا أن وضع مادة الستركنين السامة في شاي جدتك سيقتلها، ولكن لا يقدر العلم على إخبارنا إن كان يلزمك أو لا يلزمك فعل ذلك لكي تحصل على أملاكها)(1)

8 ـ عدم قدرة الإلحاد على وضع قوانين ثابتة:

بناء على كل ما سبق؛ فإن الإلحاد يعجز عن وضع أي منظومة قانونية متفق عليها، ولهذا قال بعض الخبراء في التشريع: (لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جوابا)(2)

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع، فهو عدم توصلهم الى أساس صحيح يمكن اقامة صريح التشريع عليه، ذلك أنهم يجدون أن القيم التي يحاولون جمعها في هيكل الدستور

(1) أقوى براهين د.جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، ص513.

(2) هذا النص وما بعده من النصوص مقتبس من: الإسلام يتحدى، ص155، وما بعدها.

يستحيل وضعها في ميزان واحد، ومثل رجل القانون في محاولتـه هـذه كمثـل الرجـل الـذي يـزن مجموعـة من الضـفادع بمجموعـة أخرى مماثلة؛ فكلما وضع مجموعة في كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبت الى الماء مرة أخرى.

ولـذلك بـاءت كـل الجهـود الـتي اسـتهدفت الحصـول على الدسـتور المثـالي بالفشـل الـذريع، والـذي عـبر عنـه الأسـتاذ (و. فريدمان) بقوله: (وإنها لحقيقة: أن الحضـارة الغربيـة لم تجـد حلا لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر، من نهاية الى أخرى)

وبنـاء على هـذا راح [جـون آسـتين] يـذكر أن الدسـتور أي دستور لايصبح نافذ المفعول إلا إذا كـانت تسـنده قـوة من ورائـه، ولـذلك عـرف (القـانون)، بأنـه (الحكم الـذي أصـدره رجـل رفيـع المنزلة سياسيا لمن هو أدنى منه في المرتبة السياسية)، وعرفـه آخر بأنه (مرسوم لصاحب السيادة)

وخالف المحدثون ذلك؛ فذكروا أن الشـعب بـدل الحـاكم هـو صاحب السـيادة، وهـو الـذي يضـع المعـايير الأخلاقيـة والقانوينـة، ولهذا أنكروا أي قانون أو دسـتور لايحـرز رضـا الجمـاهير؛ وتـرتب على ذلك أن ضوابط كثيرة، يجمع على صحتها وإفادتها جميع أهـل العلم ومعلمي الأخلاق لايمكن تنفيذها، لأن الشعب لايوافق عليها.

وكمثال على ذلك، وهو أن الأمريكيين لم يتمكنـوا من إدخـال مشروع قرار يحرم الخمر، لأن الشعب لم يرض عنه، كمـا اضـطر البريطانيون الى إدخـال تعـديلات هامـة في قـانون عقوبـة القتـل، واضـطروا الى اباحـة أنـواع محرمـة من العلاقـات الجنسـية، على الرغم من ضجيج المثقفين، واحتجاج علماء القانون.

بالإضـافة إلى هـذا، فقـد ظهـر مـا يطلـق عليـه (القـانون الطـبيعي) ومـؤداه أن الطبيعـة البشـرية هي المصـدر الحقيقي للتشريع، فالطبيعة ـ كما ينص أصحاب هذه النظرة من الملاحدة ـ (تطـالب أن يكـون حـق السـيطرة والحكومـة لمطالبهـا الطبيعيـة ودعائمها الرائدة، وقد أعطت الطبيعة هـذه الـدعائم للانسـان في صورة (العقل)، ولذلك لابد من اقامة حكومة بقوة العقل)

وقد فشل هؤلاء أيضا بسبب اختلاف العقول، وتناقضاتها الكثيرة، وقد البروفيسور [جورج وهيتكروس باتون] معبرا عن هذا: (ما (المصالح) التي لابد للدستور المثالي أن يحافظ عليها؟ انه سؤال يتعلق (بالقيم)، ويدخل في دائرة فلسفة التشريع، وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا؛ ولكن ما أقل ماهي مستعدة لبذله في هذه السبيل. فقد فشلنا في الكشف عن (ميزان للقيم) يمكن قبوله لدى جميع الأطراف، والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم الا للدين؛ ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان، ولايمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقي)

وقال البروفيسور (باتون): (إن جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن (الأهداف) في فلسفة التشريع قد انتهت الى غير ما نتيجة)

ثم يتساءل قائلا: (أهناك حقا(قيم مثالية) تحدد الأسس عند تطوير التشريعات؟ لم يتمكن المشرعون من التوصل الى هذه القيم حتى الآن، غير أنها لابد منها.. لقد استخرج أصحاب نظرية (القانون الطبيعي) القديمة أسسهم من الحقائق الالهامية في الدين. ولكن اذا ما أردنا نحن أن نأتي بتشريع علماني، فاين سنجد أساس القيم المتفق عليها؟)

وعبر عن هذه الحقيقة، وهي عجز البشر عن وضع معايير مثالية يمكنهم التحاكم إليها الدكتور [فرويدمان] بقوله: (يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لابد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقي للعدل. والأساس الذي يحمله الدين لاعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به في حقيته وبساطته)

9 ـ عدم قدرة الإلحاد على توفير دوافع للالتزام بالأخلاق:

وهذه أكبر مشكلة عويصة تواجه الإلحاد، فهو مع افتقاره لتحديد معايير مضبوطة ودقيقة للأخلاق، يفتقر ـ في حال حصوله عليها ـ على الدافعية للالتزام بها، ذلك أنه لا يوجد أي شيء يمكنه

أن يفرض على الملحد التزام الخلق الحسن الذي قد يستدعي منه تضحية وإيثارا وتفريطا في مصالحه.

ولهذا حاول الملاحدة أن يجدوا ذلك ببعض المغالطات اللفظية مثلما عبر بعضهم عن ذلك بقوله: (الملحد إنسان يخاف جداً على حياته من أن يخسرها لأن الموت هو النهاية، وإن الحياة هي الشيء الوحيد الذي لديه، فإنه سيحافظ عليها جيداً ويحرض على أن يعيشها على أفضل وجه؛ فإذا قتل أو سرق فإنه سيدخل السجن وسيضيع عمره مسجونا، ولذلك سيتجنب القتل والسرقة.. الملحد لن يكذب لكي لا يخسر ثقة الناس به، لأن الحياة ستكون صعبة جداً عندما يعيش منعزلا عن الجميع.. الملحد والملحدة ليس لديهم أي مانع من ممارسة الجنس برضى الطرفين لأنه لا يضر أحداً، فما علاقة الناس الآخرين بك عندما يكون برضى الطرفين؟.. الملحد ليس عنده أي مانع من شرب الكحول (الخمر) باعتدال لكي لا يفعل شيئا يخسره حياته.. الملحد شخص مخلص لمعتقداته بشكل كبير، فترى أغلب الملحدين يبحثون ويطالعون ويكتبون المقالات ويناقشون محاولين توعية الناس من خرافات وأوهام الأديان علماً بأن الملحد ليس له رب لكي يكافئه، بل يأمل بأن يرى الخير والسلام يغمر العالم كله في الأجيال التي بعده)

ثم لخص هذه الدوافع بقوله: (كخلاصة على ما سبق، فإن الإنسان الملحد لديه أخلاق عالية جداً أكثر من الشخص المؤمن والمتدين، فأهداف الملحدين عديدة، ولكن جميع هذه الأهداف إيجابية تصب في نفس الموضوع، وهو عيش الحياة بأفضل وجه لأنه لا يملك غيرها، مع المحاولة على مساعدة الآخرين للتحرر من وهم الأديان، ومحاولة أن يكون إنسانا جيدا بأخلاق عالية ليتذكره الناس بالحسن بعد أن يموت)

فهذا النص يبين الطريقة التي يفكر بها الملحد، والتي يحاول من خلالها أن يبني لنفسه منظومة أخلاقية، وسنناقش هذه الدوافع وما يرتبط بها في الوجوه التالية (1):

---

(1) استفدنا هذه المناقشات من مقال حول الموضوع بعنوان:

الوجه الأول: ذكره أن (الملحد يخاف على حياته لأنه لا يملك غيرها) مغالطة كبرى، فالمؤمن مع حرصه على جزاء الآخرة، يحرص على الدنيا أيضا، ذلك أنها في نظره مزرعة الآخرة، وأنها تكون جيدة بقدر ما كان عمله خيرا في هذه الحياة.

والفرق بين المؤمن والملحد في هذا هو أن المؤمن إن وجد هدفا أسمى وأبعد من مجرد مصلحته الشخصية؛ فهو مستعد للتضحية بحياته في سبيلها، بينما الملحد لا يملك مثل هذا الدافع.

والملاحدة هنا يستغلون بعض الأخطاء التي وقع فيها الدين المزيف، فهذه لا تمثل الدين، وإنما تمثله التضحيات النبيلة التي لا يشك أحد في عقلانيتها ومصلحتها.

الوجه الثاني: أن ما ذكره ذلك الملحد، وغيره من الملاحدة من قوله: (فإذا قتل أو سرق فإنه سيدخل السجن وسيضيع عمره مسجونا، ولذلك سيتجنب القتل والسرقة)، يدل على أنه لا توجد قيم تمنع الملحد من القيام بأعمال خاطئة إن أمن العقاب.. فهو يترك القتل والسرقة خوفا من العقاب الدنيوي، وهذا يعني أنه إن أمن العقاب لا يتورع من القيام بالجريمة، ولكن المؤمن لديه رادع إضافي، وهو خوفه من الله وعقابه.

وبناء على هذا، وعلى تصورات الملحد بأن القيم المادية ومصالحه الشخصية وحدها من يحدد له صوابية العمل وخطأه يقع في جرائم كثيرة كتلك الجرائم التي قام بها هتلر، الذي كان يعتمد على نظرية دارون أثناء قيامه بمحاولة تحسين النسل، فقام بإعدام ما يقارب الـ 60 إلى 70 معاقا في كل يوم، كل ذلك حتى ينقي المجتمع الألماني من العاهات والعيوب الجسدية.

وهو لم يفعل ذلك إلا بعد اعتقاده بأن إنسانية الإنسان لا قيمة لها وراء هذا الجسد المادي، وكان لديه المبرر العلمي المتمثل بنظرية دارون الشنيعة[1].

أخلاق الملحد وأهدافه في الحياة، وهو موجود في مدونات مختلفة، منها مدونة: المادية والإيمان بالله..

وربما يتصور البعض أن هذا الفكر ذهب مع النازية، وهذا غـير صحيح، فكل ملحد يمكن أن يتحـول في أي لحظـة إلى نـازي، لأن الفكر المادي الذي كان يفكر به هتلر هو نفسه الفكـر الـذي يفكـر به أي ملحد.

وكمثال على ذلك حركة [اليوجينكس]، وهي حركة تهدف إلى تنقية النسل البشري من كل ما من شـأنه إعاقـة تحسـن النسـل، وقد قامت قبل هتلر بحـوالي عشـرين سـنة، أي في عـام 1920، بتعقيم ما يزيد عن 50،000 شخص، بداعي أنهم لا يملكون درجـة عالية من الذكاء، لكي يمنعونهم من إنجاب أناس أيضـا لا يملكـون درجة عالية من الذكاء.. ولا تزال هذه الحركة نشطة في الولايـات المتحدة الأمريكية إلى الآن.

الوجه الثالث: اعتباره عدم وجود قانون يحكم الغرائز إلا ما يقره القانون المدني، والذي عبر عنـه بقولـه: (الملحـد والملحـدة ليس لديهم أي مانع من ممارسة الجنس برضـى الطـرفين لأنـه لا يضر أحداً)

وهذا الأمر ينطبق على كـل الفوضـى الجنسـية الـتي نشـرها الإلحاد باسم الحرية الشخصية، كزواج المثليين، هو أمـر شـاذ عن الطبيعة البشرية، ولا يرقى لأن يكون فعلا حيوانيا، ولكن مـع ذلـك أصبح هناك قانون يبيحه في بعض الدول.

بالإضـافة إلى ذلـك لا نجـد رادعـا للملحـد في الـزواج من محارمه، ما دامت بعض الحيوانات تمارسه، والإنسان عندهم ليس سوى حيوان.. فهل يرضى الملحد أن يتزوج ابنـه من ابنتـه مثلا؟.. وهل يرى أن هذا الأمر طبيعي؟

الوجـه الرابع: اعتبـاره لإخلاص الملحـد وأخلاقـه، وكونـه صـاحب مثاليـة عاليـة، تلاعب بالألفـاظ، ذلـك أن هـذا مثـل ادعـاء الأطفال: (بابا أقوى واحد في الدنيا!)، فمن يدعي مثل هـذا الأمـر ينفي عن نفسه صفة العلمية بشكل كبـير، فهـو قـد يأخـذ مثـالا أو مثالين من أصـدقائه الملاحـدة، ثم يعممهمـا على جميـع البشـرية،

---

1) انظر: من دارون حتى هتلر، لمؤلفه: رتشارد ولكارت..

وقد ذكرنا الفرق الكبير بين الفلسفة الأخلاقية والواقع الأخلاقي.

الوجه الخامس (1) : أن القانون لايستطيع أن يستقل بذاته في أي وقت من الأوقات، بل لابد له أن يقترن بالأخلاق، ذلـك أنـه لـو طـرحت قضـية أمـام القـانون، وتعمـد الفريقـان وشـهودهما الكذب، فلم يتبين الصدق أمام القاضي، فسوف يقضـي خلاف مـا يقتضيه العدل، ولن يتمكن القاضي من الحصول عليه مهما حاول.

ولذلك كان لابد من قانون آخر (وراء القانون)، يحرك الناس، ويحملهم على الإدلاء بالبيانات الصادقة للوصـول الى العـدل. وقـد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ، حتى أنها تلزم كل شــاهد (أن يقسم بالله أن يقول الحق) قبل الإدلاء بشـهاداته، وهـو دليـل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن خـوف الشـرطة والمحكمـة لايكفي لدرء الجرائم، وإنما لابـد أن يكـون هنـاك وازع في المجتمـع يمنـع النـــاس من ارتكـــاب الجـــرائم، لأن الرشـــاوي، والمحســـوبيات، وخدمات المحـامين البـارعين، وشـهود الـزور، كـل هـذه العوامـل تكفي لحماية المجرم من أي شرطة أو محكمة انسانية، والمجـرم لايرهب عقابا، أي عقاب، لو استطاع أن يفلت من أيدي القانون.

بينمــا الشــرع الالهي يســتوفي كــل هــذه الأمــور، فعقيــدة (الآخرة)، التي يحملهـا الشـرع الالهي، هي خـير وازع عن ارتكـاب الجرائم، وهي تكفي لتبقى إحساسـا بالجريمـة واللـوم يعتمـل في قرارة ضمير الانسان، لو أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضي.

وقــد أقيم في فنـاء محكمـة (ويســتون ســركيت) نصـب من حجر، يذكر النـاس، بشـاهد أدلى بشـاهدة زور في فنـاء الـدار، ثم قال: (وان كنت كاذبا، فليمتني الله، هنا، في الحال! ولم تكد هــذه العبـارة تخـرج من فم الشـاهد حـتى سـقط على سـاحة الأرض، ومات في الحال)، وهناك وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشــدة احساس أصحابها باللوم والذنب.

---

1) انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان، ص163 فما بعدها.

ثانيا ـ معايير الأخلاق عند المؤمن ودوافعها:

على خلاف ما رأينا من اضطراب عند الملاحدة في تحديد الأخلاق ومعايير ضبطها، نجد الأمر واضحا لدى المؤمن، ذلك أنه لا يستند في تحديد الأخلاق إلى الطبيعة العمياء الصماء البكماء، ولا إلى عقله القاصر المضطرب، ولا إلى بيئته المتلونة، وإنما يستند إلى مصدر ثابت لا يتلون ولا يتغير، وهو العالم بكل شيء، وهو الله تعالى..

وهنا يبادر الملحد إلى الضحك على مثل هذا التفكير، وطبعا نحن لن نجادله في ذلك، ولكنا ندعوه إلى النظر في النتيجة التي يخلص إليها المؤمن نتيجة هذا الإيمان، والنتيجة التي يخلص إليها الملحد، فالنتائج هي التي تحدد مدى صدق المقدمات.

وسنذكر هنا بعض النتائج التي يصل إليها المؤمن نتيجة هذا، لنرى مدى الفرق بينها وبين الرؤية الإلحادية[1]:

1 ـ شمولية النظرة الدينية للأخلاق:

لا شك بأن هناك مجموعة من الفضائل الأخلاقية التي يستقل العقل بإدراكها من دون الحاجة للدين كحسن الصدق وقبح الكذب، وكحسن العدل وقبح الظلم وفق مبدأ (الحسن والقبح العقليين)، لكن ليست كل القضايا الأخلاقية على هذه الشاكلة من الوضوح، فهناك بعض الأفعال التي يصعب، بل يستحيل على العقل أن يدرك قبحها، كالعلاقات الجنسية المثلية إذا تمت برضا الطرفين ومن دون مشكلة قانونية كما في بعض الدول التي

(1) انظر: الملحدون والمسألة الأخلاقية.. تحليل نقدي من خلال المقارنة بين الإلحاد والأديان، أ. سلمان عبد الأعلى، مجلة نصوص معاصرة، وقد حاولنا أن نلخص الكثير مما ذكره هنا، ومثله من كتاب: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان.

تسمح قوانينها بذلك[1]، ففي مثل هذه الأمور نجد أن الدين سوف يحسم الأمر بسهولة من خلال تحريمه لمثل هذه الأفعال القبيحــة، وإن سمحت بها بعض القوانين الوضعية وكان الطرفان راضيان.

وأمــا في الفكــر الإلحــادي فليس هنــاك أي مــانع أخلاقي من هــذه الممارســات إذا تمت برضــا الطــرفين ومن دون أي مشــكلة قانونية كما في بعض الــدول وفقــاً لمعيــار (المنفعــة الرفــاه /الألم الضرر). والغريب أن بعض الملاحدة يقول بأن هذه المسألة ينبغي أن يــترك البت فيهــا للعلم، وإذا أكــد لنــا وجــود الضــرر فهي غــير أخلاقية، وأما إذا لم يكن فيها أي ضرر فلا مشكلة فيهــا، كمــا ذهب بعضهم للقول بأن استقباح مثل هذه الممارسات ربما يكون نتيجة برمجة اعتاد عليها الإنسان، كأن يكــون قــد ربي على ذلــك، وليس نتيجة لأمر حقيقي موجود في طبيعتها ويكشف عن قبحها بالفعــل، ولذلك لا يمكن الاعتماد على النصوص الدينية في هذا الشأن.

وهذا الكلام يلاحظ عليه أنه أحال الأمر للعلم .رغم عدم صحة ذلــك كمــا عرفنــا في العنــوان الســابق ــ إلا أنــه كــذلك لم يحســم المسألة، لأنه في الكثــير من الحــالات تختلــف النتــائج العلميــة من بحث لآخر، فعلى فرض صحة كلامهم .وهو غير صحيح طبعاً ــ فمــا هو رأي الملاحدة في حال اختلفت النتائج العلمية حول هذا الأمر؟ وكيف ســيكون مــوقفهم إزاء هــذه الاختلافــات؟ وعلى أي أســاس سيتم الترجيح بين الآراء العلمية المختلفة؟!

وبناء على هذا، كانت القــوانين الوضــعية الــتي تحــاول ضــبط أخلاق المجتمــع ضــعيفة هزيلــة لا يمكنهــا الإحاطــة بــالكثير من الأخلاق السيئة، والتي تــؤدي إلى دمــار كبــير في المجتمــع، بخلاف فهي تنص مثلا [2] على أن الجريمــة هي (كــل عمــل يضــر بــالأمن

---

1) [27] راجع كتاب أفي الله شك؟ للشيخ الدكتور مرتضى فــرج، ص 123 ومــا بعــدها، الطبعــة الأولى 2013م، مؤسســة الإنتشــار العربي، بيروت-لبنان.

2) انظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ص162، وما بعدها.

العام، أو نظام الحكم القـائم)، والتشـريع الانسـاني لايجـد أساسـا غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة.

وقد دفع هذا الأساس القانون الجديـد الى إقـرار أن جريمـة (الزنا) ليست بجريمة، إلا إذا تمت جبرا أو إكراها لأحـد الطـرفين، فالجريمـة بهـذا الاعتبـار هي الجـبر والاكـراه الـذي سـبق (الزنـا)، وليس الزنا في حد ذاته.

مع أن جريمة (الزنا) تفشي فسادا كبـيرا في المجتمـع، فهي تخلق مشكلات الأطفال (غيرالشرعيين)، وتضعف روابـط الـزواج، وهي تصدر عن عقلية تفضل اللذات السطحية في الحياة، وتــربي عقلا خائنا، وتخلق السرقة واللصوص، وتروج الاغتيـالات والانتحـار والخطف؛ ومن ثم تفسد المجتمع كله، ولكن القانون ـ رغم ذلك ـ لايسـتطيع تحريمهـا، فهـو لايجـد أساسـا لتحـريم (الزنـا) الـذي تم بالرضا المتبادل.

ومثل ذلك الخمر الـتي لم يسـتطع القـانون أن يجرمهـا، لأنـه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للانسان، وهــو حر في اقتناء كـل مـا يريـد أن يأكلـه ويشـربه؛ وليس للقـانون أن يتدخل في حقوق الطبيعية، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذي يتبعه جريمة في الواقع، الا اذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين في هذه الحالة من السـكر؛ أو خـرج الى الشـارع وهـو سـكران؛ فالجريمـة ليسـت هي حالـة السـكر، بـل الاعتـداء على الآخرين في تلك الحالة.

مـع أن الخمـر تضـر بالصـحة، وتبـدد أمـوال النـاس، وتـؤدي بمدمنيها الى كوارث اقتصادية محققة، وتضعف الشـعور الأخلاقي، حـتى أن الانسـان يتحـول إلى حيـوان رويـدا رويـدا، والخمـر خـير مساعد للمجرمين، فهي تشل الإحساسات اللطيفة، حتى يستطيع الإنسان اقتراف أية جريمـة من السـرقة والقتـل، وهـدر العصـمة، لكن القانون الانساني رغم هـذه المعـايب الشـنيعة لن يتمكن من تحريم الخمر، لأنه لايجد جوابـا يسـوغ تدخلـه في حـق من حقـوق الانسان الطبيعية.

ولـذلك لن نجـد حلا لهـذه المشـكلة إلا في قـانون اللـه، لأن قانونه يبين رضا حـاكم الكـون؛ فـإن كـون أي قـانون قـانون اللـه يحمل معه أولوية تنفيذه، ولايحتاج بعد ذلك دليلا آخر.. وهكذا يسد القانون الإلهي فجوة عميقة، نتمكن بعدها من إحالة أي عمـل الى دائرة القانون.

2 ـ الله هو مصدر الأخلاق ومشرعها:

ولهذا لا يجد المؤمنون مشكلة في مصـدر الأخلاق، وهـل هي الطبيعة أو العقل أو البيئة أو الحاكم، بـل إن الأخلاق عنـدهم تعين وتحدد من طرف الخالق الذي آمنوا به؛ فهو أعلم بما يصلح لهم.

ولهذا يرى المؤمنون أن هناك ارتباطـا وثيقـا بين إثبـات القيم المطلقة ووجود الخالق المطلق سبحانه، فمعرفـة الخـالق تقودنـا إلى الأخلاق، وكذلك إثبـات وجـود الأخلاق والقيم المطلقـة يقودنـا حتماً إلى إثبات وجود الخالق المطلـق سـبحانه، بـل حـتى مسـألة الشر التي كثيراً ما يستدل بها الملاحدة لإنكار وجود الخـالق يمكن الاستدلال بها بشكل معاكس على إثبات وجوده سبحانه.

وهذا ما أشار إليه [ويليام لان كريغ] في مناظرتـه مـع [سـام هـريس]، حيث قـال: (لاحظـوا أن الشـر في الحقيقـة يثبت وجـود الــرب، لأن الــرب لــو لم يكن موجــوداً، فــإن القيم والواجبــات الأخلاقية الموضوعية لن تكـون موجـودة! وإذا وجـد الشـر، فـذلك يقتضي أن القيم والواجبات الأخلاقية موجودة، وبالتحديد لأن بعض الأشياء شريرة. إذاً فالشر يثبت وجود الرب فعلياً، لأنه بغير الــرب لن يوجد الشر والخير كما هما الآن)[1]

وإذا ثبت لدينا وجود الخالق المطلق فيجب علينا عبادته بغض النظر عن الأمور الأخرى كمسألة المثوبة والعقوبـة الأخرويـة، لأن الخالق سبحانه يُعبد لكونه مستحقاً للعبادة، وليس كمـا يظن بعض الملاحدة بأنه يُعبد فقط من أجل الدخول إلى الجنة واجتناب النار.

وفي ذلـك يتحـدث [ويليـام لان كريـغ] رداً على قـول [سـام

---

1) الإلحاد بين قصورين، ص68.

هريس] بأن هدف الإيمان بالله عند أصحاب الأديان هـو تجنب نـار جهنم، حيث يقول: (وبكل أمانة إن هذا يبين ببساطة الفهم القاصر عنـد سـام هـاريس للمسـيحية (وللأديـان عمومـاً).. أنت لا تـؤمن بوجود الرب لمجرد تجنب دخول الجحيم، فالإيمان بالله ليس نوعاً من التأمين ضد الحريق. أنت تؤمن بالرب لأن الرب، بكونه الخـير المطلق، هو الخليق بالتعبد والمحبة فهو الخير نفسه، الذي يطلب لذاته لا لشيء آخـر. وهكـذا فتحقيـق وجـود الإنسـان سـيوجد في العلاقـة مـع الـرب. واللـه حقيـق بالعبـادة بسـبب كينونتـه وقيمتـه الأخلاقية. ولا يتعلق الأمر بتاتاً باجتنـاب النـار، ولا بتعزيـز رفاهيتـك الخاصة)(1)

وحول مهاجمة الملاحـدة للأديـان لكونهـا تؤسـس لسـلوكيات غير أخلاقية بحسب زعمهم، يقول ويليام لان كريـغ رداً على سـام هريس: (لاحظوا أن د.هاريس ليس لديه أساس أخلاقي ليقول بأن المعتقـدات المسـيحية (الدينيـة) بغيضـة أخلاقيـاً، لأنـه يفتقـد إلى الأساس الذي يبني عليه حكمه هذا. لو كـان الإلحـاد صـحيحاً، فمـا هو الأساس الموضوعي للجزم بأن نظرة ما بغيضة وأخرى ليسـت كذلك؟ لأنه لا يوجد ببساط أي أساس لأحكام كهذه)(2)

وقد تناول الشيخ الشهيد مرتضى المطهري مسـألة الارتبـاط بين الأخلاق ووجود الخالق في كتابـه فلسـفة الأخلاق تحت عنـوان (معرفة الله هي أساس الأخلاق) بقوله: (يقـول البعض أن للأخلاق أساساً ومرتكزاً، فكما أن (أول الدين معرفته) حيث تشكل معرفة الله سـبحانه الحجـر الأساسـي للـدين، فكـذا معرفـة اللـه تشـكل الحجـر الأساسـي للإنسـانية، ولا معـنى للإنسـانية ولا للأخلاق من دون معرفة الله تعالى. أي لا معنى لأي شيء معنوي إذا لم يرتبط برأس المعنويات ومنبعها)(3).

---

1) المصدر السابق، ص66.

2) المصدر السابق، ص69.

3) فلسفة الأخلاق المطبوع ضـمن كتـاب سـلوك وأخلاق الإسـلام،

ويقـول تحت عنـوان (ذات اللـه تعـالى هي أسـاس الفضـائل الخلقية): (على أساس أي منطق يمكننا أن نبني الأخلاق؟. أيمكننا أن نجد للأخلاق منطقاً استدلالياً بعيداً عن طريق معرفة الله؟.كلا، إن الخلفية والرصيد لجميـع هـذه المفـاهيم هي معرفـة اللـه. وإن فقد الإيمان أصبحت الأخلاق كقطعة نقود لا رصـيد لهـا. قـد يكـون البعض غير ملتفت إلى هذا الأمر ولكنه لا يكون مبنياً على أســاس محكم.)[1]

ويبين الشهيد المطهري ذلك بذكر شاهد على كلامه بذكر مــا فعله الفرنسيون، حيث أنهم أول من نشر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكن لم يكن لهـذا الإعلان أي أثـر في حـرب الاسـتعمار الفرنسي على شعب الجزائر[2].

وعندما نقارن الرؤية الإيمانيـة لمصـدر الأخلاق بنفس الرؤيـة عند الملاحدة، نجد الفرق الكبير بينهما؛ ذلك أننا لو أننا خولنـا هـذا الامتيـاز للإدارة الحاكمـة ــ كمـا تنص بعض النظريـات الإلحاديـة ـ فليس في ذلك أي أساس نظري وعلمي يجيز لها ذلك الامتياز، ثم ان هذا التحويل من ناحية أخـرى لايجـدي نفعـا؛ فـإن اطلاق أيـدي الحكـام ليصـدروا أي شـيء لتنفيـذه بوسـيلة القـوة أمـر لاتطيقـه ولاتحتمله الجماهير.

ولو أن هذا الأمر خول لرجال المجتمع ـ كمـا تقـول نظريـات أخرى ـ فإننا نجدهم أكثر جهالة وحمقا، لأن المجتمع ـ أي مجتمع ـ اذا نظرنا اليه ككل، لايتمتـع بـالعلم والعقـل والتجربـة، وهي أمـور لابد منها عند التشـريع، فهـذا العمـل يتطلب مهـارة فائقـة وعلمـا وخبرة، وهو مالاتستطيع العامة من الجماهير الحصـول عليـه؛ كمـا أنهــا، وان أرادت، لن تجــد الــوقت الكــافي لدراســة المشــكلات المختلفة وفهمها.

ص154.

1) المصدر السابق، ص159.

2) راجع المصدر السابق، ص159.

وللخروج من هذه المشكلة توصل بعضهم الى حل وسط، وهو أن يقوم البالغون من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم، وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات المرتبطة بهذا باسم الشعب، ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط، حين نجد أن حزبا سياسيا لايتمتع الا بأغلبية51 بالمائة من مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقلية، الذي يمثل 49 بالمائة من أفراد المجتمع البالغين.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل إن هذا الحل يحتوي على فراغ كبير جدا تنفذ منه (أقلية) لتحكم على أغلبية السكان.

وبناء على هذا كله، فإن الدين وحده من يستجيب لهذا التحدي الخطير، الذي قد يدمر سعادة البشرية كلها، لأنه يرى أن مصدر التشريع هو (الله) وحده، خالق الأرض والكون؛ فالذي أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذي يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته، وليس هناك من أحد غيره سبحانه، يمكن تحويله هذا الحق.

3 ـ وجود فلسفة واضحة للأخلاق:

بخلاف الإلحاد كما ذكرنا ذلك سابقا، وذلك لأنها تعتمد على الدين، في حين نجد بعض الفلسفات الأخرى تبدأ في تنظيرها -بل وتعتمد- على ما هو الموجود في الواقع، وهذا اختلاف جوهري كبير جداً، فشتان بين فلسفة تدعي بأنها تعتمد على الواقع وفلسفة تستقي من الوحي، وإن كانت تراعي مصلحة الواقع أيضاً.

ومن الطبيعي أن تكون المسألة الأخلاقية لدى الأديان معتمدة على تعاليم السماء، بل من غير المنطقي أساساً أن تكون الفلسفة الأخلاقية عند المسلمين غير مستلهمة من الأصول والمبادئ الدينية، إذ أن هذا لا يتصور أصلاً، لأن الأخلاق لها مدخلية في ضبط سلوك الإنسان في علاقاته بنفسه وبغيره، وهذا موضوع أخلاقي وديني بامتياز، إذ لا بد أن يكون هذا الأمر مبني على ما يؤكد عليه الدين بناءً على الفلسفة الأخلاقية التي يمتلكها، علماً

بأنه لا يوجد أصلاً ما يؤكد وجود تقاطع كلي بين الدين والفلسفة الأخلاقية كما ألمحنا لذلك سابقاً.

لذلك يمكننا القول بأن للدين فلسفة أخلاقية. نعم، هذه الفلسفة لها خصوصياتها، فهي تختلف عن الفلسفات الأخرى، ولكن هذا لا يجعلنا ننكر ذلك من أساسه، علماً بأن الفلسفة الأخلاقية تختلف بين الأديان أيضاً، فالفلسفة الأخلاقية عند الديانة الإسلامية مثلاً تختلف عن الفلسفة الأخلاقية عند الديانة المسيحية(1)، فلكل منهما بعض الخصوصيات التي تميزها عن غيرها.

والغريب أن بعض الملاحدة ينكر وجود فلسفة أخلاقية للدين، ويُطالب بذكر مصادر كتبت في هذا المجال، ويبدو بأنه غير مطلع على هذا الأمر ومع ذلك ينفيه بضرس قاطع، وهنا تكمن المشكلة، فهو بهذا ينطلق من الجهل لإنكار وجود المسألة الأخلاقية، وشأنه في هذه المسألة كشأنه في مسألة إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى، حيث أنه ينكر وجوده سبحانه وتعالى فقط لعدم تمكنه من الوصول إلى ذلك من خلال معطيات العلم التجريبي !!

وثمة عدة أمور يمكن عدها كمبادئ موضوعية للأخلاق الإسلامية وهي كالتالي(2):

1. حرية الاختيار: أن الإنسان موجود مختار، لأنه إذا كان مجبراً في أعماله، وافتقد إرادته في تقرير مصيره فإن الأمر والنهي المتوجهين إليه سوف يفقدان محتواهما، والالتفات إلى ذلك ذو أهمية بالغةً تربوياً، فإن ظهور لون من الجبر في الإنسان

---

1) لمعرفة المزيد راجع كتاب فلسفة الأخلاق للشهيد المطهري المطبوع ضمن كتاب سلوك وأخلاق الإسلام، ص17 وما بعدها.

2) ما سوف أورده مأخوذ بكامله من كتاب الأخلاق في القرآن الكريم، للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، ولكن باختصار وبتصرف، ولقراءة البحث كاملاً يمكن مراجعة الكتاب ج1، ص17 وما بعدها، طباعة دارة التعارف للمطبوعات، 1425هـ -2004م.

واعتقاده بعدم الاختيار في أعماله، ورضوخه للمؤثرات الخارجية سوف يثبط عزيمته ويجرده من الشعور بالمسؤولية.

2. الغاية النهائية: إذا كان الإنسان مختاراً فهو ينتخب غايةً ثم يباشر أفعاله الاختيارية بغية الوصول إليها، فهناك عدة غايات نقصدها عند انجاز أعمالنا، وبما أن التسلسل في الغايات أمر غير ممكن، فإنا نلاحظ غايةً نهائية لتلك الأعمال، وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق يقعان في إطار الأعمال الاختيارية للإنسان، وتنجز بقصد الوصول إلى الغاية والمطلوب النهائي.

3. لابد من السعي للوصول إلى الغاية: على الإنسان أن يعلم بأن لمساعيه دوراً في الوصول إلى غاياته ومقصوده، وأن نتائجها تعود عليه، وذلك لكي يبادر بشوق الى النشاط والسعي. فالإنسان إذا كان له مقصود نهائي ثم ظن أن أعماله ومساعيه لا تأثير لها، أو أن نتائجها تعود الى الغير ولا تقربه من المقصود والغاية النهائية ضعف دافعه للعمل والسعي، فلا يتعب نفسه للوصول اليه. من هنا كان من الضروري الاعتقاد بتأثير أعمال وسلوك الإنسان على مصيره، وذلك لحثه على التحرك والسعي في طريق الأهداف الأخلاقية السامية، وليعلم أن كل حركة أو عمل يقوم به باختياره ستعود نتيجته وما يترتب عليه من نفع أو ضرر على نفسه حتماً(1).

4 ـ توفير الإيمان لجميع دوافع الالتزام بالأخلاق:

من خلال مقارنتنا بين الدوافع الأخلاقية التي يجدها المؤمن مع تلك التي يجدها الملحد نجد الفرق الكبير بينهما، وكأننا نتحدث عن عوالم مختلفة تماما.

فالمؤمن يمارس الأخلاق بكل تلقائية وفرح وسعادة، حتى لو كان فيها الكثير من التضحية والإيثار وتلك المعاني السامية التي لا يستطيع الملحد أبدا تفسيرها، ذلك لأن تصوراته لحقائق الوجود

1) ولمعرفة المزيد عن اختلاف النظام الأخلاقي في الإسلام مع النظم الأخرى يمكن مراجعة المصدر السابق، ج1، ص89 وما بعدها.

والنظام الذي يحكمه يختلف تماما عن تلك التصورات العبثية التي يحملها الملحد.

ومن خلال استقراء النصوص المقدسة للأديان، وخصوصا الإسلام منها، نجد دافعين كبيرين للتحق بالأخلاق الحسنة: أولهما يرتبط بذات الخلق ودوره في تحقيق الكمال الإنساني، وهوما يحاول الملحد أن يتشبه بالمؤمن فيه، والثاني هو الاستفادة من ذلك الكمال الإنساني الذي وفرته الأخلاق في تحصيل السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، وهو ما يفتقر إليه الملحد بسبب إنكاره للحياة الأخرى، وإنكاره لقيم كثيرة تحكم الحياة الدنيا.

وسنشرح كلا المعنيين فيما يلي:

أ ـ التحقق بالكمال الإنساني:

فالمؤمن يؤمن من خلال ما تذكره له المصادر المقدسة، أنه يمكنه من خلال المجاهدات والرياضات تقويم سلوكه، وتربية نفسه، والسمو بروحه، حتى يتحقق بما يطيقه من كمال، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

وذكر تعالى بعض تلك الأخلاق، وصعوبتها، مع تأثيرها الشديد في السمو الإنساني، فقال: ﴿لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)﴾ [فصلت: 34، 35]

ولكون الأخلاق هي المقياس الذي يقاس به الكمال الإنساني، فقد أخبر الله تعالى أن رسول الله ﷺ قد تحقق بالدرجة العليا من ذلك المقياس، كما قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)

ولهذا ــ أيضا ــ وردت النصوص الكثيرة تخبر بأن أرفع المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، قال ﷺ:(خياركم أحاسنكم أخلاقا)

[1]، وقـال ﷺ:(إن من أكمـل المؤمـنين إيمانـا أحسـنهم خلقـا، وخياركم خياركم لنسائهم)[2]

بـل ورد مـا هـو أعظم من ذلـك، وهـو أن درجـة القـرب من رسـول اللـه ﷺ بقـدر حسـن الخلـق، قـال ﷺ:(إن من أحبكم إلي وأقـربكم مـني مجلسـا يـوم القيامـة أحاسـنكم أخلاقـا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مـني يـوم القيامـة الثرثـارون والمتشـدقون والمتفيقهـون) قـالوا:(يـا رسـول اللـه قـد علمنـا الثرثـارون والمتشدقون فما المتفيهقون) قال:(المتكبرون)[3]

ولذلك، فإن الـدرجات العليـا والأجـور العظيمـة لا يحوزهـا إلا من حسن خلقه، فقال ﷺ:(ما من شيء أثقل في مـيزان المـؤمن يوم القيامـة من حسـن الخلـق، وإن اللـه تعـالى ليبغض الفـاحش البـذيء)[4]، وقـال ﷺ:(أنـا زعيم بـبيت في ربض الجنـة لمن تـرك المراء وإن كان محقا، وبـبيت في وسـط الجنـة لمن تـرك الكـذب وإن كـان مازحـا، ويـبيت في أعلى الجنـة لمن حسـن خلقـه)[5]، فجعل الـبيت العلـوي جـزاء لأعلى المقامـات الثلاثـة، وهي حسـن الخلق والأوسط لأوسطها وهو تـرك الكـذب، والأدنى لأدناهـا وهـو ترك المماراة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشـتمل على هذا كله.

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقـال:(تقـوى اللـه وحسن الخلـق)، وسئل ﷺ عن أكثر مـا يـدخل النـاس النـار فقـال:

---

1) رواه أحمد .

2) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

3) رواه الترمذي.

4) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

5) رواه الطبراني، وإسناده صحيح.

(الفم والفرج)(1)

بل أخبر ﷺ أن (المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)(2)

ب ـ الاستفادة من الجزاء الدنيوي والأخروي:

وإليه الإشارة بالآيات الكثيرة التي تدعو رسول الله ﷺ أن يبشر المؤمنين بما أعد الله تعالى لهم من فضل جزاء على أعمالهم الصالحة، كما قال تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:25)

ففي هذه الآية الكريمة تبشير لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح بهذا الجزاء العظيم الذي سيلقونه عند الله تعالى.

وقد يرد التبشير بجزاء الله وفضله على أعمال خاصة، تحتاج إلى محفز عظيم، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:155)

فالله تعالى جمع في الآية الكريمة بين الإخبار على ما يعد للمؤمنين من صنوف الاختبار وما أعد لهم بجنبه ـ إن نجحوا ــ من صنوف الجوائز ليكون الجزاء حافزا للعمل ومثبتا عليه وداعيا إليه.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:223)، فالتبشير منصرف في الآية للمؤمنين الذين تحققوا بتقوى الله.

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

---

1) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

2) رواه أبو داود.

وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:111)، فقد اعتبر الله تعالى ما يقدمه المؤمنون من بذل لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله بضاعة لتجارة رابحة يبشرهم الله بوفور ربحها في الدنيا قبل الآخرة.

ومثل ذلك ختم الله تعالى صفات عباده الصالحين بدعوة رسول الله ﷺ إلى تبشيرهم، قال تعالى: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة:112)

ولذلك اعتبر الله تعالى التبشير من وظائف الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، فقال عن رسول الله ﷺ: أكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس:2)

وقال عن موسى عليه السلام: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس:87)

والسر في اعتبار التبشير بما أعد الله لعباده من جزاء على أعمالهم الصالحة حافزا من حوافز العمل وأسلوبا من أساليب التربية هو ما ينشره التبشير في النفس من انشراح وفرح يمتلئ القلب به طمأنينة والجوارح نشاطا، قال تعالى في بيان تأثير التبشير في النفس: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (آل عمران: 126)، وقال تعالى: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (لأنفال:10)

ولهذا كان التبشير بما أعد الله للمؤمنين من جزاء هو الجوائز الوحيدة التي يقدمها رسول الله ﷺ لمن اختار سبيله ونصرة دعوته والوقوف أمام جميع الأعاصير التي تتربص به.

وقد كانت سلوى آل ياسر لمواجهة ما أعد لهم الطواغيت

من عذاب هو ما قاله ﷺ لهم، وقد رأى عظيم ما يعانونه:(صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة)

وفي معركــة بــدر، حين اشــتدّ البلاء على المســلمين، ورأى الرسول ﷺ ضعف أصحابه وقلة عـددهم وضـعف عتـادهم، لم يكن له من الجوائز غير أن قال لهم:(قوموا إلى جنة عرضها السـموات والأرض، والـذي نفس محمـد بيـده لا يقـاتلهم اليـوم رجـل فيقتـل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة)

يمكن اعتبـار [معضـلة الشـر] أو [مشـكلة الشـر] من أكـثر الشبهات الإلحادية تداولا منذ القـديم، وإلى عصـرنا الحاضـر، فهي موجـودة في كـل كتب الإلحـاد، سـواء كـانت ذات طـابع علمي أو فلسـفي أو أدبي.. وحـتى في المحافـل الإلحاديـة نجـدهم يعـبرون عنها بصيغ مختلفة.

وهم يتصورون أنها البرهان الأكبر، والـدليل الأعظم على نفي وجود الله.. فقد اعتبرها الشاعر الألمـاني الملحـد (جـورج بوخـنر) بأنها [صخرة الإلحاد]

وقـال [رونالـد نـاش] معـبرا عن أهميـة المعضـلة في الفكـر الإلحادي: (الاعتراضات على الإيمان بالله تظهر وتختفي.. لكن كـل الفلاسفة الذين أعرفهم، يؤمنون أن أهم تحـد جـاد للإيمـان باللـه، كان في الماضي، وكائن في الحاضر، وسيبقى في المستقبل، هـو مشكلة الشر)[1]

وذكـر [مايكـل روس]، أشـهر فلاسـفة العلـوم المنـافحين بشراسة عن الداروينية، في بعض مناظراته أنه (لا يرفض الإيمـان بوجود الله إلا لسبب واحد، وهو مشكلة الشر)[2]

أما كاهن الإلحاد الجديد الأكبر (ريتشـارد دوكـنز)، فقـد اعتـبر هذه المشكلة من أدلته الكبرى على الإلحاد، فقال في كتابه [وهم الإلـه]: (لا بـد من المسـير إلى قـول بسـيط وسـهل وهـو الإقـرار بوجود الشر، ورد وجود الله)

وهكذا نرى الفيلسوف الأمريكي (مايكل تولي) في مناظرتـه مـع (ويليـام لين كريـغ) (2010م)، اكتفى ــ تقريبـا ــ باسـتعراض مشكلة الشر لإنكـار وجـود الخـالق، مصـرحا أن الحجـة المركزيـة

1() Ronald H. Nash, Faith and Reason (Grand Rapids, MI: Zondervan, 1988), p.177..

2() Randy Alcorn, If God Is Good: Faith in the Midst of Suffering and Evil (Colorado Springs, Colo.: Multnomah Books, 2009), p.11..

للإلحاد هي حجة الشر، وهو ما فعله أيضا الفيلسوف البريطاني الملحد (ستيفن لاو)، في مناظرته مع كريغ (2011م)

ومثله الفيلسوف (مايكل مارتن)، فقد قسم في كتابه [الإلحاد: تبرير فلسفي] الذي نشره عام (1990م)، وهو من أقوى المؤلفات في هذا الباب،الطروحات الإلحادية إلى قسم، قسم خصصه للردّ على ما يستدلّ به المؤلّهة، وقسم كامل خصصه لحجيّة وجود الشرّ، والإستدلال به على نفي وجود الخالق.

ومع الاهتمام بهذه المعضلة في الفكر الإلحادي في جميع فترات التاريخ إلا أنها لاقت استحسانا كبيرا منذ عصر النهضة الأوروبية إلى اليوم لأسباب كثيرة أهمها الاهتمام الزائد بالحياة ومرافقها والانشغال بها عن البحث عن الحقائق الكوينة..

أو ما عبر عنه بعضهم عند وصفه لعصر التنوير بكونه العصر الذي انتقل فيه الإنسان من السؤال [لماذا نعيش؟] إلى سؤال [كيف نعيش؟]، واحتلّت فيه [وسائل الحياة] مكان [أغراض الحياة]، لتصبح الأرض هي منتهى بصر الإنسان، ونهاية طموحاته.

وقد عبر عن هذه الخاصية في الفكر الإنساني الحديث، والغربي خصوصا [س. إس. لويس] بقوله: (المشكلة الجوهريّة للحياة الإنسانية عند الحكماء في القدم هي التوفيق بين الروح والحقيقة الموضوعية، وكان الحلّ متمثّلًا في الحكمة، وترويض النفس، والفضيلة، أمّا العقل الحديث فيرى أنّ المشكلة الجوهرية هي إخضاع الحقيقة لرغائب الإنسان)[1]

وعبر عنها عالم الأعصاب والمحلّل النفسي النمساوي [فكتور فرنكل] بقوله: (للكثير من الناس اليوم وسائل للحياة، غير أنهم يفتقدون معنى يعيشون لأجله)[2]

وذكر أن الإنسان الأمريكي المترف، والذي لا يمثّل من مجموع سكان الأرض غير 5 بالمائة يستهلك 50 بالمائة مما

1 () C. S. Lewis, The Abolition of Man (HarperCollins e-Books, 2014), p.77..

2 () Frankl , The Unheard Cry for Meaning (New York: Simon & Schuster, 1978), pp. 20-21..

يستهلكه البشر جميعًا من الأدويّة، لكنّه لم يفلح مع ذلك في التعامل مع الألم الذي صار مصدر ذعر وهدم لحياته، وأدّى به إلى إدمان الخمر والمخدرات للهروب من واقع الألم الموجود أو المحتمل.

وعبر عنه الدكتور [بول براند] ــ وهو جراح تقويم الأعضاء لمرضى الجذام، والذي أمضى نصف تاريخه العلمي الأول، في الهند، ونصفه الثاني في الولايات المتحدة الأمريكية ـ بقوله: (لقد واجهت في الولايات المتحدة مجتمعًا يبحث بكلّ ثمن عن تفادي الألم.. لقد كان المرضى يعيشون في درجة رفاه أعلى من كل من سبق لي معالجتهم، لكنّهم كانوا أدنى استعدادًا بمراحل لتحمّل الألم، وأبلغ تأثرًا به)[1]

ومن التقريرات التي صيغت بها معضلة الشر قول أحدهم: (هل يريد الله أن يمنع الشر، لكنه لا يقدر؟ حينئذ هو ليس كلّي القدرة!.. هل يقدر لكنه لا يريد؟ حينئذ هو شرير!.. هل يقدر ويريد؟.. فمن أين يأتي الشر إذن؟.. هل هو لا يقدر ولا يريد؟ فلماذا نطلق عليه الله إذن؟)

ومنها قول بعضهم: (كيف يسكت الله عن كل هذه الانتهاكات في حق الأطفال كل يوم؟ كيف يرضى الله عن كل هذا الشر، وكل هذا الدم؟ لماذا يخلق أطفالًا مُشوّهين إذا كان قادرًا على خلقهم في صورة سويّة؟.. هل الإله عاجز، فهو لا يستطيع أن يوقف كل هذا السوء والشر في العالم؟.. أم أنه شرير، فهو يتغنّى بصراخ الأطفال، ويتلذذ بإهراق الدماء، ويستمتع بقتل العزل والأبرياء؟)

ومنها ما عبر عنه استبيان جرى في أمريكا، وكان السؤال فيه: (لو أتيح لك أن تسأل الله سؤالًا واحدًا تعلم أنّه سيجيبك عنه، ماذا سيكون هذا السؤال؟)، وكانت الإجابة الأكبر نسبة هي: (لماذا

---

1 () Paul Brand and Philip Yancey, The Gift of Pain: Why we hurt and what we can do about it (Grand Rapids, MI: Zondervan/HarperCollins, 1997), p12

هناك ألم ومعاناة في هذا العالم؟)[1]

انطلاقا من هذا سنذكر هنا وجوها للإجابة يمكن استعمالها جميعا، أو استعمال بعضها فقط، بحسب الحاجة إلى ذلك، لأن بعضها يدخل ضمن الإلزام الجدلي، ولا يدل في البراهين الحقيقية..

ولمن يريد التفصيل في علاج هذه المشكلة والتخصص فيها يمكنه أن يبحث فيها من خلال كتب الفلسفة وعلم الكلام وعلم الأخلاق وغيرها[2]، حيث نجد فيها جميعا مباحث تتعلق بأصل الشر، وكيف ينشأ ؟ ومن المسؤول عنه؟.. وفي طبيعة الشر، وحقيقة وجوده؟.. وكيف يوجد؟.. وفي مشكلة الشر.. وكيف يشكّل الشر مشكلة لاهوتية متعلّقة بوجود الله وصفاته؟.. وبسبب الشر، ولماذا يسمح الله بوجوده.. وهل هناك سبب أخلاقي ومعقول لذلك؟؟ وبنهاية الشر.. وكيف سينهي الله الشر، أو كيف سيستخرج في ختام الأمر من الشر خيرًا؟

ونحب أن ننبه إلى أننا اعتمدنا في هذه الإجابات التي نذكرها، بل في هذا الموضوع جميعا على كتاب متخصص جامع للمسألة من كل أبوابها، وهو دراسة علمية جادة ومحترمة بعنوان [مشكلة الشر ووجود الله: الرد على أبرز شبهات الملاحدة][3]، فقد استفدنا من المعلومات والتحليلات والاقتباسات الواردة فيه، لكنا أعدنا صياغته، وبسطنا الكثير من القضايا المطروحة فيه،

1()Lee Strobel, The Case for Faith (Michigan: Zondervan, 2000, EPub Format, 2000).

2() لأهمية هذه المعضلة في الفكر الإلحادي، فقد ألفت فيها الكثير من المؤلفات، وقد نشر (باري وتني) دراسة ببليوغرافية عن المؤلفات الفلسفية واللاهوتية التي نشرت عن مشكلة الشر في ثلاثة عقود فقط، من (1960-1990)، فإذا هي تبلغ 4200 دراسة

3() تأليف د. سامي عامري، ونشر مركز تكوين للدراسات والأبحاث، عام 2016.

بالإضافة إلى حذفنا لكل ما فيه من أمور طائفية تتعلق بانتصاره لجهة من جهات المسلمين على غيرها، فمناظرة الملاحدة تستدعي من المسلم الخطاب الوحدوي، لا الخطاب الطائفي.

بالإضافة إلى ذلك اعتمدنا على ما ذكرناه بصفة خاصة في كتابنا [أسرار الأقدار]، وهو الكتاب الذي خصصناه للإجابة على كل التساؤلات المرتبطة بالقدر، وقد وضعنا في الباب الأخير منه، وهو [الرحمة] كل الشبهات المرتبطة بذلك، وأجبنا عليها بتفصيل، بالإضافة إلى ما ذكرناه في سائر أقسام الكتاب من شبهات.

بالإضافة إلى ذلك جميعا أشرنا إلى بعض ما ذكرناه في كتابنا [ابتسامة الأنين] من رحمات أودعها الله في طيات البلاء.. وهي كثيرة جدا، اكتفينا هنا بالإشارة لبعضها فقط.

وعلى العموم، فكل رسائل السلام كان غرضها الإجابة عن التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذه المعضلة.. فـ [كنوز الفقراء] يجيب عن الآلام المودعة في طيات الفقر، و[مفاتيح المدائن] يجيب عن الآلام المودعة في طيات التخلف، و[سوق الخطايا] يجيب عن الآلام التي يتسبب فيها الإنسان لنفسه عندما يترك مواضع البركات، وينزل إلى مهاوي المحق ودركاتها.. وهكذا فإن كل السلسلة تحاول أن تجيب عن التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذه المعضلة.

أولا ـ الأجوبة الإلزامية الجدلية:

وهي أجوبة كثيرة جدا، منها ما يمكن اعتباره والاستفادة منه عند مناظرة الملاحدة، ومنها ما لا يمكن اعتباره، ولا الاستفادة منه، ولها علاقة بالثنائية المشكلة للمعضلة، وهي [الله]، و[الشر] والمفاهيم المرتبطة بها.

1 ـ الجواب المرتبط بالله وصفاته:

وهو أن هناك فرقا بين وجود الله وبين نوع صفاته.. فما دام العقل قد أثبت وجود الله بالأدلة الكثيرة، فإنه لا يصح له أن يفرض عليه الصفات التي يريد، فوجود الشرّ لا يستلزم نفي وجود

الله، وإنما قد يستلزم نفي بعض صفاته، وحينها تتحـول المنـاظرة من البحث في وجـود اللـه إلى البحث عن مـدى اتصـافه بـالعلم والقدرة والرحمة مثلا، وفرق كبير بين الأمرين.

وهـذا الجـواب يـدخل ضـمن الإلـزام الجـدلي، ولا يعـبر عن حقيقة الحـال، فهنـاك فـرق بين كـون اللـه موجـودا، وبين إلزامـه بفعـل الخـير المجـرد.. فنحن نـرى الملـوك الظلمـة، والطغـاة المستبدين.. فهل ينفي طغيانهم حقيقة وجودهم؟

ويمكن صياغة هذا الجواب كما يلي:

المقدمة الأولى: الدلائل الفطرية والعقليـة والعلميـة تـدل على أنّ لهذا العالم خالقًا.

المقدمة الثانية: لا يوجد برهان منطقي يلـزم عقولنـا على الاعتقاد أنّ صفة العدل ضرورية في هذا الخـالق الـذي دلّ الكـون والعقل على أنه واجب الوجود.

النتيجة: وجود الشرّ لا تعلّق له بمسألة وجود الخالق، وإنمـا له تعلّق بصفاته.

وانطلاقا من هـذه النتيجـة يلـزم الملحـد بـالبحث عن تفسـير لوجود الشر في العالم مـع الإقـرار بوجـود إلـه.. وذلـك مـا يلزمـه بـالبحث عن الـدين الأمثـل الـذي أعطى التفسـير الصـحيح لهـذه المعضلة.. وطبعـا إن كـان صـادقا، فسـيجد الحقيقـة في الإسـلام وحـده، ذلـك أنـه مـع إقـراره بوجـود الشـر في العـالم إلا أنـه بين مبرراتـه بكـل دقـة وعلميـة وموضـوعية كمـا سـنرى في الأجوبـة التالية.

وقد أقر الملاحدة أنفسهم بضحالة الاسـتدلال بمعضـلة الشـر على نفي الإله، حيث أن الفيلسوف الملحد [ج. ماكي]، والذي يُعدّ من أشرس الملاحدة اسـتدلالًا بمشـكلة الشـرّ، وانتصـارًا للإلحـاد، يـذكر أنّ مشـكلة وجـود الشـر هي (مشـكلة فقط لمن يـؤمن أنّ هنـاك إلهًا قـديرًا كامل الخيريّـة، وهي مشـكلة منطقية تتمثّل في توضـيح عـدد من الاعتقـادات والتوفيق بينها.. إذا كنت مسـتعدًا

للقول إنّ الله غير كامل الخيرية، وليس تام القدرة.. فعندها لن تواجهك مشكلة الشر)[1]

ومثله ذكر الفيلسوف [دانيال هاورد سنايدر] الذي عبر عن عجز الملاحدة عن الاستدلال بمعضلة الشر على نفي وجود الله، فقال: (إنّ مشكلة الشر هي مشكلةٌ للملحد، أو لمن وجد مقدّمات المشكلة واستنتاجاتها مقنعة، وكانت أسباب قناعته بوجود الله هشّة. أمّا إذا كان للمؤمن بالربّ حجّة صلبة، فإنّ وجود الشر ليس مشكلة)[2]

وبهذا الإلزام الجدلي رد (أنتوني فلو) بعد تراجعه عن إلحاده على هذه المعضلة بقوله: (من المؤكد أنّه لا بدّ من مواجهة وجود الشر والألم، ولكن، فلسفيًا، يُعتبر هذا الموضوع منفصلًا عن السؤال عن وجود الله، فمن وجود الطبيعة نفسها نحن نصل إلى أصل إيجادها.. ربما للطبيعة عيوب، ولكن ذلك لا يدلّ البتّة إن كان لها مصدر نهائي أم لا.. وبالتالي فوجود الله لا يرتبط بوجود الشر السائغ أو غير السائغ)[3]

بل إن [ريتشارد دوكنز] نفسه أقر في في كتابه [وهم الإله] بإمكانية الإجابة على هذه المعضلة بمثل هذا الجواب، حيث قال ساخرا: (في الحقيقة، أصحاب الميول الدينية لديهم أيضًا عدم تمييز مزمن بين الحقيقة والأمر الذي يرغبون أن يكون هو الحقيقة، بالنسبة للمؤمن بنوع من الذكاء الكوني الخارق، من السهل جدًا التغلّب على مشكلة الشر. يكفي أن تفترض وجود إله قذر، مثل ذاك المتفشّي في كلّ صفحة من صفحات العهد القديم، أو إذا لم يعجبك ذلك، اخترع إلهًا شريرًا مستقلًا بذاته، وسمّهِ الشيطان، وانسب الشر الذي في العالم إلى صراعه الكوني مع الإله الخيّر، وإن شئت هناك حلّ أكثر تطوّرًا؛ افترض

1 () J. L. Mackie, "Evil and Omnipotence," in Mind 64, no. 254 (1955): 200, 201..

2 () Daniel Howard-Snyder, "Introduction," in Daniel Howard-Snyder, ed. The Evidential Argument from Evil (Bloomington: Indiana University Press, 1996), p.xi..

3 () Antony Flew, There is a God, p.156..

وجود إله له اهتمامات أعظم من أن يأبه لكروب الإنسـان، أو إلهًـا ليس سلبيًا أمام الآلام التي تصيب البشر، لكنّه يراها ثمنًا لا بـدّ أن يدفع مقابل نعمـة حريّـة الإرادة البشـريّة في كـون منظّم وخاضـع للنـواميس. كثـير من اللاهوتـيين يعمـدون إلى تبنّي مثـل هـذه التعقلنات)[1]

ومـا ذكـره دوكيـنز سـاخرا تعبـير حقيقي عن أن الملاحـدة أنفسهم يجدون مشكلة في هذه المعضلة، وعدم قدرتها على حـل المشكلة من أساسـها، ذلـك أن وجـود الشـر لا ينفي وجـود اللـه، وإنمـا يـدعو إلى البحث عن سـببه.. ولمـاذا جمـع الصـانع العظيم الـذي أبـدع كـل هـذا الكـون في كونـه بين الخـير والشـر، واللـذة والألم.. وهــذا التســاؤل يــدعو إلى التأمــل العقلي، والبحث في الأديان، لا التسرع بنفي الإله.

وبناء على هـذا الجـواب الإلـزامي، نشـأت الكثـير من الـرؤى والمدارس الفلسفية الـتي حـاولت أن تفسـرها وفـق رؤيـة كونيـة شاملة.. فالمدارس الشرقية أو الغربية التي تبنت [وحدة الوجـود] بمفهومهـا الفلسـفي، راحت تفسـر الشـر بمـا يتناسـب مـع هـذه الرؤية، باعتبار الوجود واحدا، فلا صـانع ولا مصـنوع، وبـذلك تنتفي المشكلة عندهم أصلا.. أما المـدارس أو الأديـان الثنويـة، فـراحت تثبت وجود الشر، وتنسبه إلى إله غير إله الخير.. وهكذا راحت كل مدرسة تحل المشكلة بطريقتها الخاصة.

وبناء على ذلك ذلك أيضا ظهرت بعض المدارس الـتي تتبـنى تصورا عن الله ينفي كمال علمه وقدرته، وتصور أن ما يحصل من شرور في الكون مفروض عليـه، ولا طاقـة لـه بـه، ولـذلك تسـلل الشر إلى عالمنا، ولا يملك الله له دفعًا.

وقـد عبّـر [فيليب يانسـي] عن هـذا بقولـه: (إنّ الثيوديسـيين القدماء كـ(أوغسطين) و(الأكويني) و(كـالفن) تقبلـوا وجـود الشـر لكنهم حاولوا تبريره، في حين تذهب كتابات المعاصرين إلى قبول إشكالية الشر، ولكن مع مراجعة الفهم التقليـدي الألـوهي لصـورة الخــالق؛ فالأوائــل رأوا الإشــكال في فهم مغــزى الشــر، وبعض

1() Richard Dawkins, The God Delusion (London: Bantam Press, 2006), p.108..

الأواخر رأوا الإشكال في فهم حقيقة الله)[2]

وبهذا الجواب أجاب الحبر اليهودي [هارولد س. كوشنر] في كتابه الذي حقّق عددًا كبيرًا من المبيعات [عندما تحدث الأمور السيئة لأناس طيبين]، والذي نشره عام (1981م) وقرر فيه (أنّه وإن كان الله كامل الخيريّة إلا أنّه ليس كاملًا في قدرته)

وبهذا الجواب أيضا أجابت مدرسة [Process theism]، والتي ترى محدودية السلطان الإلهي في الكون، وهي تصوره شبيها بصانع الساعات الذي يلفّ زرّها الجانبي، ثم يترك الساعة تعمل وحدها.. أو هو أشبه ما يكون بإله (أرسطو)، غير أنّ إله (أرسطو) ينصرف عن العالم لأنه أدنى من أن يكون محلّ اهتمامه، في حين أنّ إله هذه الطائفة من اللاهوتيين يمعنه عجزه عن أن يفعل فعله الكامل في العالم.

ومما ساعد على ظهور هذه النزعة، أو هذا النوع من الأجوبة، ما نجده في الكتاب المقدس من نسبة الكثير من صفات النقص والعجز لله تعالى، مثلما ورد في [سِفر التكوين 6/6]: (فَحَزِن الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإنسان فِي الأرض، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ) تعليقا على ما ورد بعد ذكر انتشار الشّر والفساد بين الناس في حقبة من التاريخ السحيق.

ومن هذا الباب أيضا ما وقع فيه بعض المسلمين أيضا حين فسروا العدل الإلهي تفسيرا يجوز له الظلم باعتباره يفعل ما يشاء، وكل ما يفعله داخل في سلطانه، ولذلك لا يصح أن يطلق عليه ظلما، ذلك أنهم عرفوا الظلم بكونه (ليس بممكن الوجود.. لأنه إمّا التصرّف في ملك الغير أو مخالفة الآمر، وكلاهما ممتنع في حق الله؛ إذ هو المالك لكلّ شيء، وليس فوقه آمر)

وهذا غير صحيح، فالنصوص القرآنية الكثيرة تنص على امتناع الظلم عن الله بمفهومه الحقيقي، وليس بذلك المفهوم الذي ذكره المتكلمون، كما قال تعالى:﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران:182)، وقال:﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ

[2] Philip Yancey, Where Is God When It Hurts? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1990), pp.9-10.

ظُلْماً لِلْعِبَادِ (غافر: 31)، وقال: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت:46)، وقال: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس:44)، وقال: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النساء: 40)، وقال: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (طه: 112)، والهضم أن ينقص من جزاء حسناته والظلم أن يعاقب بذنوب غيره.

ومثل هذا كثير في القرآن، وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكن لا يفعله فضلا منه وجودا وكرما وإحسانا إلى عباده، كما ورد في الحديث عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي)[1] أي أنه تعالى منع نفسه من ظلم عباده.

2 ـ الجواب المرتبط بحقيقة الشر:

وهي أجوبة كثيرة نجدها في المؤلفات التي اهتمت بحل هذه المعضلة، ولا يمكن اعتبارها جميعا أجوبة حقيقية، لأن فيها ما هو حقيقي، ومعتبر، وفيها ما يمكن اعتباره من باب الإلزامات الجدلية، وليس من باب الحقائق البرهانية القطعية، ومن تلك الأجوبة:

1. مواجهة العقل الملحد بطبيعته وحقيقته، وهو أنه عقل عبثي لا يعرف غاية للوجود، ولذلك فإنه من المستغرب أن يطرح مثل هذا السؤال، بل إنه من المستغرب عليه أن يشعر بقيم الخير والشر، والمعاني المجردة المرتبطة بها.

إضافة إلى ذلك، فإن هذا العقل يؤمن بالكثير من الفلسفات المادية التي تبرر التفوّق العرقي، والبقاء للأقوى، وهو بذلك يعتبر مثل هذه السلوكات شريرة سلوكات طبيعية، لا يصح له اعتبارها شرا مطلقا..

---

1) رواه مسلم.

2 ـ محاولة التنصل من الشر نفسه باعتباره غير موجود، وأن ما نراه منه هو مجرّد وهم، أو تصوّر ذهني لشيء غير موجود، أو ـ كما عبر برتراند راسل ـ عن ذلك بقوله: (الشر هو العالم السفلي للأوهام التي يجب أن نحرّر حواسنا منها)، وقد تبنى هذه الرؤية أتباع الديانة الهندوسية، باعتبارهم أن الشر مجرّد (مايا) أي وهم.. وهو قول بعض متصوفة الأديان المختلفة، بما فيهم الإسلام نفسه[1].

ولا يمكن الاعتماد على هذا الجواب باعتباره منتقضا بالبداهة العقليّة والحسيّة، بالإضافة إلى أنه لا يحل المشكلة، فوهم الشرّ نفسه شرٌّ.. وهو يستدعي البحث عن حل وجواب.

وفي مقابل هذا الجواب نجد جوابا آخر يعتبر الوجود كله شر، وأن الخير ليس إلا وهم.. وهو يعتبر أن سبب الشر هو رغبتنا في الوجود، ولذلك نحتاج لمواجهة الشر إلا الفناء في [النرفانا].. وهي مثل سابقتها.دعوى تصادم ما نعيشه في واقعنا العقلي والحسي من أنواع الفرح والخير والسعادة.

3 ـ محاولة التنصل من الإجابة التفصيليه عن الشر، باعتباره سرا محضا.. وقد أجاب بهذا بعض فلاسفة الصوفية خصوصا عند اعتبارهم أن ما يبدو شرًّا في الكون ليس سوى أسرار غامضة، سدت عن وعينا المنافذ لفهمها، ولذلك لا يجوز لنا أن نتجرأ على وصفها شرا[2].. ذلك أن العلم بحقيقتها متعذرٌ لجهلنا المطبق بأغراض الخلق الإلهي، ولذلك فإنّه علينا أن نسلّم أننا أعجز من أن نصم شيئًا ما في وجودنا بأنّه شرٌّ لأننا على عماية تامة

1() Wendy Doniger O'Flaherty, The Origins of Evil in Hindu Mythology)Berkeley: University of California Press, 1976)..

2() وفي مقابل هذا المقولة نجد مقولة[الكون الشفّاف]، وهو اعتبار الكون يشفّ عن كلّ ما وراءه من خير وشرّ، فكلّ فعلٍ في الكون مردّه إلى أعيان مخصوصة من الحِكم التي من الممكن للبشر إدراكها (وهذا قول بعض المؤلّهة)، أو أنّ الكون ليس إلّا مجرّد تفاعلات مادية يتيح لنا العلم معرفتها، وإن على مراحل، بتقدّم معارفنا العلميّة (وهذا قول عامة الملاحدة)

بالحكمة الإلهية الخارقة.

وهذا الجواب مع ما يحمله من كثير من المصداقية ـ كما سنرى ـ إلا أنه لا يمكن اعتباره مطلقا، ذلك أن القرآن الكريم، وهو المعبر عن حقائق الوجود، أخبرنا أنّ الشرّ حقيقة كونية لا يمكن إنكارها، كما قال تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [الإسراء: 83]، وقال: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فصلت: 51]

ومثله حكى عن أيوب عليه السلام قوله: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: 83، 84]

بل أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى يبتلي عباده بالآلام، فقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)} [البقرة: 155، 156]

ومع ذلك فإن هذا الجواب ـ كما سنرى ـ فيه الكثير من المصداقية، فالعقل البشري يعجز عن معرفة تفاصيل الحكم المخبأة وراء ما يراه من مظاهر، وليس في هذا دعوة للكسل عن البحث، وإنما هو دعوة للتواضع، والكف عن الغرور..

ثانيا ـ الأجوبة العلمية الحقيقية:

وهي الأجوبة المنطلقة من الجمع بين ما تنص عليه المصادر المقدسة الإسلامية خصوصا، وما لم يحرف في كتب الديانات الأخرى، وبين ما ينص عليه العقل السليم والفطرة الطاهرة النقية وما دل عليه العلم وخصوصا الحديث منه بعد ذلك.

وهي تبدأ بالتعريف بالله ـ بحسب ما يدل عليه العقل والنقل ـ وبيان تنزهه عن أنواع النقص والقصور والظلم والجور وغيرها،

وبيان كونه يتصف بكل صفات الجمال والجلال والكمال، لينبني عن كل ذلك تشكل معرفة في النفس تفيد أن خالقا بهذا الكمال يستحيل أن يبدو منه أي شيء يتناقض مع قدوسيته وكماله..

وهو ما يدعونا بعد ذلك إلى البحث في ضوء هذه المعرفة المقدسة عن حقيقة ما نتوهمه شرا، وعن حقيقة الحياة التي ارتبط بها ذلك الشر، وهل هو غاية مقصودة لذاتها، أم هو حالة عارضة..

وكون الشر مقصودا لذاته، أو مخلوقا بالأصالة، مستحيل بحسب صفات الخالق العظيمة.. وكونه حالة عارضة يدعونا إلى البحث عن أسرارها بحسب ما تنص عليه المصادر المقدسة،وبحسب ما يدل عليه العقل الذي يثبت وجود الله، ويبقى الإشكال في وجود الشر، وقد ذكرنا في مقدمة هذا الفصل أن الملاحدة أنفسهم يقرون بأنه لا تعارض بين وجود الله وبين معضلة الشر، وإنما التعارض في وصفه بالرحمة أو القدرة أو العلم مع وجود الشر.

1 ـ الجواب المرتبط بصفات الله:

تضعنا معضلة الشر بين أمرين تتوهم أننا إن قبلنا أحدهما، نفينا الآخر، فهي تخيرنا بأن نقبل إلها قاسيا ظالما لا يبالي بعباده، وبما يصيبهم من آلام، وبين أن نعتبره رحيما، ولكنه في نفس الوقت إما جاهل لا يعرف المعاناة التي يعانونها، أو عاجز عن حل ما ينزل بهم..

ولا تضع في حسابها أن هناك احتمالات أخرى، تتناسب مع كون الإله رحيما، وفي نفس الوقت عالما وقديرا.. وهذه الاحتمالات تنطلق من وصف الله بالحكمة، وهي أن توضع الأمور في مواضعها المناسبة لها، بحسب ما تقتضه أسماء الله الحسنى.

ولذلك فإن المعرفة التي تزيل هذه الشبهة من جذورها هي المعرفة التي تتبنى رؤيتين: **الرؤية التنزيهية**: واعتبار الله منزها عن كل ما لا يليق به من صفات لا تتناسب مع عظمته ولطفه وعلمه وقدرته ورحمته.. **والرؤية التعظيمية** والتي تثبت

لله كل صفات الحمد والجمال والإحسان والرحمة والفضل.

وحتى نقرب هذا للقارئ نذكر أنه إذا عرفنا أن طبيبا ما منزه عن الجهل والحقد والظلم، وفي نفس الوقت ممتلئ بكل صفات الرحمة والحكمة واللطف، نصحنا باستعمال دواء مر، أو حمية قاسية، فإن هذا لا يجعلنا ننظر إلى ذلك الطبيب بحقد أو قسوة، وإنما ننظر إليه بتقدير واحترام، لأنه لم ينطلق من تلك النصيحة إلا من خلال رحمته ولطفه.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المثال حين رأى امرأة قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً أخذته فألصقته بصدرها وهي تبحث على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثديها، فقال رسول اللّه ﷺ:(أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسول اللّه)، قال:(فواللّهِ، للّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها)(1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، فقال:(جعل اللّه الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) (2)

ولذلك كان أكثر أسماء الله الحسنى يصب في بحر الرحمة، فتوبة الله على عباده، وتجاوزه عنهم من رحمته بهم، وقد أخبر القرآن الكريم أن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:5)، وفي ذلك إشارة إلى أن مملكة هذا الكون الواسعة مبنية على أساس الرحمة الإلهية ومنتهية إليها.

فالله تعالى في تلك الآية الكريمة لم يختر من أسمائه إلا هذا الاسم الجليل الذي يجمع بين الدلالة على منتهى الرحمة وكمالها والعلمية على الذات ليدل على هذا المعنى، فإنه إذا قيل:(حكم

(1) رواه البخاري.

(2) رواه البخاري ومسلم.

الملك الشجاع) دل ذلك على ان أكبر منجزات هذا الملك مؤسسة على شجاعته، وإن قيل:(حكم الملك العادل) دل ذلك على أن أبرز ما يظهر في مملكته هو عدله، وهكذا.

وهذا ما نفهمه من الآية الكريمة، فهي لم تقرر معنى الاستواء بقدر ما قررت معنى الرحمة التي على أساسها يحكم الكون، ولكن التحريف اهتم بالاستواء وأوغل فيه مع دقة مسلكه، وكاد يعرض عن معنى الرحمة التي هي المقصود الأول من البيان في هذه الآية، أو كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (الفرقان:59)

ولهذا يربط القرآن الكريم بين ملك الله الذي يعني تدبير الله للأشياء وبين رحمته تعالى، كما قال تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (الفرقان:26)

ولذلك ورد في القرآن الكريم الإخبار عن سعة الرحمة الإلهية وشمولها باعتبار الكون مؤسسا عليها إنشاء وتدبيرا، قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف: 156)، وقال تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (الأنعام:147)، فالآيتان الكريمتان صريحتان في سعة الرحمة الإلهية وشمولها لكل شيء، ولم يرد في القرآن الكريم اقتران السعة بشيء من صفات الله إلا في صفتي الرحمة والعلم.

وقد جمع الله تعالى بينهما، مع اقترانهما بالسعة في قوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (غافر:7)

لكن هذا الجواب قد يعارض بما نراه في الواقع فكيف يمكن وصف الله تعالى بالرحمة التي لا حدود لها في نفس الوقت الذي نرى فيه أنواع الآلام والمصائب؟

والجواب على ذلك من وجوه نفصلها في العناوين التالية:

أ ـ خصوصيات الرحمة الإلهية:

فالرحمة الإلهيـة تختلـف في حقيقتهـا عن رحمتنـا البسـيطة، ذلك أن أحـدنا إذا رحم غـيره رق قلبـه، وانهمـرت دموعـه، وشـعر بمشـاعر هي أدل على الضـعف منهـا على الكمـال.. واللـه تعـالى الكبير المتعـال الـذي ليس كمثلـه شـيء يتعـالى عن النقص، فهـو السلام الذي سلم من كل الآفات، بل من كل ما نتوهمه كمالا، بل نحن ـ لضعفنا وقصـورنا ــ لا نعـرف من حقـائق الأسـماء إلا بعض مظاهرها، أما حقائقها فلا حدود لها.

ولذلك تتفق رحمته تعالى مع ما نفهمه من الرحمـة في بعض الأمــور، وتختلــف في بعضــها.. فالرحمــة في منطقنــا تســتدعي مرحوما، وتشترط في المرحـوم أن يكـون محتاجـا، وتشـترط في الراحم أن يفيض عنايته على المرحـوم بمـا يسـد حاجاتـه، قاصـدا بذلك العناية بالمرحوم، فإن قصر ـ مع القدرة ـ لم تعتـبره رحيمـا، فإن عجز اكتفت منه بما يظهر عليه من أمارات الرقـة وعلاماتهـا، فتكون رحمة قاصرة لا يصيب المرحوم منها إلا امتنانه لمن رحمه.

وتتفق الرحمة الإلهية مع هذه المعاني جميعـا إلا في المعـنى الأخير، والـذي لا يعتـبر شـرطا في الرحمـة، بـل هـو دليـل العجـز والنقص، وعدم احتواء الرحمة الإلهية على هذا المعنى مظهــر من مظاهر كمالها، لأن الرحيم الـذي يفيض عنايتـه بسـبب مـا اعـتراه من الرقة، هو في حقيقته يعالج رقته، ويعتني بالضعف الذي أصابه لا بالمرحوم، ولذلك تجـده يضـطر المرحـوم للتوسـل إليـه بفاقتـه وعجزه ليرحمه.

يقول الغزالي:(الرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعتري الـرحيم فتحركه إلى قضاء حاجة المرحـوم والـرب سـبحانه وتعـالى مـنزة عنها، فلعلك تظن أن ذلـك نقصـان في معـنى الرحمـة، فـاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان في معنى الرحمة، أما أنه ليس بنقصـان فمن حيث أن كمال الرحمـة بكمـال ثمرتهـا ومهمـا قضـيت حاجـة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حظ في تـألم الـراحم وتفجعـه،

وإنما تـألم الـراحم لضـعف نفسـه ونقصـانها ولا يزيـد ضـعفها في غرض المحتاج شيئا بعد أن قضيت كمـال حاجتـه، وأمـا أنـه كمـال في معنى الرحمة فهو أن الرحيم عن رقة وتألم يكاد يقصد بفعلـه دفع ألم الرقة عن نفسه فيكون قد نظر لنفسه وسعى في غـرض نفسه، وذلك ينقص عن كمال معنى الرحمة بل كمـال الرحمـة أن يكون نظره إلى المرحوم لأجل المرحـوم لا لأجـل الاسـتراحة من ألم الرقة) (1)

وحتى نبسط هذا المعنى نعود إلى مثال الطبيب الجــراح، فلا شك أننا قد نبدو أكثر رحمة ورقة في التـألم لحـال المـريض، لكن الطبيب الناصح أكثر رحمة منا حين يحرمـه من بعض مـا يشـتهيه، لأن نظره بعيد، وغايته أسمى، أمـا غايتنـا فهي محـدودة بـالتخلص من ذلك الألم الذي يعترينا وهو مصلحة لنا لا للمريض.

ب ـ تعارض الرحمة مع العدل والحكمة:

فالرحمـة قـد تتعـارض مـع مقتضـيات أسـماء حسـنى أخـرى كالعـدل مثلا، وحينهـا تقتضـي الحكمـة الإلهيـة تقـديم العـدل على الرحمة، كما في قوله تعالى: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الـرَّحِيمُ (الحجـر:49)، وقــال بعــدها: وَأَنَّ عَــذَابِي هُــوَ الْعَــذَابُ الْأَلِيمُ (الحجـر:50)، ومثـل ذلـك قولـه تعـالى: اعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة:98)

فالله تعالى هو الـرحيم الـذي خلـق كـل شـيء، وجعـل لكـل شــيء من الحكم مــا يصــب في بحــر الرحمــة الــتي هي منفعــة محضـة، ولكن هـذه الرحمـة قـد يعترضـها مـا يحيلهـا إلى ألم، ولا يكون ذلك الاعتراض إلا من نفس الإنسان.

وكمثال على ذلـك هـذه الأرض الـتي نعيش عليهـا، فـإن اللـه تعالى جعلها رحمة صرفة، بكل ما فيهـا، لكن فعـل الإنسـان الـذي استغل ما وهب من عقل، وما عرف من قوانين، جعله يمزج هــذه الرحمة بأنواع الكدر والتلوث والآلام، بحيث قـد تتحـول بفعلـه إلى آلام محضة.

---

(1) المقصد الأسنى:62.

ولذلك قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: 41)، فقد نسب الله تعالى الفساد إلى كسب الناس.

وأخبر عن الكفرة أنهم: ﴿ أَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ (الفجر:12)، وأخبر عن المجرم الذي ﴿ إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة:205)

ولهذا أخبر تعالى أن كل ما يحصل في الأرض من مشاق هو نتيجة حتمية للذنوب، على حسب ما يقتضيه العدل الإلهي والحكمة الإلهية، التي رتبت المشقة على المعصية، كما رتبت الراحة على الطاعة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرض وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (لأعراف:96)

وقال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:65 ـ 66)، أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وهو ما أشار إليه سقوط آدم عليه السلام من الجنة، حيث كان يجد كل شيء في غاية الجمال والمتعة واليسر، حيث خوطب من الحق تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119)﴾ (طه)

ولكنه مباشرة بعد شرب كأس اللذة، أصابه شؤمها فسقط عنه لباس الرخاء ليلبس لباس التعب والعناء، قال تعالى: ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه:121)

وأخبر تعالى عن جزائه للذين: أَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (الفجر: 12) بأنه: صَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (الفجر: 13)

وهذه النصوص تشير إشارة صريحة إلى الفساد الذي حصل في البر والبحر والجو بفعل معاصي المدنية الحديثة، التي أرادت أن توفر الترف لثلة قليلة تمتص أموالها على حساب صحة الأرض وجمالها وصلاحيتها للحياة.

وكما كان كسب الإنسان هو السبب فيما حصل للأرض من مصائب، وما حصل لأهلها نتيجة لذلك من بلاء تخبرنا النصوص أن كل المعاصي صغرت أو كبرت هي الحائل بين الإنسان والرحمة الصرفة، أو هي المزيج المؤلم الذي يكدر الرحمة، ويظهرها بمظهر العقوبة والألم.

ولذلك قال تعالى مخبرا عن مقالة الملائكة المقربين من حملة العرش، ومن حوله: وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (غافر:9)

ولهذا كان لكل مخالفة شرعية من الآلام ما يكدر صفو الرحمة النازلة مع ذلك الأمر التشريعي، قال تعالى مشيرا إلى هذا المعنى: وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة:49)

وسر ذلك هو أن التكاليف الشرعية هي نفسها رحمة، فلذلك كان مجرد مخالفتها ألما قد يشعر به الإنسان الحساس في حينه، وقد يغفل عنه إلى أن تتراكم الآلام، فيهتز ميزان الرحمة في نفسه.

فالمعصية بذلك تشبه وضع الإنسان نفسه في مواضع العطب، فإنه في حينها قد يغفل عن جراحه لحرارة ما هو فيه من معصية، فإذا ما انطفأت تلك الحرارة في نفسه عادت الآلام لتشعره بجروحه الكثيرة.

ولـذلك فـإن المصـائب تتـوالى بتـوالي الكفـر، وتنمـو بنمـو المعصية، قال تعالى:﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَـرُوا تُصِـيبُهُمْ بِمَـا صَـنَعُوا قَارِعَــةٌ أَوْ تَحُــلُّ قَرِيبــاً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَــأْتِيَ وَعْــدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: 31)

ولهذا أخبر تعالى أن المؤمنين المستقرين في طاعـة اللـه لا يـرون إلا الرحمـة الخالصـة، والـتي قـد يتيـه عنهـا بسـبب الغفلـة الغافلون، ولهذا قال تعالى آمرا المؤمنين بأن يخـاطبوا المنـافقين قائلين:﴿ قُلْ هَـلْ تَرَبَّصُـونَ بِنَـا إِلَّا إِحْـدَى الْحُسْـنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَـرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْـدِينَا فَتَرَبَّصُـوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (التوبة:52)،

ولكن رحمــة اللــه مــع ذلــك قــد تعفــو عن بعض الــذنوب، فتمحوها، أو تجعـل من ذلـك البلاء كفـارة لهـا، قـال تعـالى:﴿ وَمَـا أَصَــابَكُمْ مِنْ مُصِــيبَةٍ فَبِمَــا كَسَــبَتْ أَيْــدِيكُمْ وَيَعْفُــو عَنْ كَثِــيرٍ﴾ (الشورى:30)، وقال تعالى:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَـا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَـا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُـؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمّىً فَـإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (فاطر: 45)

والقرآن الكريم يضرب لنا الأمثلة الكثيرة عن آثـار المعاصـي المتمكنة من النفـوس، لينبهنـا إلى أن الشـر الـذي كـانت تنطـوي عليه تلك النفوس هو السر الواقف وراء مـا حـاق بهـا من عـذاب، فلهـذا كـانت تلـك العقوبـات ــ والـتي هي في حقيقتهـا نـوع من التطهير كما سنرى ـ متناسبة مع جرائمهم:

فالله تعالى قال عن أهـل سـبأ:﴿ فَأَعْرَضُـوا فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَـيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سـبأ:16)

ولهذا أمر النـبي ﷺ أن يحـذر قومـه مثـل هـذا المصـير، قـال تعـالى:﴿ فَـإِنْ أَعْرَضُـوا فَقُـلْ أَنْـذَرْتُكُمْ صَـاعِقَةً مِثْـلَ صَـاعِقَةِ عَـادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:13)

ج ـ صفات الله أعظم من أن تنحصر في ثلاث:

كما رأينا عند عرضنا للشبهة التي تقوم عليها هذه المعضلة هو قيامها على (أنّ وجود الشّر يتعارض مع وجود الإله ذي الصفات الثلاث، القدرة والعلم والرحمة، ويحاول الملحد من خلال حصر الصفات الإلهية في هذه الثلاث أن يقيم دعواه في التعارض الذي يمنع وجود الإله، مستغنيًا بذلك عن النظرة الكليّة التي لا تهمل من صفات الربّ شيئًا، والتي تتوّصّل بأفقها الواسع إلى إدراك التآلف الوجودي بين وجود الله الكامل ووجود الشر)

وهذا ما يخالف التصورات الإسلامية وما لم يحرف من الأديان عن الله تعالى، فالله تعالى في التصوّر الإسلامي هو مالك الملك الذي له الكون كلّه، وهو صاحب الكبرياء بعظمته التي لا تدانى وسلطانه الذي لا يضاهى، وهو بمنطق العدل والحق، حتّى بمعاييرنا الأرضية، له أن يفعل في ملكه ما شاء.

وذلك لا يعني الظلم كما ذكرنا، فالله منزه عنه، وإنّما نقول إنّ حقوق المالك العادل أوسع من حقوق المملوك في ميزان العدل، وسلطان المالك العادل أعظم من سلطان المملوك، وبذلك تتّسع الآفاق في فهم أنّ لله أن يوجّه الخلق لأمر، ويضعهم في اختبار، ويعاقبهم على العصيان، فليسوا هم هملًا في الدنيا، وإنّما خلقوا لأمر، ووضعوا على الأرض لغاية، وواجبهم الطاعة، وذلك عند النظر في العدل الإلهي يوجب ألا يكون للإنسان أن يستأثر بالحكم، ولا أن يكون مركز الكون، فحقيقة العدل أن يكون لله أعظم حقّ.

وقد وضح ابن القيم عند إجابته على هذه المعضلة، فقال: (الحكمة إنما تتم بخلق المتضادات والمتقابلات، كالليل والنهار، والعلو والسفل، والطيب والخبيث، والخفيف والثقيل، والحلو والمر، والبرد والحرّ، والألم واللذة، والحياة والموت، والداء والدواء، فخلق هذه المتقابلات هو محل ظهور الحكمة الباهرة، ومحل ظهور القدرة القاهرة، والمشيئة النافذة، والملك الكامل التام. فتوهم تعطيل خلق هذه المتضادات تعطيل لمقتضيات تلك الصفات وأحكامها وآثارها، وذلك عين المحال. فإنّ لكل صفة من الصفات العليا حكمًا ومقتضيات وأثرًا هو مظهر كمالها، وإن كانت

كاملة في نفسها، لكن ظهور آثارها وأحكامها من كمالها، فلا يجوز تعطيله، فإن صفة القادر تستدعي مقدورًا وصفة الخالق تستدعي مخلوقًـا، وصـفة الوهـاب الـرازق المعطي المـانع الضـار النـافع المقـدم المـؤخر المعـز المـذل العفـو الـرؤوف تسـتدعي آثارهـا وأحكامهـا. فلــو عطلت تلــك الصــفات عن المخلــوق المــرزوق المغفور له المرحوم المعفو عنه لم يظهر كمالها، وكـانت معطلـة عن مقتضياتها وموجباتها. فلو كان الخلـق كلهم مطيعـون عابـدون حامدون لتعطل أثر كثـير من الصـفات العلى والأسـماء الحسـنى. وكيـف كـان يظهـر أثـر صـفة العفـو والمغفـرة والصـفح والتجـاوز والانتقام والعز والقهر والعدل والحكمة التي تنزل الأشياء منازلهـا وتضعها مواضعها؟ فلو كان الخلق كلهم أمة واحـدة لفـاتت الحكم والآيات والعـبر والغايـات المحمـودة في خلقهم على هـذا الوجـه، وفات كمال الملك والتصرف، فإن الملـك إذا اقتصـر تصـرفه على مقدور واحد من مقدوراته فإما أن يكون عاجزا عن غـيره فيتركـه عجـزًا، أو جـاهلا بمـا في تصـرفه في غـيره من المصـلحة فيتركـه جهلاً.. وأمــا أقــدر القــادرين وأعلم العــالمين وأحكم الحــاكمين فتصرفه في مملكته لا يقف على مقدور واحد، لأن ذلـك نقص في ملكه. فالكمـال كـل الكمـال في العطـاء والمنـع والخفض والرفـع والثـواب والعقـاب والإكـرام والإهانـة والإعـزاز والإذلال والتقـديم والتأخير والضر والنفع، وتخصيص هـذا على هـذا، وإيثـار هـذا على هذا. ولو فعل هذا كله بنوع واحد متماثل الأفراد لكان ذلـك منافيًـا لحكمته. وحكمته تأباه كل الإبـاء، فإنـه لا يفـرق بين متمـاثلين، ولا يسوّي بين مختلفين. وقد عـاب على من يفعـل ذلـك، وأنكـر على من نسـبه إليـه. والقـرآن مملـوء من عيبـه على من يفعـل ذلـك. فكيف يجعل له العبيد ما يكرهون، ويضربون له مثـل السـوء وقـد فطر الله عبـاده على إنكـار ذلـك من بعضـهم على بعض وطعنهم على من يفعله، وكيف يعيب الرب سبحانه من عباده شيئا ويتصف به، وهو سبحانه إنما عابه لأنه نقص فهو أولى أن يتـنزه عنـه. وإذا كان لا بد من ظهور آثار الأسماء والصفات ولا يمكن ظهـور آثارهـا إلا في المتقابلات والمتضادات لم يكن في الحكمة بد من إيجادها،

إذ لو فقدت لتعطلت الأحكام بتلك الصفات وهو محال)[1]

وبهذه العقيدة التي تتوافق مع العقل والنقل، والتي تجعل لله ـ باعتباره صاحب الكمال المطلق ـ كامل الحق في إدارة مملكته بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته وأسماؤه الحسنى تنتفي الكثير من الطروحات الإلحادية المرتبطة بهذا الجانب.

ذلك أن الكثير من الملاحدة عندما يواجهون بالقول بأن الشر حقيقة نسبيّة، وأنّ ما يبدو شرًا من وجه، هو خير من وجه أو وجوه أخرى، يردون على ذلك بقولهم: (لماذا لم يخلق الربّ عالما من دون شر أصلًا، أليس ذلك دليلًا على عجزه؟)

وهنا ينتقل المخالف من شبهة تعارض الشر والحكمة، بعد أن عجز عن الرد، إلى شبهة تعارض الشر والقدرة.. والأصل .إن كان الملحد منصفًا ـ أن يسلّم بعدم وجود تعارض بين الشر والحكمة. ثم يفتح الباب لشبهة جديدة، وهي: تعارض الشر والقدرة، ولِمَ لَمْ يخلق الله عالما آخر بلا شر؟

2 ـ الجواب المرتبط بحقيقة الشر:

وهي أجوبة كثيرة بحسب نوع الشر ومصدره وهيئته، ولذلك كان للتفصيل دوره الكبير في الإجابة على ذلك.. وسنقتصر هنا على الشرور الكبرى التي يطرحها الملاحدة، ونجيب عنها، بحسب ما ذكرته الدراسات الكثيرة التي اهتمت بهذا الجانب، بالإضافة إلى معارفنا القطعية التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، ونحب أن نبين أن الكثير منها متداخل يصعب تمييز بعضه عن بعض، فالقضايا متشابكة، ولذلك قد يختلط بعضها ببعض.

أ ـ حقيقة الشر وعلاقته بالوجود:

وهذا من التساؤلات المهمة جدا، والتي اختلفت المدارس الإسلامية وغيرها في الإجابة عنها، فهل الشر الذي نراه مقصود بالأصالة، أم أنه عارض.. أو بعبارة أخرى: هل هو حقيقة ذاتية لها

1() ابن القيم، شفاء العليل، ص439-440.

وجود استقلالي، أم هو عرض انتزاعي لا يستقلّ لنفسه بكيان؟.. أو بعبارة أكثر تبسيطًا: هل يوجد ما يمكن أن نقول إنّه شر بذاته، لا أنّه شر في ظرف من الظروف ووجه من الأوجه؟

والإجابات على هذا الإشكال تتراوح بين رؤيتين: رؤية ترى أنّ الشرّ حقيقة موضوعيّة.. وأخرى ترى أن الشرّ ليس إلّا غيابًا للخير.

أما الرؤية الأولى، فليست إلا نوعًا من أنواع المغالطات المنطقية؛ أي مغالطة التشييء أو التجسيم؛ إذ يتمّ التعامل مع الأشياء المجرّدة على أنّها ذوات متحيّزة أو أحداث واقعيّة.. فليس الشرّ في واقع الناس مادة تُحسّ، وإنّما هو أثر لفعل أو حال ما، إذ لا وجود لشر مطلق، ولذلك فهو أمر نسبيّ أو جزئيّ. وبصورة أدقّ، علينا أن نعتبر الشرّ صفة لا ذاتًا، وأنه لا يُعامل معاملة الاسم إلّا إذا كان في صيغة التجريد[1].

وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن إمكانية تصور وجود عالمٍ شرير من كلّ وجه.. أي وجودٌ كلّ ما فيه شر لا يخالطه خير في مبناه أو مآله.. والجواب على هذا ما ذكره [جون جوردون ستاكهاوس] بقوله: (لا يمكنني تصوّر ذلك، ولم أشهد أيّ وصف لذلك العالم في العلم أو الفلسفة أو الأدب)[2]

وبناء على هذا، فإن الشرّ ليس سوى حال وصفي، أو بعبارة [كورنليوس بلنتنجا]: (غير ما يجب أن يكون عليه الشيء)[3]

والدليل على هذا هو أنّ الشرّ واقعيًا ليس إلّا عارض فساد في شيء من أشياء الوجود التي هي في أصل وجودها سليمة من العيب، كالجرح في اليد، والصدأ في الحديد، فلولا اليد، وأصل سلامتها، ما كان الجرح، وما عرفنا أنّه انتقال عن أصل السلامة، ولولا مادة الحديد وأصل براءتها ممّا يخرّبها، ما كان الصدأ، وما

1 () ohn Gordon Stackhouse, Can God be trusted?: faith and the challenge of evil (New York: Oxford University Press, 1998), 30..

2() المرجع السابق، ص50.

3() Cornelius Plantinga Jr., Not the Way It's Supposed to Be: A Breviary of Sin (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1995..

علمنا أنّ الصدأ فساد في هذا المعدن، فالجرح كشرّ لا يقوم بنفسه وإنّما يحتاج إلى يدٍ، ولم نعرف نحن أنه أذى يصيب اليد حتى علمنا قبل ذلك أنّ الأصل في اليد المعافاة والسلامة منه، وكذلك أمر الحديد وكلّ شرّ في عالمنا.

وبذلك، فإن الشرّ المحض ــ كما يذكر علماء المسلمين ـ (ليس حقيقة ذاتيّة.. فليس في وجودنا ما يمكن أن يُقال إنّه شر خالص، فليس هناك شر في الدنيا إلّا وهو خير من وجه أو أوجه أخرى.. فالمرض مثلًا، مؤذ للجسد من جهة، ومختَبرٌ للصبر وشاحذ للهمة وربما حتى مقو للمناعة من جهة أخرى.. وهكذا الأمور المكروهة عادة، لا يخلو منها نفع للإنسان)[1]

وبعد أن ذكر بعض التقسيمات المرتبطة بالشر، قال: (الشر لم يترتب إلا على عَدَم. وإلا فالموجود من حيث وجوده لا يكون شرًا ولا سببًا للشر.. فالأمور الوجودية ليست شرورًا بالذات بل بالعرض من حيث إنها تتضمن عدم أمور ضرورية أو نافعة)

ثم وضح ذلك بعبارة أخرى، فقال: (الشرّ نسبي إضافيّ وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه والعدول به عن المحل اللائق إلى غيره.. وهذا بالنسبة إلى الفاعل، وأمّا بالنسبة إلى المفعول فهو شر إضافيّ أيضًا، وهو ما حصل له من التألّم وفاتَه من الحياة، وقد يكون ذلك خيرًا له من جهة أخرى، وخير لغيره. وكذلك الوطء، فإنّ قوّة الفاعل وقبول المحل كمال، ولكنّ الشر في العدول به عن المحل الذي يليق به إلى محلّ لا يحسن ولا يليق. وهكذا حركة اللسان وحركات الجوارح كلها جارية على هذا المجرى. فظهر أنّ دخول الشر في الأمور الوجودية إنما هو بالنسبة والإضافة لا أنّها من حيث وجودها وذواتها شر)[2]

وهذا لا يعني أن الشر مجرّد وهم، أو إنه أمر لا حقيقة له،

---

(1) انظر ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص363.

(2) المرجع السابق، ص365.

فتلك دعوى غير صحيحة، وإنما قصدنا هو أنّ الشر (مجرّد نِتاج أنطولوجي عَرضي لخلق كائنات محدودة)[1]، فوجوده تابع لوجود كون غير متصف بالكمال، وليس هو أصلٌ لذاته، ومحدوديته في منعه الشيء من بلوغ مرتبة الكمال أو الاستواء والصلاح.

وبناء على هذا لا يصح اعتبار الشر من فعل الخالق، ذلك أنه ليس ذاتًا موضوعيّة وإنّما هو صفة انتزاعيّة، ولذلك لا تصحّ نسبة الشر إلى الله سبحانه، وإنّما هو صفة من صفات مخلوقاته.

وقد يُعترض على هذا بأنّ الشر نتاج عن مخلوقات الله، وبذلك فهو يعود إلى الله خالق هذه المخلوقات، والجواب على ذلك هو أنّ هناك فرقًا بين فعل الله الخالق مباشرة، وفعل مخلوق الخالق؛ فإنّ الله لا يريد لعباده إلّا الخير لكنّ العوارض قد تنحرف بذلك الخلق لتحوله شرا.

ومن الأمثلة على ذلك أن الله خلق لعباده الإرادة الحرة، والتي تجعلهم قد يختارون غير ما رضيه لهم، فالشر الذي يحصل لهم بسبب ذلك هو نتاج إرادتهم، والله سبحانه خلق إمكانية وجود الشرّ لا الشرّ ذاته.

قال ابن القيم معبرا عن هذا المعنى: (والعبد إذا فعل القبيح المنهيّ عنه، كان قد فعل الشر والسوء، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلًا لذلك. وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب؛ فجَعْلُه فاعلًا خيرٌ، والمفعول شر قبيح. فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها. فهو خير وحكمة ومصلحة وإن كان وقوعه من العبد عيبًا ونقصًا وشرًا. وهذا أمر معقول في الشاهد، فإنّ الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلًا وصوابًا يمدح به. وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل. ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها، كان ذلك حكمة وعدلًا

1() Adam Swenson, Privation theories of pain, Int J Philos Relig (2009) 66:139.

وصوابًا، وإنما السّفه والظلم أن يضعها في غير موضعها)[1]

ومن الأمثلة على ذلك أن الله تعالى يخلـق خلقًـا غـير عاقـل يفعـل الشـر، لكنّـه شـر من وجـه لا من كـل الأوجـه؛ فـالزلازل والبراكين مثلًا هي نتاج لقوانين فيزيائية بثّها اللـه في الأرض، وهي ليسـت شـرًا في ذاتهـا، أولًا لأنّ الـزلازل والـبراكين قـد تقـع في منطقة ليس فيها إنسان ولا حيـوان، فلا يتضـرر منهـا أحـد، وثانيًـا، لأنّ هذه الزلازل والبراكين من أسـباب تهيئـة الأرض للعيش، فهي تنفّس عن الطاقة المخزونة في باطن الأرض، وتخـرج الكثـير من الثروات المعدنية إلى سطح الأرض ليستفيد منهـا الإنسـان، وغـير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم. فالآثار السلبيّة لهذه الظـواهر الكونيّـة هي نتاج لهذا المخلوق في ظروف معيّنة غير دائمـة، فالشـر وجـه لهـا وليس فعلًا للـه، وإن كـان اللـه سـبحانه يريـد من بعض هـذه الظواهر ما يكرهه بعض خلقه لحكمة تربو على الشر الناتج عنها.

وبناء على هـذا دلّ الكتـاب والسـنّة على أن الشـرّ لا يضـاف إلى اللـه تعـالى لا وصـفًا ولا فعلًا، ولا يتسـمّى باسـمه بوجـه من الوجوه، وإنّما يدخل في مفعولاته بطريق العموم.

حتى إبليس نفسه ـ وهو من الإشـكالات الـتي يستشـكل بهـا في هذا الباب ـ فإنه ليس شرا محضا، بل إن النظر في قصته كما وردت في القـرآن الكـريم تـبين أنّ اللـه تعـالى لم يخلـق إبليس ليضلّ الناس، وإنّما خُلق كما خلق البشر للعبادة، غير أنّه اختار أن يتكبّر على أمر الله بالسجود لآدم، ورضي لنفسـه طريـق الضـلالة والإضلال.

بالإضـافة إلى ذلـك، فـإن لوجـود إبليس، على ضـلاله، حكمٌ جليلة يصعب استقصاؤها، أشار ابن القيم إلى بعضها بذكره[2]:

1. أنّ وجود إبليس يكمل لرسل الله وأوليائه مراتب العبودية

1() ابن القيم، شفاء العليل، ص361.

2() ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل، ص467-469.

بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، والإلجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه، ومعلوم أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

2. خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه، وسقوطه من المرتبة التكريمية إلى المنزلة الإبليسية، يكون أقوى، وأتم.

3. جعل سبحانه إبليس عبرة لمن خالف أمره، وتكبّر عن طاعته، وأصرّ على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه. فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه.

4. حال إبليس محك امتحن الله به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم، كما جعل أنبياءه ورسله محكًا لذلك التميز، فأرسله الى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب الى الطيب، والخبيث الى الخبيث.. واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار، يميز بينهم. وجعل لهؤلاء دارًا على حدة ولهؤلاء دارًا على حدة، حكمة بالغة وقدرة قاهرة.

5. ليظهر الله كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فهو خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث.

6. خلقُ أحد الضدين من كمال حسن ضدّه، فإنّ الضدّ إنما يَظهر حسنه بضده، فلولا القبيح لم تُعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

ب ـ مصدر الشر ووجوهه:

فالكثير من الشرور التي نراها في العالم مصدرها الإنسان نفسه، والحرية التي وهبت له، كما قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41]

وبناء على هذا فإن العالم الذي يريد الملحد من الله أن يصنعه بديلا عن عن هذا العالم عالم غير كامل على الحقيقة، لأنه عالم فقد فيه الإنسان أهم خصيصة، وهي حرية الإرادة، فهو عالم جبري لا يعدو فيه قدر الإنسان ريشة تحرّكها الرياح أين شاءت وأنّى شاءت.

وقد علّق [ج. أس. ويل] على قول الملحد الشهير [هكسلي] بأنه لو عَرَضت عليه قوّةٌ عظمى منحةَ ألّا يفعل إلّا الحق، على شرط أن يتحوّل إلى كيان أشبه بالساعة؛ فسيوافق على هذا العرض لأنّ الحريّة الوحيدة التي لها قيمة، هي حريّة فعل الصواب، بقوله: (إنّ حريّة الساعة هي أبعد ما يكون عن أن تسمّى حريّة، إنّها ضرورة ميكانيكية مطلقة.. وافتراض هكسلي يلغي النتيجة التي أرادها؛ لأنه يهدر الشيء الصميمي في الشخصيّة البشرية، فالكائن غير القادر على أن يفعل الخطأ غير قادر أيضًا على أن يفعل الصواب، إنّه ليس بشرًا البتّة وإنّما هو آلة ميكانيكيّة الحركة. إنّه ليس روحًا حرّة قادرة على أن تتعلّم الرضوخ من آلامها، وإنّما هو روبوت مثل الإشارة الضوئية عند مفترق الطرق)[1]

وبناء على هذا يعتبر الفيلسوف الأمريكي [ألفن بلنتنجا] من أبرز المدافعين عن حجّة الإرادة الحرّة في نقض دعوى لامنطقية الشر في عالم أنشأه إله حكيم ورحيم؛ فهو يرى أنّ ملَكة حريّة الإرادة عند الإنسان (مبرّر معقول لنفي عدم تساوق وجود الإله الكامل مع وجود الشر؛ فإنّ الشر الأخلاقي هو نتيجة لممارسة الإنسان الفعل النابع من إرادته الحرّة.. فالشر هنا ضريبة لازمة ومنطقيّة ومرضيّة لنعمة الإرادة الحرّة؛ وبذلك ينتقض الاعتراض على عدل الله أنّه يسمح للشر بالوجود.. إنّه لا معنى عقلًا وواقعًا

1 () J. S. Whale, The Problem of Evil (London: SCM Press, 1954), pp.33-34.

أن نتحدّث عن كائن حر يملك إرادة الاختيار ضمن الطبيعة البشريّة المحضة، ثم هو لا يفعل إلّا الخير)[1]

ويذهب إلى أبعد من ذلك، حين يقول: (إن حقيقة أنّ مخلوقات حرّة تزلّ أحيانًا، لا تحسب ضد وجود قدرة الله الكليّة ولا ضد خيريّته؛ لأنّه ليس بالإمكان أن يُمنع وقوع الشر الأخلاقي إلّا بمنع إمكانية الخير الأخلاقي)، أي إنّنا أمام استحالة عقليّة محضة، ملخصها أنّه يمتنع عقلًا الجمع بين وجود إرادة حرّة تفعل ضمن حريّتها، وعجز هذه الإرادة عن أن تفعل غير الشر.. كما أنّ منع هذا الشر يعني إلغاء حريّة الإنسان، وتحوّله إلى كائن موجّه غير مريد، وهو ما يؤول إلى منع تسمية فعله الميكانيكي الصواب، خيرًا؛ لأنّه ليس فعلًا اختياريًا.

ومثله ذهب الفيلسوف [مايكل بترسون] حين قال: (إنّه كلّما كانت الاختيارات أمام الإنسان أوسع، وكانت إرادته قادرة على انتقاء أحدها، كلّما كان الإنسان أقدر على خير أكبر وشر أبلغ، وكلّما ضُيّق على الإنسان في إرادة الفعل عنده؛ كلّما تقلّصت قدرته على فعل كلّ من الخير والشر)[2]

وبناء على هذا كله صاغ بعضهم هذه الأفكار بالصياغة التالية: (خلق الله سبحانه كلّ أمر حسنٍ + من الأشياء الحسنة التي خلقها الله، الإرادة الحرّة + الإرادة الحرّة سبب لإمكانيّة وقوع الشرّ = إذن، المخلوق الذي خلقه الله خَيِّرًا من الممكن أن يفعل الشرّ)[3]

وعبر عن هذه المعادلة [هوبرت بوكس] بقوله: (يبدو أنّ السماح بوجود الشرّ الأخلاقي، هو أمر قابل للتفسير عندما يُعترف أنّ حياة الإنسان، امتحانٌ.. بما أنّ الله قد جعل الإنسان ينال عاقبة فعله، فإنّ تلك النعمة ينبغي أن تمنح له كجزاء لجهده،

1() Alvin Plantinga, God, Freedom, and Evil (Grand Rapids: Eerdmans, 1977.

2() Michael Peterson, "The Problem of Evil: The Case against God's Existence," in Michael L Peterson; et al., Reason and Religious Belief: an introduction to the philosophy of religion (New York: Oxford University Press, 1998), pp. 126-127.

3() Norman L Geisler, If God, Why Evil?, p.29.

فليس هناك إذن مفر من أن يكون للإنسان إمكانية اختيار الخطأ.. فقط عندما نكـون معرّضـين لإمكانيـة الهزيمـة، نكـون مسـتحقين لجزاء النصر)[1]

ج ـ حقيقة الحياة وعلاقتها بالشر:

ينطلـق الملاحـدة من تصـورات ماديـة محـدودة عن حقيقـة الحياة، وكونها محصورة فيما نراه من مظاهر وصـور، ومـا نعيشـه من زمان محـدود، ولـذلك يشـعرون بمـا يطلقـون عليـه [معضـلة الشـر] شـعورا حقيقيـا.. ولهم الحـق في ذلـك الشـعور بنـاء على المعطيات التي يتصورونها عن الحياة..

فليس غريبا أن يطرح تلك المعضلة من يتصور أن الله تعالى خلق الإنسان ليعيش سنوات معدودة، لا تساوي شـيئا في حسـاب الـزمن، ثم يبتليـه في تلـك السـنوات المحـدودة بـألوان من البلاء تضيق بها نفسه، وكل الفضاء المحيط به..

لكنه إن علم أن هذه الحياة ليست هي الحياة الحقيقيـة، وأن هناك حياة أخرى، أكبر وأوسـع، وأنـه في حـال نجـاح الإنسـان في الاختبارات التي ابتلي بها، سينال السعادة المطلقة التي لا يعتريـه فيها أي ألم أو شر أو مصيبة، فإنه لن يطرح هذه المشـكلة أصـلا، بل لن تخطر على باله، بل إنه يستهين بكل ما يراه من آلام طمعا في السعادة التي تنتظره، كما روي عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثـواب لـو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[2]

وقد عبر بعضهم عن هذا المعنى،فكتب ـ تحت عنـوان [ومـاذا بعد الموت!] ـ يذكر تجربته الشخصية، فيقول: (أن يسأل الإنسـان نفسه، وهو جالس في بيته بين أهله وأطفاله يأكل طعامًا لذيـذًا أو يشاهد برنامجًا مسليًا، أو يستلقي مرتاحًا على سريره الـدافئ، أو

---

1 () Hubert S. Box, The Problem of Evil (London: The Faith Press, 1934), p.56.

2() الترمذي كتاب الزهد رقم (2403) عن جابر وقال هذا حديث غريب.

يتبادل الحوار الشيق مع أصدقائه في ناد أو مقهى.. ومن حولهم تتمخض حركة الحياة الدائمة عن الأمل والبلادة والمتعة والنسيان.. ليس كمن يسأل نفسه، وهو يلتفت فجأة في أعماق الظلام، الى قبر جديد، وحيد، نبت قبل دقائق في قلب الصحراء، وغادره أقرب أصدقائه وأشد محبيه)[1]

ثم راح يطرح تأملاته في ذلك قائلا: (ترى.. لو أن دينًا من السماء لم ينزل.. ودخل في عقول الناس، على مدار التاريخ، خرافة الملحدين والعدميين، من أنه لا حياة بعد هذه الحياة، لا بعثًا ولا حسابًا ولا جزاءً.. وأن نهاية الإنسان المطلقة تجيء عندما يسكت قلبه عن الخفقان ويوارى التراب، لكي ما يلبث أن يأكله الدود ويتحول بعد قليل إلى تراب يستعدّ لاستقبال الحفنات الجديدة من التراب الذي لا يكف عن الانقطاع.. إن أيّ مسلم لا يستطيع بفطرته وبداهته ويقينه وإيمانه أن يتصور موقفًا عدميًا كهذا، إنه بمجرد تصوّره يحس بالاختناق، ويستنفر كل طاقاته النفسية للخلاص من المأزق واستنشاق الهواء الصافي النقي.. إنه لا يفرّق أبدًا بين كابوس لا يرحم يدهمه في المنام وبين إحساس عدمي قاتم يمر بخاطره في المقبرة)

ثم ذكر الآثار الإيجابية لذلك الشعور المؤلم، فقال: (وأكثر من هذا، فإن المسلم يستمد من موقف الفراق هذا ثقة أكبر بعقيدته التي منحته الأمل الكبير بالبعث والنشور والحساب، وبدينه الذي علّمه دائمًا أن الموت ليس سوى نقلة، نقلة فحسب إلى دار أخرى غير هذه الدار وإلى حياة أخرى غير هذه الحياة.. ويتملكه إحساس عميق بالرثاء والاحتقار لكل أولئك الذين سعوا إلى تزييف الحياة وبترها باعتقادهم أن الإنسان يحيا مرة واحد فحسب ثم يأكله الدود ويلفّه التراب، ولا شيء وراء ذلك.. وما أكثر الذين ذهبوا إلى المقابر لتشييع صديق أو قريب، وهم لا يملكون إيمانًا ولا يقينًا، وإذا بنازلة الموت وبمشهد حصر الميت بين جدران الحفرة الأربع، وإهالة التراب عليه، تحرك أفئدتهم

1() عماد الدين خليل، آفاق قرآنية،بيروت: دار الكتب العلمية، 1982م، ص291-295.

الميتة، وتهز عقولهم الكسولة، وتغسل عن نفوسهم الصدئة ما علق بها من رين وغبار.. فيغادرون المكان وهم أشد إيمانًا وأعمق يقينًا.. وفرق وأي فرق بين إنسان مؤمن يرجع من المقبرة وهو يحمل أملًا كبيرًا وبين إنسان ملحد يخنقه المشهد المحزن ويزيده كآبة وضياعًا)

ثم ذكر الدور الذي يقوم به الإيمان للتخفيف من الآلام الناتجة عن ذلك المشهد المؤلم وغيره، فراح يتساءل قائلا: (ثم ماذا عن العدل النهائي المطلق! لقد اغتيل أربعة من الأبرياء.. وليس بمستبعد أن يفلت القتلة من طائلة القصاص.. وما قيمة الحياة.. وما قيمة الإنسان نفسه لو ترك مصيره هكذا معلقًا على عدل أرضي لا يملك في معظم الأحيان الأداة المضمونة لتحققه ونفاذه؟!)

ثم أجاب عن أسئلته بقوله: (إن الإسلام، ذلك الدين القيّم يمنحنا الجواب في كلتا الحالتين.. ولو لم يكن الدين سوى هذا الجواب لكان في ذلك وحده الدافع الأكبر لالتزامه، ومعايشته، وتعشّقه، والتشبث به حتى آخر لحظة من حياتنا التي يعلمنا الإيمان أنها لن تنقطع، ولن تزول، ولن يضيع حق من حقوقها بالصدفة أو العبث أو الفوضى)

ثم راح يخاطب قراءه يطلب منهم أن يعيدوا تجربة ما حصل له، فقال: (جرّبوا بأنفسكم ذلك.. اختبروا صدقه.. ليس في بيوتكم ونواديكم.. ولكن في المقابر..لحظة مواراة جثة صديق أو قريب.. التفتوا إليها بعد دقائق من مغادرتكم المكان.. وحيدة.. مهملة.. منقطعة في الصحراء.. أمن الممكن أن تكون هذه هي نهاية الإنسان؟!)

وما ذكره هذا الباحث في تجربته الشخصية الإيمانية شهد به الملاحدة أنفسهم، وخاصة عندما ارتفعت عنهم كل تلك الكبرياء التي كانت تحول بينهم وبين الاعتراف بالحقيقة..

فهذا زعيم فلاسفة العبثية، وأحد رؤوس الإلحاد في القرن

العشرين [جون بول سارتر]، يقول على فراش الموت: (أنا لا أشعر أنني نتاج للصدفة، أو ذرّة غبار في الكون، وإنما شخص متوقّع وجوده، ومجهّز، ومتصوَّر.. باختصار، كائن لا يقدر إلا خالق على أن يضعه هنا)(1)

ولذلك كان الإلحاد سببا من أسباب الآلام الكبرى التي تعتري الإنسان نتيجة عدم وجوده لأي وسيلة من وسائل المواساة والعزاء، أو كما عبر على ذلك النورسي بقوله: (إن في الوحدانية سهولة ويسرًا بدرجة الوجوب، وفي [الإلحاد] صعوبة ومشكلات بدرجة الامتناع)(2)

د ـ ضرورة وجود الشر والمقدار المسموح به:

عند مناظرة الملاحد، وتبيين أن الشر له وجوه متعددة، فهو شر وألم من وجه، وخير ونفع من جهة أخرى، يطرح تساؤل جديد عن سر ذلك.. ولماذا لم يخلق الله عالمًا أقلّ شرًا؟

والجواب عن ذلك هو أن الاعتراض على هذا يستدعي إجابتنا على تساؤلات كثيرة، منها التساؤل عن امتلاكنا القدرة على تحديد الحد الأدنى من الشر المقبول.. وهل نحن نعترض على الشر الزائد، أم على كلّ صورة قصوى موجودة للشر؟.. وهل الإزعاج الملازم للألم الناتج عن الشر، بلا حكمة؟

والإجابة على هذه التساؤلات توصلنا إلى أننا واقعون تحت أسر عجز معرفي عن تحديد الحد الأدنى المطلوب من الشر في عالمنا؛ أو كما قال الفيلسوف [فان إنواجن]: (التساؤل عن عدد الشر العظيم المسموح به المتوافق مع خطة الله هو أشبه بطرح سؤال يقول: ما هو الحد الأدنى من حبات المطر التي من الممكن أن تنزل في إنجلترا في القرن التاسع عشر بما يتوافق مع طبيعة أنّ إنجلترا كانت بلدًا خصبًا في القرن التاسع عشر؟)، فوقائع الشر كحبّات المطر في عالم واسع، تعجز الحكمة البشرية

1() Thomas Molnor, National Review, 11 June 1982, p.677..

2() النورسي، شعاعات، الشعاع الثاني.

عن حصر المطلوب منها.

ومثله طرح الفيلسوف [بروس لِتل] إشكالية منطقيّةً حول الاعتراض بقضيّة (الشر المنكر الذي لا يليق بالحياة البشريّة التي تتوافق مع حكمة الربّ)، ويتمثّل هذا الإشكال في: (تعريف الشر الذي يعتقد الإنسان أنّه شديد؛ ولذلك فهو يتعارض مع منطق الرحمة الإلهية)

وقد افترض [بروس لِتل] لبيان ذلك أن نرمز للشرّ بحرف (أ)، فتكون درجات الألم تصاعديًا على الشكل التالي: (أ+1) و(أ+2) و(أ+3).. وكلّما عَظُم الرقم كان الألم أشدّ. ولنفترض أنّ أقصى شرّ يتصوّره الإنسان هو (أ+5).. ولذلك يطلب الإنسان أن يتمّ إلغاء (أ+5)، وهنا يتدخّل الربّ لمنع حدوث مثل هذا المستوى من الشّر في حياة الإنسان، وعندها سيكون أقصى الألم (أ+4).. وفي هذه الحال سيعترض نفس المشكّك لأنّه يراه في ذهنه أقصى ألم متصوّر، ويرى أنّ الحكمة الإلهية تقتضي زواله.. ثم يكون سقف الألم (أ+3)، ويعترض المشكّك مرّة أخرى على سقف الألم، لأنّ حسّه العاطفي يراه أكبر منغّص على سعادته.. وهكذا يستمرّ الاعتراض حتّى لا يبقى هناك [شر!].. ومآل اعتراضِ من ضاقت نفسه بالألم الذي ينغّص وجوده هو إلزام الربّ أن يرفعه من [دنيا الامتحان] إلى جنّة الجزاء، ليغيّر خطّة الوجود الإنساني، لمجرّد لجاجة النفس الإنسانيّة الطماعة التي لا تشبع، والتي كلّما منحت خيرًا طلبت المزيد، وكلّما رُفع عنها شر طلبت حطّ غيره عنها.

أما [س. إس. لويس]، فقد تساءل عما يريده المعترض في دخيلة نفسه، ثم أجاب بقوله: (الذي يمكن أن يرضينا حقًا [كبشر] هو إله يقول على أيّ شيء نحب أن نفعله: ماذا يهم، طالما أنتم راضون وقانعون؟.. إننا في الحقيقة لا نريد أبًا في السماء قدر ما نريد جدًا في السماء، شيخًا عجوزًا محسنًا، هو كما يقولون (يحب أن يرى الشباب يستمتعون)، وخطته لأجل الكون هي ببساطة أن يُقال فعليًا في نهاية كلّ يوم: (لقد استمتع الجميع بوقت طيب).. إنّ

الإنسـان حين يضـجّ من كـلّ ألم وتعب ومسـؤولية، هـو يبحث في الحقيقة عن إله يوفّر له ملعبًـا يمـرح فيـه، ومَعِينًـا للّـذات الـتي لا ترتوي، ثم ينال بركة الإله ورضـاه! إنـه يبحث عن [خـادم] أو [يـدٍ مصفقة!])

بالإضـافة إلى هــذه الأجوبــة، فــإن النظــر العلمي في بنيــة الإنسان الماديّة يكشف يومًا بعد يوم أنّ الله سبحانه لم يـترك من الألم في حيـاة الإنسـان إلّا أقــلّ القليــل، وأنّــه سـبحانه قــد زوّد الإنسان بموانع بيولوجيّة كثـيرة تقيـه الألم، وكثـير منهـا، بـل كلّهـا مثيرة للدهشة عند التـدبّر، ولـو أنّ بعضـها تخلّـف؛ لتحـوّلت حيـاة الإنسان إلى جحيم متواصل.

ومن الأمثلــة على ذلــك مــا يكشــفه مــرض [دوار الحركــة]، والذي قد يبدو مؤلما وشرا، لكن أشهر الفرضيات الـتي تشـرح لنا سـبب حدوثـه تـذكر أنـه آلية دفاعية للجسم ضد سـموم عصـبية، حيث تقوم الباحة المنخفضة الموجودة في الـدماغ بتحفـيز عمليـة التقيؤ عند اكتشاف هذه السموم.

وهكذا، فإن النظر التدبّري في الجهاز العصبي للإنسان حجّــة للقـول إنّ اللـه سـبحانه قـد رفـع الكثـير من الأذى الـذي تقتضـيه السنن الكونيّة لو جرت بعفويّـة ضـمن قوانينهـا الرتيبـة، ذلـك أنـه يمثّل شبكة اتّصال داخلية تعينه على التـواؤم مـع البيئـة المحيطـة به، وهو جهـاز حسـاس، ولـذلك جعـل اللـه أهم عناصـره وأكثرهـا حساسيّة داخل الجمجمـة، محميـة بهـذه العظـام الصـلبة، وداخـل العمود الفقري لحمايتها من الصدمات.. وهـو فـوق ذلـك كلـه آلـة صممت ليكـون من أهم وظائفهـا حمايـة الإنسـان من أذى العـالم الذي يحيط به.

وقــد دلت الكشــوفات العلميــة المرتبطــة بهــذا الجهــاز على قدرتـه على إسـكات صـوت الألم الصـارخ عنـد الحاجـة؛ ذلـك أن الجهــاز العصــبي الطــرفي قــد يرســل رســالة الألم إلى النخــاع الشـوكي الـذي يوجههـا إلى الـدماغ لتفسـيرها كـألم مـزعج، لكنّ الدماغ يقوم بتحريـف الرسـالة حـتى لا تتحـوّل إلى مفهـوم ألميّ، وهو ما يظهر في أرض المعركة أو عند أهل الرياضات الروحية.

ومن وسائل الرحمة الإلهية المخففة للألم، والتي تدل على علم الله بألمنا، وفي نفس الوقت علمه بكيفية تخفيفه، مادة [الإندروفين] الناقلة للإشارات بين الأعصاب، وهي موجودة في أكثر من موضع في البدن، ويتمّ فرزها تبعًا للمؤثرات الخارجية، وهي تتعامل أساسًا مع المستقبلات في الخلايا الموجودة في الدماغ.. ودورها هو حبس الألم وجعلنا نحس بالمتعة بأنواعها.. بالإضافة إلى إشعارنا أنّنا أخذنا نصيبًا كافيًا من الأمور الممتعة.

أما التساؤل المنجر عن هذا، وهو تلك الآلام الشديدة التي لا تطاق، ولا تخفف، فمع إقرارنا بوجودها إلا أنه .كما يقول الطبيب (براند) ـ لا يمثّل غير 1 بالمائة من الآلام التي نشعر بها، أما الآلام الأخرى فمن الممكن علاجها بأكثر من سبيل.

وقد ذكر الفيلسوف [سونبرن] إلى أنّ الله برحمته قد خفّف الألم الشديد على الإنسان بوجهين عظيمين.. أحدهما: أن الألم إذا وصل إلى درجة تفوق طاقة الإنسان على التحمّل؛ يفقد الإنسان وعيه، ويذهب معه شعوره بالألم.. والثاني: أن الموت ينهي آلام الإنسان، خاصة إذا أصاب الإنسان الهرم، وضعفت مناعته عن تحمّل الأمراض والأوجاع.. وبذلك يكون الموت نفسه ـ والذي قد نتصوره شرا محضا ـ رحمة إلهية.

ومن الأجهزة التي أودعها الله فينا لتقوم بدورها في تخفيف الآلام عنا ما أودعه في الجهاز المناعي الذي يمكن اعتباره جيشا شديد التنظيم والتنسيق، ليس له من دور سوى حماية أجسامنا من هجمات الأعداء القادمين مثل البكتريا والفيروسات وغيرها، وهو لا يكتفي بالمواجهة فقط، وإنما يقوم بتخزين معلومات دقيقة عن هذه الأجسام حتّى تكون زادًا لردّ صولتها إذا عادت مرّة أخرى.

وقد ذكر الطبيب الإنجليزي [إدوارد جِنّر] مكتشف التلقيح الذي يراد به تكوين مناعة طارئة للبدن من أمراض مخصوصة، هذا المعنى بإعجاب إيماني شديد قائلا: (أنا لست مندهشًا أنّ الناس ليسوا ممتنين لي، وإنما أعجب أنهم غير ممتنين لله لأجل

الخير الذي سخّرني كأداة لتبليغه لرفقائي من البشر!)

وهكذا لو نظرنا إلى الظواهر الطبيعية المختلفة، فإننا نجد الرحمة الإلهية تكتنف كل مظهر، لتخفف من الآلام التي قد يتسبب فيها، فالنيازك التي تصيب الأرض بصفة مستمرة منذ زمن بعيد لم تؤثّر في الوجود البشري على الأرض، رغم أنّها كافية وحدها أن تنهي حياتنا في لحظة واحدة لو نزلت في المناطق الآهلة بالسكان، ودون أن يخفف الغلاف الجوي من قوّتها، حجمًا وسرعة.. وهكذا الزلازل، والتي يخبرنا العلم أنّ الجزء الأعظم منها يقع في البحر، فلا يصيب الإنسان منها شيء.

هـ ـ سبب عدم كون الشر الضروري وهميا:

وهو تساؤل وجيه، وقد قرره بعضهم بقوله: إذا كان في الشر ضرورة تفيد الإنسان في تنمية شخصيّته وتهذيبها وتحقيق كمال الإنسانيّة فيها؛ فلِمَ لم يخلق الله عالما يكون فيه هذا الشر غير مؤذ؛ وذلك بأن يكون الإنسان، مثلًا، مرتبطًا بآلات التجربة دون علم منه، ويعيش مع هذه الآلات حالات التجربة والاختبار والمعايشات التي نعيشها في عالمنا، دون أن يناله أذى، لأنّ الشر هنا مجرّد وهم برمجي في هذه الآلات؟

وقد أجاب الفيلسوف [سنايدر] على هذا الإشكال بقوله: (إنّ تحويل هذا الشر من وجود موضوعي إلى مجرّد إيحاء آليّ مبرمج، قد ينمّي لنا شخصيتنا في ذاتها، لكنّه سيفقد العالم خيرًا كثيرًا.. ففي ذلك الحين، لن يُعين أحد أحدًا، ولن يُعان أحد من أحد.. ولن يتعاطف أحد مع أحد، ولن يتُعاطف مع أحد.. ولن يغفر أحد لأحد، ولن يُغفر لأحد من أحد.. وحينها سيختفي التعاطف والتآلف بين الناس.. فلن يعوّض أحد أحدًا، ولن يُعوَّض أحد من أحد.. ولن يعجب أو يمجّد أحد أحدًا لأنه يسعى لهدف نبيل، ولن يُمجَّد أحد لذلك.. ولن يهب أحد من ماله أو وقته أو موهبته شيئًا للمحتاجين، ولن يُوهب أحد شيئًا من ذلك.. باختصار، إذا أضحت تجربتنا لتنميّة شخصيتنا مجرّد توّهم حتى لا نشعر بوخز الألم؛ فإنّ عالمنا في هذه الحال سيكون ضيقًا جدًا، خُلْوًا من كلّ اتّصال حقيقي مع الغير)

ثم ختم بهذه النتيجة التي عبر عنها بقوله: (يبدو إذن أنّه إذا أراد الله أن ينشئ فينا القدرة على تطوير ذواتنا وتجربتها وتأكيدها في سياق إنشاء البشر علاقات في ما بينهم، فلا بد أن يَسمح بالشر)

ذلك أن العالم الذي يكون في الشر هينًا ليّنًا خفيفًا حتى إنّ الإنسان لا يشعر بوكزه ووخزه، ولا يؤثّر في فعله، هو عالم ليس بإمكان أحد فيه أن يؤذي أحدًا؛ عالم ليس فيه لإرادة أحد أو عمله أثر حقيقي، وجود وهمي، تتحوّل فيه ذواتنا ذاتها إلى وهم.. وطلب شر وهميّ في حياة الإنسان الذي يحمل المواصفات الأرضيّة، هو في الحقيقة طلبٌ لعالمٍ وهمي، وحياة وهميّة.

و ـ دور الألم في التوجيه والتربية وتطوير قدرات الإنسان:

فالشر، أو الألم الذي يشعر به الإنسان عند كل حادثة له دور كبير في ترقيته وتطويره وجعله أكثر إنسانية ورحمة، وبذلك يكون الألم آلة من آلات السير بالإنسان للتحقق بإنسانيته في مستوياتها الرفيعة.

وحتى نقرب هذا الأمر، نذكر أن الجهاز العصبي المعقّد الذي لا يزال العلم يسعى لكشف طبيعته وخريطته، يدل على أنّ إحساسنا بالألم ليس مجرّد حدث عبثي ناتج عن ضغط من الداخل أو الخارج، وإنّما هو جرس إنذار ينبّه الإنسان إلى أمر يدبّ على لحمه، أو يجري في دمه.

فضغطة الصدر قد تكون إنذارًا مسبقًا بجلطة، ووجع السن علامة على نخر السوس، وارتخاء المفاصل تنبيه لارتفاع السكر.. واستغناؤنا عن هذه الآلام يعني إطلاق يد المرض تعبث بداخلنا دون أن ندري، وإفساحٌ لميدان أجسادنا تخترقه الفيروسات أنّى شاءت.

ومن الأمثلة التي يذكرها العلماء في هذا الباب لتقريب هذا المعنى: أنّ فقدان الأصابع بسبب مرض الجذام لا يعود إلى الأثر المباشر لهذا المرض على الأطراف، وإنّما لأنّ المريض يفقد

الإحساس في هذه المناطق مما يسمح للأمراض بأن تجد لها مجالًا للتأثير السلبي دون إزعاج من المنظومة العصبيّة التي تزرع الألم لتحصد المعالجة العاجلة.

ولذلك فإن الألم أحيانا كثيرة يكون هو السبب في حفظنا وترقيتنا وتربيتنا، وقد يحتاج أحيانا كثيرة ـ ليؤدي هذا الدور المهم ـ أن يكون فوق قدرتنا الاعتياديّة على التحمّل، ذلك أن الإهمال والاستصغار لكثير من عوارض الأبدان طبعٌ فينا، ولو تُركنا إلى ألم بسيط لا يهزّنا ويزعجنا، لغفلنا عن كثير من فواتك الأمراض التي تثخن في البدن وتزهق الروح.

ولذلك ــ أيضا ــ يحتاج الألم حتى يؤدي دوره في حفظنا وترقيتنا أن يكون خارجًا عن سيطرتنا.. ذلك أن الألم الذي ينغّص علينا نومنا أو يفسد علينا لذّة الأكل، هو رسالة جادة من البدن إلى وعينا حتّى لا نتراخى في الأخذ بأسباب العلاج، ولو أننا استطعنا أن نكف هذا الألم بضغطة زر كما يُكَفُّ صوت جرس المنبّه، لما تمكن الألم من أداء دوره فينا.. فنفوسنا أبلد من أن تُسلم إلى نظام مترف في إدلال الإنسان عند هجمة المرض.

وقد ذكر الدكتور [بول براند] في كتابه [هِبة الألم] هذا المعنى، فقال: (لقد احتاج الأمر إلى سنوات كثيرة من البحث لجمع كامل الصورة.. يَستعمل الألم مجموعة واسعة من نبرات المحاورة. يهمس إلينا في المراحل الأولى: نشعر في اللاوعي بعدم ارتياح بسيط أو حاجة لتغيير الوضعيات على الفراش أو تعديل لطريقة الخطو عند الركض. ثم يتحدّث إلينا الألم بصوت أعلى عند تنامي الخطر: تزداد حساسية اليد بعد فترة من كنس أوراق الشجر، أو تتقرّح الرجل في الحذاء الجديد. ويصرخ الألم عندما يصبح الخطر عظيمًا: يُلزم المرء أن يعرج أو حتى يتوقف تمامًا عن الجري)

والألم بذلك يقوم بدور الطبيب الحكيم الناصح الرفيق، الذي لا يتدرّج إلى الوجع الأحدّ إلّا عندما تكون الحاجة أشدّ إلى الانتباه والتفاعل الواعي مع الأذى الداهم للبدن.

وقد ذكر هذا الطبيب تجربته كجراح مع مرضى الجذام ببيـان كيـف يـؤول فقـدان المرضـى للإحسـاس إلى أن تتلـف أطـرافهم بـالبتر، وربّمـا يصـابون بـالعمى لغيـاب الحـافز الفـيزيولوجي لأن يرمشـوا، فقـال: (طَـرْفُ العين اللاإرادي هو عجيبة من عجـائب الجسم البشري، لا يوجد جهاز استشـعار للألم أكـثر حساسـية من ذاك الذي على سطح العين)

وهكـذا ذكـر قيمـة السـعال ودور الآلام الـتي تعتيرنـا خلالـه، فقال: (يكمن الخطر للإنسان الذي لا يشعر بالألم، في كل شيء.. الحنجرة التي لا تشـعر البتـة بالدغدغـة لا تُسـتثار لتسـعل وتخـرج البلغم من الرئة إلى الحنجرة، ولذلك فإنّ من لا يسعل أبـدًا مهـدد بمرض الالتهاب الرئوي)

ويعرض خلاصة تجربته مـع الألم وموقعـه في حيـاة الإنسـان، فيقول: (لقد تعلّمت أن أميّز بصورة جوهرية بين أمرين: الشـخص الـذي لا يشـعر بـالألم هـو إنسـان توجّهـه مهامـه في الحيـاة، أمّـا الشـخص الـذي يتمتـع بنظـام سـليم لاستشـعار للألم، فهـو مُوَجَّه ذاتيًا.. هذا الذي لا يشعر بالألم من الممكن أن يَعرف بعلامة ما أنّ فعلًا ما هو مؤذٍ، ولكنه إذا أراد ـ حقيقة ـ أن يأتي به، فإنه سـيفعل ذلك لا محالة. أمّا الـذي يستشـعر الألم، فإنـه سـيمتنع عن الفعـل لأجـل خوفـه من الألم مهمـا كـانت رغبتـه في أن يـأتي بالفعـل عظيمة، لأنّه يعلم في أعماق نفسه أنّ حفـظ نفسـه أجـلّ من أيّ شيء يريد أن يفعله)

وما يقال في عـالم الجسـد يقـال في عـالم الـروح، ذلـك أن التنبيهـات والآلام الـتي تعـتري الإنسـان بسـببها لهـا دور كبـير في تنبيهه وتربيته وترقية روحه ليعيش عالمه الحقيقي الذي أراده الله له، لا عالمه المزيف الذي أراده لنفسه.

وقد ذكر العقـاد في معـرض إجابتـه على معضـلة الشـر هـذا المعـنى، فقـال: (لـنرجع إلى المقابلة بين هـذا العـالم وبين الـذى يتخيله أولئك المعترضون وافيًا بالقصد أو جديرًا بحكمة الله.. فـإن كان هو أقرب إلى التصوّر فقد صـدقوا وأصـابوا، وإن كـان العـالم

الذى نحن فيه هو الأقرب إلى التصوّر فقد سقط الاعـتراض.. فمـا العالم الذى يتخيّل المعترضون أنّـه أجـدر من عالمنـا هـذا بحكمـة الله وقصد المدبّر المريد؟)

ثم أجاب على هذا السؤال بقوله: (هـو عـالم لا نقص فيـه فلا نمو فيه، ولا آباء ولا أبناء، ولا تفاوت فى السن والتهيؤ والاستعداد، ولا تقابل فى الجنس بين الذكور والإناث، بل جيل واحد خالـد على المدى لا يموت ولا يتطلّب الغذاء والـدواء.. عـالم لا نقصَ فيـه فلا حدود فيه، وكيف يُوجد الناس بلا حدود بين واحد منهم وأخيه؟ بـل لماذا يُوجد الألوف ومئات الألوف نسـخة واحـدة لا فـرق فيهـا بين أحـد وأحـد، ولا محـل فيهـا للاختلاف.. إذ كـان الاختلاف يسـتدعي نقص صفة هنا ووجودها هنـاك؟.. إذن يُخلـق إنسـان واحـد يُحقـق معنى الإنسانية كلّها ولايكون فيه نقصٌ ولا تعدد ولا تكون له بدايـة ولا نهاية.. فــذلك إذن إله آخر مســتمتع بكــل صــفات الكمــال والدوام!.. عالمهم المتخيل هو عالم لا حرمان فيه. فلا ينتظر فيـه الحي شيئًا يجيء به الغد ولا يشتاق اليـوم إلى مجهـول.. بـل مـاذا نقول؟ أنقول الغد واليوم؟ ومن أين يأتي الغد واليـوم فى عـالم لا تغاير فيه ولا تنوّع فى التراكيب والحركات؟ إنما يأتى اليـوم والغـد من تغاير الكواكب بالحركة والضخامة والدوران، فإذا بطل التغـاير والـتركيب فلا شـمس ولا أرض ولا قمـر ولا أيـام ولا أعـوام.. هـو عـالم لا ألم فيـه ولا اجتهـاد فيـه، ولا اتّقـاء لمحـذور ولا اغتبـاط بمنشود.. هو عالم لا أمل فيه ولا محبة ولا حنان ولا صبر ولا جــزع ولا رهبة ولا اتصال بين مخلـوق ومخلـوق، لأن الاتصـال تكملـة ولا حاجـة إلى التكملـة بأربـاب الكمـال.. هـو عـالم لا ظلم فيـه، فلا فضيلة ولا رذيلة، لأنّ الفاضل هو الإنسان الـذي يعمـل الخـير ولـو شقي به ويتجنب الشر ولـو طـابَ لـهُ مثـواه. فـإذا ضـمن الجـزاء العاجل على أعماله أولًا فأولًا فلا فضل له على الشرير. وإذا وجــد العالم وفيه أشرار يجزون أبدًا بالعقاب وأخيار يجزون أبدًا بالثواب فـذلك ظلمٌ أكـبر من هـذا الظُلم الـذي يأبـاه المنكـرون للقصـد والتدبير.. هو عالمٌ لا فرق فيـه بين الأبـد الأبيـد واللحظـة العـابرة، لأنك تريد في كل لحظة عابرة من لحظاته أن تجمع حكمـة الآبـاد، وأن تكـون مقاصـدها هي مقاصـد الكـون الـذي لا تعـرف نهايـة

طرفيـه، فلا انتظـار لبقيـة الـزمن ولا مُـوجب للانتظـار، ولن يحيـا المخلوق المحدود بغـير انتظـار إلّا كـانت في حسّـهِ لونًـا آخـر من ألوان الفناء)[1]

وهكذا عبّر الفيلسوف [أوغسط أُوت] في كتابه عن [مشـكلة الألم] عن موقع الألم من الحياة العدميّة التي صنعها عقل الملحد، فقال: (إذا كان الله مجرّد اسـمٍ عـابثٍ، إذا كـان كـلّ شـيء ينتهي بالنسـبة لنا بـالموت، إذا كـان كُـلّ أملٍ في وجـود أفضل هو وهم، فلنا أن نتساءل إن كانت الحياة تسـتحق أن نعيشـها. نحن نتحـدّث عن التطوّر، ونرغب في ازدهار مستمر لشـؤون الإنسـان، وتكيّفًـا كاملًا بين الملكات الإنسانيّة وطبيعـة العـالم الخـارجي، ولكن هـل لهذه الآمال البعيـدة، وربّمـا المضـلّة، أن تعـوّض الآلام الحاضـرة؟ وحتّى لو تحقّقت، فهل ثمراتها الموعودة تـدوم أكـثر من لحظـة؟)[2]

ز ــ الآفـات الطبيعيـة وعلاقتهـا بالعـدل والرحمـة الإلهية:

أو ما يعبر عنه بـ [مشـكلة الشـر المـادي]، وهي تنقسـم إلى نوعين: آفات للإنسان فيها يد، مثل تلويث البيئـة وإهلاك الحـرث.. وأخرى ليس له عليها سلطان، مثل الزلازل والبراكين والمجاعات.

وسيقتصر حديثنا في هـذا الوجـه عن الآفـات الطبيعيّـة الـتي ليس للإنسـان فيهـا يـد؛ ذلـك أنـا قـد تعرضـنا لغيرهـا في الوجـه السابق.

وقــد أشــارت النصــوص المقدســة إلى الكثــير من الحكم المودعة في ضمن هذا النوع من الآفات منها أن الله تعـالى جعـل بحكمته هذه الدار محلا لاختبار عباده، لينزل كل واحـد منهم ــ في النشأة الآخرة ـ المحل الذي ينسجم مـع طبيعتـه، وتـبرزه أهليتـه،

1() العقاد، الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.، ص225-227.

2 () A. Ott. Le problème du mal (Paris: Fischbacher, 1888), pp.5-6.

فلذلك كانت هذه الدار هي دار التمييز الـتي يتمـيز فيهـا المحسـن من المفسد، والراضي من الساخط، كما قـال تعـالى: }لِيَمِـيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (لأنفـال:37)، وقـال: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَـدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (آل عمران:142)

وقد أشار بعض الصـالحين إلى هـذا المعـنى حين دخـل عليـه جماعـة يزورونـه، فجمـع بـين يديـه حجـارة، ثم قـال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقـال: مـا بالكم ادعيتم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلائي.

وقال آخر: كنت نائما عند بعض الصالحين، فانبهني فقال لي: (يـا فلان، رأيت كـأني قـد وقفت بين يـدي اللـه تعـالى فقـال لي: خلقت الخلـق فكلهم ادعى محبـتي، وخلقت الـدنيا فهـرب مـني تسعة أعشـارهم، وبقي معي العشـر، وخلقت الجنـة فهـرب مـني تسعة اعشـار العشـر، وبقي معي عشـر العشـر، فسـلطت عليهم ذرة من البلاء، فهـرب مـني تسـعة اعشـار عشـر العشـر، فقلت للباقين: معي، لا الدنيا اردتم، ولا الجنة اخذتم ولا من النار هـربتم، فماذا تريدون، قالوا: انك تعلم ما نريـد، فقلت لهم: فـاني مسـلط عليكم من البلاء بعدد انفاسـكم مـا لا تقـوم لـه الجبـال الرواسـي اتصبرون؟ قالوا: اذا كنت انت المبتلي لنا، فافعل ما شئت فهـؤلاء عبادي حقا)

وقال آخر: (الناس ما داموا في عافية مسـتورون، فـإذا نـزل بهم بلاء صـاروا إلى حقـائقهم؛ فصـار المـؤمن إلى إيمانـه، وصـار المنافق إلى نفاقه)

وبناء على هذا يخبرنا القرآن الكـريم عن المواقـف المختلفـة من أنواع البلاء، وتمييز الخلق على أساسها، ففي موقـف الخـوف مثلا يخبر تعالى عن صنفين من الناس: أما الأول، وهو النـاجح في الاختبار، فيذكر وقوفـه كـالطود الأشـمّ أمـام كـل المخـاوف، قـال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران:173)..

وأما غيرهم من الجبناء الساقطين في الاختبار فقد قال تعالى في شأنهم: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (المائدة:52)

وقد أخبر تعالى عن الناجحين في الاختبار بأنه من المنعم عليهم، قال تعالى: قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة:23)، وهذا في مقابلة الساقطين الجبناء الذين قالوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (المائدة: 22)، وقالوا بكل تبجح: يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة:24)

وهكذا في كل المواقف، نجد المؤمنين الصادقين الناجحين فيما أنعم به عليهم من البلاء، ونجد الراسبين الساقطين في الامتحان الذين قال تعالى في شأنهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (الحج:11)

فهذا الخاسر لا يعبد الله في الحقيقة وإنما يعبد أهواءه التي قد تتفق أحيانا مع ما يأمر به الله، فيتوهم الخلق أنه يعبد الله، فلذلك يبتلى بما يظهر حقيقته، ويكشف عن سريرته.

بعد هذا البيان القرآني الذي ليس بعده بيان، نذكر بعض ما أشار إليه العلماء في معرض ردهم على الإشكالات المرتبطة بهذا، ومنها ما عبر عنه [إيونج]، أستاذ الأخلاق في جامعة كامبردج بقوله: (وإنّها لحقيقة واقعة أنّ ثمّة خيرات لا تأتي بغير محصول الشر، فكيف تتسنّى الفضيلة مثلًا بغير المغريات والعوائق ومن ثمّ بغير الشر ولو في صورة الألم والعرقلة؟ وكيف توجد شجاعة بغير ألم أو مشقة أو خطر؟ وكيف يوجد الحب في أرفع حالاته التي نعرفها ما لم يكن هنالك داعية للعطف والإشفاق والتضحية، لا بدّ من شر نغلبه كي نحصل على فضيلة الغلبة عليه، وربّما كان هناك ضروب أخرى من الحب والفضيلة كالتي نتخيّل أنّ الكائنات العليا التي تعلو على طوق الإنسان متصفة بها ولا تنطوي على

شر من الشـــرور، ولكنّها ـــإذا صـــحّ تخيّلناـ نـــوع آخر غـــير حبّنا وفضيلتنا، وكلّما تعدّدت أنواع الفضائل كان ذلك أفضل وأجمل)[1]

وقال الجاحظ معبرا عن هذا المعـنى: (لو كـان الشـرّ صـرفًا هلك الخلق، أو كان الخير محضًا سقطت المحنة وتقطّعت أسـباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومـتى ذهب التخيـير ذهب التمييز، ولم يكن للعـالم تثبّت وتوقّـف وتعلّم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبيّن، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعـة، ولا صـبر على مكــروه ولا شــكر على محبــوب، ولا تفاضــل في بيــان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظّفر وعزّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها محقّ يجد عزّ الحق، ومبطل يجد ذلّة الباطل، ومـوقن يجـد بـرد اليقين، وشـاكّ يجـد نقص الحـيرة وكـرب الوجـوم؛ ولم تكن للنفــوس آمــال ولم تتشــعّبها الأطمــاع.. ولو كــان الأمر على ما يشـتهيه الغرير والجاهل بعـواقب الأمـور، لبطل النّظر وما يشـحذ عليه، وما يدعو إليـه، ولتعطّلت الأرواح من معانيهـا، والعقـول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها)[2]

وقـال النورسـي: (قـال أهـل العقـول والخـبرة: إنمـا تعـرف الأشياء بأضدادها، فلولا تجربة الحاجة لمـا كـان في الكسـب لـذة، ولولا تجربة العجز لمـا كـان في القـدرة لـذة، ولـولا العلّـة لكـانت العافية بلا لذة. وقد أراد الله أن يجعل تجربة المعاناة وآلامها سببًا لمعرفة الخـير ونعيمـه، ليعـرف العبـد فضـل اللـه عليـه، وليتـذوق بلسـان التجربـة عذوبـة النعمـة فلا يزهـد في قـدرها، ويـدرك أنـه يَفضُل بقية الخلق بما حظي به من خير)[3]

1() عباس العقاد، عقائد المفكرين، المجموعة الكاملـة لمؤلفـات العقاد، 11/453.

2() الجاحظ، الحيـوان (بـيروت: دار الكتب العلميـة، 1424ه)ـــ، 1/134-135.

3() النورسي، اللمعات، ص 321.

وقد لخص الطبيب الدكتور [براند] تجربتـه مـع الألم في آخـر أيام حياته بقوله: (اعتقدت في فترة من فترات العمر أنّ الألم هو نقيض السعادة. وكنت أرسم رسـمًا توضـيحيًا للحيـاة، وهـو عبـارة عن رسـم بيـاني ذي قمـة على كـلّ جـانب، ومكـان منخفض في الوسط. تمثّل القمّة اليسرى خبرات الألم والحزن المؤلم، وتمثّـل القمّة اليمنى السعادة والابتهاج، وبين القمتين توجد الحياة العاديـة الهادئة. وأعتقد أن هدفي من ذلك هو أن أوجّه بحزم نحو السعادة وأبتعـد عن الألم. ولكنـني الآن أرى الأمـور بطريقـة مختلفـة، فلـو رسمت مثل هذا الرسـم البيـاني اليـوم، فسـوف تكـون فيـه قمّـة واحدة في المنتصف، ومـا حولهـا سـهول. هـذه القمـة هي الحيـاة التي يلتقي فيها الألم والسرور، والسهول المحيطة بهـا هي النـوم واللامبالاة أو الموت)[1]

ويعبر الفيلسوف الأمريكي [فـان إنـواجن] عن هـذا المعـنى، فيقول: (إذا ألغى الله ببساطة كـلّ غوائل هـذا العـالم بسلسـلة لا تتنـــاهى من الخـــوارق؛ فسيفسد ذلك خطّته الذاتية لمصـــالحة الإنسان معه. إنّه لو فعل ذلـك؛ فسـنكون في حـال رضـى بقـدرنا ولن نرى داعيًا للتعاون معه)[2]

وتذكر بعض الدراسات العلمية أنه أجـري اسـتفتاء لمجموعـة من كبـار السـن في لنـدن، وكـان السـؤال الموجّـه إليهم: (ما هي أسعد فـترة في حياتـك؟)، وكـان جـواب 60 بالمائـة منهم: (فـترة الحـرب!)، ففي كـلّ ليلة تلقي الطـائرات أطنانًـا من المتفجّـرات على المدينـة، وتحـوّل المبـاني الهائلـة إلى حطـام، والآن يتـذكّر الضحايا هذا الوقت باشتياق وحنين؛ فقد اكتسبوا من تلك التجربـة صـفات الشـجاعة والتـآزر والتضـحية، وعرفـوا معـاني التـآخي والتعاون [3].

1() See John Hick, Evil and the God of love, New York, Harper & Row, 1966..

2() Peter van Inwagen, The Problem of Evil (Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 2006), p.88...

3() فيليب يانسي، أين الله في وقت الألم، ص68.

وفي مقالة صدرت في مجلة علميـة عن حيـاة ثلاثمائـة قائـد ممن كان لهم تـأثير بـالغ على حركـة التـاريخ، كشـف البحث أنهم كلهم يشتركون في أمـر واحـد، وهـو أنهم كـانوا أيتامًـا، إمـا أيتـام بسبب وفـاة الوالـدين أو بسـبب حـدوث انفصـال بينهمـا، أو أيتـام عاطفيًا بسبب حرمان قاس في طفولتهم[4].

4() المصدر السابق، ص 175..

ربما تكون الإشكالات الكثيرة الـتي يطرحهـا الملاحـدة حـول الدين هي السبب الأكبر في كل ما نراه من مظاهر الإلحـاد، ذلـك أن أكثر المدارس الإلحادية وفلسفاتها نشأت في ظل الصراع مع رجـال الـدين، وخصوصـا المسـيحية منـه، باعتبارهـا وقفت مـع السـلطات الزمنيـة المسـتبدة، أو قـامت هي نفسـها بالاسـتبداد، ومثـل ذلـك تبنيهـا لبعض المعـارف والعلـوم الـتي لم تثبت علميـا، وبـذلك أصـبح رجـال الـدين يفرضـون الخرافـة والشـعوذة، وكـل أصـناف الجهـل على متـابعيهم، أو يتهمـونهم في حـال رفض ذلـك بالزندقة والهرطقة والبدعة، أو يكفرونهم، ويحرمونهم من الجنـان التي يعدون بها متابعيهم.

ومثل ذلك تلك المدارس الإلحاديـة الجديـدة الـتي اسـتثمرت في التطرف والإرهاب وإدارة التوحش الـتي مارسـها المتطرفـون من المسـلمين، وانطلقـوا فيهـا من منتجـات تاريخيـة أو تراثيـة يزعمون أنها تمثل الإسلام.

وكـان الأصـل في هـؤلاء الملاحـدة، إن كـانوا حقـا يُعملـون عقولهم أن يفرقوا بين الدين والله.. فالله هو خـالق الكـون الـذي دلت عليه كل الأدلة العقلية، بل الذي دلت عليه الفطـرة نفسـها.. أما الأديان، ففيها ما يقبله العقل، وفيها ما يرفضه.

ولذلك كان الخيار السليم التفريق بين الإيمـان باللـه كقضـية عقلية علمية، والموقـف من الأديـان كواقـع موجـود، وهـذا الواقـع يستدعي البحث والتحري للوصول إلى الدين الحقيقي الـذي تثبتـه الأدلة والبراهين العقلية والعلمية.

لكن ذلك لم يحدث لأن الطابع الثوري هـو الـذي كـان سـائدا على تلـك الحركـات والشخصـيات الـتي واجهت الأديـان، والطـابع الثوري ـ كما هو معروف ـ ينحو جهة الاستئصـال والإلغـاء، لا جهـة الـتريث والبحث والتحقيـق والتفريـق بين مـا يقبلـه العقـل ومـا يرفضه.

وبناء على هذا نحاول في هذا الفصل بيان الإشكالات التي يطرحها الملاحدة حول الأديان، وتمييز المقبول منها من المرفوض، ومنهج نقد ما يمكن أن يرفض منها.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن المناظر الناجح هو المناظر الذي يعتمد الإسلام المحمدي الأصيل الذي يعتمد بالدرجة الأولى على مصادر الدين المقدسة، وأولها القرآن الكريم، باعتباره الحكم الأكبر عند التنازع، أما الذي يقدس التراث والتاريخ، ويدافع عن الأخطاء التي وقعت فيهما؛ فإنه يستحيل عليه أن ينتصر على هؤلاء الملاحدة، ذلك أن في التراث الديني والتاريخ المرتبط به أخطاء كثيرة كان على المتدينين أن يتخلصوا منها حتى لا تصير عبئا على الدين، وحجابا بين الخلق وربهم.

وبناء على استقراء الإشكالات التي يطرحها الملاحدة في هذا الجانب رأينا أنها تنحصر في أربع مجامع كبرى:

أولها: **الإشكالات المرتبطة بمصدر الدين**: وهل هو الوحي الإلهي، أم هي الخيالات النفسية، وغيرها.. وفي حال كونه وحيا إلهيا، هل هناك براهين تدل عليه، أم أنه يخلو من تلك البراهين؟

ثانيها: الإشكالات المرتبطة بتاريخ الأديان: وهو التاريخ الذي كان للدين فيه علاقة إما مباشرة بالحكم الديني، أو كان فيه علاقة لرجال الدين برجال السياسة.

ثالثا ــ الإشكالات المرتبطة بالحقائق الدينية: وهي الحقائق الغيبية العقدية التي جاءت الأديان لتقريرها ومدى حظها من العقلانية والعلمية.

رابعا ــ الإشكالات المرتبطة بالقيم الدينية: وهي المعاني السلوكية والأخلاقية التي جاءت الأديان للدعوة إليها، وحظها من القبول والرفض.

وبما أننا أشرنا إلى الإشكال الثاني، وعدم علاقة الدين بكل ما حصل في تاريخه من انحرافات في الفصل الخاص بالإلحاد

والتنوير الاجتماعي.

وأشرنا إلى الإشكال الثالث في الفصول الأولى من الكتــاب، تلك التي تقرر مدى علمية وعقلانية الحقائق الغيبية التي جـاء بهـا الدين.

وأشرنا إلى الإشـكال الرابـع عنـد حـديثنا عن القيم الأخلاقيـة والتحرر النفسي.

فسنكتفي هنا بالإشكال الأساسي الأكـبر، والـذي عليـه تنبـني الأديان، وهو مصدرها، وهـل هي رسـائل إلهيـة أعلن اللـه بهـا عن نفسـه من بـاب رعايتـه بخلقـه ولطفـه بهم، أم أنهـا نتـاج حـالات نفسية وبيئة اجتماعية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أننا سنخصص جزءا خاصا في التدريب على المناظرة في إثبات نبوة رسول الله ﷺ، وسـنطرح كـل هـذه الإشكالات بطريقة أكثر تفصيلا ودقة.

بناء على هذا، فسنتناول في هذا الفصل مبحثين: أولهما حول رؤيـة الملاحـدة لمصـدر الـدين، وثانيهمـا حـول رؤيـة المؤمـنين لمصدره.

أولا ـ الرؤية الإلحادية لمصدر الدين:

بناء على مادية النظرة الإلحادية للكون والحياة، فإن التفسير الطبيعي لمصدر الدين عند كل الملاحـدة هـو الإنسـان، والعوامـل النفسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية المـؤثرة فيـه أو في حياتـه أو المجتمع الذي يعيش فيه.

وسـنحاول أن نلخص باختصـار هنـا أهم تلـك النظريـات الـتي اعتمد عليهـا الملاحـدة في تفسـير نشـأة الـدين، مثلمـا فعلنـا في النظريات المرتبطة بتفسير نشأة الكون والحياة، ونعقب عليها بما يبين تهافتها، والمغالطـات الـتي تعتمـد عليهـا، معتمـدين في ذلـك على ما كتبـه العلامـة جعفـر الهـادي في كتابـه القيم [اللـه خـالق الكون: دراسةٌ علميّةٌ حديثـة للمنـاهج والنظريّـات المختلفـةِ حـولَ

نشأةِ الكونِ ومسألةِ الخالقِ][1]، فهو كتاب طـرح هـذه النظريـات طرحا علميا مبسطا، وذكر كل ما يرتبط بها من انتقادات، بطريقة مبسطة واضحة.

1 ـ نظرية الخوف من الحوادث الطبيعية:

وهي نظرة معتمدة كثيرا لـدى الملاحـدة الجـدد، وهي تعتمـد على تفسير نشأة التديّن وتعليـل ظهـور الاعتقـاد بوجـود اللـه بين البشـر بعامـل نفسي، كمـا قـال [ويـل ديـورانت] معـبرا عن هـذا الاتجاه: (الخوف ــ كمـا قـال [لـو كريشـس] ــ أوّل أُمّهـات الآلهـة وخصوصاً الخوف من الموت، فقـد كـانت الحيـاة البدائيـة محاطـة بمئـات الأخطـار وقلّمـا جاءتهـا المنيّـة عن طريـق الشـيخوخة الطبيعية، فقبـل أن تـدبّ الشـيخوخة في الأجسـام بـزمن طويـل كانت كثرة الناس تقضـي بعامـل من عوامـل الاعتـداء العـنيف، أو بمرض غريب يفتك بها فتكاً، ومن هنا لم يصـدق الإنسـان البـدائي أنّ المـوت ظـاهرة طبيعيـة وعـزاه إلى فعـل الكائنـات الخارقـة للطبيعة، وتعاونت عدّة عوامـل على خلـق العقيـدة الدينية، فمنهـا الخوف من الموت، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث الـتي تأتي مصـادفة أو الاحـداث الّـتي ليس في مقـدور الإنسـان فهمها، ومنها الأمل في معونة الآلهـة والشكـر علـى مـا يصيـب الإنســان مـن حـظ سعيـد)[2]

ثم جاء [برتراند راسل]، وتوسّع في هذه النظريـة وردّ نشـوء العقيـدة إلى ثلاثـة أسـباب هي: (الخـوف من القـوى الطبيعيـة القـاهرة، كالرعـد والـبرق والـزلازل والسـيول الّـتي تهـدّد حيـاة الإنسان، بل وتقضي عليها أحياناً.. والأضرار الّتي تلحق به من أبناء جنسـه في ميـادين القتـال، أو حـالات الهجـوم والغـزو.. والخـوف الحاصل له بعـد الإقـدام على بعض الأعمـال الجنسـية عنـد فـورة

---

1) الله خالقِ الكون: دراسةٌ علميّةٌ حديثة للمناهج والنظريّات المختلفةِ حولَ نشأةِ الكونِ ومسألةِ الخالقِ ، جعفر الهادي، اشراف جعفر السبحاني، قم: موسسه الامام الصادق عليه السلام، 1424 ق. = 1382، ص 18، فما بعدها.

2) قصة الحضارة: 1 / 99 ـ 100..

الشهوة وهيجان الغريزة الجنسية، وما يتبع ذلك من الاستيحاش ممّا فعل والندم ممّا ارتكب)

فهذه الأُمور ـ في نظر راسل ـ هي التي جعلت الإنسان يلوذ إلى (قوة عليا) اخترعها ليسكن إلى حمايتها، ويرتاح في كنفها.

وما ذكره يوقفنا على ثلاثة إشكالات أساسية في هذه النظرية، وما قيل في تقريرها وتبريرها:

أولها: هو أن أصحاب هذه النظرية اتّفقوا على الغفلة عن أنّ هناك عللاً طبيعية روحية كالفطرة، أو منطقية وعقلية، هي التي دعت العقول والفطر إلى إثبات وجود قوة عليا عندما يواجه هذا النظام البديع، وهذه العلل الّتي تكشف عن أنّ للاعتقاد جذوراً واقعية في النفس والعقل الإنسانيّين غير عامل الخوف من الحوادث الطبيعية المرعبة.

والعقل يدل على أنّ مجال نحت التعليلات الفرضية يختص بالعادات والحالات الّتي لا يوجد لها جذور واقعية في النفس أو العقل الإنسانيّين، كالتشاؤم لرؤية الغراب أو سماع نعيبه، أو الاعتقاد بنحوسة الرقم 13، وغير ذلك من التقاليد والعادات الخرافية السائدة في بعض الأُمم والشعوب على اختلاف مسالكها وعقائدها.

وأمّا ما كان له جذور واقعية في النفس الإنسانية بأن كان له علّة طبيعية، أو سبب منطقي في فطرة الإنسان وعقله، فإنه لا يكون موضعاً للفرضيات المنحوتة والتعليلات الاحتمالية، بل يكون تجاهل تلك العلّة الواقعية الطبيعية والسبب المنطقي ظلماً فضيعاً بحق العلم والفلسفة، وهو ما ارتكبه أصحاب هذه النظرية ومؤيدوها، وذلك عندما رفضوا أوتجاهلوا (فطرية التديّن) أو (الرابطة العقلية بين مشاهدة النظام والاعتقاد بوجود منظم للكون)، وعمدوا إلى اختراع هذه النظرية وتفسير نشوء العقيدة بها.

ثانيا: إنّ هذه التعليلات فرضيات ذهنية لا يدعمها أيُّ دليل يفيد يقيناً، ويوجب اطمئناناً، وهي تبقى كذلك فرضيات ليس لها

أيّ قيمة علمية مهما ألبسوا عليها من حلل الألفاظ، وأفاضوا عليها من الأصباغ والألوان الزاهية.. فهل يمكن للعقل أن يقتنع بشيء لا يدعمه دليل، ولا يؤيّده برهان.

ولأجل ذلك لا يتّفـق أمثـال هـؤلاء المحلّلين في تحليلهم على أساس واحد، ولا ينطلقون من منطلق واحد، بـل يحلّـل كـل واحـد منهم هذه الظاهرة حسب مزاجه ومتأثراً بمـا يتعاطـاه من العلـوم ويتبّنـاه من أفكـار، فالعـالم النفسـي يسـنده إلى عامـل نفسـي، والعالم الاجتماعي يسنده إلى عوامل اجتماعية، وثالث يسنده إلى أسـباب اقتصـادية، ورابـع ينحت لـه فروضـاً جنسـية تشـمئز منهـا الطباع السليمة، وهكذا.

ثالثا: أنه من الظلم الفاحش أن ينسب اعتقـاد الشخصـيات العظيمة من كبار العبـاقرة وأسـاطين العلم والفكـر الـذين برعـوا في إلجــام الطبيعــة، وتســخير بعض قواهــا، وكبح جماحهــا ودرء أخطارهـا عن البشـر، إلى عامـل الخـوف من الحـوادث الطبيعيـة المرعبة؛ أفيصح أن ننسب اعتقـاد سـقراط وإفلاطـون وأرسـطو، وغيرهم من كبار الفلاسفة الاغريق، والفارابي وابن سينا والــرازي وابن الهيثم ونصير الـدين الطوسـي وجـابر بن حيـان وغـيرهم من عمالقة الشرق، وغـاليلو وديكـارت ونيـوتن وباسـتور وغـيرهم من رجالات الغـرب، إلى عامـل الخـوف من الحـوادث الطبيعيـة، وهم أهل عقل وفهم، ورجال علم واستدلال؟

فلم لا يكون اعتقاد الإنسان البدائي ـ على غرار اعتقاد هـؤلاء العلمـاء ــ مبنيّـاً على الاسـتدلال العقلي المتناسـب مـع مداركـه، وناشئاً من فطرته النقية.

ثم إنّ المادّيين يتذرّعون ـ أحياناً لتبرير هذه النظرية بما تبعثه العقائد الدينية في النفس من السكون والطمأنينة، وبما يكون لهـا من أثر في طرد الوحشة والقلق والاضطراب عن الإنسان.

والجواب هو: إنّ العقائد الدينية والإيمان باللـه القـادر الحكيم العــادل الــرحيم، تخفّــف ــ بلا شــك ــ من القلــق، وتبعث على الطمأنينة والسكون، إلاّ انّ هذا لا يعني أنّهم اخترعوا فكـرة وجـود

الله لتحقّق لهم مثل هذه الحالة، فهناك فرق بين (دوافع) نشأة العقيدة وبين (آثارها) الطبيعية.

وقد خلط أصحاب هذه النظرية بين الدوافع والآثار حيث تصوّروا أنّ طلب الطمأنينة والأمن هو الّذي دفع بالبشر إلى اختراع وافتعال فكرة (القوة العليا) ليكتسبوا في ظلّها هذه الحالة، في حين أنّ حصول الطمأنينة وما شاكلها إنّما هو من الآثار المترتّبة على العقيدة لامن دوافع إيجادها، فمن آمن بالله قويت عزيمته وسكنت نفسه، لأنّه ربطها بقدرته المطلقة، وحصول هذه الأُمور إنّما يكون بعد الاعتقاد بوجود ذلك الفاعل القادر لا باعثاً على تصوّره واختراعه.

رابعا: إنّ ادّعاء المادّيين بأنّ الاعتقاد بالله وعبادته والخضوع له جاء نتيجة خوف الإنسان من الحوادث الطبيعية الرهيبة ليس مبنيّاً على أيّ أساس صحيح، إذ لا ملازمة عقلية أو عادية بين (الخوف) (واختراع فكرة الإله) في الذهن، فإنّه لابدّ من وجود ملازمة عقلية أو عرفية بين (المقدّمة) و(النتيجة) حتّى يكون تصوّر المقدّمة موجباً للانتقال إلى النتيجة، وليس هاهنا أيّة ملازمة من هذا النمط بين الخوف من الحوادث الطبيعية المرعبة، وبين تصوّر خالق للكون قادر على دفع البلايا.

فإنّ فكرة (الخالق الإله) ليست هي نفس الخوف من الحوادث المرعبة، ولا تلازم بين وجود الخوف في الذهن الإنساني من تلك الحوادث وهذه الفكرة، فكيف ـ والحال هذه ـ يمكن أن تستنتج فكرة الإله الخالق من حالة الخوف؟!

وذلك لأنّ التداعي بين الأمرين النفسيّين لا يتحقّق إلاّ أن يكون بينهما نوع ملازمة عقلية أو عرفية، والحال انّه لا وجود لمثل هذه الملازمة لدى الإنسان الذي يعيش في العصور الأُولى، الّذي يسند المادّيون اعتقاده بالإله الخالق إلى خوفه من الحوادث الطبيعية الرهيبة.

فلو لم تكن فكرة الخالق الإله أمراً قد فطر عليه الإنسان وحقيقة يميل إليها في أعماق قلبه وضميره، أو لم يكن برهان

وجوده مركوزاً في عقله وإدراكـه، لاسـتحال أن ينتقـل في (حالـة الخوف من الحوادث الطبيعية المخيفـة) إلى فكـرة الخـالق الإلـه، وهذا بخلاف ما إذا كانت فكرة الخالق الإله أمراً ارتكازيـاً للإنسـان أو ثابتاً بالبرهان في ذهنه، فانّ هذا يكـون وسـيلة للانتقـال ــ عنـد مواجهة الحوادث المخيفة ــ إلى وجـود الخـالق الالـه القـادر على دفع الشر عنه.

2 ـ نظرية الجهل بالعلل الطبيعية:

وتنص هــذه النظريــة الــتي تلقى أيضــا رواجــا كبــيرا لــدى الملاحدة الجـدد على أن الإنسـان البـدائي عنـدما واجـه الحـوادث الطبيعية كالزلازل والسيول والكسوف والخسوف، الّتي تحيـط بـه ولم يعرف عللها الطبيعية الواقعية لجـأ لجهلـه إلى اخـتراع فاعـل لها، واعتـبره العلّـة الوحيـدة لكـلّ شـيء مباشـرة، وكلّمـا تكامـل فكريــاً، واســتطاع من خلال اكتشــافاته وتحليلاتــه أن يقــف على السبب الطبيعي المادي لكل حادثة، أسند كل ظـاهرة إلى عاملهـا الطبيعي الحقيقي، وتخلّى عن إسنادها إلى تلك (القـوة الوحيـدة)، وهكـذا كـان الاعتقـاد بوجـود اللـه وليـد الجهـل بأسـباب الحـوادث الكونية الطبيعية.

وقد أُطلق مصطلح [إله الفراغات] أو [إله الفجوات] على ما تنص عليه هذه النظرية، وكـان أول من أطلقـه [هيـنري درومونـد] في القرن التاسع عشر.

وقد قال [ويل ديـورانت] معـبرا عن هـذه النظريـة: (تعـاونت عدّة عوامل على خلق العقيدة الدينيـة، منهـا الدهشـة لمـا يسـبب الحوادث الّتي تـأتي مصـادفة، أو الأحـداث الّـتي ليس في مقـدور الإنسان فهمها)[1]

وقال بعض علماء الاجتماع: (إنّ العلم وإن وقـف على جملـة من علل الحوادث إلاّ أنّه لازالت هناك حوادث لم تقع في إطار هذا العلم، ولا زالت تعاني من الإبهام والغموض، وهذا هو الّـذي سـبب نشوء العقيدة الدينية)

[1] قصة الحضارة: 1 / 100.

ومن هنـا نجـد الملاحـدة ينـادون بتنـافي العلم والـدين، لأنّ (العلم) عنـدهم يسـند الأُمـور إلى عللهـا الطبيعيـة، ويكشـف عن العلاقـات الماديـة بين الظـواهر الطبيعيـة ومناشـئها، بينمـا يسـند (الدين) كلّ تلك الظواهر والحوادث إلى علّة واحدة يقيمهـا مكـان جميع العلل الواقعية.

ولهذا أيضاً ذهبـوا إلى أنّ تقـدّم العلـوم ونجاحهـا في كشـف الموضوعات الطبيعية، والسنن الحاكمة في الكـون يزعـزع مكانـة الـدين، ويـوجب انحسـار الاعتقـاد بالخـالق، وتراجعـه إلى زاويـة النسيان.

ومن الانتقادات الموجهة لهذه النظرية:

أولا ـ مـا ذكرنـاه سـابقا من أنّ افتعـال مثـل هـذه الفـروض والاحتمالات إنّما يصحّ في الأُمور والعـادات الـتي لم يكن لهـا علّـة واقعية ـ روحية أومنطقية ـ عند البشر، أمّا عندما يكـون للعـادة أو الحالة سبب واضح ـ كما هو الحال في مسألة الاعتقاد باللـه ــ فلا مجال لمثل هذه التعليلات، بل هي حينئـذ تكـون ضـربا من الخيـال الّذي تأباه العقول السليمة، ويرفضه المنطق السوي.

ثانياً: انّ هذا التحليل ينمّ عن جهـل صـاحبه باعتقـاد الإلهيّين ومنطقهم على اختلاف مسالكهم ومشاربهم؛ فإنّ الاعتقـاد بخـالق للكون باعتباره العلّة العليا ـ عند الإلهيّين ــ لا يعـني تجاهـل العلـل الطبيعيـة، وإنكـار الروابـط الماديـة بينهـا وبين معاليلهـا، ليكـون انكشاف العلـل والروابـط في ضـوء العلم سـبباً لـتزعزع الاعتقـاد بوجود الله وانحساره.

ونسـبة هـذا الإمـر إلى الإلهيّين محض كـذب وافـتراء، وعين الظلم والجفاء، وأيّ ظلم أشد من أن ننسب إلى طائفة كبرى من البشر ما لا يقولون به، بل وما هم بريئون منه، فانّ الاعتقـاد باللـه ليس ـ عندهم ـ بمعنى إنكار العلل، بـل هـو بمعـنى أنّهم يعتقـدون بأنّ النظام العلّي السببي السائد في الكـون، يرجـع في مآلـه إلى قـوة عليـا، وينتهي إلى مبـدأ أعلى هـو علّـة العلـل، وهـو مسـبب الأسباب، وهو موجد ذلك النظام العلّي.

فالإنسان إذا أطلّ على هذا الكون، وشاهد مافيه من أنظمة بسيطة وأُخرى معقدة تنظم ظواهر الطبيعة، وتسير على وفقها جميع الحوادث بانتظام، ودون فوضى أو عبثية جرته هذه النظرة الفاحصة، إلى الاعتقاد بقوة مدبّرة منظمة خالقة وراء هذا الكون العظيم، ونظامه البديع، هو الّذي أوجد الكون، وأرسى فيه السنن.

فالاعتقاد بذلك الخالق القادر المدبّر وليد الاعتقاد بالنظام السببي العلّي، والإيمان بالعلل الطبيعية لا إنكارها وتجاهلها كما زعم أوتوهّم أصحاب هذه الفرضية من الماديّين، واتّهموا به الإلهيّين.

وبعبارة أُخرى: انّ الإلهي لا يثبت وجود الله عند عدم العلم بعلل الحوادث وعند المبهمات والغوامض، بل يعتقد به عندما يقف على النظم الكونية السائدة، والأُمور الواضحة السياق، البيّنة النظام، فطريقه إلى الإذعان والإيمان بوجوده هو ما يشاهده من التنسيق والانسجام، والترابط والنظام، لا ما قد يصادفه من الفوضى والعشوائية.

ولذلك نرى المشتغل بدراسة الطبيعة المهتم بعالم الأحياء كلّما ازداد علماً بأسرار الكون، ووعياً وإدراكاً لقوانينه ازداد إيماناً ويقيناً بوجود الخالق، الموجد لتلك القوانين، الخالق لتلك السنن، فتقدّم العلم والإدراك والاكتشاف يخدم هذا الاعتقاد لا أنّه يهدده أو يزعزعه لأنّه كان ولا يزال الطريق المنطقي إلى هذا الإيمان.

ولهذا فليس الإلهي هو من يبحث عن وجود الإله فيما يجهل علله وأسبابه، وهو الّذي لم يزل ـ منذ أوّل الهي وإلى الآن ـ يستدلّ على وجود الخالق المدبّر بالأنظمة السائدة في الكون من دقيقها إلى جليلها، فكيف يعزى إليه أنّه يثبت وجود الله ويعتقد به بما يجهل فيه الأسباب والعلل الطبيعية من الظواهر الكونية؟

ويكفي لمعرفة هذه الحقيقة والتأكد منها الرجوع إلى منطق الإلهيّين واستدلالهم منذ أقدم العصور إلى الآن، فهذا سقراط يستدلّ في محاورته مع اريستوديم بالنظام على وجود الخالق، فمما جاء فيها قول سقراط: (ألا ترى (يا اريستوديم) أنّ من دلائل

التـدبير والحكمـة أن تمتّـع العين ــ وهي ضـعيفة ــ بجفـون تنفتح وتنغلق عند الحاجة وتنطبق عند النّوم طول الليل، وأن توهب تلك العين غربالاً من أهداب لتقيها فعـل الريـاح الثـائرة، وأن تمنح لهـا تلك الحـواجب كمـيزاب يمنـع عنهـا غوائـل العـرق المتسـاقط من الرأس، وأن تصنع الأُذن على صـورة لا تكـلُّ عن سـماع الأصـوات ولا يعتاض الحس بها، وأن تعطى جميـع الحيوانـات أسـناناً أماميـة لقطع الأغذيـة، وأضراسـاً جانبيـة لسـحقها، وأن يكـون الفم الّـذي تدخل منه الحيوانات الأغذيـة الصـالحة لهـا إلى أجوافهـا موضـوعاً قريباً من العينين والمناخير.. أترى نفسك بازاء كـل هـذه الأعمـال الّـتي تـدلّ على تـدبير وحكمـة، لا تـزال مـتردّداً بين عزوهـا إلى الصدفة والاتّفاق، وبين اسنادها للحكمة والعلم؟)

فأجابه [أريستوديم]: (لا والإلـه فـانّ أقـلّ نظـر في الكائنـات الحية يدلّنا على أنّ هنالك ذات عالم رحيم خلقها وعدّلها)[1]

بل إن القـرآن الكـريم يسـتدلّ على وجـوده سـبحانه بـالنظم السائدة في شتّى مجالات الطبيعة، فالله تعالى يقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: 35، 36]، ويقول: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـاتٍ لِلْعَـالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَـاؤُكُمْ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَسْـمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِـهِ يُـرِيكُمُ الْبَـرْقَ خَوْفًـا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) ﴾ [الروم: 20 - 24]

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثـير جعلت النظـام السـائد في الكون ـ الّذي يوقف الإنسـان على الانسـجام والترابـط والنظـام ـ دليلاً على وجود منظم لهذا الكون، وليست (الآية) في هذه الآيـات إلاّ بمعنى (العلامة) فهي علامات على دخالة الشـعور والعقـل في

---

1) انظر: الإسلام وعصر العلم لفريد وجدي: 163 ـ 164.

ابتداع هذا النظام.

ثالثاً: أنّ هذه الفرضية تقوم على أساس كـون البشـر كـانوا يعتقدون بقانون العلّية، وهذا يعـني أنّ الإنسـان البـدائي لمّـا كـان يجهل العلل الواقعيـة للظـواهر الطبيعيـة آل بـه هـذا الاعتقـاد إلى اختراع فكرة (خالق الكون) وإحلالهـا محـل العلـل الطبيعيـة الّـتي كان يجهلها، حتّى يرضي وجدانه الّذي يلحُّ عليه بنسبة كـلّ ظـاهرة إلى علّة، فلوكان البشر البدائي مـدركاً ــ بهـذه المنزلـة ــ لقـانون العلّية فلِمَ لا يكون اعتقـاده باللـه، ناشـئاً عن إذعانـه بـأنّ النظـام الرائع السائد في الكون الّذي لا ينفـك عن تـأثير بعض أجزائـه في بعض، وانسجام بعضه مع بعض، قد وجد بفعل قوّة عالمة، وعارفة بالسنن والقوانين الكونية اللازمة.

رابعا ـ أنهم لو نظروا في المصادر المقدسة للأديان، وخاصة لمـا لم يحـرف منهـا، فسـيجدونها تـدعو إلى البحث للتعـرف على حقائق الأشياء، ويروا أنّ القرآن الكريم كيف يحارب الجهـل أشـدّ المحاربة، ويمنع أتباعه من الاعتقـاد بشـيء بـدون علم، كمـا قـال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 36]

بل إنه يضيف إلى ذلك، فيستدلّ على وجوده سبحانه بالنظام السـائد في الطبيعـة والكـون، ويطلب من المؤمـنين النظـر في الطبيعة واستجلاء أسرارها وفهم قوانينها إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّـمَاءِ كَيْـفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُـطِحَتْ ﴾ [الغاشـية: 17 - 20]

ويخبر عن المؤمـنين وتفكـرهم في الكـون، فيقـول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْـرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْـرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ﴾ [البقرة: 164]

فكيف يجوز لأصحاب هذه النظرية ـ والحال هذه ـ أن يفـتروا على أصحاب الرسالات الإلهية بـأنّ دعـوتهم إلى اللـه سـبحانه لم تكن إلاّ بسبب جهلهم بالعلل الطبيعية، والأسباب الواقعية للظواهر الكونية.

بل إن القرآن الكريم يصرّح بـأنّ العلمـاء هم الـذين يخشـون الله دون غيرهم، إذ يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـاءُ ﴾ [فاطر: 28]، فالآية الكريمة تصف العلماء بالخشية والخـوف منـه سبحانه، لا الجبن الّذي هو في مقابـل الشـجاعة، فـإنّ الجبن أمـر مذموم، لأنّه حالة تسيطر على الإنسان لأجل تجنّبه للأُمور المرعبة غير الواقعية كالخوف من الغول، أو الظلمة الموجودة في قبو مـع العلم بعدم وجود ما يخيف حقيقة.

وأمّـا الخشـية فهي عبـارة عن إحسـاس الإنسـان بالعظمـة الإلهيـة الّـتي تملأ الصـدور والنفـوس مهابـة عنـد مشـاهدة عظيم خلقه، وجليل فعله.

وهذا الأمر مسبّب عن علم الإنسان بالعظمة الإلهية لا جهلـه، ووعيـه، لا توهّمـه وتخيّلـه، وأمّـا الخـوف منـه سـبحانه، فلأجـل أنّ الإنسان العاقل يخاف في قرارة نفسـه أن لا يقـوم بمـا عليـه من وظائف العبودية تجاه ذلك الرب العظيم.

خامسا ـ أنه لـو كـانت فكـرة الإلـه وعبادتـه والخضـوع لـه والإيثار في سبيله والاعتقـاد بالمسـؤولية تجاهـه من ولائـد الجهـل البشـري بالأسـباب الطبيعيـة والخـوف من الحـوادث الكونيـة المرعبـة، فلمـاذا نجـد هـذه الفكـرة قائمـة حتّى في المجتمعـات الحاضـرة رغم انتفـاء دواعيهـا من الجهـل والخـوف، حيث لاجهـل بسبب ما اكتشفته العلـوم من العلـل الطبيعيـة، ولا خـوف بسـبب تغلب الإنسـان الحـديث على أكـثر حـوادث الطبيعـة، وتمكّنـه من تجنب أضرارها وأخطارها.

فمـا الّـذي يفسّـر بقـاء فكـرة (الإلـه المعبـود المقـدّس) بين المجتمعـات الحاضـرة، والإحسـاس بالمسـؤولية تجاهـه والسـعي لتحصيل رضاه، وما يلحق كـلّ ذلـك من الاعتقـادات والممارسـات

العملية الدينية وقد زال الجهل والخوف؟

أليس بقاء هذا الأمر ـ مع زوال ما قيل عن علّته ـ يعدّ دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على أنّ هناك عاملاً آخر، غير عامل الجهل والخوف، وراء نشأة فكرة (الإله المعبود) هو الّذي دفع الذهن الإنساني إلى الالتزام بهذه الفكرة والمعتقد إلى اليوم؟

ولو قيل: صحيح انّ العلماء والمفكّرين في هذا العصر تغلّبوا على الطبيعة وكبحوا جماحها، وعرفوا أسرارها وعللها وتحرّروا من الجهل والخوف، ولكنّهم ورثوا فكرة (الإله المعبود) من آبائهم وأسلافهم، ولم يستطيعوا التخلّص منها والتحرر من رواسبها.

فإنّنا نقول: وهل هذا إلاّ ازدراء بمثل هؤلاء العلماء والمفكّرين، واحتقار لشأنهم، وتجاهل لما هم عليه من سداد الفكر، ورشادة العقل، وقوة التحليل الّتي تأبى التقليد الأعمى، وترفض التبعية الجاهلة.

سادسا ـ أن أصحاب هاته الفرضية والتي قبلها لم يميّزوا بين الدافع للعقيدة، وبين ما يترتّب على ذلك الدافع، في القيمة، فلا يمكن أن تكون (الدوافع) لشيء و(ما يترتب عليها من الآثار والنتائج) ذات قيمة واحدة، فقد يكون الدافع نحو الشيء أمراً تافهاً لاقيمة له، بينما تكون النتائج والقضايا الحاصلة من ذلك الدافع ذات قيمة عالية جداً كما في المقام.

فعلاقة الإنسان بالثروة والشهرة هي الّتي تدفع إلى الاكتشاف والاختراع، ومن المعلوم أنّ الدافع هنا أمر رخيص، ولكنّ الأثر الناتج عنه ذو قيمة عالية.

كما أنّ الحرب وراء أكثر الاكتشافات والاختراعات، والحال انّ الحرب ـ كما نعلم ــ دافع رخيص، بينما يكون ما ينشأ على أثرها من التحوّلات العلمية والصناعية ذا قيمة عالية.

ولهذا لابدّ من الفرز والتفريق بين (الدافع) و(الآثار)، وعدم الخلط بينهما في تفسير ظاهرة من الظواهر.

سابعا ــ أنّ هؤلاء المحلّلين قد افترضوا أمراً من عند

أنفسهم وهو (انّ الاعتقاد بالله اعتقاد بأمر موهوم وباطل)، وبعد أن اعتبروا ذلك أمراً مسلّماً لا نقاش فيه عمدوا إلى البحث عن أسباب نشوء هذا الأمر الباطل الموهوم فنحتوا ما نحتوا، والحال أنّ هذا نفس المدّعى، إذ لو لم يكن نفس الاعتقاد بوجود الله أمراً باطلاً ـ في نظرهم ـ بل كان ممّا يدعمه الدليل الصحيح والبرهان الواضح لما نحتوا هذه الفرضيات لتفسير نشوئه، فإن الإنسان العاقل لا يتحرّى عن أسباب الاعتقاد بالمعادلة الحسابية التالية: 2×2 =ـ 4 مثلاً، لأنّ هذا الاعتقاد بهذه المعادلة يستند إلى أمر واقعي، فلا مجال فيه لاختلاق أسباب، ونحت علل وفرضيات.

ثامنا ــ أن هؤلاء الذين احتقروا الإيمان، واعتبروه مجرد هروب من الحقيقة العلمية، راحوا يكذبون على أنفسهم بإله جديد بدل إله الفراغات، وهو إله لا دليل عليه إلا الهوى، والذي يمكن تسميته [ملايين السنين]، فهم يستخدمون هذه العبارة في في كل المعضلات العلمية الصعبة التي يواجهون بها، حيث نسمع قولهم دائما: (نحتاج فقط إلى ملايين السنين ليخرج نظام حيّ ذكي من عبثية عشوائية غبية)

وقولهم: (تحولت الخلايا البسيطة إلى مخلوقات معقدة بعدملايين السنين وليس بشكل مباشر كما تظنون)

وقولهم: ((الجهاز التناسلي كان بسيط جدًا وبعد ملايين السنين أصبح جهاز كامل الوظائف)

وقولهم: ((الديناصورات لم تتحول إلى طيور فجأة.. بل استغرق ذلك ملايين السنين)

والمشكلة العويصة هو أنّ [ملايين السنين] التي يفرون بها من الله، لا تعني ملايين من السنين المنتظمة وإنما تعني ملايين من السنين العشوائية والعبثية، والتي تخرج في الأخير كونا في منتهى الدقة والإحكام.

مع أنّ العشوائية تزداد فوضويتها وعبثيتها كلما منحناها المزيد من الوقت .. وكلما زاد الوقت ابتعدت العشوائية عن النظام واتجهت إلى الخراب والفوضى أكثر. وليس العكس!

3 ـ نظرية العامل الاقتصادي:

وهي النظرية التي تنص على أن العامل اقتصادي هو السبب في ظهور الدين، ومثله كلّ ما في المجتمع من علم وفلسفة وفن وثقافة، وآداب وتقاليد وسنن دينية، فالأفكار الدينية والفلسفة الميتافيزيقية ــ حسب تحليلهم ــ ليست إلاّ ردة فعل للأوضاع الاقتصادية السائدة في المجتمع، تماماً مثل بقية الظواهر الاجتماعية المذكورة من غير فرق بين ظاهرة وأُخرى.

ونص بعض أصحاب هذه النظرية على أن الدين والمفاهيم الدينيّة كانت آلة طيّعة بيد المستغِلّين لإخماد ثورة المستغَلّين، من الفلاّحين والعمال، ونص آخرون على أنّ الدين بلسم مسكن كان يلجأ إليه المحرومون والمضطهدون أنفسهم للتخفيف من آلامهم، وتبرير أوضاعهم، وعجزهم عن إصلاحها.

وأصحاب هذه النظرية هم الشيوعيون الذين ذهبوا إلى أنّ كلّ ما في المجتمع البشري ينقسم إلى بنية تحتية، وبنية فوقية، والبنية التحتية عبارة عن الوضع الاقتصادي وتطور وسائل الإنتاج وتكاملها، وما ينشأ ــ بتبعها ــ من العلاقات الاقتصادية، والبنية الفوقية عبارة عن الأفكار الاجتماعية والسياسية والثقافية والأدب والفن والدين والفلسفة، فكل هذه الأُمور تتبع في شكلها ونوعيتها الوضع الاقتصادي ونوعيّة العلاقات الاقتصادية الناجمة بدورها عن تطور وسائل الإنتاج وتكاملها.

وقد قال (كونستانيتوف) معبرا عن ذلك: (ينبغي البحث عن منبع الأفكار الاجتماعية والسياسية والحقوقية والدينية في الاقتصاد قبل كل شيء)[1]

هذا هو الأصل الّذي اخترعه الماركسيّون لتعليل جميع الظواهر الاجتماعية، وبذلك أرادوا تقسيم الأشياء إلى نوعين: أصيل، وغير أصيل. والأوّل متبوع والثاني تابع، يتغير بتغيّر الأوّل، ويتكامل بتكامله وتطوّره.

---

1) دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع: 4.

وهكـذا فسّـروا ظـاهرة العقيـدة الدينيـة فزعمـوا انّهـا تابعـة للظروف والعلاقات الاقتصادية، وانّ المفاهيم الدينية ليست سوى ردة فعل للأوضاع الاقتصادية المتدهورة.

ولأجل ذلك فإنّ أصحاب الرق والاقطاعيّين والرأسماليّين في عهـود (الـرق والاقطـاع والرأسـمالية) كلّمـا خشـوا ثـورة العبيـد والفلاحين والعمال في وجه المستغِلّين لهم بسبب ما يلاقونـه من الضغوط، عمدوا إلى التوسّل بالمفاهيم الدينية والروحية وروّجوها بين المحرومين والكادحين الناقمين بهدف تخديرهم والتخفيف من غضـبهم، وصـرفهم عن الانتفاضـة والثـورة، وبهـدف تكـريس خضوعهم واستسلامهم لإرادة الأسياد والاقطـاعيّين والرأسـماليّين واستغلالهم، وكان من ذلـك الـدعوة إلى الصـبر، وبـأنّ التـذرع بـه يستعقب أجراً عظيمـاً في اليـوم الآخـر، ووعـدهم بالجنـة ونعيمهـا المقيم.

وهـذا التحليـل المفتعـل هـو الّـذي قصـده مـاركس وانجلـز بقولهما: (وما القوانين والقواعـد الأخلاقيـة، والأديـان بالنسـبة إلى العامل إلاّ أوهام برجوازية تستتر خلفها مصالح برجوازية)[1]

ومن الانتقادات الموجهة لهذه النظرية:

أولا ــ أن معلومـات هـذا الفريـق من المـادّيين عن الـدين ومفاهيمـه، وجـذوره وأفكـاره، يرجـع إلى انطباعـاتهم عن سـلوك آبائهم، أو ما وجـدوه في المجتمـع من غث وسـمين منسـوب إلى الــدين، ولا شــك أنّ الكثــير من هــذه التصــرفات والمواقــف والتصوّرات لا تمثّل حقيقة الدين الناصعة، وجوهره الصـافي، فقـد طرأ على الأُمور الدينية من التشويه والمسـخ والاعوجـاج مـا غيّب تلك النصاعة والصفاء خلف غيوم من الإبهام والانحراف.

ولو أن هؤلاء المادّيين اعتمدوا المنابع الدينية الأصيلة لدراسة الــدين، وجعلــوا ســيرة قادتــه المخلصــين وســلوكهم النقي من الشوائب والانحرافات ملاكاً لحكمهم على العقيدة والأفكار الدينية لقضوا بغير ما قضوا، هـذا إن كـانوا غـير متـأثرين بأفكـار مسـبقة

[1] النظام الشيوعي: 52.

وغير مندفعين بنيّات مبيّتة.

ثانياً: أن هؤلاء تغافلوا عمّا للدين والعقيدة الدينية من الآثـار الإيجابيـة البنّـاءة في حيـاة الإنسـان، وكيـف أنّهـا من أهم عوامـل التحرك والتقدّم والرقي والصعود لا الجمود والركود.

فالعقيدة الدينية هي التي تساهم في التقدّم العلمي، ذلك أن المتـديّن يسـند وجـود العـالم إلى فعـل قـوة عليـا عالمـة قـادرة، والمادي يسـنده إلى التصـادف الأعمى.. ومن الطـبيعي أن تكـون العقيـدة الأُولى هي الباعثـة على اكتشـاف السـنن والأنظمـة دون الثانية، لأنّ إقبال العالم على اكتشاف الروابط والنواميس الكونية فرع علمه بوجود سنن قطعية على سبيل الإجمال، وهو لا يحصـل إلاّ مـع العلم بـأنّ الكـون من صـنع الخـالق العـالم القـادر المـدبّر الحكيم، وهذا ممّا لا يتوفّر عند من يقول بوجود الكون عن طريـق الصدفة، إذ الصدفة تعني الفوضى واللانظام.

والدين دعامة الأخلاق بخلاف الإلحاد، ذلك أنّ اعتقاد الإنسـان بالله سـبحانه، وانّـه خلقـه لغايـة وهـدف، وانّ المـوت ليس نهايـة الحياة؛ يولّـد في الإنسـان رادعـاً قويـاً، يردعـه عن الانسـياق وراء شهواته الرخيصة وأهوائه ونزواته، كما أنّه يولّـد فيـه مثلاً أخلاقيـة، وتوجب نموّ السجايا الخيّـرة في كيانـه، فلا يـرتكب كـل مـا تمليـه عليه مصالحه الشخصية كما هو دأب المادّي غير المؤمن بالله.

ولذلك فإنّ العالم الكيمياوي إذا اقترح عليه بأن يصنع سـلاحاً مدمّراً، أو قنبلة سامة فتّاكة لقاء عـرض مـادي مغـر، لا ينفـذ هـذا الطلب إذا كان مؤمناً باللـه، بخلاف العـالم المـادّي الّـذي لا يعتقـد برقابة إلهية ولا بجنة ولا نار.

والدين عامل التحرك والاسـتمرارية، ذلـك أن الإنسـان الّـذي يعتقد بأنّ وراء هذا الكون قوة عليا قادرة على دفع الشـدائد ودرء المصائب عنه، إذا توجه إليه واستعان به فإنّ اعتقاده هذا يساعده على الاسـتمرارية والاسـتقامة، بـل والتحـرك والتقـدّم لأنّـه يـرى نفسـه معتمـداً على تلـك القـوة وآملاً بنصـرها وتأييـدها، بخلاف المادي الّذي لا يـركن إلى ركن وثيـق، وهـذا يعـني انّ الـدين أكـبر

محفّز، وأشدّ ما يحتاج إليه الإنسان هي الحوافز.

وفوق ذلك كله، فإن الدين من أكبر الدوافع على الالتزام بالقوانين؛ فالإنسان الّذي يرى نفسه في محضر الله سبحانه، ويعتقد بأنّه يحصي عليه حركاته وسكناته، بل ويضبط خطرات قلبه وأوهام فكره، ونوايا ضميره، لن يرتكب أيّة مخالفة قانونية، خاصة إذا عرف بأنّ تطبيقه للقانون يستتبع الثواب الأُخروي الجزيل والأجر الإلهي الجميل وتمرّده عليه يستتبع العقاب الإليم، بخلاف المادي الّذي يتحايل على القانون بألف حيلة وحيلة، ولا يرتدع عن مخالفته والتملّص منه كلّما سنحت له الفرصة، لأنّه لا يؤمن بأيّة نظارة ورقابة، ولا يخشى عقاباً، ولا يرجو ثواباً.

إلى غير ذلك من الآثار الفردية والاجتماعية البنّاءة الّتي لا غنى للفرد والمجتمع عنها؛ فكيف يصف الماركسيّون الدين بأنّه مخدّر وأنّه أُفيون وأنّه يوجب الركود والجمود؟!

ثالثاً: أنّ البحث في علّة نشوء العقيدة انّما هو في نشأتها في العصور الأُولى من حياة الإنسان على الأرض، في حين انّ ما يذكره الشيوعيون ومن يقول بهذه النظرية يرتبط بالأدوار المتأخرة جداً عن تلك العصور، أي قبل أن توجد ظاهرة الرق والاقطاع والرأسمالية، فإنّ ما يذكرونه يرجع إلى عصور الأغارقة أو ما جرى في أُوروبا في القرون الوسطى، فتعليل العقيدة الدينية بهذه الظواهر المتأخّرة عن الحياة البشرية الأُولى جداً، خطأ فضيع، أو تعمّد مفضوح، إذ ما الّذي يفسر نشوء العقيدة الدينية ووجودها في العهود الأُولى من حياة الإنسان على الأرض، وقبل وجود هذه الظواهر (أي الرق والاقطاع والرأسمالية)

رابعاً: أنّ تقسيم الظواهر الاجتماعية إلى بنية تحتية وأُخرى فوقية، وتصوّر أنّ الثقافة والفن والعلم والدين كلّها من البنية الفوقية التابعة للبنية التحتية (أي الاقتصاد) من شأنه إبطال كلّ نظرات الماركسيّين في مجال الفلسفة والتاريخ والاقتصاد، وكلّ تحليلاتهم وآرائهم، فإنّ هذه القاعدة الّتي اخترعها ماركس تستلزم أن يكون مجموع مناهجها في المجالات المختلفة نابعة من الحالة الاقتصادية وما كانت عليه وسائل الإنتاج يوم أطلق

ماركس وانجلز نظريتهما، وعلى ذلك فلو تغيّـرت وسـائل الإنتـاج، وتغيّـر الوضـع الاقتصـادي انتهى دور المنـاهج الماركسـية في المجـالات المختلفـة، فلابـدّ أن تتخـذ منـاهج أُخـرى تضـادد تلـك المناهج، تبعاً لمتغيّرات الاقتصاد، وتطوّر وسائل الإنتاج، والعلاقـات الاقتصادية.

وعلى ذلك فنفس ما يقوله الماركسـيون، أي: (الـدين أُفيـون الشعوب، وأنّه عامل الركـود)، هـو من نتـائج الأوضـاع الاقتصـادية الّتي كانت تسود البيئة التي أطلق فيها ماركس كلمته هذه، فحيث تطوّر الوضع الاقتصادي، وتغيّر إلى وضع آخر تغيّـرت النظريـة إلى نظرية أُخرى، فربّما يمكن أن تكـون النتيجـة هي أنّ الـدين محفـز للعمل، ومحرك للأُمّة، وعامل من عوامل المقاومة والتقدّم، وهـذا يعني انّ ماركس قضى على جميـع أفكـاره بنفسـه، وخاصـة هـذه النظرية حول الدين.

خامسـاً: أنّ تعليـل هـذه الظـواهر الاجتماعيـة على سـعتها وتنوّعها وتشـعّب أطرافهـا (كـالعلم والفلسـفة، والـدين والثقافـة، والفن والآداب) بعامل اقتصادي أشبه ما يكون بتعليل زلزال هائـل دمر مدينة عظمى، بانهيار سقف خشبي في إحـدى ضـواحي تلـك المدينة.

صـحيح أنّ الاقتصـاد يلعب دوراً هامّـاً في مجـالات الفكـر والظواهر الاجتماعية إلاّ أنّ الاقتصاد ليس هو العامل الوحيد الّـذي له مثـل هـذا الـدور والتـأثير، فليس الاقتصـاد هـو القـوة الوحيـدة المحركة للتاريخ، وليست وسائل الإنتـاج هي القـوة الكـبرى الّـتي تصنع تاريخ الناس، وتطورهم وتنظمهم، بل هنـاك عوامـل محركـة أُخرى للتاريخ، وقد أقر بها كل الباحثين والمفكرين.

فمنها الغرائز التي جبل عليها الإنسان، فإنّ لها دوراً مـؤثراً لا يمكن إنكاره في نشوء الحوادث الاجتماعية، فقـد أثبت الروحيـون أنّ الإنسان ينطوى على غرائز خاصّة تفعل كل واحـدة منهـا أثرهـا الخـاص في الحيـاة والمجتمـع، مثـل غريـزة طلب العلم، والجـاه، والجمال. وغيرها، وما يتولد عنها من تطوّرات اجتماعية.

ومنها تأثير الشخصيات البارزة؛ فإنّ لها أثراً كبيراً في صناعة الظواهر الاجتماعية، لأن هذه الشخصيات لا تكتفي بالتفرج على الأوضاع، بل تلعب أدواراً، وتصنع أحداثاً، وتوجد تغييرات، وتاريخ الأُمم بما فيها من صفحات مشرقة خير شاهد على أنّ هذه الشخصيات قد أشعلت شرارة الكثير من الثورات الاجتماعية، وأوجدت الكثير من التحولات، وانّه لولاهم لما حدث مثل تلك التحولات، ولما تفجّرت تلك الثورات.

ومنها الفكرة القومية، فقد كان لها أثرها الخاص في التطوّرات الاجتماعية لدى الامم المختلفة، فهذا هو هتلر الألماني أشعل الحرب العالمية الثانية بفكرة القومية النازية، ولهذا عمد بعض المفكّرين في بعض البلاد إلى التوسّل بالقومية، وإحياء روحها، وإلهاب مشاعر الناس بها، للوقوف في وجه الاعداء أو تحقيق النهضة فيها.

ومع ملاحظة هذا العوامل وغيرها من العوامل المحركة للتاريخ المبحوثة في محلها وتأثيرها البالغ في الظواهر الاجتماعية كيف يصحّ للماركسيّين أن يسندوا كل ما في المجتمع من مظاهر علمية وفلسفية وفنية وثقافية وأدبية ودينية إلى عامل اقتصادي فقط؟!

سادساً: لو لم تكن للعقيدة الدينية جذور فطرية أو لم تكن هناك رابطة بين مشاهدة النظام والاعتقاد بوجود المنظم، فلماذا يتفق المستغَلّون جميعاً على أفكار كثيرة لا قيمة علمية لها، مثل فكرة القومية مع كونها فكرة خاطئة ومرفوضة، لأنّها تستند إلى رفع بعض الشعوب على بعض، وحصر جميع الخدمات بشعب خاص على حساب شعوب أُخرى، والحال انّ الواجب هو صرف الخدمات لصالح الإنسانية جمعاء دون تمييز ولا استثناء.

وهذا يعني أنّ المستغلّين للطبقات المحرومة كانوا يستخدمون الدين في سبيل مصالحهم وهم يعتمدون على واقعية مقبولة لدى المستغلين ذاتياً، فلو لم يكن الديّن والتدين أمراً فطرياً عند المحرومين، أولم يكن أمراً منطقياً لديهم فلماذا لم يرفضوا هذه الآلة الّتي تستخدم ضدهم؟!

ألم يكن بين جماهير الطبقات الفلاحية والعمالية طوال القرون المتمادية من يميز بين ما هو في مصلحتهم وما هو ضد مصلحتهم؟!

إنّ هذا الأمر يجعلنا لا نثق بهذه النظرية، بل يدفعنا إلى أن نذعن بأنّ للعقيدة الدينية جذوراً وخلفيات أعمق في كيان الإنسان وحياته، غير ما ذكره الماركسيون.

سابعاً: إنّ ما ذكروه يستلزم أن لا يوجد بين الطبقات المرفّهة، وأصحاب الثروة والمكنة أيّ متديّن، لعلمهم بأنّ الدين ليس سوى وسيلة تستخدم لإخماد الثورات وجلب المنافع، والحال أنّنا نجد طول التاريخ أصحاب ثروة وقفوا أعمارهم وثرواتهم في سبيل تحقيق الأهداف الدينية المقدّسة بحيث صار الغني والفقير والظالم والمظلوم، والمضطهِد والمضطهَد، في هذه الظاهرة سواء، أي أنّنا نجد متديّنين ليس بين الفقراء والمحرومين فقط بل بين الأغنياء وأصحاب الثروة أيضاً، وهذا يعني أنّ قضية الإيمان بالله ليست ناشئة من عوامل اقتصادية كما ذكروا، بل هي قضية روحية فطرية، ومسألة عقلية يقود إليها الفكر السليم.

ثامناً: أنّ ما استشهدوا به لتبرير نظريتهم (وهو أنّه كلّما انتعش حال الطبقات المحرومة اقتصادياً انحسرت العقيدة عن حياتهم، وكلّما تردّت، راجت العقيدة الدينية) جهل من هؤلاء المحلّلين بمجريات التاريخ.

ذلك أننا نجد في الحضارة اليونانية والإسلامية كيف ازدهرت الحالة الاقتصادية العامة، وتحسّنت جنباً إلى جنب مع ازدهار العقيدة الدينية، وكان لمعرفة الله والإيمان به دور بارز ومكانة كبرى في هذه المدنيات والحضارات.

وهذه حقيقة يقف عليها كلّ من راجع تاريخ هذه الحضارات الكبرى، بل هي من الثبوت والجلاء ما لا نحتاج معه إلى ذكر الشواهد والنماذج.

تاسعاً: أنّ تدهور أمر العقيدة الدينية وانحسارها في بعض المجالات والفترات الّتي نشط فيها الاقتصاد العام وانتشر الرفاه

لا يعود إلى ما ذكروه من النسبة التعاكسية بين (انتعاش الحالة الاقتصادية العامة) و(انحسار العقيدة الدينية) بحيث يكون انتعاش الحالة الاقتصادية العامة للكادحين سبباً في الإعراض عن العقيدة والمفاهيم الدينية، وتردّيها سبباً لرواج العقيدة الدينية، بل يعود إلى أنّ طغيان غريزة من الغرائز من شأنه أن يغطي على الجوانب الأُخرى في الحياة الإنسانية، وهذا لا يختص بغريزة حب المال والثروة، بل يعمّ غريزة حب الجاه والجنس وغير ذلك من الغرائز، فإذا زادت الاستفادة من غريزة معيّنة كما لو تمادى المرء في غريزة حب المال وجمعه أو الجنس نسي سائر ما عنده من الغرائز، بل وحتّى ما اعتقده من أفكار ثبتت لديه بالأدلّة القاطعة كالدين وماشاكل ذلك.

عاشراً: انّ استخدام المستغِلّين للعقيدة الدينية في سبيل مصالحهم شيء، والدوافع الموجدة للعقيدة الدينية شيء آخر، والبحث انّما هو في الثاني دون الأوّل، وما قاله الماركسيون يرجع إلى الأوّل دون الثاني، فالعقيدة حقيقة موجودة في طبيعة الإنسان ومختمرة بفطرته، وقد استغلّها بعض الأشخاص لمصلحته، وهذا واقع في أشياء أُخرى أيضاً، كما في الطب وأشباهه، فلا يصحّ أن يقال: انّ الطب قضيّة مخترعة لا واقع لها ولا ضرورة، لأنّ بعض الأشخاص أو بعض الأطباء استخدم الطب لاستدرار الأرباح، واستجرار المنافع من ورائها.

أو كما عبر عن ذلك [ويل ديورانت] بقوله: (إنّ الكاهن لم يخلق الدين خلقاً لكن استخدمه لأغراضه فقط كما يستخدم السياسي ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات، فلم تنشأ العقيدة الدينية من تلفيقات وألاعيب كهنوتية انّما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع)[1]

حادي عشر: لو سلّمنا جدلا بما ذكره الماركسيون من أنّ الدين كان يستخدم كوسيلة لمصلحة الأثرياء وإضعاف الفقراء، فإنّ ذلك إنّما يصحّ بالنسبة للمذاهب الّتي طالتها أيدي التحريف، أو الّتي أوجدها الاستعمار، ولا يصلح ذلك دليلاً لتعميم هذا الحكم

1) قصة الحضارة: 1 / 177.

على كافة الشرائع.

حيث أننا نجد في القرآن الكريم يزخر بتصريحات هامّة وواضحة للأنبياء السابقين ضد المستغِلّين، ونجد أيضاً كيف أنّ دعواتهم كانت ملجأ للمحرومين والمظلومين وسبيلاً إلى كسر شوكة الظالمين ودحر المستغِلّين، وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

حيث نجد فيه عند ذكر الهدف من إرسال موسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 4، 5]

ونجد فيه احتجاج موسى(عليه السلام) على فرعون استعباده لبني إسرائيل إذ يقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: 22]

وهكذا نجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتبعهم بسطاء الناس وفقراءهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: 111]، وغيرها من الآيات التي تفيد أنّ الدعوات الإلهية كانت موجّهة ضد الطغاة والمستكبرين والظالمين، وضد المعتدين والمستغلين، ولهذا كان المحرومون يبادرون إلى تأييدها قبل أيّ جماعة أُخرى.

كما نجد القرآن الكريم يحثّ أتباعه على الإعداد العسكري لمواجهة أعدائهم من الذين لا ترضيهم تعاليم الإسلام العادلة، إذ يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60]

كما هاجم المرابين الذين يستغلون حاجة الناس ويمتصون جهودهم بقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]، وقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 278، 279]

وندد بكانزي الثروة إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 34، 35]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تنهى عن الاستغلال والاستعباد، والّتي تدلّ على أنّ دعوات الأنبياء وجهودهم ركزت اهتماماً كبيراً على استنقاذ حقوق المحرومين وتخليصهم من الحرمان وحتّى باستعمال القوّة في بعض الحالات.

ثاني عشر: انّ الماركسيّين الذين ذهبوا إلى تعليل العقيدة الدينية بأنّها كانت آلة طيّعة لإخماد ثورة المستضعفين والكادحين، لعلّهم قصدوا بعض المفاهيم الخلقية في الدين الّتي ربّما تقع وسيلة بأيدي أصحاب الثروة لإخماد نائرة العمال والفلاحين المحرومين المضطهدين مثل:

أ ـ القضاء والقدر بمعنى الاستسلام والخنوع.

ب ـ الصبر بمعنى السكوت والخضوع للعدو.

ج ـ الزهد بمعنى الرغبة عن الدنيا وترك الفعاليات.

د ـ التوكل بمعنى ترك الأخذ بالأسباب الطبيعية.

غير أنّ تفسير هذه المفاهيم بما ذكروه ينمّ عن جهلهم بمعانيها الحقيقية أو تعاميهم عنها، فانّ لها من المعاني ما يجعلها خير وسيلة للتحرك والانطلاق، والثورة والانعتاق، لا الخمود والركود، والخضوع والعبودية كما زعموا.

4 ـ نظرية استمرار الحالة الطفولية:

وهي النظرية التي جاء بها (فرويد) وتنص على أن الإنسان عندما كان طفلاً كان يحس بالحاجة الشديدة إلى الحماية تجاه الأخطار المحيطة به بسبب ضعفه وعجزه، فكان يجد هذه الحماية عند أُمّه، ولمّا أدرك تفوّق الأب لجأ إليه، ولمّا أحسّ بعجز أبيه أيضاً تجاه الأخطار الكبرى مضى يبحث عن قوة أكبر أقدر على

حمايته تجاه الحوادث حتّى يحلّه محلّ أبيه، وهكذا نشأت عنده فكرة الإله.

وهي ترى أن المجتمع وإن تخلّص اليوم من بعض ما يعلق بضمير الطفل من الحاجة في اللجوء إلى الأُم أو الأب حيث إنّه قد بلغ مرتبة كبيرة من البلوغ العقلي والفكري إلاّ أنّ اعتقاده بالله استمر لاستمرار الحالة الطفولية الّتي كانت تعلق بضمير المجتمعات الغابرة الّتي كانت من حيث العقل والفهم بمنزلة الطفل.

ومن الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية بالإضافة لبعض الانتقادات السابقة التي يمكن أن يستفاد منها هنا:

أوّلاً: انّ صاحب هذا التحليل خلط بين (الدافع) والنتيجة المتحصّلة من ذلك الدافع من حيث القيمة، فلو أنّنا فرضنا صحة هذا التحليل وارتضينا ما يقول من أنّ الحالة الطفولية هي الّتي دفعت البشر إلى اتّخاذ العقيدة الدينية، ولكن ذلك لا يقلّل من أهمية العقيدة الدينية وإن كان الدافع إليها أمراً تافهاً، وذلك لما قلنا من أنّ الدافع وما يندفع إليه ليسا سواء ولا متحدين في القيمة، فربّما يكون الدافع أمراً تافهاً، ولكنّه يدفع الإنسان إلى أمر ذي بال، كما لو دفعت الحرب إلى اختراع أجهزة مفيدة، أو دفعت غريزة طلب الجاه أو الشهرة أو الثروة إلى ابتداع مكتشفات نافعة.

ثانياً: أنّ هذه النظرية وسابقاتها من قبيل التحليل القائم على أمر غير ثابت أبداً، بل ممّا ثبت خلافه، وهو أنّ العقيدة الدينية أمر موهوم لا علّة له من فطرة أو عقل، ولمّا كانت العقيدة عندهم أمراً موهوماً أخذ يشرّق أصحاب هذه النظريات ويغربون، ويحاولون ان ينحتوا لنشوء هذا الأمر الموهوم علّة، وهم يرون بأنّ نشوء العقيدة الدينية من قبيل الاعتقاد بنحوسة العدد 13، ونعيب الغراب، وما شا كل ذلك.

ولكن وصف (العقيدة الدينية) بذلك وجعلها في عداد الأوهام والخرافات من أسوأ المواقف تجاه الحقائق، فإنّ للعقيدة الدينية

علّة فطرية، وأخرى منطقية، ولهذا لا مجال لنحت الفرضيات لتفسير وجودها ونشوئها والسماح للخيال بابتداع التبريرات والعلل.

ثالثاً: أنّ هذا التحليل سيف ذو حدّين، لأنّ الظاهر منه هو أنّ صاحبه يعيد عقائد الناس إلى العقد الروحية الّتي تعلق بالنفس الإنسانية في فترات من عمر الإنسان، فلو صحّ ذلك فلماذا لا تصحّ هذه النظرية بالنسبة إلى نفس هذه العقيدة التي اختارها المحلّل تجاه الدين ومفاهيمه، حيث ذكر أن العقيدة الدينية ترجع في ابتدائها إلى عقدة روحية، فلماذا لا يكون إلحاد هذا المحلّل (وهو فرويد) وخصومته مع الله سبحانه راجع إلى عقدة روحية أُصيب بها في فترة معيّنة من فترات عمره؟!

والناظر في أمثال هذه التحليلات لا يشك في أنّ كل واحد من المحلّلين قد نظر إلى العقيدة السائدة في عصره وبيئته فجعلها مقياساً لتحليله، ومعياراً لتقييمه.

ولم يكن أُولئك المحلّلون ذوي خبرة وإلمام بالشرائع والعقائد السماوية حتّى يميّزوا المحرّف عن غيره والصحيح عن السقيم، كما عرفت.

رابعاً: انّ هناك شخصيات بارزة في التاريخ الغابرو كذا في العصر الحاضر يعتقدون بالله سبحانه، ويعبدونه لكونه المثل الأعلى للكمال والجمال، وغير ذلك من الصفات العليا لا لكونه يقوم مقام الأب في إزالة الخوف عنهم، وتوفير الحماية اللازمة لهم.

5 ـ نظرية توارث العقيدة:

وهي النظرية التي تفسر وجود العقيدة الدينية في الحياة البشرية بكون العقيدة الدينية أمرا فكريا ورثته الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة حتّى وصلت إلى عصرنا الحاضر، وبهذا أراح أصحاب هذه النظرية أنفسهم، وظنّوا بأنّهم اهتدوا إلى تحليل سليم في هذا المجال.

ومن الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية:

أوّلاً: انّ غاية ما تفيده، وتثبته هذه النظرية ــ على فرض صحّتها ــ هو أنّ علّة انتقال العقيدة من الأجيال السابقة إلى اللاحقة، وتواجدها في جميع العصور هو (التوارث الفكري) وهو أمر لا يرتبط بتفسير (نشوء العقيدة الدينية) أساساً، فما ذكروه يعلّل وجود العقيدة الدينية في الأجيال المتلاحقة، لا نشوء العقيدة ابتداءً.

ثانياً: أنّ سريان العقيدة الدينية وسيادتها في جميع الأجيال يكشف عن أنّ العقيدة الدينية من الأُمور الملازمة للروح والفكر البشري بحيث لا يعقل انفكاكها عنهما، فهي تماماً مثل الأكل والشرب والملبس وغيرها من الفعاليات والحاجات الجسدية الّتي لا تفارق البشر ولا تنفك عنهم.

ومثل هذا الحضور الدائم للعقيدة الدينية في الفكر البشري والحياة العقلية الإنسانية منذ العصر الحجري وإلى عصر الفضاء هذا يكشف عن واقعية هذا الأمر، إذ لا يمكن أن يكون لشيء ما مثل ذلك الحضور الشامل لولا كونه كذلك.

ثانيا ـ الرؤية الإيمانية لمصدر الدين:

على خلاف النظرة الإلحادية التي اضطربت في تفسير سر نشوء الأديان وانتشارها، نرى الرؤية الدينية واضحة في هذا المجال، ومتفق عليها في أكثر الأديان، وهي كونها نتيجة لتواصل الله مع عباده لهدايتهم وتعريفهم بحقيقة الكون الذي يعيشون فيه، وحقيقة الوظائف التي تناط بهم في هذه النشأة، مع تعريفهم بحقائق الوجود ومصيرهم، وكل الأسئلة التي تسألها عقولهم وفطرهم، ولم يستطيعوا الإجابة عنها.

وللاستدلال لهذا المصدر جانبان:

جانب عقلي مجرد: يراد منه إثبات إمكانية النبوة ووجوبها، وأن الله الذي خلق هذا الكون ووفر فيه كل أصناف الحاجات يستحيل أن يترك خلقه من دون هداية، ويبحث هذا عادة فيما

يسـمى بـالنبوة العامـة، أي البحث عن مطلـق النبـوة، من دون تخصيص بنبيٍّ دون نبي.

جانب عقلي واقعي: يراد منه إثبات وجـود النبـوة واقعـا، والاستدلال لها بالأدلة العقليـة المثبتـة لـذلك، مـع وضـع الضـوابط المميزة للنبوة الكاذبة من النبوة الصادقة، ويبحث هذا عـادة فيمـا يسمى النبوة الخاصة، أي إثبات نبي خاص، كنبوة محمد ﷺ.

وسنتحدث هنا باختصـار بعض مـا ذكـره المتكلمـون في هـذه الأنواع من الاستدلالات مع العلم أننا خصصـنا لهـا سلسـلة كاملـة، وهي سلسلة [حقائق ورقائق] التي وضعنا فيها البراهين المختلفـة لإثبات النبوة، والرد على الشبهات المختلفة المرتبطـة بهـا، وذلـك في قالب روائي حواري مبسط [1] .

وقد اعتمـدنا بالدرجـة الأولى في هـذا المبحث على مـا كتبـه العلامة الكبير الشـيخ جعفـر السـبحاني في كتابـه القيم [الالهيـات على هدى الكتاب والسنة والعقل][2]، فهو كتـاب طـرح في جزئـه الثـالث أصـناف الأدلـة الـتي قررهـا المتكلمـون بأحسـن طريقـة، بالإضافة إلى تبسيطها وربطها بـالواقع، وبـالقرآن الكـريم، كعادتـه في جميع مؤلفاته القيمة.

1 ـ الأدلة العقلية العامة:

وهي الأدلة الـتي اسـتعملها المتكلمـون في مواجهـة منكـري النبوة، وخصوصا من المؤمنين منهم بالله، أو أولئـك الـذين يطلـق عليهم [الربوبيـون [3]]، والـذين يتبنـون الفلسـفة الربوبيـة، وهي

---

1) وسنتحدث عنها بتفصيل في كتاب خاص مثل هذا الكتاب، يعلم كيفية مناظرة منكري النبوة، ويرد على جميع الشـبهات المرتبطـة بها..

2) انظر: الالهيـات على هـدى الكتـاب والسـنة والعقـل، تـأليف: الشيخ جعفر السبحاني، بقلم: الشيخ حسن محمـد مكي العـاملي، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام، الطبعة: السابعة 1388.

مذهب فكري لا ديني يؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكـون، وأنـه يمكن التعـرف عليـه باسـتخدام العقـل ومراقبـة العـالم الطـبيعي وحده دون الحاجة إلى أي دين.

ومعظم الربوبيين يميلون إلى رفض فكرة التدخل الإلهي في الشـؤون الإنسـانية كـالمعجزات والـوحي، ولـذلك لا يؤمنـون بالمسيحية واليهودية والإسـلام وبـاقي الـديانات الـتي تسـتند على المعجـزات والـوحي، بـل يرفضـون فكـرة أن الالـه كشـف نفسـه للإنسانية عن طريق كتب مقدسة.

وهم يـذكرون أن اللـه أو [الإلـه] أو [المهنـدس العظيم الـذي بنى الكون] لديه خطة لهذا الكون لا تغيـير سـواء بتـدخل اللـه في شـؤون الحيـاة البشـرية أو من خلال تعليـق القـوانين الطبيعيـة للكون.

ولذلك يتفق الربوبيون مع الملاحـدة في كـون الأديـان مجـرد تفسيرات صادرة عن البشر بدلا من مصادر موثوقة.

والرد على هؤلاء يستدعي بحوثـا كثـيرة ذكرهـا المتكلمـون لا علاقة كبيرة لها بما نحن فيه، لأن غرضنا من هذا الكتاب هـو الـرد على الإلحاد، الذي هو إنكار وجود الله.

ولكنا مع ذلك سنختصر ما ذكره المتكلمون هنا، باعتباره أيضا من الأدلة على وجود الله، فمن أعظم أدلة وجـود اللـه إعلان اللـه عن نفسه عن طريق أنبيائه وكتبه المقدسة.

وبناء على هذا، فإن المتكلمين ردوا على كـل تلـك الشـبهات

---

(3) برزت الربوبية في القرن السابع عشر والقرن الثـامن عشـر خصوصاً خلال عصر التنوير، لا سيما في مـا يعـرف الآن بالمملكـة المتحدة وفرنسا والولايات المتحدة وأيرلنـدا. معظمهم الربوبيـون في ذلك الوقت كانوا قد ولـدوا مسـيحيين ولكن تركـوا المسـيحية بسبب عدة قضـايا مثـيرة للجـدل ووجـدوا أنهم لا يمكنهم الإيمـان بالثـالوث أوإلوهيـة سـيد المسـيح أو المعجـزات ثم انتشـروا في العالم، انظر: المسيحية عبر العصور، إيريل كيرنز، ص 441.

الي يثيرها الربوبيون حول الحاجة إلى النبي، ومنها ادعاؤهم أن (الرسول إما أن يأتي بما يوافق العقول أو بما يخالفها. فإن جاء بما يوافق العقول، لم يكن إليه حاجة، ولا فائدة فيه. وإن جاء بما يخالف العقول، وجب ردّ قوله)، أو بعبارة أخرى: (إنّ الّذي يأتي به الرسول لا يخلو من أحد أمرين: إمّا أن يكون معقولاً، وإمّا أن لا يكون معقولاً.. فإن كان معقولاً، فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فأي حاجة لنا إلى الرسول. وإن لم يكن معقولاً، فلا يكون مقبولاً. إذ قبول ماليس بمعقول، خروجٌ عن حد الإِنسانية ودخولٌ في حريم البهيمية)

والجواب على هذا هو أن حصر ما يأتي به الرسول بموافق العقول ومخالفها، حصر غير حاصر، ذلك أن هنالك شقاً ثالثاً وهو إتيانهم بما لا يصل إليه العقل بالطاقات الميسورة له، فعقل الإنسان وتفكّره قاصر عن نيل الكثير من المسائل.

ومن الشبهات التي ذكرها الربوبيون أيضا ادعاؤهم أن (العقل قد دل على أن الله تعالى حكيم، والحكيم لا يتعبّد الخلق الاّ بما تدل عليه عقولهم، وقد دلّت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر. فننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره بآلائه علينا. وإذا عرفناه وشكرنا له، إستوجبنا ثوابه. وإذا أنكرناه وكفرنا به، إستوجبنا عقابه. فما بالنا نّتبع بشراً مثلنا؟)

والجواب على هذا هو ـ بالإضافة إلى ما ذكر في رد الشبهة الأولى ـ هو أن كثيراً من الناس لا يعرفون كيفية الشكر، فربما يتصورون أن عبادة المقرَّبين نوع شكر لله سبحانه. فلأجل ذلك ترى عبدة الأصنام والأوثان يعتقدون أن عبادتهم للمخلوق شيئاً موجباً للتقرّب.

بالإضافة إلى أن تخصيص برامج الأنبياء بالأمر بالشكر والنهي عن كفران النعمة، غفلة عن أهدافهم السامية، ذلك أنهم جاءوا لإسعاد البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية، ولا تختص رسالتهم بالأوراد والأذكار، وإنما لأهداف أخرى أكبر بكثير.

ومن الشبهات التي ذكرها الربوبيون أيضا ادعاؤهم أن (العقل دل على أن للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبدّ الخلق بما يَقْبُح في عقولهم، وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقول، كالتوجه إلى بيت مخصوص في العبادة، والطواف حوله، والسعي، ورمي الجمار، والإِحرام، والتلبية، وتقبيل الحجر الأصمّ. وكذلك ذبح الحيوان، وتحريم ما يكون غذاءً للإنسان، وتحليل ما يُنقص من بنيته)

والجواب على هذا هو ـ بالإضافة إلى ما ذكر في رد الشبهات السابقة ـ هو أن هذا الدليل مبني على الجهل بمصالح الأحكام ومفاسدها، ولذلك فإن زعم هذا المنكر أن ما جاء في شريعة الإسلام من حج بيت الله الحرام بآدابه الكثيرة، أمر على خلاف العقل، ولكن الدارس لفلسفة الحج، يقف على عظيم المصالح والمنافع الّتي يتضمنها، والمجال لا يسمح باستقصائها.

فالتوجه إلى البيت ـ مثلا ـ رمز الوحدة بين المسلمين في جميع أقطار المعمورة، ولو تعددت وجهاتهم في أداء مراسمهم العبادية، لسادت الفوضى فيهم ووقع الإِنشقاق بينهم في القطر الواحد فضلاً عن سائر الأقطار.

وهكذا الحال في بقية المراسم العبادية، والواجبات والمنهيات الشرعية. وقد كشف العلم الحديث عن الفوائد العظيمة الّتي تشتمل عليها بعض الواجبات الشرعية كالصوم. والمضار الكبيرة الّتي تشتمل عليها بعض المنهيات الشرعية كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغيرهما.

بناء على هذا، فإن العناية الإلهية التي وفرت لكل شيء حاجاته التي يعتمد عليها، وأضافت إلى ذلك الكثير من الكماليات التي تُسهِّل عليه معيشتَه وتكاملَه في الحياة، تقتضي توفير هذا النوع من الهداية، بل هو أولى من الكثير من الكماليات.. فهل يمكن لخالق الإنسان أن يسهَل له كل طرق التكامل الظاهرية، ثم يترك ما هو دخيل في تكامله الروحي والمعنوي؟.. وهل يمكن لأحد أن ينكر دور الأنبياء في تكامل الإنسان، ولو على وزان دور الخطوط في بواطن الأنامل على الأقل؟.. أو يصح من الخالق

الحكيم أن يهب لـه تلـك الأجهـزة المُـؤَثّرة في كمالاتـه الماديـة، ويترك ما هو مؤثر في تكامل روحه وفكره؟.

وقد أشار إلى هذا البرهان ابن سينا، فقال: (الحاجة إلى هـذا (بعث النبي) في أن يبقى نوع الإنسان ويتحصَّل وجـوده، أشـدّ من الحاجة إلى نبـات الشـعر على الأشـفار وعلى الحـاجبين، وتقصـير الأخمص من القدمين، وأشياء أُخـرى من المنـافع الّـتي لا ضـرورة إليهـا في البقـاء... فلا يجـوز أن تكـون العنايـة الأُولى تقضـي تلـك المنافع، ولا تقضي هذه الّتي هي أُسُّها)[1]

وأشـار إليـه صـدر المتـألهين بقولـه: (إن ذاتـه سـبحانه منبـع الخيرات ومنشأ الكمالات، فيصدر منه كل ما يصدر على أقصى ما يتصور في حقه من الخير والكمال، والزينة والجمال، سـواء أكـان ضرورياً له، كوجود العقل للإنسـان والنـبي للأُمـة. وغـير ضـروري، كإنبـات الشـعر على الأشـفار والحـاجبين، وتقصـير الأخمص من القدمين)[2]

واستدل القاضي عبـد الجبـار لهـذا بقولـه: (إنـه تعـالى كلّـف المكّلف، وكان غرضه بذلك تعريضـه إلى درجـة الثـواب، وعلم أن في مقدوره ما لو فعل به لاختار عنده الواجب، واجتنب القبيح، فلا بد من أن يفعل به ذلك الفعل وإلا عاد بالنقض على غرضه، وصـار الحال فيه كالحال في أحـدنا إذا أراد من بعض أصـدقائه أن يجيبـه إلى طعام قد أتخذه، وعلم من حاله أنه لا يجيبـه، إلا إذا بعث إليـه بعض أعزته من ولد أو غـيره، فإنـه يجب عليـه أن يبعث، حـتى إذا لم يفعل عاد بالنقض على غرضه. وكذلك ها هنا)[3]

وقال الفاضل المقداد: (إنا بيَّنّا أنه تعالى مريد للطاعة وكـاره

---

1) الهيـات الشـفاء، بحث النبـوة، ص 557 طبعـة طهـران. وأورده بعينه في كتاب النجاة، ص 304، طبعة 1357 هـ.

2) المبدأ والمعاد، لصدر المتألهين، ص 103، طبعة طهران.

3) شرح الاصول الخمسة، ص 521.

للمعصية، فإذا علم أن المكلف لا يختار الطاعة، أو لا يترك المعصية، أو لا يكون أقرب إلى ذلك إلا عند فعل يفعله به، وذلك الفعل ليس فيه مشقة ولا غضاضة، فإنه يجب في حكمته أن يفعله، إذا لو لم يفعله لكشف ذلك: إما عدم إرادته لذلك الفعل، وهو باطل لما تقدم، أو عن نقض غرضه، إذا كان مريداً له، لكن ثبت كونه مريداً له فيكون ناقضاً لغرضه.. ويجري ذلك في الشاهد مجرى من أراد حضور شخص إلى وليمة، وعرف أو غلب على ظنه أن ذلك الشخص لا يحضر إلا مع فعل يفعله، من إرسال رسول أو نوع أدب أو بشاشة أو غير ذلك من الأفعال، ولا غضاضة عليه في فعل ذلك فمتى لم يفعل عُدّ ناقضاً لغرضه.. ونقض الغرض باطل، لأنه نقض، والنقص عليه تعالى محال، ولأن العقلاء يعدونه سَفَهاً وهو ينافي الحكمة)[1]

وأشار إليه قبل ذلك كله الإمام علي، فقال: (أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة، فعلم أنهم لم يكونوا كذلك إلا بأن يعرّفهم مالهم وما عليهم، والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي، والأمر والنهي لا يجتمعان إلا بالوعد والوعيد، والوعد لا يكون إلا بالترغيب، والوعيد لا يكون إلا بالترهيب، والترغيب لا يكون إلا بما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم، والترهيب لا يكون إلا بضد ذلك..)[2]

بناء على هذا؛ فإن هناك ثلاث حاجات أساسية لا يمكن تحقيقها من دون تواصل الله تعالى مع خلقه عبر أنبيائه، وهي:

أ ـ الحاجة إلى معرفة حقائق الوجود:

فالإنسان رغم التقدم الّذي أحرزه في الكثير من العلوم إلا أن ما أحرزه ضئيل جداً أمام أسرار الكون العظيم، وممّا يوضح قصور العلم البشري في هذا المجال أننا نجد ملايين البشر على مستوى راق في الصناعات والعلوم الطبيعية، إلى حد أوقعوا

---

1) ارشاد الطالبين، ص 277 ـ 278.

2) بحار الانوار، ج5، ص 316.

العالم في إسارة استهلاك مصنوعاتهم، ومع ذلك فهم في الدرجة السفلى في المعارف الالهية.

وقد بلغ الحد في اليابان أن جعلوا لكل حادثة ربّاً، حتى أن هناك رباً باسم (رب الزواج)، يتوسل إليه البنات الذين تأخروا في الزواج، ليؤمن لهم الأزواج المناسبين، وبالهند مئات الملايين يقدسون (البقر)

فإذا كان هذا هو حال المعارف الإلهية في عصر الفضاء والذرة، وبعد ما جاءت الرسل تترى لهداية البشر، فما هو حالها لولا الهداية الإلهية عن طريق الرسل؟

نعم، هناك نوابغ في التاريخ عرفوا الحق وتعرفوا عليه عن طريق التفكير والتعقل، كسقراط وأفلاطون وأرسطو، لكنهم أُناس استثنائيون، لا يعدون معياراً في البحث، ولا ميزاناً في نفي لزوم البعثة، وكونهم عارفين بالتوحيد، لا يكون دليلاً على مقدرة الآخرين عليه، على أنه من المحتمل جداً أن يكون وقوفهم على هذه المعارف في ظل ما وصل اليهم من التعاليم السماوية عن طريق رسله سبحانه وأنبيائه.

ب ــ الحاجة إلى معرفة سنن الكون ونواميسه ونظامه:

لا يقتصر دور الأنبياء على تعريف البشر بحقائق الوجود، بل من أهدافهم الكبرى تعريفهم بالسنن والنواميس والقوانين التي يسير الكون على أساسها، والتي لا يمكن للعقل المجرد أن يصل إليها بدون سند إلهي.

فالمجتمع الإنساني ـ مع ما بلغه من الغرور العلمي ـ لم يقف بعد على ألفباء الأقتصاد. فقد انقسم العالم الحديث إلى طائفتين: واحدة تزعم أن سعادة البشرية في نظام الرأسمالية والإقتصاد الحر المطلق، وانه هو العامل الوحيد لرفاه المجتمعات وتفجّر الطاقات. والأخرى تدّعي أنّ سعادة البشر في النظام الاشتراكي بدءً والشيوعي غايةً، فالسعادة كلها في سلب الملكية عن أدوات الإنتاج وتفويضها إلى الدولة الحاكمة.

فلو كان الإنسان قادراً بحق على تشخيص المصالح والمفاسد، وما ينفعه وما يضره، لما حصل هذا الإختلاف، الّذي انجر إلى انقسام خطير بين دول العالم.

وكما أن الإنسان لم يصل إلى النظام الاقتصادي النافع له، فهو كذلك لم يصل إلى وفاق في مجال الأخلاق وقد تعددت المناهج الأخلاقية في العصر الأخير إلى حد التضاد فيما بينها.

وكمثال على ذلك نرى الشيوعية تدعي لنفسها منهجاً أخلاقياً من أُصوله أن الإنسان لا يكون شيوعياً إلا بالتضحية بكل شيء لبناء صرح حكومة العمال في العالم، وكل ما كان يصبّ في هذا المنحى فهو من الأخلاق الفاضلة، وإن كان ذلك إعداماً، وتدميراً وسرقة واختلاساً، كما عبر لينين عن ذلك بقوله: (إن الشيوعي هو من يتحمل كل التضحيات ويلجأ إلى انواع الحيل والأفعال غير المشروعة، ليجد لنفسه موضعاً، وموطيء قدم في الإِتحاديات التجارية)(1)

فإذا كان هذا حال الإنسان في معرفة المسائل الابتدائية في الإقتصاد والأخلاق، فما ظنك بحاله في المسائل المبنية على أُسس تلك العلوم. أفبعد هذا الجهل المطبق يصح لنا أن نقول إن الانسان غني عن الوحي في سلوك طريق الحياة؟

وبناء على هذا، فإن البشر يحتاجون إلى من ينظم لهم حياتهم، ويكشف لهم عن القوانين والنظم التي يسير عليها الكون والحياة، والتي يحققون بموجبها غاية خلقهم، والهدف من إيجادهم.

ج ـ الحاجة إلى الهداية والتزكية:

ذلك أنه لا تكتمل ولا تتوازن حياة الإنسان إلا إذا عاش على مقتضى متطلبات الفطرة ومتوخيات الغرائز، بل العيش على خلاف هذه المتقضيات يؤدي بالحياة البشرية إلى الهلاك، وما مثل هذا إلا كالسابح في عكس تيار الماء، لن تكون عاقبته إلا الإرهاق

1) موسوعة نيقولاي لينين، ج 17، ص142، طبعة 1923.

وانهيار القوى فيتوقف عن السباحة ويبتلعه الماء.

ومن جملة الأمور الفطرية المودعة في وجود الإنسان، والّتي تتفجر في أوائل البلوغ والتمييز معرفةُ اللـه سـبحانه، والميـل إلى الأمور الحسنة، والانزجار عن الأمـور السـيئة، ولأجـل ذلـك لاتـرى إنساناً ـ لم يقـع تحت تـأثير الأهـواء وعوامـل الانحـراف ــ يَعُـدُّ ردّ الامانة قبيحاً، والخيانة بها كرامة، كمـا لا يعـد العمـل بالعهـد أمـراً سيئاً، ونقضـه أمـراً حسـناً، وهكـذا الكثـير من الأمـور كالميـل إلى العفة والعدالة والإنزجـار عن الدناسـة والخيانـة.. وكـل ذلـك ممّـا يلمسه الإنسان في حياته ويعايشـه في وجدانـه، وقـد كشـف عنـه العلم الحديث وأيّده.

لكن هذه الغرائز ـ وإن كان بها قوام الحيـاة ــ قـد تخـرج عن فطريتهـا، وتحتـاج إلى تهـذيب وتزكيـة وتربيـة، مثلهـا مثـل الثلـوج المتراكمة على قمم الجبال إنما يمكن الإنتفـاع بهـا إذا كـان هنـاك جداول وقنوات تمتد من رأس كلّ جبل إلى السهول المحيطة بـه، فتسيل فيها مياه الثلوج الذائبـة بالتـدريج. وفي غـير تلـك الصـورة يسيل الماء كيف كان، جارفاً في طريقه الاحجار والصخور، وربمـا أنقلب إلى سيل جارف يدمّر كلَّ شيء أمامه.

وكذلك الفِصَـل المغروسـة، أو البـذور المنثـورة على الأرض، تحمـل في ذواتهـا قـوى واسـتعدادات، إلا أنَّ تفجُّر تلـك الطاقـات يحتــاج إلى من يتعهــدها حراســةً وســقايةً وعنايــةً على النحــو المأنوس، وعندها تصـير الفِصـل أشـجاراً مثمـرة، والبـذور سـنابل ذهبية.

فــإذا كــانت الإســتفادة من الثلــوج المتراكمــة على الجبــال، والفصـل المغروسـة والبـذور المنثـورة على الأرض، متوقفـاً على هداية خاصّة، حتى تصب في مجراها الصحيح، وتَرْشُـدَ على نهجهـا الطبيعي، فكذلك الأمـر في السـجايا الإنسـانية والغرائـز البشـرية الكامنة في وجود الإنسان، فإنها لن تعود عليـه بـالنفع والصـلاح إلا في ظل هداية تمنعها من الإفراط والتفريط، وتسيّرها في مـا هــو صالح البدن والروح.

وكمثال على ذلك غريزة الميل إلى عـوالم الغيبيـة، فـان لهـا جذوراً في عمق وجود الإنسان، ولم يزل كل انسان من صباه إلى كهولتــه ميّــالاً إلى تلــك العــوالم، شــغوفاً بحب الاطلاع عليهــا، والخضوع لها، لكن هذا الميل إذا لم يقع في إطار الهداية والتوجيه الإلهي، يسفّ بالإنسـان إلى الحضـيض، ويصـنع منـه عابـداً للحجـر والخشب والعجماوات، خاضعاً للشمس والقمر والنار.

لكنها إذا كانت تحت ظل هداية إلهية، تتجلى بمظهر التوحيـد، وأَنّ للعالم بأسره إلها واحداً أحداً عالماً، قادراً، محيطاً بكل شيء، جامعاً لكل صفات الكمال والجمال.

وهكـذا الحـال مـع الميـول الطبيعيـة، كالميـل إلى الـزواج والتسـلط على المناصـب والتكـاثر في الأمـوال، فلـو تـركت هـذه الغرائز من غير تهذيب، لتحـول الإنسـان إلى حيـوان ضـار، مـدمر لكل شيء بغية تحصيل المال والاستبداد بالمناصب.

وأما لـو كبح جماحهـا، وعـدّلت ميولهـا بهدايـة تحـدد مجاريهـا وتُرشد صاحبها إلى كيفيـة الإسـتفادة منهـا، لصـار موجـوداً عـاقلاً متكاملاً سعيداً في حياته، متآلفاً ومتآزراً مع سائر بني نوعـه، لبنـاء المجتمع الصالح.

وبناء على هاتين المقدمتين احتـاجت البشـرية إلى من يقـوم بهذه المهمـة؛ فالعقـل، مـع الإعـتراف بأنـه يضـيء الطريـق أمـام الإنسـان، ويأخـذ بيـده في المـزلاّت والمزالـق، إلا أنـه قاصـر عن مصارعة الغرائز المتفجرة وكبح ثورانها، فإن كـلَّ إنسـان يعلم من نفسه أن غرائـزه وميولـه الشـهوية إذا تفجـرت، لم تـترك للعقـل ضياءً ولا للفكر نوراً، بـل كـان مثـل العقـل حينـذاك مثـل الإنسـان المبصـر إذا وقـع في مهب الريـاح والزوابـع الرمليـة، فإنهـا تَكُـفُّ بَصَرَه عن الرؤية وتُعَرْقِل مسيرهُ.

وفي تلك الحالات، لا ينفـك العقـل عن خـداع صـاحبه لتـبرير عملـه، وإيجـاد الـذرائع لارتكابـه، بحيث لوكـان هـذا الإنسـان في موقف عادي خـال عن ذلـك الثـوران في العواطـف والغرائـز لمـا اعتنى بشي من تلك التسويلات، ولذلك لا تجد مجرماً يقوم بجنايـة

إلاّ وهو يلقي لنفسه الأعذار والتبريرات حين إقدامه عليها.

وكيثراً مـا يسـتهين الإنسـان في تلـك الحـالات ــ على فـرض التفاته إلى خطورة وقبح ما يقوم به ــ بمـا يـترتب عليـه من الـذم واللوم والعقاب، قضاءً لوَطره منه، وإشباعاً لشهوته ممّا يناله من اللذائذ المادية.

وأما رجالات الأخلاق والإجتماع، فمع أنّ لهم دوراً في تهـذيب النفوس ودفعها إلى الكمال، وكبح جماح غرائزها على الإجمال، إلا أَنّ عملهم لا يخلو عن نقائص ربما تَذْهَبُ بأعمالهم أدراج الرياح.

أمـا أولاً، فلأنَّ شـرط التربيـة، الوقـوف على رمـوز الخلقـة، والتعــرف على خصوصــيات من تــرجى تربيتــه. وليس لهــذه الشخصيات، العلم المحيط بخصوصـيات الإنسـان، لا لقلـة عملهم وضيق أَفكارهم، بل لعظمة الإنسان في روحه ومعنوياته، وغرائزه وفطرياته، وهو أشبه ببحر كبير لا يرى سـاحله، ولا يضـاء محيطـه. وقـد خفيت كثـير من جـوانب حياتـه ورمـوز وجـوده، حـتى لقُّب بـ (الموجود المجهول)

ويُصدِّق ضالة هذه المعرفة، تزايدُ الفساد وارتفاع نسـبته في أقطـار العـالم عـبر نفس المنـاهج التربويـة الّـتي تصّـوبها تلـك الشخصيات المرموقة في عالم التربية.

وأمـا ثانيـاً، فَلأن الحجـر الأسـاس لتـأثير التربيـة، أنْ يكـون المــربي إنســاناً كـاملاً وموجــوداً مثاليــاً، يتمتــع بســمو الأخلاق والملكات، فيجذب بها القلوب، ويشد إليها النفوس.

ومن المعلـوم أن واضـعي المنـاهج التربويـة في العـالم، وإن كانوا خبراء في مجـال تخصُّصِّـهم، إلا أنّهم فاقـدون لهـذا الشـرط الأساس، فهم يوصون ببسط العدل، وحمايـة المستضـعف، وتـرك الخمر والقمار، ومع ذلك هم مرتكبون لها، واقعون فيها.

ولا يشـذ عنهم إلا من كـان مراعيـاً للـدين متمسـكاً بأهدابـه، ولكن الفضل حيئنذ لا يعود إليه بل إلى صاحب الشريعة الّذي سَنَّ تلك البرامج والمناهج.

وأما ثالثاً، فلأن المناهج التربوية لا تـؤتي ثمارهـا إلا إذا كـانت منتسـبة إلى الخـالق سـبحانه، فـإنّ هـذا يمنحهـا ضـمان الإجـراء والتجسّـد في المجتمـع لارتباطهابعوامـل التشـويق إلى الثـواب والتحذير من العقاب، وإلا فلن تعـدو مجموعـة نصـائح شخصـية أو مدرسية، ما أسرع ما تتهاوى أمام ضربات معاول الشهوة الثائرة.

ومجمـوع مـا ذكرنـاه يـدلنا على أن مهمـة هدايـة الغرائـز والفطريات، الّتي تصنع من الإنسان موجوداً عارفاً بالنُّظُام، مؤمنـاً بالمناهج، مجرياً لها في ليله ونهاره، وسّـره وإعلانـه، لا تتم إلا بيـد رسل مبعوثين من جانب خالق البشر، بمناهج كاملـة أنزلهـا إليهم، وحفّهـا بـدوافع الطاعـة من المغريـات بـالثواب والمحـذّرات من العقاب.

2 ـ الأدلة العقلية الخاصة:

بنـاء على مـا سـبق؛ فقـد ظهـرت الحاجـة إلى البحث عن المصاديق الذين تتوفر فيهم الخصائص الكافية للقيام بهـذا الـدور، وطبعا فإن أي إنسان لا يمكنه أن يقبل ادعاءات الآخـرين بلا دليـل يثبتهـا، وإلا خـالف فطرتـه، كمـا قـال ابن سـينا: (من قبـل دعـوى المدعي بلا بيّنة وبرهان، فقد خرج عن الفطرة الإنسانية)

وبناء على هذه ظهرت الحاجة إلى وضع ضـوابط تحمي هـذه الوظيفـة الخطـيرة الـتي يتوقـف عليهـا فهم كـل حقـائق الوجـود وأنظمته وقوانينه وقيمه، ثم تطبيقها على جميع من يدعي النبــوة، لتمييز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل.

والفرق بين المؤمنين في هذا وبين غيرهم، هـو أن المؤمـنين التمسوا طرقا علمية للتحقيق، يوافق عليها العقل والفطرة، بينمـا راح الملاحد والربوبيون يحكمون حكما عاما على كل مدعي النبوة بناء على أخطاء وجدوها، وهذا خلاف ما يقتضيه المنهج العلمي.

ومن الضوابط التي وضعها العلماء لإثبات صحة النبوة:

أ ـ ادعاء النبوة:

فلا يكفي أن يكـون الشـخص مشـهورا أو عظيمـا في عيـون

الناس حتى نعتبره واسطة هداية من الله لعباده، بل يجب أن يقترن ذلك بادعائه لهذه الوساطة، لننظر بعدها في إمكانية توفره على شروط هذه الوساطة.

وهذا الضابط يخرج أكثر من عرفتهم البشرية من شخصيات عظيمة مشهورة، قد يتوهم أن لها دورا في تعريف الخلق بحقائق الوجود، أو هدايتهم إلى سننه ونواميسه.

فيخرج بهذا الضابط كل الملوك الجبابرة، وكل قادة الجيوش، وكل الحكماء والفلاسفة وكل الشعراء والأدباء، ذلك أنهم جميعا لم يدعو النبوة، ولم يذكروا أن ما جاءوا به من عند الله[1].

ب ـ الإتيان بالمعجزة:

وهو من الضوابط التي اتفقت عليها الفطر، ودل عليها العقل، وأثبتها القرآن الكريم، فقد ورد فيه النصوص الكثيرة الدالة على أن من معايير وضوابط تمييز النبي عن المتنبي تَجهّز المدّعي بالإعجاز، وإتيانه بخوارق العادة، متحدياً بها غيره على وجه لايقدر أحد على مقاومته، حتى نوابغ البشر.

ولأجل ذلك لمّا ادّعى صالح ــ عليه السَّلام ــ النبوّة، قوبل بجواب قومه: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: 154]، فأجابهم صالح ــ عليه السَّلام ـ لطلبهم، ولو كان طلبهم غير معقول لما أجابهم، فقد قال تعالى تعقيبا على الآية السابقة: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 155، 156]

وهكذا ذكر القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بتجهيزهم بالمعجزات عند طرحهم دعوى النبوة، قبل أن يطلبها الناس منهم، كما قال موسى عليه السلام مخاطباً فرعون: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ

[1] انظر (الرسالة المحمدية) للسيد سليمان الندوي.

رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الأعراف: 105]

وقد ورد في القرآن الكريم أن فرعون طالب بالبينة، وهو دليل على أن الفطر والعقول تقتضي ذلك، قال تعالى: قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [الأعراف: 106]

وهكذا أخبر الله تعالى عن المسيح ـ عليه السَّلام ــ أنه جاء بالمعجزات الدالة على صدقه، قال تعالى: وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: 49]

والمراد من المعجزة ـ كما عرفها المتكلمون ـ : (أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة) [1].

فالمعجزة ـ حسب هذا التعريف ــ أمر خارق للعادة، وليس خارقاً للعقل، فالمعجزة لا تضاد حكم العقل الباتّ، كاجتماع النقيضين وارتفاعهما، ووجود المعلول بلا علّة، وانقسام الثلاثة إلى عددين صحيحين، لأن هذه أمور يحكم العقل باستحالتها وامتناع تحققها، وإنما هي خارقة للقواعد العادية، أي أنّها تعدّ محالاً حسب الأدوات والأجهزة العادية، والمجاري الطبيعية.

وكمثال تقريبي على هذا ما جرت العادة عليه من أنّ حركة جسم من مكان إلى مكان آخر تتحقق في إطار عوامل وأسباب طبيعية بدائية أو وسائل صناعية متحضرة، ولكن لم تعرف العادة أبداً حركة جسم كبير من مكان إلى مكان آخر بعيد عنه، في فترة زمانية لا تزيد على طرفة العين، بلا تلك الوسائط العادية، ولكن هذا غير ممتنع عقلاً، إذ لا يمتنع أن تكون هناك أسباب أخرى لتحريك هذا الجسم الكبير، لم يقف عليها العلم بعد.

---

1) وقد عرّف المحقق الطوسي الإعجاز بقوله: «هو ثبوت ما ليس بمعتاد، أو نفي ما هو معتاد، مع خرق العادة ومطابقة الدعوى»، (كشف المراد ص 218، طبعة صيدا ـ 1353 هـ)

ومن الأمثلة على هـذا أنّ معالجـة الأمـراض الصـعبة كالسِّـل والعَمَى، أمر ممكن لذاته عقلاً، ولكنـه كـان أمـراً محـالاً عـادة في القرون السـالفة، لقصـور علم البشـر عن الوقـوف على الأجهـزة والأدوية الّتي تعيد الصحة إلى المسلول، والبصر إلى الأعمى، ومع تقدم العلم تـذلّلت الصعاب أمـام معالجـة هـذه الأمـراض، فصـار بإمكـان الطـبيب المـاهر القيـام بالمعالجـة عن طريـق الأدويـة والعمليـات الجراحيـة، وفي المقابـل هنـاك طريقـة أخـرى للعلاج، وهي الدعاء والتوسّل إلى الخالق تعالى.

والعلاج ـ بكلا الطريقتين ـ يشترك في كونه أمراً ممكنـاً عقلاً، غير أنّه يختلف في الطريقة الأولى عن الثانية، بالطريق والسـبب، فالطبيب الماهر يصل إلى غايتـه بـالأجهزة العاديـة، فلا يعـد عملـه معجزة ولا كرامة، والنبي ـ كالمسيح وغيره ـ يصل إلى نفس تلـك الغاية عن طريق غير عادي، فيسمى معجزة.

فالعمل في كلتا الصورتين غير خـارق لأحكـام العقـل، إلاّ أنّـه موافــق للعــادة في الأولى دون الثانيــة، ويقــاس على هــذا كــل معجزات الأنبياء عليهم السلام التي تتميز بكونها خارقة للعادة غير خارقة للعقل.

والقيد الثاني في التعريف هو ارتباط الإعجـاز بالـدعوى، فـإذا لم يرتبط بذلك لم يعتبر صاحبه نبيا، كمـا ذكرنـا ذلـك في الضـابط الأول، ويخرج بهذا الضابط الكرامات والخوارق الـتي أجراهـا اللـه على لسان أوليائه أو غيرهم.

والقيد الثاني في التعريف هو عجز النـاس عن مقابلتـه، وهـو يتحقــق بــدعوة النــاس إلى المقابلــة والمعارضــة، وطلب القيــام بمثله، وعجز الناس كلهم عن الإتيان بمثله.

وإلى كلا الأمرين أشير في التعريف بلفظ (التحدي)، ويـترتب على هـذا أنّ مـا يقـومُ بـه كبـارُ الاطبـاء والمخـترعين من الأمـور المعجبة، خارجٌ عن إطار الإعجاز، لانتفاء الأمرين فيهما. كما أنّ ما يقـومُ بـه السـحرة والمرتاضـون من الأعمـال المدهشـة، لا يُعَـدّ معجزاً لانتفائهما أيضاً، خصوصاً الأمر الثاني، لقيام المرتاض الثاني

بمثل ما قام به المرتاض الأول، بل بأعظم منه.

والقيد الرابع أن يكون عمله مطابقاً لـدعواه، فلـو خـالف مـا ادّعاه ما سمّي معجزة، وإن كـان أمـراً خارقـاً للعـادة، وذلـك كمـا حصل مع مسيلمة الكذّاب عندما ادّعى أنّه نبي، وآية نبوتـه أنّـه إذا تفل في بئر قليلة الماء، يكثر ماؤها: فتفل فغار جميع مائها، وأمَـرَّ يده على رؤوس صبيان بـني حنيفـة، وحنّكهم، فأصـاب القـرع كـلّ صبيٍّ مَسَحَ على رأسه، ولَثَغَ كُلُّ صبيٍّ حَنَّكَهُ(1).

ومن الشـبهات المرتبطـة بهـذا اعتبـار المعجـزة دليلا إقناعيـا الغرض منه أن يرضـي عامـة النـاس وسـوادهم ويجلب اعتقـادهم بصدق دعوى المدّعي، لا كونه دليلا عقليا منطقيا.

ويستدلّ هـؤلاء على مقـالتهم، بـأنّ الـدليل البرهـاني يتوقـف على وجود رابطة منطقية بين المّدَّعَي والدليل، وتلك الرابطة غير موجودة في هذا المحل، إذ كيف يكون خرق العادة وعجـز النـاس عن المقابلـة، دليلاً على صـدق المـدّعي في كونـه نبيّـاً وحـاملاً لشريعة إلهية، إذ لـو صـحّ ذلـك لصـحّ أن يقـال: إنّ قيـام الطـبيب بعمليـة جراحيـة بديعـة، دليـلٌ على صـدق مقالـه في المسـائل النجوميـة والفلكيـة. أو صـدق تخطيطاتـه السياسـية والاجتماعيـة. ومن المعلوم، انتفاء الرابطة المنطقية بينها.

ومن الانتقادات التي يمكن توجيهها لهذه الشبهة:

أولا ـ أننا عندما نلاحظ الأمور التاليـة، الّـتي يسـلمها صـاحب الشبهة نصل إلى الدلالة العقلية المنطقية للمعجزة، وهي:

1. أنّ الخـالق عـادلٌ لا يجـور، وحكيمٌ لا يفعـل مـا ينـاقض الحكمة.

2. أنّـه سـبحانه يريـد هدايـة النـاس، ولا يرضـى بضـلالتهم وكفرهم.

3. أنّ المعجزة إنّما تعدّ سـنداً لصـدق دعـوى النبـوة إذا كـان

---

1) لاحظ تفصيل هذه الوقائع في تاريخ الطبري، ج 2، ص 507.

حاملها صاحب سيرة نقية لم يُسَوِّدها شيء من الأعمال المشينة، و أن تكون شريعته مطابقة للعقل، وموافقة للفطرة. أو على الأقل، لا يرى فيها ما يخالف العقل والفطرة.

فلو انتفى الشرط الأول، بأن كانت سوابقه سيئة، لكفى ذلك في تنفر الناس عنه، ومثله لو انتفى الشرط الثاني، بأن كانت شريعته مخالفة للعقل والفطرة، لما تَقَبَّلها أصحاب العقول السليمة.

أمّا لو توفّر الشرطان فيه، فتتطاول إليه الأعناق، وتنقاد له القلوب، ولشرعه العقول، فيسلّمون ما يقول، ويطيعون ما أمر، وهنا نقول: لو كانت دعوة هذا المدّعي، صادقة، فإعطاؤه القدرة على الإتيان بالعجائب والخوارق، مطابق للحكمة الإلهية.

وأمّا لو كانت دعواه كاذبة، فإعطاؤه تلك القدرة، وتسخير عالم التكوين له، في تلك الظروف، على خلاف الحكمة، وعلى خلاف الأصل الثاني المتقدم أعني أنّه تعالى يريد هداية الناس، ولا يرضى بإضلالهم، وذلك لأنّه تعالى يعلم أنّ الظروف تُوجِدُ في الناس خضوعاً لهذا الشخص، فيكون إقداره على الاعجاز، مع كونه كاذباً، إغراءً بالضلالة، وصدّاً عن الهداية، والله تعالى حكيم لا يفعل ما يناقض غرضه وينافي إرادته، فأي دلالة منطقية أوضح من ذلك؟.

ولتقرير هذا في قالب القياس المنطقي، نقول: إنّه سبحانه حكيم، والحكيمُ لا يجعل الكون ولا بعضَه مُسَخَّراً للكاذب، فالله سبحانه لا يجعل الكون ولا بعضه مسخراً للكاذب. ولكن المفروض أنّ هذا المدّعي مُسَخِّر للكون، فينتج أنّه ليس بكاذب بل صادق.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنّه سبحانه أوجب على نفسه معاقبة النبي وإهلاكه إذا كذب على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: 44 - 47]

قال المحقق الخوئي ـ معلقا على الآية الكريمة ـ: (المراد

من الآية الكريمة أنّ محمداً الّذي أثبتنا نبوّته، وأظهرنا المعجزة لتصديقه، لا يمكن أن يَتَقَوَّل علينا بعض الأقاويل ولو صنع ذلك، لأخذنا منه باليمين، ولقطعنا منه الوتين، فإنّ سكوتنا عن هذه الأقاويل، إمضاءٌ منّا لها، وإدخال للباطل في شريعة الهدى، فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء، كما وجب علينا في مرحلة الحدوث)(1).

ثانيا ــ أن نَفْي الرابطة المنطقية بين الإتيان بالمعجزة وصدق الدعوى، أمر يحتاج إلى التحليل، فهو باطل على وجه، وصحيح على وجه آخر.

فإن كان المراد من قلب العصا ثعباناً ــ مثلاً ــ أنّه كالأوسط في القياس، دليلٌ على صدق ما يدّعيه النبي من أنّه سبحانه واحدٌ عالمٌ قادرٌ، ليس كمثله شيء.. فلا ريب في عدم صحته. إذ لا يمكن الإستدلال على صحّة هذه الأصول بالتصرف في الكون.

ولأجل ذلك لم يطرح القرآن أصول الإسلام مجردةً عن البرهنة، بل قَرَنَها بلطائف الدلائل والإشارات، يقف عليها كلُّ متدبّر في الذكر الحكيم، فَيَسْتِدلُّ في البرهنة على وجوده سبحانه بقوله: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 10] ، وفي البرهنة على وحدة المدبّر، بقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]، وفي البرهنة على إبطال ألوهية الأصنام، بقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: 3]، وفي إبطال ألوهية المسيح، بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: 75]، وغيرها من الآيات الكريمة.

وإنْ كان الُمرادُ أنّ خرق العادة الملموسة دليلٌ على أنّهم قادرون على خرق عادة أخرى غير ملموسة، وهي الإتصال بعالم

---

(1) البيان في تفسير القرآن، ص 36، الطبعة الثامنة، 1401 هـ ـ بيروت.

الوحي وكون إدراكات النبي خارجة عن إطار الإدراكات العادية المتعارفة، فهو صحيح.

ذلك أن الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ كانوا يواجهون في تبليغ رسالاتهم إشكالين عظيمين في أعين الناس:

أولهما: أنّهم كانوا يتخيّلون أنّ النبي المرسل من عالم الغيب، يجب أن يكون من جنس الملائكة، ولا يصحّ أن يكون إنساناً مثلهم، كما قال تعالى يحكي عنهم هذا الاعتراض: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10]

وكان الأنبياء يجيبون سؤالهم بأنّ المماثلة أساس التبليغ، والوحدة النوعية غير مانعة منه، لإمكان أن يتفضل فرد من نوع على فرد من ذاك النوع، فيكون الفاضل مُرْسلاً، والمفضول مُرْسَلاً إليه، كما قال تعالى يحكي عنهم هذا الجواب: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11]

وثانيهما: أنّ الإنبياء ـ عليهم السَّلام ـ كانوا يَدَّعون أنّهم يتلقون الأصول والمعارف والأحكام والفروع من الله سبحانه عن طريق الوحي، وهو إدراك خاص يوجد فيهم ولا يوجد في غيرهم، وليس من قبيل الإدراكات العادية الّتي يجدها كل إنسان في صميم ذاته من طريق الإبصار بالعين، والسمع بالأذن، والتفكّر والإستدلال بالعقل، وبذلك، فإن ادّعاء الإدراك عن طريق الوحي، إدعاءُ أمر خارق للعادة، لأن الإدراكات الإنسانية لا تخرج عن إطار الحسيّات والخياليات والعقليات.

وهذه الدعوى كانت تدعو أقوامهم إلى طلب شاهد يثبت لهم القدرة على خرق العادة، حتى يماثل ما يدّعون، وحتى يستدلّ بخرق عادة مرئية، على وجود نظيرها في باطن وجودهم، وصميم حقيقتهم.

ومن منطلق إجابة هذا الطلب، كان الانبياء يفعلون الخوارق،

ويأتون بالمعجزات، حتى يدللوا بذلك على تمكنهم من خرق العادة مطلقاً، سواء أكانت مرئية ــ كقلب العصا إلى الثعبان، وتسبيح الحصى ـ أو غير مرئية ـ كالإدراك غير المشابه للإدراكات العادية، الّذي هو الوحي، أو أنهم كانوا يستدلون بخرق العادة الملموسة، على غير الملموسة منها.

ج ـ النبوءات والبشارات:

وهي من الأدلة المعتمدة، التي يقر بها العقل، ذلك أنه إذا ثبتت نبوة نبي بدلائل مفيدة للعلم بنبوته، ثم نصّ هذا النبي على نبوة نبي لاحق يأتي من بعده، كان ذلك حجة قطعية على نبوة اللاحق، لا تقل في دلالتها عن المعجزة.

ذلك لأنّ النبي الأول، إذا ثبتت نبوته، ثبت كونه معصوماً عن الخطأ والزلل، لا يكذب ولا يسهو، فإذا قال ــ والحال هذه ــ: سيأتي بعدي نبي اسمه كذا، وأوصافه كذا وكذا، ثم ادّعى النبوّة بعده شخص يحمل عين تلك الأوصاف والسمات، يحصل القطع بنبوته.

ولا بدّ أن يكون الإستدلال بعد كون التنصيص واصلاً من طريق قطعي، وكون الأمارات والسمات واضحة، منطبقة تمام الإنطباق على النبي اللاحق، وإلا يكون الدليل عقيماً غير منتج.

ومن هذا الباب تنصيص المسيح على نبوة النبي الخاتم ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6]

وقد ذكرت التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في كتابي [أنبياء يبشرون بمحمد ﷺ]، وفيه النصوص الكثيرة الواردة في الكتاب المقدس، والتي تذكر الأوصاف الدقيقة لرسول الله ﷺ، والتي لا تنطبق إلا عليه، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146] بناءً على رجوع الضمير إلى النبي، المعلوم من القرائن، لا إلى الكتاب.

وقـال: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ [الأعراف: 157]

وقد آمن كثير من اليهود والنصارى بنبوة النبي الخـاتم ﷺ في حياته وبعد مماته، لصراحة التباشير الواردة في العهدين.

ونـرى أن هـذا النـوع من الأدلـة لـه من القـوة بحيث يمكن اعتباره من الأدلة الحسية ليس على نبوة النبي فقـط، وإنمـا على وجود الله أيضا، خاصة لأولئك الذين يطلبـون أدلـة حسـية واضـحة ودقيقة.

ذلك أن تبشير كتب قديمة لا تزال مخطوطاتها القديمـة قبـل رسول الله ﷺ موجودة، وفيها نصوص صريحة واضحة بالتبشير بـه والدعوة إلى اتباعه، دليل لا يمكن التغاضي عنه.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يحتجّ على اليهـود والنصـارى، بأنّـه قد بُشِّر به في العهدين، وأنّ الكليم والمسيح بشَّرا برسـالته، وأنّ أهل الكتاب لو رجعوا إلى كتبهم ــ حـتى بعـد التحريـف ــ لوجـدوا بشائره فيها، وتعرّفوا عليه، كتعرّفهم على أبنائهم.

كـان يحتجّ بهـذه الكلمـات، ولم يكن هنـاك أيّ ردّ من الأحبـار والرهبـان في مقابلـه، بـل غايـة جـوابهم كـان السـكوت وإخفـاء الكتب، وعدم نشرها بين أتباعهم.

ولو كان النبي ﷺ غير صادق ـ والعياذ بالله ـ في هذا الادّعـاء، لثارت ثورتهم عليه، ولملأوا الأجواء والطوامير بنقده وردّه، غير أنّ صراحة النبي ﷺ وصموده أمام علمائهم بشدّة، يكشف عن انهزام العدو أمام ذلك الادّعاء.

ومن تلك البشارات التي لا تزال موجـودة في كتبهم الحاليـة، ما ورد في إنجيل يوحنا في الإصحاحات: الرابـع عشـر، والخـامس

عشـر، والسـادس عشـر.. وهـذه نصوصـها من الإنجيـل الحـالي المترجم إلى اللغة العربية:

1 ـ (إِنّ كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد)(1).

2 ـــ (وأمّـا المُعـزِّي، الـروح القـدس الّـذي سيرسـله الأب باسمي، فهو يعلّمكم كل شيء، ويذكّركم بكل ما قُلتُه لكم)(2).

3 ـ (وَمتى جاءَ المُعَزِّي الّذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الّذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضاً لأنّكم معي من الابتداء)(3).

4 ـ لكني أقول لكم الحق، إنّه خير لكم أن أنطلق لأنّـه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّي، ولكن إنّ ذهبت أُرسله إليكم ومـتى جـاء ذاك يُبَكِّتُ العالم على خَطِيَّة وعلى بِرٍّ وعلى دينونة)(4).

5 ـ (وأمّا متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشـدكم إلى جميـع الحـق، لأنّـه لا يتكلم من نفسـه، بـل كـل مـا يَسْـمَع، يتكلّم بـه، ويخبركم بأُمور آتية)(5).

ووجـه الاسـتدلال يتوقـف على معرفـة كـون المسـيح عليـه السَّلام كان يتكلم العبرية، وكان يعـظ تلاميـذه بهـذا اللسـان، لأنـه وُلِد وشَبّ بين ظهرانيهم، وأُمُّه أيضاً كانت عبرانية، وقد ذكر جميـع المُؤَرِّخين أنّ الأناجيل الثلاثة غير متى، كتبت من أوّل يومها باللغـة

1) .إنجيل يوحنا، الأصحاح الرابع عشر: الجملتان 15 و16، ط دار الكتاب المقدس.

2) .إنجيل يوحنا، الأصحاح الرابع عشر: الجملة 26، ط دار الكتاب المقدس.

3) .إنجيل يوحنا، الأصحاح الخامس عشر: الجملة 26، ط دار الكتاب المقدس.

4) .إنجيل يوحنا، الأصحاح السادس عشر: الجملتان 7 و8، ط دار الكتاب المقدس.

5) .إنجيل يوحنا، الأصحاح السادس عشر: الجملة 13، ط دار الكتاب المقدس.

اليونانية، وأمّا إنجيل متى فكان عبرياً من أوّل إنشائه.

وعلى هذا، فالمسيحُ بَشَّر بما بَشَّر باللغـة العبريـة أولاً، وإنّمـا نقله إلى اليونانية، كاتب الإنجيل الرابع (يوحنا) وكان عليه التحفّـظ على لفظ المسيح في مورد المُبَشَّـر بـه، لأنّ القاعـدة الصـحيحة، عدم تغيير الأعلام، والإتيان بنصِّها الأَصلي، لا ترجمة معناهـا. ولكن (يوحنا) لم يراع هذا الأصـل، وترجمـه إلى اليونانيـة، فضـاع لفظـه الأصلي الّذي تكلّم به المسيح، وفي غِبّ ذلـك حصـل الإختلاف في المراد منه.

وأمّا اللفظ اليوناني الّذي وضعه الكاتب (يوحنا) مكان اللفـظ العبري، فهو مـردد بين كونـه (بـاراقْلِيطوس)[1] الّـذي هـو بمعـنى المُعَزِّي والمُسَلِّي والمُعين والوكيل، أو (بِرِيقْلِيطوس)[2] الّذي هــو بمعنى المحمود، الّذي يرادف أحمـد. ولأجـل تقـارب الكلمـتين في الكتابة والتلفظ والسماع، حصل التردد في المُبَشَّر بـه. ومُفَسِّـروا ومترجموا إنجيل يوحنا، يصـرّون على الأول، ولأجـل ذلـك ترجمـوه إلى العربية بـ(المعزّي)، وإلى اللغات الأُخرى بما يعادلـه ويرادفـه، وادّعوا أنّ المراد منه هو روح القـدس، وأنّـه نـزل على الحـواريين في اليوم الخمسين بعد فقدان المسيح.

ومع ذلك، فهناك قرائن تلقي الضوء على أنّ المُبَشَّـر بـه هـو الرسول الأعظم، لا روح القدس، ومنها.

1 ــ إنّ المسـيح بـدأ خطابـه إلى تلاميـذه بقولـه: (إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم (معزياً) آخـر، ليمكث معكم إلى الأبـد)، وهـذا الخطـاب يناسـب أن يكـون المُبَشَّر به نبيـاً، لأنّ المسـيح يحتمـل ــ في هـذا الكلام أن يتخلّـف عدّة منهم عن اقتفاء أثره ودينـه، ولـذلك أثـار عـواطفهم في هـذا المجال لئلا يتخلّفوا. ولو كان المـراد منـه روح القـدس لمـا احتـاج إلى تلك المقدمـة، لأنّ تـأثيره في القلـوب تـأثير تكويـني لا يمكن

---

1) في اليونانية هكذا: llAPAKAHTOE. وبالأفرنجية هكذا Paracletos.

2) في اليونانية هكذا llEPIKAHOTE. وبالأفرنجية هكذاPericletos.

لأحد التخلّف عنـه، ولا يبقى في القلـوب معـه شـكّ، وهـذا بخلاف تـأثير النـبي فإنّـه يـؤثر ببيانـه وكلامـه في القلـوب والأرواح، وهـو يختلف حسب اختلاف طبائع المخاطبين واستعدادهم.

ولأجل ذلك أصـرّ على إيمـانهم بـه في بعض خطاباتـه وقـال: (وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون)[1].

2 ـ إنّه وصف المُبَشَّر به بلفظ (آخـر)، وهـذا لا يناسـب كـون المبشر به نظير روح القدس لعـدم تعـدده، وانحصـاره في واحـد، بخلاف الأنبياء فإنّهم يجيئون واحداً بعد الآخر، في فترة بعد فترة.

3 ـ إنّه ينعت ذلك المبشر به بقوله: (لِيَمْكُثَ معكم إلى الأبد) وهذا يناسب نبوة النبي الخاتم الّتي لا تُنْسخ.

4 ـ إنّه يقول: (وأَمّا (المعزّي الروح القـدس) الّـذي سيرسـله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكّركم بكل مـا قلتـه لكم) وهذه الجملة تناسب أن يكون المبشر به نبيّـاً يـأتي بعـد فـترة من رسالة النبي السابق بعد أن تصـير الشـريعة السـابقة على وشـك الاضمحلال والاندثار. فيأتي النـبي اللاحـق، يـذكّر بالمنسـيّ ويزيـل الصدأ عن الدين.

وأمّا لو كان المراد هو روح القدس فقد نـزل على الحـواريين بعد خمسين يوماً من فَقْـد المسـيح، حسـب مـا ينصّ عليـه كتـاب أعمــال الرسل[2]. أفيظن أنّ الحــواريين نســوا في هــذه المــدة اليسيرة معالم المسيح وتعاليمه حـتى يكـون النـازل هـو الموعـود به؟!

5 ـ ويصف المسيح المبشر به، بقوله: (فهو يشهد لي). وهذه العبارة تناسب أن يكـون المبشـر بـه هـو النـبي الخـاتم حيث بُعِثَ مصدِّقاً للشرائع السابقة والكتب السالفة، وقـد أمـره سـبحانه أن يخاطب أهل الكتاب بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ آمِنُـوا بِمَـا

---

1) .إنجيل يوحنا، الأصحاح الرابع عشر: الجملة 29، ط دار الكتاب المقدس.

2) .أعمال الرسل، الأصحاح الأول: الجملة 5. والأصحاح الثاني: الجملات 1 ـ 4، ط دار الكتاب المقدس.

نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ)[1]، وغير ذلـك. ومن المعلـوم أنّ الرسـول الأكـرم شـهد برسـالة المسـيح، ونَـزَّه أُمَّه وابنهـا، عن كـل عيب وشين، وردّ كلَّ ما أُلصق بهما من جهلـة اليهـود من التهم التافهـة. وهذا بخلاف ما إذا فُسِّر بروح القدس، إذ لم يكن للمسيح يومذاك أي حاجة لشهادته، ودينُه وشريعتُه بَعْدُ غضّانِ طريّان.

6 ـ إنّه يقول: (لأنّه إن لم انطلق، لا يـأتيكم (المعـزي)، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم). وهـذا يناسـب أن يكـون المُبَشّـر بـه نبيـاً، حيث علّق مجيئه بذهابه، لأنّه جاء بشريعة عالمية، ولا تصحّ سـيادة شريعتين مختلفتين على أُمة واحدة.

ولو كان المُبَشَّر به هو روح القـدس، لمـا كـان لهـذا التعليـق معنى، لأنّ روح القـدس حسـب تصـريح إنجيلَيْ مـتى ولوقـا، نـزل على الحواريين عندما بعثهم المسيح للتبشير والتبليغ[2].

7 ـ ويقول: (ومتى جـاء ذاك يُبكّت العـالم على خَطِيَّة، وعلى بِرّ، وعلى دينونة...). وهذا يؤيّد أن يكون المُبشَّر به نبيّاً، إذ لو كـان المراد هو روح القدس، فهـو نـزل في يـوم الـدار على الحـواريين حسب زعمهم، فمـا وَبَّخ اليهـود الـذين لم يؤمنـوا بـه أصـلاً، لعـدم رؤيتهم إيّاه. ولم يوبخ الحواريين، لأنّهم كانوا مؤمنين به.

8 ـ ويقول: (ومتى جـاء ذاك، روح الحـق، فهـو يرشـدكم إلى جميع الحق، لأنّه لا يتكلم من نفسه، بـل كـل مـا يسـمع يتكلم بـه، ويخبركم بأُمور آتية).

وهذا يتناسب مع كون المُبَشَّر به نبيّاً خاتمـاً، صـاحب شـريعة متكاملة، لا يتكلم إلاّ بما يوحى إليـه، وهـذه كلّهـا صـفات الرسـول الأكرم محمد ـ ﷺ ـ.

فجميـع هـذه القـرائن تشـهد بوضـوح على أنّ المـراد من (المعزِّي) المُبَشّر به، هو النبي الأكرم لا روح القدس، ولـو أمعنت

1) .سورة النساء: الآية 47.

2) .لاحظ إنجيل متى: الأصحاح العاشر، الجملة الأُولى فما بعدها. وإنجيل لوقا: الأصحاح العاشر، الجملة 11، وفيها: (ولكن إعلموا هذا: إنّه قد اقترب منكم ملكوت الله).

النظر في سائر القرائن الّتي ذكرها المحقّقون من المسلمين في تفسير هذا اللفظ، لعالت القرائن.

هذا مجـرد نمـوذج لواحـدة من البشـارات، وهي كثـيرة جـدا، وهي موجـودة في العهـدين، وقـد ذكرنـا الكثـير منهـا مـع أدلتهـا والشواهد المثبتة لها في كتاب [أنبياء يبشرون بمحمد]

د ـ القرائن والشواهد:

وهي من الأدلـة المعتمـدة، الـتي يقـر بهـا العقـل، وهي مستعملة في المحاكم، ومعتَمَدٌ عليه في حَلّ الدعاوى والنزاعات، يسلكها القضاة في إصدار أحكامهم، ويسـتند إليهـا المحـامون في إبراء موكليهم خاصـة في المحـاكم الّـتي تفتقـد إلى القضـاء على الأيمان والبَيّنات.

وهذا الدليل يستدعي جمع كلّ القرائن والشواهد الّـتي يمكن أن تؤيّد دعوى المدّعي، أو إنكار المنكر، وضـمّها إلى بعضـها حـتى يحصل القطع بصحة دعواه أو إنكاره.

وقد اعتمد العلماء هذه القرائن في إثبات نبوة رسول الله ﷺ والتي يشهد لها كل شيء، كما ذكرنا التفاصيل الكثـيرة المرتبطـة بذلك في سلسلة [حقائق ورقائق]

ومن تلك القرائن المعتمـدة، والـتي يـدل التحقيـق فيهـا على صدق النبي من عدمه دارسة شخصية مدعي النبوة وتحليلها، فـإن كـان مـدّعي النبـوة صـادقاً أمينـا، يتحلى بروحيـات كماليـة عاليـة، وأخلاق إنسانية فاضلة، غير منكب على الدنيا وزخرفها، ولا طـالب للرئاسة والزعامة، لم ير له في حياته منقصة، ودناسة، بـل عـرف بكـل خلـق كـريم، واشـتهر بالنزاهـة والطهـارة.. فـإن كـل هـذه الصفات تدلّ على صـفائه في روحـه وباطنـه، وذلـك مـا يزيـد في حظ التأكد من صدقه في دعواه.

ومنها ما يتعلق بالبيئة التي ظهر فيها مدعي النبوة؛ فإن ظهر في مجتمـع أُمِّيٍّ، لا يعـرف الكتابـة، بعيـدا عن مظـاهر الحضـارة والتمدّن، ثم جاء بشـريعة تَحْمِـلُ الـدعوةَ إلى التعلّم ونبـذ الأميّـة،

وتشرّع القوانين الاجتماعيـة، والاقتصـادية بـل تحمـل في تعاليمهـا نظام الدولة والتقنين والقضـاء والروابـط السياسـية.. ويكـون في كل ذلك متناقضا مع البيئة التي عاش فيها، ومع المعـارف والنظم التي تؤمن بها.. كل ذلك يرجح دعواه بل يؤكدها.

ومنها ما يتعلق بمضمون الـدعوة الـتي جـاء بهـا؛ فـإذا كـانت العقيدة الّتي يحملها، والمعارف الّتي يـدعو إلى اعتناقهـا، معـارف تبحث في خالق الكـون وصـفاته وأفعالـه، وكـانت دعوتـه العمليـة مرشدةً إلى التحلّي بالمُثل الأخلاقية، والفضائل الإنسـانية، وناهيـةً عن الرذائــل النفســية وركــوبِ الشــهوات المنحرفــة والفســقِ والمجـونِ كـانت هـذه قـرائن على اتصـال دعوتـه بخـالق الكـون، ومبدء الخير والجمال.

ومنها ثباته على دعوته، فـإن كـان لا يبتغي صـاحبها شـيئاً من الأعــراض الماديــة، والمناصــب الدنيويــة، وكــان ثابتــا في طريــق دعوته، وتضحيته بنفسه وأعزّ أقربائـه في ذاك السـبيل، أكـد ذلـك كونه صادقا في دعـواه، فمـا كـان لـه أن يضـحي بكـل شـيء في سبيل لا شيء.

ومنها منهجه في تبليغ دعوته؛ فـإذا كـان اعتمـاده في دعوتـه على أسـاليب إنسـانية، موافقــة للفطـرة والطهـارة، فـإنّ لـذلك دلالات على إلهية دعواه.. وأمّا لو اعتمد في نشر وتبليغ مـا يدّعيـه على وسائل إجرامية، وأساليب وحشية غير إنسانية، كان هذا دليلاً على كون دعواه شخصية محضة، لا صلة لها بالعالم الربوبي.

ومنها دراسة نفسيات المؤمنين به، ذلـك أنّ أقربـاء المـدّعي وبطانته إذا آمنوا به، واتّبعوا دعوته، وبلغوا فيهـا مـراتب عاليـة من التقـوى والـورع، كـان هـذا دلاًّ على صـدق المـدعي في ظـاهره وباطنه، وعـدم التوائـه وكذبـه، لأنّ الباطـل لا يمكن أن يخفى عن الأقرباء والبطانة.

ومنها أمور أخرى كثيرة، كالثمار التي أنتجتها دعوته، والعلـوم التي خرج بها للناس، وهل تتوافق مع ما جاءت به العصول التاليـة أم لا.. وهل تأثر بمعارف عصره، ونقلها مع خطئها أم لا.. كل ذلـك

قرائن يمكن من خلالها التعرف على صدق الدعوى.

وهذه القرائن جميعا وغيرها إذا اجتمعت في مدّعي النبوة، ودعواه الّتي يدّعيها، كانت دليلاً قاطعاً على صدقه، فإنّ كلّ واحدة من القرائن، وإن كانت قاصرة عن إفادة اليقين، إلاّ أنّها بمجموعها تفيده.

ولعل أول من استعمل هذا الأسلوب في جمع القرائن قيصر الروم، ذلك أنه عندما كتب إليه الرسول ﷺ رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق دينه الّذي أتى به، أخذ ـ بعد استلامه الرسالة ـ يتأمّل في عبارات الرسول، وكيفية الكتابة، حتى وقع في نفسه احتمال صدق الدعوى، فأمر جماعة من حاشيته بالتجول في الشام والبحث عمّن يعرف الرسول عن قرب، ومطّلع على أخلاقه وروحياته، فانتهى البحث إلى العثور على أبي سفيان وعدّة كانوا معه في تجارة إلى الشام، فأحضروا إلى مجلس قيصر، فراح يسألهم قائلا: (أيّكم أقرب نسبا لهذا الرّجل؟ الذي يزعم- أنه نبيّ؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسبا، فقال: ادنوه مني، وقرّبوا أصحابه، فاجعلوهم خلف ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا الرجل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذّبوه، قال أبو سفيان: فو الله، لولا أن يؤثر عنّي الكذب لكذبت عليه ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه ملك قلت: لا، قال: فأشراف النّاس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدّ أحد منكم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر قلت: لا، ونحن الآن معه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها قال: فما كلّمني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصّدق والعفاف، والصّلة)

وبعد أن انتهى من أسئلته وتحقيق راح يذكر النتائج التي وصل إليها، فقال لترجمانه: (قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل تأسّى بقول قيل قبله، وسألتك: هل من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على النّاس، ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرّسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتّى يتمّ، وسألتك: أيرتد أحد منكم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرّسل لا يغدرون وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والزكاة والصّدق والعفاف والصلة، فإن كان ما تقول حقّا، فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنّه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه) [1]

---

1) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (11/ 353).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

كتب الحديث والسنة.

أولا ـ الكتب: وهي كثيرة جدا، منها:

1. أبجد العلوم، أبـو الطيب محمـد صـديق خـان القِنَّوجي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1423 هــ 2002 م.
2. الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش.
3. الإسلام في وجه الزحف الأحمر، محمد الغزالي.
4. الاسلام يتحدى مـدخل علمي الى الايمـان، وحيـد الـدين خـان، تعريب: ظفر الاسلام خان، مكتبة الرسالة.
5. الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي.
6. أقوى براهين د.جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، جمعه وعلق عليه م.أحمد حسن.
7. آلـة الموحِّدين لكشـفِ خرافـات الطبيعـيين، أبــو الفــداء ابن مسعود.
8. الإلحاد في الغرب، د. رمسيس عوض.
9. الإلحاد ووجود الله، أحمد محمد حسن وأحمد دعدوش.
10. الالهيـات على هـدى الكتـاب والسـنة والعقـل، تـأليف: الشـيخ جعفر السبحاني، بقلم: الشيخ حسن محمـد مكي العـاملي، مؤسسـة الامـام الصـادق عليـه السـلام، الطبعـة: السـابعة 1388.
11. تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم.
12. تهافت الفكر الاشتراكي، محمد عزت نصر الله.

13. تهافت الفكر الجدلي، الدكتور عبداللطيف الفرفور.

14. دراسات في علم اللاهوت، القمص بولس عطية بسليوس.

15. رحلة في قلب الإلحاد، أ. حلمي القمص يعقوب.

16. الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني، جابر حمزة فراج.

17. الرد على الملحدين العرب: د. هيثم طلعت علي سرور، دط، دت.

18. صانع الساعات الأعمى، لماذا تُظهِر أدلة التطوّر كوناً بلا مصمم، ريتشارد دوكينز،: (نيويوركَ: نورتون، 1996)

19. الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة، التويجري.

20. العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية، فرج الله عبد الباري.

21. علم الأديان مساهمة في التأسيس، ميشال، مسلان، ترجمة: عزالدين عناية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، ومنشورات كلمة.

22. العلم في منظوره الجديد، روبرت م.أغروس وجورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خالايلي، طبع سلسلة عالم المعرفة، ورقمه في السلسلة (134)

23. فمن خلق الله؟: نقد الشبهة الإلحادية [إذا كان لكل شيء خالق، فمن خلق الله؟] في ضوء التحقيق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي، د. سامي عامري، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، 2016.

24. القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي.

25. القرآن والملحدون، محمد عزة دروزة.

26. القس أنجيلوس جرجس، وجود الله وصور الإلحاد.

27. قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورَانت.

28. قلق في الحضارة، سيغموند فرويد، ترجمة، تحقيق: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر.

29. الله خالق الكون: دراسةٌ علميّةٌ حديثة للمناهج والنظريّات المختلفةِ حولَ نشأةِ الكونِ ومسألةِ الخالقِ ، جعفر الهادي، اشراف جعفر السبحاني، قم: موسسه الامام الصادق عليه السلام، 1424 ق. = 1382.

30. الله خالق الكون: دراسةٌ علميّةٌ حديثة للمناهج والنظريّات المختلفةِ حولَ نشأةِ الكونِ ومسألةِ الخالقِ، جعفر الهادي.

31. مذاهب فكرية معاصرة، عرض ونقد، الدكتور محمود مزروعة.

32. المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر.

33. المسلمون في الإتحاد السوفياتي لكاتبين فرنسيين هما (شانتال كلكجي، الكسندر بينيغسن) تعريب د. إحسان حقي.

34. مشكلة الشر ووجود الله: الرد على أبرز شبهات الملاحدة، د. سامي عامري، ونشر مركز تكوين للدراسات والأبحاث، عام 2016.

35. المعجم الفلسفي، جميل صليبا.

36. ملحدوث محدثون ومعاصرون، د. رمسيس عوض.

37. مُلحدون محدثون ومعاصرون، د. رمسيس عوض، مؤسسة الإنتشار العربي، 1998.

38. مناهج البحث عند مفكري الإسلام، علي سامي النشار.

39. موقف الاتجاه الفلسفي المعاصر من النص الشرعي، حسن بن محمد الأسمري.

40. مؤلفات الشيخ عبد الرحمن الميداني: ومنها صراع مع الملاحدة حتى العظم، وكواشف زيوف.

41. مؤلفات د.عبد الوهاب المسيري: ومنها الموسوعة اليهودية، والعلمانية الجزئية العلمانية الشاملة.

42. مؤلفات د. نور الدين أبو لحية، وخاصة سلسلة [الإلحاد والدجل]، وسلسلة [حقائق ورقائق]

43. مؤلفات عباس محمود العقاد: ومنها: أفيون الشعوب، وعقائد المفكرين في القرن العشرين.

44. مؤلفات محمد قطب حول العلمانية والمذاهب الفكرية المعاصرة.

45. مؤلفات هارون يحيى: ومنها خديعة التطوُّر، واحتضار منظومة الدجال الدارويني، والدّاروينية في الزّمن القديم، وغيرها.

46. نبوءة أينشتاين تتأكد.. رصد متزامن لموجات الجاذبية بين أميركا وأوروبا تنبأ بها قبل أكثر من 100 عام، هاف بوست عربي، رويترز.

47. نقد العقل الخالص النظري (المشهور بنقد العقل المحض)، عمانويل كانط.

48. هوامش على كتاب نقد الفكر الديني، الشيخ محمد حسن آل ياسين.

49. وجود الله وصور الإلحاد، القس أنجيلوس جرجس.

50. وهم الإله، دوكنز، ترجمة بسام البغدادي، دط، دت.

المقالات:

1. آخر حوار مع الدكتور عبدالرحمن بدوي، نعم.. عدت إلى الإسلام بعد اغتراب ستين عاماً، أجرى الحوار: صلاح حسن رشيد، مجلة الحرس الوطني.

2. الأسس اللا عقلية للإلحاد.. مشكلة مبدأ العالم نموذجاً، لعمرو بسيوني.

3. الأسس اللا عملية للإلحاد.. مشكلة معنى الحياة نموذجًا،عمـرو بسيوني.

4. الإلحاد المحض، د. محمد المـزوغي، مجلـة ذوات: 13 مـارس 2017.

5. الإيجابية والسلبية في نقد الفكر الديني، كمال يوسـف الحـاج ـ مجلة الفكر الإسلامي ـ العدد الرابع.

6. حـوار بعنـوان [مـع الإلحـاد من منظـور فلسـفي] مـع الـدكتور الطيب بـوعزة، حـاوره: مركـز نمـاء للبحـوث والدراسـات، بتاريخ: 7/19/2012.

7. الرد على كتـاب صـانع السـاعات الأعمى، والفصـل الرابـع من كتاب [وهم الإله] لريتشارد دوكنز، الدكتور فؤاد دمشقي.

8. رسالة في النزعة الإنسانية، مارتن هايدغر، ترجمة، مينة جلال، مجلة مدارات فلسفية، العدد السادس، صيف 2001.

9. سام هاريس والإلحاد والإيمان: رد على سام هاريس في كتابـه نهاية الإيمان.

10. عالم الفيزياء الملحد ستيفن هاوكنج وأفكاره الإلحادية الخياليـة في نظــر العلمــاء والمتخصصــين ـــ النظريــة M والأكــوان المتعــددة والجاذبيــة الخالقــة ـــ إعــداد فريــق البــاحثون المسلمون.

11. عالم فيزيائي بريطاني شهير يجـدد نفيـه وجـود خـالق للكـون، حميد كعواس، موقع هسبريس.

12. عبداللـه القصـيمي.. قصـة إلحـاد وحكايـة ملحـد، موقـع صـيد الفوائد، وغيرها.

13. الفراغ الكوني..القوة التي تحمي العالم، مجلة الثـورة، بتـاريخ: 13-8-2013.

14. الكون المتعدد، مجلة العلوم عدد يوليو 2012.

15. هل الدين مسبب حقيقي للحروب؟ وهل يخلو تاريخ الملحدين منها؟، موقع السوري الجديد.

16. هل يمكن للإله أن يكون شريرًا؟ محمود ماهر.

17. الوجه الآخر للعلم: ريتشارد دوكينز في ميزان العلم والعقل والمنطق والنفس والأخلاق، نشر موقع الباحثون المسلمون.

المواقع:

وهي كثيرة متفرقة، وخاصة المواقع والمنتديات الإلحادية، بالإضافة لما ينشر على شبكات التواصل الاجتماعي، والتي لا يمكن توثيقها أو ضبطها، فالمقال الواحد نجده في محال متعددة.